تمهيد

« السبب الوحيد لشقاء الانسان هو أنه لايعرف كيف يستقر هادئا فى حجرته » باسكال

أدب الرحلات

أرنولد فان جنب Arnold Van Gennep واحد من علماء الانثولوجيا والفولكلور الفرنسيين الذين عاشوا فى الربع الأخير من القرن الماضى والنصف الأول من هذا القرن (١٨٧٣ - ١٩٥٧) ونالوا شهرة عريضة وتركوا بصماتهم الواضحة على الدراسات الانثربولوجية والفولكلورية فى الخارج ، ولكنه لم يحظ بكثير من اهتمام الدارسين فى العالم العربى. وفيما عدا دراسة فى قمت بها منذ وقت طويل عن « الموت والشعائر الجنائزية فى مصر » استرشدت فيها بنظريته وآرائه فى تفسير تلك الشعائر لم يكد أحد يهتم به وبكتاباته بقدر ما أعرف على الأقل . وأغلب الظن أن الذين يشيرون الى اسمه فى كتاباتهم لم يقرأوا أيا من كتبه رغم أن بعضها مترجم الى كثير من اللغات .

فى عام ١٩٠٩ نشر فان جنب كتابا أحدث دويا بين علماء الاجتماع والانثولوجيا والفولكلور فى فرنسا ، ونعنى به كتاب « شعائر المرور » أو « شعائر الانتقال Rites de Passage » وذلك على الرغم من أن فان جنب

نفسه لم يكن فى الأصل أستاذا جامعيا ، وانما اشتغل موظفا حكوميا لبعض الوقت ، ثم عمل فى بعض المنظمات والمؤسسات الثقافية الفرنسية فى فترات أخرى ، كما قام بالتدريس لفترات قصيرة فى عدد من الجامعات غير الفرنسية وبخاصة فى نيوشاتل واكسفورد وكيمبردج . وقد خصص كتابه لدراسة موضوع طريف هو « رحلة الحياة » أو على الاصح المراحل التى يمر بها الفرد أثناء هذه الرحلة والشعائر والطقوس والممارسات التى تصاحب الانتقال من مرحلة لأخرى ، كما هو الحال مثلا فى الشعائر والطقوس الخاصة بالولادة (باعتبار الولادة عملية انتقال من رحم الأم الى هذا العالم بالنسبة للطفل الوليد ، وعملية انتقال من دور الشخص المتزوج الى دور الأب أو الأم بالنسبة للوالدين) وكذلك الشعائر المتعلقة بالمراهقة والزواج والوفاة . فهذه كلها مراحل هامة وفاصلة فى حياة الفرد ، وبخاصة فى المجتمعات التى تُعرف اصطلاحا باسم المجتمعات (البدائية)ينتقل فيها من مكانة اجتماعية معينة لمكانة أخرى مختلفة ، ويحتل بمقتضى الممارسات التى يخضع لها مركزا ووضعا اجتماعيا متميزا عن الوضع الذى كان يشغله من قبل ، بحيث تلقى عليه التزامات وواجبات ومسئوليات تختلف عن تلك التى كان يلتزم بها فى المرحلة السابقة .

وتعتبر الوفاة ذاتها بداية للمرحلة الأخيرة فى رحلة الحياة الدنيا ، تمهيداً للدخول الى عالم آخر وحياة أخرى ومجتمع مختلف ، هو مجتمع الأسلاف الذى يعتبر لدى كثير من الشعوب امتدادا طبيعيا لمجتمع الأحياء . ويصاحب هذا الانتقال من مرحلة لأخرى نسق من الشعائر والطقوس التى تهدف الى تسهيل انفصال الفرد ، او على الأصح انتزاعه من المرحلة السابقة وإلحاقه بالمرحلة الجديدة ودمجه فى المجتمع الجديد .

هذا معناه أن الانتقال أو المرور من مرحلة لأخرى يستغرق بعض الوقت ويتم ـ حسب مايقول فان جنب ـ على ثلاث خطوات متكاملة : فى الخطوة الأولى ينفصل الفرد عن بيئته القديمة وعن مستواه الاجتماعى القديم ، ويكون ذلك عن طريق ممارسة شعائر خاصة يطلق عليها اسم شعائر الانفصال Rites de Separation وبهذا الانفصال تبدأ الخطوة الثانية وهى عبارة عن فترة زمنية يختلف طولها من مجتمع لآخر ويكون الفرد فيها فى « حالة محايدة » أو « وضع محايد » ولايتمتع أثناءها بأية مكانة اجتماعية محددة بالذات ويخضع لكثير من القيود على علاقاته الاجتماعية ، وكثيرا مايحرم الاتصال بغيره من الناس الا حسب شروط وقواعد يحددها المجتمع ، ولذا تعرف هذه الفترة بالفترة الهامشية ، كما تعرف الشعائر والطقوس والقيود التى تمارس عليه باسم الشعائر الهامشية Rites de Marge وذلك على اعتبار أن الفرد يعيش أثناء تلك الفترة على هامش المجتمع والحياة الاجتماعية . ثم تأتى الخطوة الثالثة التى يتم بها ادخال الفرد الى بيئته الجديدة والى المستوى الاجتماعى الجديد عن

طريق ممارسة شعائر خاصة يطلق عليها فان جنب اسم شعائر الدخول أو شعائر الاندماج في المجتمع Rites d' agrég ation

وقد اعتمد فان جنب في بناء نظريته على المعلومات الاثنوجرافية الكثيرة التي كانت متوفرة في ذلك الحين عن عدد كبير من المجتمعات والقبائل (البدائية) . ولكنه لم يكتف بمقارنة هذه المعلومات أو تصنيفها وتحليلها وانما كان يحاول طيلة الوقت أن يصل الى تفسير اجتماعي مقبول لمعنى تلك الشعائر والطقوس ووظيفتها الاجتماعية ومدى امكان الافادة منها في فهم وتفسير عمليات الحياة الكبرى ، او كما يقول فهم وتفسير « طبيعة الحياة » ذاتها وما تتميز به من استمرار رغم كل التحولات والتغيرات الظاهرية . فشعائر المرور أو شعائر الانتقال ليست في آخر الأمر الاشعائر وطقوسا وممارسات ترمز الى الموت ثم العودة الى الحياة من جديد . وانفصال الفرد من مجتمعه أو بيئته الأصلية ومركزه الاجتماعي المحدد هو نوع من الموت الذي تعقبه فترة هامشية قبل أن يولد ذلك الفرد من جديد ، أو تعود اليه الحياة في شكل جديد يتمثل في المكانة الجديدة التي يحتلها والالتزامات والواجبات والحقوق الجديدة التي تناط به . انها قصة تجديد الحياة ذاتها ، او أنها نوع من التمثيل الرمزي للموت والولادة الجديدة ، ولتجديد الحيوية التي تكمن في المجتمع والتي يحتاج اليها كل تجمع انساني حتى يمكنه الاستمرار في الوجود .

من بين هذه المراحل الثلاث اهتم فان جنب اهتماما خاصا بالمرحلة الوسطى او الهامشية التي هي في جوهرها حركة أو نقلة أو (رحلة) بين حالتين من الثبات والاستقرار . وقد أبرز ما يكتنف هذه (الرحلة) من مخاطر وشدائد وأهوال يعاني منها الفرد في المحل الأول كنتيجة مباشرة لعدم انتمائه الى أي (جماعة) محددة واضحة المعالم ، وعدم تمتعه بمركز اجتماعي معين ، وعدم قيامه بوظيفة أو دور اجتماعي معلوم . ولكن في الوقت ذاته يكون هذا الفرد نفسه مصدر خطر وشر وأذى للآخرين ، ولذا لايكاد الناس يقربونه إلا في ظروف معينة وحسب قواعد واجراءات محددة ، وبذلك فانه يعتبر (تابو) في نظر المجتمع . فهو لا يخضع لقوانين المجتمع وتقاليده المتعارف عليها والتي تسري على بقية أعضاء المجتمع في حياتهم اليومية العادية ، أو كما يقول صولون كيمبول Solon Kimball في مقاله عن فان جنب في « الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية » ان الفرد في هذه المرحلة الهامشية يكون خارج دائرة التحكم المألوف » ولذا فان من مصلحة المجتمع ككل فضلا عن مصلحة الفرد ذاته أن تنتهي هذه المرحلة عن طريق العمل على دخول الفرد الى المرحلة الأخيرة واندماجه في وسطه الجديد وممارسته بالتالي للدور الاجتماعي الذي يتلاءم مع ذلك الوسط ومكانته الخاصة فيه . وقد حرص فان جنب على أن يختبر صحة هذه النظرية فيما بعد بتطبيقها على المجتمع الاوربي المتقدم الحديث وبخاصة المجتمع الفرنسي . وشغله هذا الموضوع مايزيد على ربع قرن وكانت النتيجة هي ظهور مؤلفه الضخم عن

الفولكلور الفرنسى Manuel de Folklore Francais Contemprain وقد صدر من هذا المؤلف حتى موت صاحبه ثلاثة أجزاء فى تسعة مجلدات ، يهمنا منها الجزء الاول الذى يقع فى مجلدين بعنوان « من المهد الى اللحد Du berceau à la Tombe ففى هذين المجلدين يتابع فان جنب (رحلة) الفرد خلال الحياة والمراحل التى يمر بها ، وبخاصة فى الريف الفرنسى ، وشعائر المرور التى تصاحب هذه النقلة من مرحلة لأخرى . ولكنه يهتم على أية حال فى بقية مجلدات الكتاب بدراسة تغيرات الحياة بمظاهرها المختلفة . فالحياة كلها رحلة أو عملية حركة وتغير تتقلب أثناءها كل الظواهر بين الحياة والموت والعودة الى الحياة مرة أخرى فى شكل جديد . وهذه على أية حال (نغمة أساسية) تناولها بالعرض والدراسة كثير من الكتاب والانثربولوجيين بالذات قبل فان جنب . ويدور حولها عدد من الكتب الهامة مثل كتاب سير جيمس فريزر « الغصن الذهبى » (راجع مقدمتنا للترجمة العربية) . ولكن فان جنب لم يكتف بالوصف أو التفسير التاريخى ، وانما وضع نظرية انثربولوجية متكاملة فى ذلك . فالانسان جزء من الطبيعة ومايصدق على الطبيعة يصدق على الفرد . وثمة مبدأ واحد يحكم تغير الطبيعة بفصولها الأربعة ،ويغير حياة الفرد وانتقاله من حالة لأخرى خلال (رحلة) الحياة ، كما يحكم الطقوس والشعائر التى تصاحب هذه التغيرات . وليس المهم هنا هو محتوى الشعائر والطقوس ، وانما المهم هو التشابه فى بنائها رغم كل ماقد يكون هناك من اختلافات فى العناصر والمكونات . ولكن على الرغم من كلامه عن (بناء) نسق الشعائر فانه كان يركز تركيزا قويا وواضحا على خاصة التغير اكثر مما كان يهتم بحالة الثبات والسكون . ومن هنا كان اهتمامه بالرحلة (الماشية) التى هى فى جوهرها مرحلة وانتقال و(رحلة) بكل مايصاحب هذه (الرحلة) من متاعب واخطار وأهوال .

والواقع أن مدخل فان جنب لدراسة « شعائر المرور » كان عن طريق فحص المعلومات الاثنوجرافية المتعلقة بالاجراءات والمراسيم التى يتبعها (البدائيون) وبخاصة سكان استراليا الاصليون اثناء الرحلة والسفر والانتقال من مكان لآخر عبر الغابات والادغال الموحشة ،وما يتعرض له المسافر اثناء ذلك من أخطار ، والاحتياطات التى يتخذها هو نفسه والجماعة التى ينتمى اليها لتأمين سلامته . فهناك أولا الترتيبات الكثيرة المعقدة المتعلقة بالاعداد للرحلة والتى تتمثل ليس فقط فى اختيار نوع المتاع الذى سوف يحمله معه ، بل وايضا نوع الطعام والشراب الذى يجب عليه تناوله ، وما يسبق ذلك كله من استشارة المتنبئين ورجال الدين لتحديد الوقت الملائم للقيام بالرحلة عن طريق رصد النجوم ومواقعها أو غير ذلك من الوسائل التى تؤلف جزءا هاما من النسق الدينى والسحرى لدى معظم القبائل (البدائية) . ثم هناك الرسائل والهدايا التى سوف يحملها المسافر معه ، والتمائم التى يتزود بها ، ثم هناك أخيرا خروج الجماعة لتوديعه حتى حدود المجتمع المكانية ، والطقوس الدينية التى يتم بها ذلك

التوديع وبخاصة البكاء المتبادل ساعة الفراق . وينظر فان جنب الى هذه الممارسات من الناحية الشعائرية البحتة ويعتبرها رموزا تشير الى انفصال المسافر عن الجماعة التى ينتمى اليها ، وشعور المجتمع بالألم لفقدان أحد أعضائه ، ومن هنا يطلق فان جنب على هذه المرحلة اسم مرحلة الانفصال ، وعلى الاجراءات والترتيبات والممارسات التى تصاحبها اسم شعائر الانفصال ، على ماذكرنا .

وبخروج المسافر من ديار قبيلته وابتعاده عن حدودها المكانية تبدأ (الرحلة) الحقيقية التى يقطع المسافر خلالها مسافات طويلة تحت ظروف مناوئة ومعادية ، ويعانى خلالها كثيرا من المتاعب والمشاق من جراء طبيعة البيئة الجغرافية القاسية والتعرض للخطر من الحيوانات المفترسة أو هجمات سكان المناطق التى يمر بها . وبعض هذه المناطق تسكنها أقوام يمارسون قنص الرؤوس وربما جزوا الشخص الغريب دون التأكد من هويته على اعتبار أن كل غريب مجهول ومصدر للخطر والأذى . ولذا كان لابد للمسافر نفسه ازاء ذلك من أن يتحوط عالقد بصيبه وان يكون طيلة الوقت على أهبة الاستعداد ليس فقط للدفاع عن نفسه ودرء الأخطار التى قد تحيق به ولكن أيضا للبدء بالهجوم والاعتداء على كل ما يصادفه ومن يقابله . فهو اذن مصدر خطر لنفسه وللآخرين اثناء الرحلة ، وبذلك تنطبق عليه أهم خصائص (التابو) وهذه هى المرحلة التى يطلق عليها فان جنب اسم المرحلة الهامشية التى تمتد منذ يترك المسافر أرض قبيلته الى أن يصل الى أرض الجماعة او القبيلة التى يقصدها . وأثناء هذه الفترة كلها يفقد المسافر تماما كيانه ومقوماته وشخصيته الاجتماعية والقبلية ويصبح مجرد (فرد) مجهول الأصل والهوية والانتماء القبلى والاجتماعى . وبذلك يكون دمه حلالا ومباحا للآخرين وذلك فى الوقت الذى يستحل هو نفسه دماء هؤلاء الآخرين للدفاع عن نفسه والابقاء والمحافظة على حياته .

ومع ذلك ، فحين يصل المسافر الى حدود موطن الجماعة التى يقصدها فانه لايسمح له بالدخول الى أرض القبيلة ، مباشرة وبخاصة اذا كانت هذه هى المرة الأولى التى يقوم بها بمثل هذه الزيارة ، وانما يبقى فترة من الزمن على حدود ذلك الموطن قبل أن يؤذن له بالدخول . وأثناء هذه الفترة يوضع المسافر الغريب تحت الملاحظة الدقيقة ، اذ يراقب افراد المجتمع سلوكه من بُعد حتى يتأكدوا من حسن نواياه . وأنه لن يكون مصدر خطر أوتهديد للمجتمع ، فيخرج ممثلون عن الجماعة لاستقباله ، ويمارس بعض الشعائر والطقوس التى تختلف من قبيلة لأخرى ولكنها ترمز كلها فى آخر الأمر الى استعداد تلك الجماعة لقبوله بينهم ، اذ يتبادلون الهدايا معه ويشتركون جميعا فى تناول الطعام أو الشراب من اناء واحد ممايعنى قيام علاقة جديدة من (الأخوة الاجتماعية) بينهم وبذلك يتم اندماج الوافد الجديد فى المجتمع .

ومع أن فان جنب يهتم فى كتابه « شعائر المرور » بالمجتمعات البدائية فان نظريته تصدق على مايحدث فى المجتمع الحديث فيما يتعلق بأمور الرحلة والسفر ، وان كان التمييز بين تلك المراحل الثلاث ومايرتبط من شعائر بكل مرحلة لم يعد على نفس الدرجة من الوضوح التى نجدها فى المجتمعات (البدائية) . فهناك أولا الاستعداد للرحلة بكل مايستلزمه ذلك من ترتيبات معقدة يدخل فيها رسم خط السير والمناطق التى ينوى المسافر زيارتها وترتيب المواعيد بدقة والحصول على التأشيرات اللازمة وحجز تذاكر السفر وحجز الفنادق وما الى ذلك ، وهى كلها (شعائر) تعتبر شروطا هامة للبدء فى الرحلة و (الانفصال) ولو مؤقتا عن المجتمع . ثم تأتى « المرحلة الهامشية » التى تتمثل فى الرحلة ذاتها والتى لاتخلو من احتمال التعرض للأخطار ـ كما أن المسافر يخضع أثناءها ـ وبخاصة الرحلات الطويلة لقيود واجراءات تختلف عن تلك التى يخضع لها فى حياته العادية مثل مواعيد الطعام بل وألوان الطعام ذاته . كما أنه يتحتم عليه ان يراعى بعض القواعد الخاصة بتوفير الأمان والسلامة له ولغيره من المسافرين ، ثم تأتى فى آخر الأمر مرحلة وشعائر الاندماج التى تتمثل فى أبسط مظاهرها فى (شعائر) واجراءات الجوازات والجمارك حين يصل الى (المجتمع الجديد) وذلك قبل أن يؤذن له بالدخول ويمنح حق الاقامة . فالمحتوى اذن يختلف عما يحدث فى المجتمعات البدائية ولكن الأساس واحد أو (البناء) متماثل رغم كل الفوارق فى المستويات الحضارية والثقافية .

وعلى الرغم من كل ماقاله فان جنب عن الرحلات ، سواء فى ذلك الرحلات عبر المكان كما تتمثل فى الانتقال من قبيلة لأخرى ، او من مجتمع لآخر أو الرحلات عبر الزمان كما تتمثل فى مراحل العمر ودورة الحياة وتقلبات الظواهر الكونية والطبيعية فان كتابه لايدخل فى أدب الرحلات . وعلى أى حال فإن أرنولد فان جنب شأنه فى ذلك شأن كل علماء المدرسة الفرنسية فى القرن الماضى واوائل هذا القرن ، لم يقم بأية رحلة علمية اودراسة ميدانية وان كان ذلك لم يمنع هؤلاء العلماء من أن يصوغوا نظريات احتلت مكانة مرموقة فى الفكر الاجتماعى ، معتمدين فى ذلك على المعلومات الاثنوجرافية ، التى قام بجمعها الرحالة والمبشرون . والغريب فى الأمر أن علماء الانثربولوجيا اللذين يعتبرون الدراسة الميدانية فى المجتمعات البدائية عنصرا جوهريا فى البحث الانثربولوجى يتميزون به عن غيرهم من المتخصصين فى العلوم الانسانية والاجتماعية والذين تحملهم بحوثهم على هذا الاساس الى مناطق بعيدة نائية فى العالم ، لايهتمون بتسجيل رحلاتهم ويقنعون بدراسة وتحليل وتفسير الأنساق الاجتماعية والأنماط الثقافية فى تلك المجتمعات ، وغالبا ماتأتى كتاباتهم على درجة عالية من التجريد الذى يكاد يقطع الصلة بينها وبين الواقع المشاهد الملموس . وحتى فى الحالات التى يعرض فيها الباحث الانثربولوجى لبعض ذكرياته اثناء الدراسة الحقلية فانه يفعل ذلك فى الاغلب لكى يبين نوع

الصعوبات التى يلقاها الباحث الانثر بولوجى أثناءالدراسة ، والطريقة التى امكنه أن يذلل بها الصعوبات ، أى أن اهتمامه بهذه الذكريات هو اهتمام (منهجى) ان صح هذا التعبير . ومن هنا فان الكتابات الانثربولوجية التى تعتمد على البحث الميدانى والدراسة الحقلية لاتعتبر هى أيضا من أدب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كانت هناك بعض الاستثناءات بغير شك .

وأحد تلك الاستثناءات الهامة هو كتاب « المناطق المدارية الحزينة Tristes Tropiques » (١٩٥٥) أو « الآفاق الحزينة » كما يعرف فى الكتابات العربية : وهو نوع من السيرة الذاتية لعالم الانثربولوجيا الفرنسى الشهير كلود ليفى ستروس Claude Levi — Strauss عن طريق وصف الرحلات التى قام بها . ومن المفارقات أن ليفى ستروس يلتزم - فيما يتعلق بالدراسة الحقلية بأصول المهنة التى تقتضى من الباحث الانثربولوجى أن يعيش بصفة مستمرة فى مجتمع الدراسة لمدة سنة كاملة على الأقل . ومعظم الباحثين أمضوا عامين كاملين ، بل أن الاستاذ برونيسلاف مالينوفسكى أمضى فى جزر التروبر أربع سنوات حتى يمكنه التغلغل الى أعماق نظمهم الاجتماعية وانماطهم الثقافية . أما ليفى ستروس فانه لم يكن يمضى فى أى مجتمع من المجتمعات التى زارها سوى أسابيع قليلة . وهو على أية حال يعترف صراحة فى مطلع كتابه بكراهيته للرحلات ونفوره من السفر اذ يقول :

« أنى أمقت السفر والمستكشفين . ومع ذلك فانى أعتزم أن أعرض هنا قصة رحلاتى الدراسية . ولقد اقتضى اتخاذ هذا القرار منى وقتا طويلا . فلقد انقضت خمس عشرة سنة منذ تركت البرازيل لآخر مرة ، وضعت خلالها خططا كثيرة لهذا العمل الذى بين أيدى القراء ، ولكن فى كل مرة كان يداخلنى شىء من الخجل ويتنابنى بعض الاشمئزاز مماكان يمنعنى عن أن أبدأ العمل . وكثيرا ما كنت أسائل نفسى عن السبب الذى يحدونى أن أعرض بالتفصيل لكل تلك الظروف العابرة والأحداث التافهة التى مررت بها . فالمخاطرة لاتؤلف عنصرا جوهريا فى العمل الانثربولوجى . وانما هى بالأحرى أحد تلك المعوقات التى لايمكن تجنبها ، والتى تصرف الباحث العالم عن عمله الجدى المفيد وتتسبب فى ضياع كثير من الوقت بغير طائل . فهناك تلك الساعات الطويلة من الملل والتبلد التى تضيع سدى حين يختفى الاخباريون والمرشدون ، وهناك فترات الجوع والتعب وربما المرض ، وهناك دائما آلاف الأعمال التافهة الرتيبة الكئيبة التى تلتهم الايام بغير جدوى أو هدف ، وتجعل الحياة المثيرة فى قلب الغابات البكر شيئا أقرب الى الخدمة العسكرية . . . والواقع أن الجهد والمال اللذين ينفقان من أجل الوصول الى موضوع البحث والدراسة لن يضفيا أية قيمة الى مهنة الانثربولوجى ، ويجب أن تنظر اليها من الناحية السلبية البحتة

فالوقائع والحقائق التى نبحث عنها فى تلك المناطق البعيدة النائية لن يكون لها أية أهمية الا حين نفصلها عن كل تلك الشوائب والنفايات . فقد يتحمل الباحث مشقة شهور من السفر والارهاق والملل القاتل لكى يسجل (فى ايام قليلة او حتى فى ساعات محدودة)احدى الأساطير التى لم تكن معروفة من قبل ، أوقاعدة جديدة من قواعد الزواج ، او قائمة كاملة من أسماء الافراد والعشائر ، ولكن هل يستحق هذا من الباحث عناء تناول القلم لكى يدون بعض الشذرات الواهية من الذاكرة وبعض الذكريات الشاحبة على النحو التالى : «فى الساعة الخامسة والنصف صباحا دخلنا ميناء ريسيف وسط صيحات طيور النورس العالية ، بينما كان أسطول كامل من القوارب المحملة بالفواكه المدارية يقترب ويتجمع حول الباخرة » ومع ذلك فان هذا النوع من السرد يحظى بدرجة عالية من القبول الذى لاأستطيع أن أفهمه . فالأمازون والتبت وافريقيا تملأ الآن المكتبات فى شكل كتب الرحلات ووصف الحملات العسكرية ومجموعات الصور التى تهدف كلها الى التأثير فى القارىء ، لدرجة أن يصبح من المستحيل عليه أن يعرف القيمة الحقيقية للبيانات والمعلومات التى أمامه . وبدلا من أن تستثير هذه الأعمال ملكة النقد لدى القارىء نجده يطالب بالمزيد من تلك التفاهات الضحلة ويبتلع كميات هائلة منها . لقد أصبح الاستكشاف الآن نوعا من التجارة التى تهدف ليس الى اظهار بعض الحقائق التى كانت مجهولة من قبل ، وذلك عن طريق البحث والدراسة الطويلة المضنية ، بقدر مايهدف الى قطع مسافات شاسعة من الارض وتجميع عدد ضخم من الشرائح والصور المتحركة التى يستحسن ان تكون ملونة حتى تجتذب اكبر عدد من المستمعين الى المحاضرات ولأطول فترة ممكنة . . . »

ورأى ليفى ستروس فيه قدر كبير من الصحة والصدق بغير شك . فالملاحظ على العموم أن أدب الرحلات قد تراجع الى حد كبير عما كان عليه فى العصور السابقة وحتى اوائل هذا القرن ، وذلك على الرغم من أن العصر الحالى يعتبر بحق عصر الرحلة والسفر نظرا للامكانات والتسهيلات الهائلة فى هذا المجال ، بحيث أصبح السفر جزءا من الحياة العادية للرجل العادى بعكس ماكانت علية الأوضاع فى الماضى . فالرحالة الأوائل القدامى كانوا من أدباء وفنانين ومؤ رخين وجغرافيين ومكتشفين ومبشرين ولذا جاءت كتاباتهم فى الاغلب سجلا وافيا ودقيقا وعميقا عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التى زاروها ومظاهر سلوكهم وعوائد هم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، وتقويما لانجازاتهم فى مختلف ميادين الثقافة ، ولم تكن مجرد سرد وصفي لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التى مرت بهم اثناء ذلك ، وهذا يصدق على المؤ رخين والجغرافيين اليونانيين مثل هيرودوت وسترابون وباوسانياس ،

مثلما يصدق على الكثير من الرحالة العرب والمسلمين الذين تركوا لنا دراسات عميقة تكشف عن درجة عالية من القدرة على الملاحظة الدقيقة والتحليل ، كما هو الحال فى رحلات ابن فضلان مثلا ، او كتاب البيرونى « تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل او مرذولة » كما يصدق على كثير من كتب الرحلات التى تركها لنا الاوربيون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتى سجلوا فيها ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن حياة عدد من الشعوب (البدائية) التى زاروها ، وان لم تخل تلك الكتابات من التحيز للثقافة الاوربية والحضارة المسيحية ، فضلا عن اغراق بعضها فى التخيلات والمبالغات والافتراء والاحكام غير الدقيقة ، ولكن بعض هذه الكتابات كانت تلتزم الجد والواقع فى الوصف والتحليل مثلما فعل آندروباتل Andrew Battel مثلا عن سكان الكونجو ، أو ماكتبه القسيس اليسوعى البرتغالى جيروم لوبوJerome Loboعن الاحباش فى كتابه « رحلات بتكرتون » الذى ترجمه دكتور جونسون فى اوائل القرن التاسع عشر الى الانجليزية ، ويقول عنه انه « أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف فى أن يصف الاشياء كما رآها وأن يصور الطبيعة من واقع الحياة ذاتها كما انه يعتمد على حواسه وليس على مخيلته » . بل ان بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كانوا يعقدون كثيرا من المقارنات بين ثقافات الشعوب البدائية والثقافات والحضارات القديمة العريقة مثلما فعل الأب لافيتو فى مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهنود الحمر من ناحية ومعتقدات وتقاليد اليهود والمسيحيين الأوائل واهالى اسبرطة وكريت والمصريين القدماء من الناحية الاخرى ، أو مثلما فعل الرحالة الفرنسى دولا كريكانيير De la Crequiniere فى محاولة تبيين أوجه الشبه بين عادات الهنود والتقاليد اليهودية واليونانية والرومانية ، وذلك بغية الوصول الى فهم أفضل للأسفار المقدسة والكتاب الكلاسيكيين ، وهكذا (انظر فى ذلك الفصل الرابع من ترجمتنا لكتاب الاستاذ ايفانز بريتشارد : الانثربولوجيا الاجتماعية) . ولسنا نهدف هنا الى الكلام بالتفصيل عن كتب الرحلات خلال مختلف العصور ، انما هدفنا هو أن نبين كيف أن كثيرا من هذه الكتب كان يزخر بالمعلومات الدقيقة عن المناطق التى زارها الرحالة والشعوب التى اقاموا فيها ، وأن هذه الكتب افلحت فى أن تجذب اليها القراء نظرا لابتعادها عن أسلوب العرض العلمى الجاف رغم التزامها بالدقة والامانة بقدر الامكان ، الى جانب مافيها من عنصر الخلق والابداع الذى تخلو منه الكتب العلمية ، بل ان بعض كتب الرحلات وجد من الاقبال والرواج مالم تلقه بعض روائع الاعمال الادبية ، وخير مثال لذلك الاديب الشاعر جوته الذى يقال ان رحلته الشهيرة الى ايطاليا جذبت من القراء أضعاف ما جذبه أى كتاب أو مسرحية أو رواية أخرى من اعماله ، بما فى ذلك آلام فرتر وفاوست . ولايزال أدب الرحلات يؤلف فرعا من أهم فروع الكتابة فى الآداب الغربية رغم انه يصعب العثور الآن على ما يماثل فى العمق والروعة واتساع الأفق وشمول النظرة كتب الرحلات التى أشرنا الى بعضها هنا ، أو تلك التى سوف يرد ذكرها فى الدراسات التى

يضمها هذا العدد . ومما يؤسف له ايضا أن التقليد العربي القديم الذي كان يعطي كثيرا من الاهتمام بأدب الرحلات لم يستمر ، بحيث يصعب القول ان هناك مايمكن تسميته بحق بأدب الرحلات في الكتابات العربية المعاصرة .

ويعض المسئولية عن تخلف أدب الرحلات في الوقت الحالي تقع على التغيرات التي طرأت مؤخرا على « ميتافيزيقيا السفر » . وهذا مصطلح استخدمه لأول مرة بول فوصيل Paul Fossel في كتاب حديث ظهر في أواخر عام ١٩٨٢ بعنوان Abroad . فالثورة التكنولوجية والالكترونية الحديثة والتطورات التي طرأت على أساليب الاتصال ساعدت على ظهور « المسافر او السائح المستقر » الذي يمكنه أن يتعرف عن طريق الصور التي تنقلها اليه الاقمار الصناعية من كل أنحاء العالم على مختلف الثقافات والشعوب والبيئات ، مما يخلق لديه في آخر الأمر إحساسا كاذبا وخادعا بأنه من أكبر الرحالة عبر الزمان والمكان ، مع أنه لم يتحول عن مكانه . وساعدت وسائل المواصلات الحديثة السريعة الضخمة والمريحة ، وبخاصة الطائرات الضخمة التي تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت على اختزال تلك المرحلة الهامشية ، وحرمان المسافر من تجربة الرحلة الحقيقية بكل مافيها من عمق وما يصاحبها من إثارة وأخطار ، واستبدلت بها الراحة والرفاهية اللتين تخلقان في المسافر شعورا غريبا يطلق عليه لانس مورو Lance Morrow اسم (الفراغ الماسي) وأدت كل هذه التطورات الى أن يصبح دور المسافر سلبيا الى حد كبير ، ويختلف تماما عن ايجابية الرحالة القديم أو حتى المسافر في المجتمعات البدائية ، فثمة الآن أجهزة ومؤسسات متخصصة تتولى عنه كل شئون الرحلة . بحيث يمكن القول ان المسافر الآن (لايقوم) في الحقيقة بالرحلة وانما يتم (ارساله) من مكان لآخر بواسطة (انبوبة) هي الطائرة التي تقله من بلد لآخر ، مثلما يتم ارسال الخطابات والرسائل والمغلفات من مكتب لآخر في المؤسسات الكبرى عن طريق الانابيب المخصصة لذلك . وتبلغ هذه السلبية مداها حين يشترك المسافر في تلك الرحلات الجماعية التي أصبحت احدى سمات العصر ، فيجد نفسه يتنقل بين أماكن لم يكن له يدفي اختيارها ويتحرك بطريقة آلية ضمن جماعة لايوجد بينه وبينهم أي رابطة حقيقية ، ويستمع الى شروح وتعليقات سريعة وضحلة لاتتيح له الفرصة للتفكير أو التعمق في الدراسة ومحاولة الفهم ، وكل هذا معناه في آخر الأمر أن (الرحالة) بالمعنى القديم الذي يشير الى التميز والفردية والأصالة آخذ في الاختفاء بسرعة لكي يحل مكانه (المسافر) أو (السائح) الذي يسلم أموره الى غيره ، ويرى الاماكن بعيون غيره ويفهم الثقافات بأفكار غيره ويصدر الأحكام على الشعوب بآراء غيره ، وهذا كله لايساعد على ازدهار أدب الرحلات بالمعنى المتعارف عليه . ولكن هذا يعني أيضا أن على علماء الانثربولوجيا والفولكلور اعادة النظر فيما قاله ارنولد فان جنب عن « شعائر المرور » .

د . أحمد أبو زيد

الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية

صلاح الدين الشامي
رئيس قسم الجغرافيا ـ جامعة صنعاء

تمهيد

تمثل الرحلة ، سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام ، انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة واسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر . ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين ، ويتجاوب هذا الهدف ارادة الانسان وحركة الحياة على الارض بشكل مباشر أو غير مباشر .

وقد تكون الرحلة هواية ، تشبع حاجة في نفس الانسان وترضيه ، وقد تكون الرحلة احترافا يخدم حاجة الانسان ويشبعه . ولكنها تكون ـ في الحالتين ـ استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل الالحاح للحركة والانتقال من مكان الى مكان آخر . بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعو الانسان الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة ، لكي يخترق حاجز المسافة ، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا الى غاية مباشرة أو تحقيقا لهدف معين .

ومن اجل اختراق حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر . ومن أجل بلوغ الرحلة في البر أو في البحر أقصى ما تصبو اليه ، كان الاجتهاد الانساني الذي أسفر عن تهيئة الوسيلة أو الوسائل المتنوعة لحساب التحرك والانتقال . وصحيح أنه ربما جد الانسان في السير على قدمين حينا لاتمام رحلة ما وبلوغه غايته منها ،

ولكن الصحيح أيضا أنه سخر كل الوسائل الاخرى التي أبتدعها وأحسن تشغيلها ، لكي توسع دائرة انتشاره وتطاوع ارادة التحرك ، ولكي تسعف اهتمامه بالرحلة وجني ثمراتها ، لحساب حركة الحياة ، على الصعيد المحلي أو على الصعيد الاقليمي أو على الصعيد العالمي .

ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة ، ينبغي أن نذكر كيف أن المدنيات العتيقة والعريقة التي ترعرعت في أحضان الزراعة ، وصنعت أسباب الاستقرار واطلقت العنان للابداع الانساني من وراء كل الحواجز والدوافع التي دعت - بل والحت - الى تنظيم وتحريك وتوجيه الرحلة وجني ثمراتها . كما ينبغي أن نفطن - بالضرورة - ايضا الى دور هذه المدنيات الايجابي ، في مجالات تهيئة وتطوير وسائل الانتقال في البر أو في البحر على حد سواء .

وهكذا نتبين كيف اطلقت العنان للرحلة ، حددت لها أهدافها ، وكيف سيرتها وأحسنت استخدامها في الاتجاه الصحيح . ومن ثم كان ذلك كله من وراء الانفتاح والتفتح في وقت واحد . والمقصود من الانفتاح خلق قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين أوطان المدنيات العريقة . أما التفتح فمعناه توسيع دائرة الرؤية واستثمار المصلحة المشتركة لحركة الحياة في اطار وحدة الارض ووحدة الناس على الارض . هذا ، ولقد كان هذا الانفتاح وهذا التفتح المبكر ، من وراء رؤية جغرافية كاشفة ، ولقد انتفعت المعرفة الجغرافية بهذه الرؤية الكاشفة انتفاعا حقيقيا . وصحيح أن الرحلة التي اصطنعت ابعاد هذا الانفتاح والتفتح قد أغرقت حركة الحياة وثمرات الرؤية الجغرافية لبعض الوقت في بحر الخيال الاسطوري من غير وعي . ولكن الصحيح أيضا أنها بصرت ورشدت مع مضي الوقت - ارادة الكشف الجغرافي وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الارض في كل وقت .

وهكذا ندرك كيف غدت الرحلة في البر أو الرحلة في البحر العين المبصرة ، التي قادت الاجتهاد - الجغرافي . وكثيرا ما أسفرت الرحلة عن نجاحات حقيقية حققت أهداف الاجتهاد الجغرافي ومسيرته في الاتجاه الصحيح لحساب وحدة حركة الحياة على الارض .

ونحن - على كل حال - لانزعم أو ندعي أن المعرفة الجغرافية كانت حافزا من وراء الرحلة وتحريكها في ذلك الوقت القديم . بل لاندعي أو لانزعم أن المعرفة الجغرافية كانت هدفا أو غاية مباشرة نظمت من أجلها الرحلة في البر أو في البحر . ولكن الذي ندعيه ونؤكد عليه حقا ، هو أن المصلحة المشتركة ، قد جمعت - من غير قصد مباشر ، بين هدف كل أو أي رحلة من جانب ، وهدف الرؤية

الجغرافية من جانب آخر . ويعني ذلك الجمع بين هذين الهدفين شكلا من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما .

ونستطيع أن نقول أنه في الوقت الذي كان حصاد الاجتهاد الجغرافي فيه عينا مبصرة ، ترشد الرحلة ، أو عصا تتوكأ عليها في البر أو البحر . كانت الرحلة مجالا رحبا ومشبعا يشحذ الاجتهاد الجغرافي وينشطه وتسعفه برؤية كاشفة تنفعه . هذا ، وينبغي أن نؤكد على أن الرحلة البرية أو الرحلة البحرية ـ سواء كانت فردية أو جماعية ـ كانت في المقام الأول انجازا من أجل التجارة . وصحيح أن بعض الرحلات قد نظمت في شكل ما لمطاردة أو لردع العدوان ، ولكن الصحيح أيضا أن معظم الرحلات قد نظمت وسيرت ومولت من أجل أغراض اقتصادية بحتة . ويبدو أن تنوع حاجات الحياة وافتقاد بعضها في أوطان المدنيات العريقة قد حفزت المغامرين للقيام بالرحلة في البر تارة وفي البحر تارة أخرى . ولقد تحمل هؤلاء المغامرون مسؤولية الرحلة ومشقة الاغتراب والذهاب والعودة في خدمة الوساطة التجارية .

وفي هذا البحث ، نود أن نلقي الضوء على الاجتهاد العربي الجسور المغامر على متن السفينة في المحيط الهندي ، وسوف نتابع تحرك الرحلة البحرية العربية وانجازاتها الحقيقية . ومن ثم تبين مدى اسهام هذا الاجتهاد الجسور في تجديد الرؤية الجغرافية وترشيدها على المدى الطويل .

الاجتهاد العربي والمغامرة البحرية

لكي نحدد بداية هذا الاجتهاد المغامر في البحر ـ على وجه التحديد ـ يجب أن نذكر متى كان ازدهارها وتفتح ونمو بعض المدنيات العتيقة والعريقة في وادي النيل الادنى ـ مصر ـ وفي سهل الرافدين ـ العراق ـ وفي أنحاء كثيرة من حوض البحر المتوسط في جانب ، ومتى كان ازدهار وتفتح ونمو المدنيات العتيقة والعريقة في شبه القارة الهندية من جانب آخر . كما يجب أن نذكر معنى وماهية العلاقة التي تأتت لكي نتبادل المنافع فيما بينهما . ومن ثم ينبغي أن ندرك كيف كان ذلك كله بكل أبعاده وموجباته المادية والروحية من وراء دعوة صريحة حفزت أو دفعت فريقا نشيطا من سكان المنطقة لكي يقوم بتهيئة قنوات الاتصال فيما بينها وخدمة أشبه ما تكون بالوساطة حضاريا واقتصاديا وتجاريا بين هذه المدنيات العريقة .

ولقد رشح موقع جزيرة العرب الجغرافي وامتداد البحر الاحمر والخليج العربي على المحور العام من

الجنوب الى الشمال فريقا نشيطا من العرب للاستجابة لهذه الدعوة . وتولى هذا الفريق بكل المهارة اداء وتحمل المسؤولية في خدمة قنوات الاتصال الحضاري والاقتصادي والتجاري في مقابل أرباح مادية وثمرات حضارية .

وما من شك في أن نضج هذا الفريق العربي النشيط الذي عاش في جنوب الجزيرة العربية نضجا حضاريا مبكرا ، قد آزر مغامراته في البحر وأيد اهتمامه بالعمل التجاري والوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط . وهناك أكثر من دليل في صفحات التاريخ على ذلك . بل هناك سياق ممتاز يحكي نشاط الرحلة البحرية العربية ، ويصور نجاح الفريق العربي النشيط سواء وهو يمارس الرحلة البحرية في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر ، أو وهو يمارس الرحلة البرية عبر جزيرة العرب ذاتها .

وصحيح أن انتصارات الاسكندر الاكبر ، قد الهبت حماس الاهتمام بتجارة البحار الجنوبية التي وضع عرب جنوب الجزيرة العربية دعائمها الاولية . وصحيح أن عناصر غير عربية ـ مصرية ويونانية ـ قد ظهرت في البحر الاحمر والخليج العربي ، واشتركت في رحلات التجارة البحرية على وجه الخصوص ، ولكن الصحيح ، بل المؤكد أن عرب جنوب الجزيرة (أهل اليمن الكبير) كان لهم فضل السبق على مدى وقت طويل . بل لقد احتفظت الرحلة البحرية لهم بمكانة مرموقة أو بدور الريادة والتفوق في تجارة البحار الجنوبية .

وليس من قبيل الزعم أو الادعاء أن نؤكد على أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد وضعوا في هذه الرحلة المبكرة بعض أسس وقواعد وأصول هامة وحيوية في مسألة التجارة الدولية وحركة الاقتصاد العالمي ، وليس من قبيل الزعم أو الادعاء مرة أخرى ، أن نؤكد أن عرب جنوب الجزيرة العربية قد تولوا في هذه المرحلة المبكرة منفردين مهمة الممارسة العلمية لرحلات بحرية منتظمة في عرض المحيط . ولقد وضعت هذه الرحلات هؤلاء الرواد في خدمة التجارة والاحتكاك التجاري والحضاري بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط .

هذا ولقد تولى عرب جنوب الجزيرة العربية هذه المهمة بكل المسئولية على المدى الطويل ، وربما كانت البداية مبكرة ومبكرة جدا وقبل الميلاد بعدد كبير من القرون . وربما كان التغيير المناخي وتصاعد حالة الجفاف وما اقترن بها من شح وتقتير في جزيرة العرب من بين أهم الدوافع الفعالة التي دفعت الفريق العربي النشيط لاحتراف الملاحة البحرية والعمل في خدمة الرحلة البحرية والاغتراب لحساب التجارة . وهناك من يقدر بداية هذه المهمة ترجع الى حوالى الألف الخامس قبل الميلاد .

ومن غير استغراق في جدل موضوعي حول هذا التقدير ، ينبغي ان ندرك كيف تسللت نتائج هذه المهمة والقيام بها وجني ثمرات الرحلة البحرية والاغتراب الى نسيج الواقع الحضاري والواقع الاقتصادي والواقع الاجتماعي لكل دولة من الدول التي ازدهرت واكتسبت السمعة والمكانة في مساحات معينة من ارض اليمن الكبير . كما لا ينبغي ان نفكر او نستنكر الريادة العربية في ركوب البحر والمغامرة الجسورة في المحيط الهندي أو في الاغتراب في مساحات من عالم المحيط الهندي . (١)

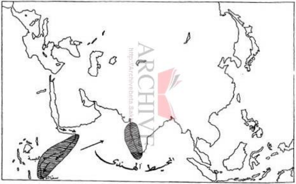
ومن الطبيعي ان نتصور كيف بدأ تعامل البحارة من اهل اليمن الكبير مع البحر وكيف اشتغلوا بالوساطة التجارية بداية في أحضان البحر الاحمر . وهناك اكثر من دليل على أنه كان المدرسة التي اكتسبت فيها الخبرات والمهارات التي هيأت للانسان العربي اليمني النشيط ازاء دوره . بل وهناك مواقع كثيرة في أحضان مراقيء متخية ، قد شهدت هذه البدايات المبكرة كما احتوت عمليات بناء وتجهيز السفن التي اسعفت الرحلة البحرية العربية وخدمت اهدافها .

ومن الجائز ان نتصور كيف شارك البحارة العرب فريق آخر من غير اهل اليمن (من مصر والشام واليونان) في ملاحة البحر الأحمر (٢) . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التنافس وكيف كان التعاون حتى جنى هذا الفريق المختلط من اهل اليمن ومن غير اهل اليمن ثمرات ركوب البحر والرحلة البحرية في البحر الاحمر . ولكن الذي ينبغي ان نؤكد عليه بالفعل ، هو تفرد البحارة من أهل الجنوب العربي بتجاوز باب المندب . ومن ثم بدأ الاجتهاد العربي الذي افلح في اختراق حاجز المسافة في اتجاه الشرق وانتظام الرحلة العربية في احضان المحيط الهندي . وتجلى بالضرورة معنى الانفتاح العربي على عالم المحيط الهندي وما بنى عليه من زيادة في حركة التجارة على مستوى قيم من المستويات الدولية في ذلك الوقت القديم .

الرحلة العربية في المحيط الهندي

اختراق حاجز المسافة بين اقطار متباعدة وانتظام الرحلة البحرية في المحيط الهندي في ذلك الوقت المبكر قد يعني الريادة في المغامرة البحرية ، وامتلاك الوسيلة والخبرة التي شدت أزر هذه المخاطرة ، اسلمتها زمام التعامل التجاري والوساطة التجارية بين الاقطار والاقوام في احضان البحار الجنوبيةوالقطار

(١) سليم موسكاتي المرجع السابق صفحة ١٩٧
(٢) الشامي الاسلام والفكر الجغرافي العربي القاهرة ١٩٧٩
والفكر الجغرافي سيره ومسيرة القاهرة ١٩٨٠



(١) الحضور العربي المنفرد - الرحلة الأولى - (قبل ميلاد المسيح)

واقوام فى احضان البحر المتوسط ثم هو يعنى ايضا ضربا من ضروب الا نفتاح الاقتصادى الذى خدم التكامل بين الاقطار ، وصعد قيمة وأهمية المصالح المتبادلة بينها فى اطار الدائرة التى استوعبت ثمرات هذه الوساطة التجارية .

وفى اعتقاد أي باحث منصف أن اختراق حاجز المسافة وانتظام الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى تعنى بالضرورة التفتح الجغرافى واتساع دائرة الرؤ ية الجغرافية . والتفتح الجغرافى الذى تعنيه لايعنى اقل من معاينة ورؤ ية كاشفة للارض التى تمر بها او التى تنتهى اليها الرحلة ، كما لايعنى ايضا اقل من معايشة وتعامل كاشف للناس والاقوام الذين تحتويهم هذه الأرض ، والرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى لايمكن ان تحقق اقل من ذلك ، بل لعلها رسخت استشعار الاختلافات والفروقات بين الارض والاقوام وهى تنتقل فى طريقها لأداء المهمة المنوطة بها .

هذا ومامن شك فى ان هذا التفتح الجغرافى الذى كان ثمرة من ثمرات الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندى قد بصر أو رشد أو صحح مساراتها واتجاهاتها . بل لعله اسعفها من حين الى حين آخر وهى توسع مدى انتشار الحضور العربى والتعامل التجارى على الصعيد الأسيوى بصفة خاصة وهل تنكر ان اكتشاف أو معرفة حركة الرياح الموسمية الصيفية وهى جنوبية وجنوبية غربية ، والرياح الموسمية الشتوية وهى شمالية شرقية هو من قبيل التفتح الجغرافى ؟ وهل يمكن ان تنكر بذلك قيمة او اهمية هذا التفتح الجغرافى الذى اصطنع نقطة تحول حاسمة واطلق العنان للرحلة البحرية العربية وحقق الا نفتاح الاقتصادى الذى اسفر عن شكل او عن صورة مبكرة من صور التجارة الدولية ؟

صحيح أن البحارة العرب قد امسكوا عن ذكر معظم التفاصيل عن رحلاتهم البحرية المغامرة فى عرض المحيط الهندى ، وصحيح انهم احتفظوا لأنفسهم بكثير من اسرار معرفتهم الجغرافية . ولم يفرطوا في تصوير رؤ يتهم الجغرافية تخوفا من منافسة دخيلة عليهم من بحارة مغامرين من غير العرب . ولكن الصحيح ايضا انهم روجوا القصص الخرافية وشحنوها بالخيال المخيف الذى حسب الرعب والفزع على امل تخويف كل من تسول له نفسه اقتحام المحيط الهندى والمغامرة فيه والاشتراك في اداء الدور الاقتصادى الذى اشبعهم ربحا وكسبا وامطرهم ذهبا وفضة .

ولا ينبغى ان نستنكر السكوت عن حسن تصوير الرؤ ية الجغرافية او ان نستنكر آغراق الرؤ ية الجغرافية فى الخرافة والخيال . بل ولا ينبغى ان نتصور السكوت جهلا بقيمة هذه الروئية الجغرافية وما تعبر عنه . ولكن الذى نؤ كد عليه هو أن السكوت كان وسيلتهم التى تحجب هذه الرؤ ية ، وان حجب

الرؤية الجغرافية امر ضرورى دعت اليه ارادة الاحتكار الاقتصادى ورفض المنافسة بصفة عامة . وموقف البحارة العرب فى المحيط الهندى يعيد الى الاذهان موقف البحارة الفينيقيين اللذى تكتموا اسرار البحر وحجبوا رؤيتهم الجغرافية من اجل دره خطر المنافسة الاقتصادية .

وحجب اخبار الرحلة البحرية او اغراقها فى خضم الرواية الاسطورية ، وتكتم اسرار البحر والحركة فى اتجاهه قد افلح على كل حال فى منع البحارة من غير الجنوب العربى على مدى مرحلة طويلة ، من اقتحام المحيط الهندى واستخدامه ، وهناك مايؤكد على ان البحارة اليونان والرومان قد حاولوا على مدى فترة طويلة جمع المعلومات عن المحيط الهندى طلبا للملاحة فيه ، وكسر احتكار الرحلة البحرية العربية ، وتفرد البحارة العرب بثمرات الوساطة التجارية .

هذا ، وكان من شأن الرحلة البحرية العربية التى انطلقت من موانىء متعددة في جنوب جزيرة العرب ، ان تصل فى نهاية المطاف الى شبه القارة الهندية . وينبغى ان نتصور هول ومشقة هذه الرحلة البحرية التى كانت تضرب فى محيط واسع ، كما ينبغى ان نتصور كيف كانت المعرفة الجغرافية مطلوبة لكى تكون فى معية الرحلة البحرية ترشدها وتسدد خطاها على الطريق ، بل ومن غير هذا الترشيد ، تكون الرحلة في مسارها اللذى يضرب فى عرض البحر فى ضلال مبين .

ولكى تتحقق هذه الرحلة البحرية العربية ، ولكى تفلح فى اداء مهمتها دائما وصولا الى شبة القارة الهندية وعودة منها ، احسن البحارة من الجنوب استخدام المعرفة الجغرافية التى جمعت أوصالها رؤية جغرافية متكررة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . بمعنى ان اقتحام المحيط الهندى ومغامرة الرحلة البحرية لم تبدأ بداية ناجحة ومطمئنة الا من بعد ان اكتسبت تجربة وخبرة . وهل تبقى مثل هذه التجربة والخبرة على حصاد معرفة جغرافية وتصور صحيح لطبيعة العلاقة بين اليابس والماء ، فى اتجاه القطاع الرحب من المحيط الممتد بين الجبهة الافريقية والجبهة الأسيوية .

هذا وكان من شأن هذه الرحلة البحرية فى الذهاب والاياب ، ان تمر بتجربة الرحلة البحرية الساحلية وبتجربة الرحلة البحرية فى عرض المحيط . وفى كل تجربة من هاتين التجربتين برهن البحارة العرب على كفاءة وخبرة حقيقية فى ركوب البحر وحسن توجيه السفينة وانجاح الرحلة . بل وكادت ان تمثل هذه الرحلة البحرية شكلا من اشكال التحرك المنتظم فى مواسم معينة وعلى خطوط سير محددة .

وتحرك الرحلة البحرية اللذى بدأ من موانىء جنوب جزيرة العرب ، قد اعتمد على الملاحة الساحلية . ، وكان من شأن السفينة ان تتحرك بحذاء الساحل الافريقى وصولا الى هدفها المرحلى . .

كما كان من شأنها ان تتجاوز القرن الافريقي ، وان تتقدم جنوبا صوب ساحل شرق افريقية على امتداد الجبهة الطويلة بين موقع ممبسة وموقع سفالة (٣) . بمعنى أنها رحلة بحرية لازمت خط الساحل الافريقي وتشبثت به فلم تبتعد منه كثيرا وكأنها تخشى أن تضل في عرض البحر .

والوصول الى هذا الهدف المرحلي كان المقصود منه وضع السفن في المكان الانسب لاقتحام المحيط ، في الوقت المناسب . وربما تنقلت السفن آنذاك من مرفأ الى مرفأ آخر على امتداد الجبهة الافريقية الشرقية وتقدمت جنوبا بكل الحيطة والحذر ، وكان من الطبيعي ان تتسكع السفينة ، وأن تتحسس سبيلها ، قبل ان تنتخب المرفأ أو المرافيء الافضل والانسب ، وفي احضان هذه المرافيء المنتخبة ، أقيمت أو جهزت الميناء او الموانيء التي تنتهي عندها الرحلة بعد ملاحة ساحلية طويلة ومضنية . وفي هذه الموانيء كانت السفن تلتقط أنفاسها وتتهيأ لا قتحام المحيط واستئناف الرحلة في عرض البحر الى شبة القارة الهندية .

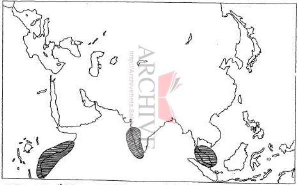
والاتمام المرحلي من الرحلة بحذاء الساحل الافريقي ، وانتخاب المرفأ أو المرافيء وتجهيز الميناء او الموانيء وحيازتها وتشغيلها ، يعني حضورا عربيا مباشرا ومقيما على الساحل الافريقي ، ومن الجائز أن ندرك أو أن نتصور كيف استقبل هذا الحضور العربي المقيم على الجبهة الافريقية البحر بلهفة واصرار ، لكي تستكمل الرحلة البحرية وتحقق أهدافها الاقتصادية ، ومن الجائز ، ايضا أن ندرك أو أن نتصور كيف استدبر هذا الحضور العربي القيم العمق الافريقي في ظهير الساحل الافريقي بحذر واشفاق ، لكي يتجنب الانغماس في حركة حياة بدائية لا تخدم او لاتحقق اهداف الرحلة البحرية الحقيقي . ولكن المؤكد من بعد ذلك كله ان هذا الحضور العربي المقيم على الجبهة الافريقية في احضان الموانيء كان حضورا ايجابيا الى حد بعيد ، عندما تشبث بالارض وعايش الناس واشترك وقاد مسيرة حركة الحياة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا .

ولقد خدم هذا الحضور العربي النشيط المغترب التفتح الجغرافي في نفس الوقت الذى قاد فيه مسيرة الانفتاح الاقتصادى وحركة التجارة . وصحيح ان التوغل العربي من الموانيء ومراكز التجارة على الساحل الافريقي الى القلب الافريقي الصاعد على سطح الهضاب الشرقية كان توغلا حذرا وبطيئا الى حد كبير (٤) ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربي المبكر على الجبهة الافريقية والتوغل المتأنى

---

(٣) Hamin S . A . S . : Arabia and the far East , Cairo 1942

(٤) سبتينو موسكاتي الحضارات السامية القديمة ترجمة د / يعقوب بكر صفحة ١٩٢ - ١٩٣



(٢) الحضور العربي المتناقص - المرحلة الثانية - (قبل ظهور الاسلام)

الى الظهير ، قد عايش الأرض وعايش الناس . ثم قص عنها وروى (٥) ومن ثم كانت رواياتهم مصدرا مبكرا وأصيلا ، لكثير من اوجه المعرفة الجغرافية على الصعيد الافريقى الاستوائى .

والتقاط الانفاس الذى اسفر عن حضور عربى مقترب على الجبهة الافريقية طور العلاقة المباشرة بين هذا الحضور العربى بكل تطلعاتهم والناس الافارقة بكل بساطتهم (٦) وقد ادى ذلك بكل تأكيد الى اختلاط وتزاوج حتى تسربت دماء عربية كثيرة . وكانت الافريقيات أرحاما لأجيال كثيرة فى عروقها دماء عربية تتكلم لغة الأمهات . ولقد تشبث هذا الحضور العربى المقترب بالارض وجعل منها رأس جسر للتحرك العربى البحرى الى الجبهة الاسيوية .

ومن الميناء او من الموانىء التى اتخذت شكل او وظيفة المركز التجارى Trade Post على الجبهة الافريقية بدأ الشوط الثانى من الرحلة البحرية العربية وفى هذا الشوط اقتحمت الخبرة البحرية العربية عرض البحر وكان الاقتحام اقتحاما جسورا وهادفا . وينبغى ان نتصور كيف كان هذا الهدف بين اهم العوامل التى صرفت الحضور العربى المقترب على الجبهة الافريقية عن التوغل فى الظهير الافريقى . كما ينبغى أن ندرك ايضا ، كيف امتلك الحضور العربى المقترب السفن من النوع الذى اسعف هذا الاقتحام على مواجهة الاخطار التى يمكن ان تسفر عنها غضبة البحر فى بعض الاحيان .

هذا ، ولقد شدت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الصيفية أزر هذا الاقتحام البحرى العربى الجسور ووجهت مسيرة الرحلة البحرية فى اتجاه مباشر الى شبه القارة الهندية ، وصحيح أن الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية قد يسرت امر العودة واياب الرحلة البحرية الى موانىء الجبهة الافريقية ، ولكن المؤكد أن توقيت رحلة الذهاب فى الصيف وتوقيت رحلة الاياب فى الشتاء يكشف بما لايدع مجالا للشك عن صدق المعرفة الجغرافية بحركة الرياح الموسمية ، كما يكشف أيضا عن حسن استخدام هذه الرياح واستغلالها لحساب الرحلة البحرية فى عرض المحيط الهندى ولقد فتحت شبه القارة الهندية التى احتوت وجودا هنديا متحضرا صدرها بكل الترحيب وحسن التعامل لاستقبال الرحلة العربية وترقب وصولها فى مراقبتها . ومن الجائز ان نتصور كيف كان التحضر الهندى من أهم العوامل التى كانت من وراء حسن استقبال الرحلة العربية . ولكن يبدو وأن وضع شبه القارة الهندية من وجهة النظر الطبيعية ، قد فرض على الحياة فيها ان تستقبل البحر وان تطل من خلاله على العالم وان

---

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ بيروت ١٩٦٨ صفحة ١٧٠ ، ١٧٥

(٦) Kamarer , A : Mer rouge depuis l'antiquite le caire 1929 1935

يطل العالم من خلاله عليها (٧) ويقدر لهذه الرحلة البحرية على الوصول الى شبة القارة الهندية والتعامل معها كانت فى المقابل لهذه شبة القارة الهندية على وصول هذه الرحلة واستمرارها .

ومن الجائز ان ندرك كيف انتخبت الهند الموانىء الأنسب وكيف جهزت الموانىء الافضل لاستقبال البحر وحركة الاقتصاد فيه ، وهذا معناه ان الحضور العربى الوافد مع الرحلة البحرية قد تخفف من عمليات انتخاب المراقىء او تجهيزها ، ومعناه ايضا ان الحضور العربى قد انكب على أداء مهمته الاقتصادية . وجرى العرف على ان تصل الرحلة البحرية العربية وقد حملت السفن منتجات متنوعة من انتاج مدنيات حوض البحر المتوسط ومن انتاج الجبهة الافريقية ، فتبادل عليه وتعود محملة بحمولة متنوعة من منتجات الهند وتوابلها على وجه الخصوص .

واستخدام الموانىء الهندية على ساحل مليبار التى احسنت استقبال الرحلة البحرية العربية ، وحرص هذه الرحلة على الذهاب اليها والعودة منها بشكل منتظم فى كل عام لاينفي ولا يتعارض مع حضور عربى مغترب أقام فى هذه الموانىء . والصحيح ان هذا الحضور العربى المغترب قد شارك الحضور الهندى فى حركة الحياة والجانب الاقتصادى منها على وجه الخصوص . ولكن الصحيح ايضا ان هذا الحضور العربى المغترب على الارض الهندية قد أكد ذاته حضاريا و اقتصاديا واجتماعيا ، وهو يعطى ويأخذ ، او وهو يتعامل ويتعايش .

وهكذا كان الحضور العربى المغترب الوافد الى الجبهة الآسيوية ، حضورا ايجابيا وفعالا . ولقد عايش الارض لأنه عاش فى أحضانها وعرف خصائصها الطبيعية . كما عايش الناس وتعامل معهم واختلط بهم وشاركهم مشاركة فعالة فى مسيرة الحياة ، بمعنى انه كان حضورا نشيطا فى الاخذ والعطاء على حد سواء .

ويتجلى نشاط وايجابية هذا الحضور العربى على ثلاثة محاور محددة . وعلى المحور الاول قدم انجازات رائدة خدمت الانفتاح الاقتصادى وحركة التجارة الدولية . ولعلنا لاننكر انه وضع بدايات دعامات بعض اهم الضوابط الحاكمة لحركة التعامل التجارى بين الامم والشعوب . وعلى المحور الثانى أحسّن هذا الحضور دوره الذى شحذ الاحتكاك الحضارى ولما نتائجة وآثاره لحساب الانسان ، ولقد اصطنع قنوات اتصال غير مباشرين المدنيات المختلفة ، وحقق شكلا مفيدا من اشكال الانفتاح والتفتح الحضارى . وعلى المحور الثالث نور هذا الحضور العربى البصيرة الجغرافية . وزودها برصيد

(٧) الى ميناء سفالة الحبشى ما وصل اليه الانتشار العربى الذى قاد الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى . وتقع فى موقع ما على ساحل موزنبيق الرب يبا

مناسب من المعرفة الجغرافية رغم التكتم الشديد الذى اعتمد فى اخفاء أهم وأخطر الحقائق الجغرافية .

وفى اعتقادى ـ على كل حال ـ ان هذا الحضور العربى المغترب على الأرض الأسيوية ، كان العين المبصرة التى أطل بها الاجتهاد الجغرافى القديم لدى اهم المدنيات القديمة فى حوض البحر المتوسط على عالم المحيط الهندى . ولقد أعطى هذا الحضور العربى بدوره للاجتهاد الجغرافى القديم فى شبه القارة الهندية فرصته لكى يتعرف على الواقع الجغرافى فى اتجاه جزيرة العرب وشرق افريقية وحوض البحر المتوسط .

الحضور العربى المغترب والمعرفة الجغرافية

كان الحضور العربى فيما وراء الارض العربية ـ جزيرة العرب ـ فى الغالب اغترابا لبعض الوقت بمعنى انه مهما طابت الحياة فى المهجر وتحققت الأرباح وتداخل هذا الحضور فى البنية الاقتصادية كان التشبث بالعودة الى الوطن أو الموطن أملا يراود المغترب العامل فى حقل التجارة وخدمة الرحلة البحرية العربية . ومع ذلك ينبغى أن نؤكد على أن هذا الحضور المغترب كان حضورا متجددا على المدى الطويل . لأن الرحلة البحرية لم تتوقف ولم تتكاسل ، بل لقد جددت الاجيال دائما شباب وحيوية ونشاط هذا الحضور فى المهجر ، وحافظت على حل الاعباء وكفلت الصلة العرقية والحضارية بين المغترب والموطن فى الجنوب العربى بشكل منتظم .

ولا تعارض ابدا بين أياب المغترب بعد بعض الوقت من المهجر على الصعيد الافريقى او على الصعيد الأسيوى من ناحية ، وتجدد واستمرار الحضور العربى المغترب فى المهجر من ناحية اخرى . ذلك ان هناك دائما من الاجيال من حل مكان المغترب العائد وحمل عنه العبء . بمعنى ان الحضور العربى مارس شكلا من اشكال الاستيطان فى المهجر . ولأنه حافظ دائما على قنوات الاتصال مع الموطن الام ، فيمكن ان ندرك كيف وسع هذا النمط من الاستيطان دائرة انتشاره وكيف تداخلت حركة الحياة فى الجنوب العربى والمهجر تداخلا يلفت النظر الى حد كبير .

ومن غير ان نفتقد العلاقة بين الرحلة البحرية العربية والحضور العربى المغترب ، ومن غير ان نقلل من شأن التداخل بين حركة الحياة فى الجنوب العربى وحركة الحياة فى المهجر الذى احتوى الحضور العربى المغترب ينبغى ان نفطن الى مسألة الرؤية الجغرافية ، وكيف تحققت فى البر والبحر على حد

سواه . وما من شك فى ان انتشار هذا الحضور العربى المغترب وحرصه على العلاقات بينه وبين الجنوب العربى كان من وراء تجميع أوصال الرؤية الجغرافية الشاملة لعالم المحيط الهندى . ولقد وضعت هذه الرؤية الجغرافية المجمعة الاجتهاد العربى فى مواجهة استثمار مصالح مشتركة وتداخل حركة الحياة ، حتى كادت أن تتجسد فى رؤيتهم معالم وحدة الارض ووحدة الناس على الارض . وهذا فى حد ذاته انجاز مفيد لأنه يطلق الفكر الجغرافى من الاقليم الضيق المحدود الى منطق العالمية الفضفاض .

هذا ويمكن ان نتابع عطاء الحضور العربى المغترب والرحلة البحرية للمعرفة الجغرافية على مراحل متميزة ومتكاملة فى وقت واحد ، بمعنى ان الرحلة البحرية التى لم تتوقف على المدى الطويل منذ اقتحمت باب المندب وخليج عدن وتجولت فى عرض المحيط الهندى قد حافظت على استمرارية الحضور العربى المغترب وعلى علاقاته بالوطن الام . وكفلت استمرارية العطاء للمعرفة الجغرافية ، ولأن الاستمرار كان على المدى الطويل فان التمييز بين الرحلة البحرية والحضور العربى المغترب وماقد أعطته للمعرفة الجغرافية ، فى كل الرحلة امر منطقى تخضع بالضرورة لكل المتغيرات البشرية ومابقى عليها من ضوابط حكمت الظروف التى عملت فى ظلها او بموجبها هذه الرحلة فى تلك المراحل .

والمرحلة الأولى كانت مبكرة وقديمة . ولقد شهدت هذه المرحلة فى القرون السابقة للميلاد الرحلة البحرية العربية وما أسفرت عنها من حضور عربى مغترب . ويشوب معرفتنا بالرحلة وبالحضور العربى المغترب فى هذه المرحلة الشىء الكثير من الغموض والابهام . ويبدوان هذا الغموض كان متعمدا ولعل عرب جنوب الجزيرة قد اثروا اشاعة هذا الغموض الى حد اغراق اخبار رحلاتهم البحرية الناجحة وما بقى عليها من نتائج اقتصادية مثيرة فى خضم الخيال والاوهام والسرد الاسطورى . وكأن هذا الغموض المتعمد كان مقصودا من أجل ستر الحقيقة بكل ابعادها والتخفى والتمويه والتعمية تخوفا على المصالح اكثر من أى شىء آخر .

هذا ومن الجائز ان نفتقد الوسيلة او القدرة على تحديد بداية واضحة لهذه المرحلة العتيقة وكيف ادت الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفى الاقتصادى ، وكيف وضعت جذور الحضور العربى المغترب فى المهجر . ولكن المؤكد ان هذه الرحلة قد افلحت فى أدائها بالفعل لحساب حركة الحياة فى الجنوب العربى وفى المهجر على حد سواء . بل لقد انجزت الانجاز الافضل لحساب حركة الاقتصاد والتجارة بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ، وهناك اكثر من دليل على ان الملاحين التجار (غير العرب) العاملين فى البحر الاحمر كانوا يترقبون بكل لهفة وصول هذه الرحلة البحرية من بعد أن تفرغ من أداء مهمتها ، طلبا للسلع والمنتجات التى تعود بها من شبه القارة الهندية .

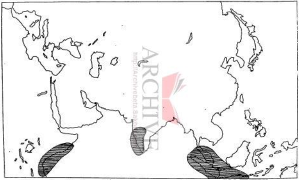
وصحيح أن عرب جنوب الجزيرة الذين واجهوا التحدى الطبيعى المعلن فى مواطنهم ضد ارادة الحياة (٨) وقد اتجه فريق منهم الى البحر فرارا من هذا التحدى . وصحيح ايضا ان هذا الفريق المغامر قد اكتسب الخبرة فى ركوب البحر وصناعة السفن البحرية للعمل فى اعالى البحار فى احضان البحر الاحمر . وصحيح مرة اخرى انهم قد شاركوا غيرهم من بحارة الشعوب المتمدينة الاخرى (من مصر والشام واليونان والرومان) فى تصعيد او تكثيف حركة الملاحة فى حوض البحر الاحمر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان تكون العوامل والمتغيرات التى قسمت الفريق المختلط العامل فى الملاحة فى البحر الاحمر قسمين هما قسم ضم البحارة العرب في جانب وقسم آخر ضم البحارة غير العرب فى جانب آخر .

وكان من شأن القسم الاول الذى ضم البحارة من جنوب الجزيرة ان غامر وأبحر بالسفن لارتياد المحيط الهندى . وسجل ذلك لهم الريادة فيه لحساب حركة الاقتصاد العالمى فى ذلك الوقت المبكر . اما القسم الآخر فلقد حبسه الجبن والخوف والجهل بالواقع الجغرافى فى احضان البحر الاحمر وسجل التاريخ لهم كيف انهم لم يتجاوزوا باب المندب أبدا الى خليج عدن . وصحيح ان التعامل بين هذين القسمين او الفريقين كان مثمرا ومفيدا ، وأسفر عن سيمفونية من أعظم سيمفونيات المصالح المشتركة . ولكن الصحيح ايضا أن فريق البحارة العرب اصحاب الريادة فى المحيط الهندى ، قد احتفظ بسر رحلاته البحرية وبكل المعرفة الجغرافية التى يسرت امر هذه الرحلات أو التى اسفرت عنها هذه الرحلات ، وضنوا بها وحجبوها عن الفريق الآخر .

وهكذا ضمن البحارة من عرب جنوب الجزيرة لرحلاتهم البحرية فى المحيط الهندى ولتعاملهم التجارى مع بعض الاقطار فى عالم المحيط الهندى جوا مناسبا من غير منافسة من اى نوع ، كما كفل ذلك كله حضورا عربيا رائد ومنفردا مغتربا قرونا كثيرة في المهجر على صعيد الارض الآسيوية والافريقية . وفى الوقت الذى امتت فيه هذه الرحلات علاقات الحضور العربى المغترب مع الجنوب العربى ، امن الحضور العربى المغترب مصالح وحاجات هذه الرحلات البحرية فى المحيط الهندى .

وكان هذا الحضور العربى المغترب من خلال الرحلات البحرية على استعداد مستمر لتلبية حاجة او متطلبات الاسواق فى اقطار حوض البحر المتوسط ، كما كان هذا الحضور العربى المغترب على استعداد ايضا لتقديم كل خبراته الحضارية التى صقلها ونماها وطورها الاحتكاك الحضارى المستمر مع الأقوام فى

(٨) في الوقت الذي كان الصعود من السهل الساحلي الى وسط الهضاب في شرق أفريقيا يحمل ثوب مشقة الطقس والوعرة كان مستوى الناس على هذه الهضاب من حيث الانتاج والاستهلاك لا يغري بالصعود من أجل التعامل التجاري أكثر منهم .



(٣) الحضور العربي المتسيد — المرحلة الثالثة — (منذ ظهور الاسلام)

عالم المحيط الهندى . ولكن الشيء الوحيد الذي تشبث به هذا الحضور العربى المقترب ورفض التفريط فيه ، هو معرفته عن الواقع الجغراف فى عالم المحيط الهندى كما اخفى وتستر على كل المعلومات التى ذللت لهم تشغيل الرحلات البحرية فيه .

وعن استعداد الحضور العربى المقترب الرائد فى عالم المحيط الهندى لتلبية حاجة الأسواق نذكر انهم قدموا كل انواع السلع وفى مقدمتها التوابل الى مصر واليونان والشام وروما . وكم شهدت بعض الموانىء فى القطاع الجنوبى من البحر الاحمر عمليات التبادل بين التجار من أهل وبنى الاقوام فى عالم البحر المتوسط من جانب ، والتجار من عرب جنوب الجزيرة من جانب آخر ، كما شهدت الطريق البرية من مأرب والجوف فى اتجاه الشمال وصولا الى موقع مركز التجارة القديم عند غزة حركة مطمئنة لنقل سلع منتجات الشرق التى حملتها الرحلة البحرية العربية المنتظمة بعد جولة طويلةومضنية فى المحيط الهندى .

وعن دور الحضور العربى المقترب الرائد فى عالم المحيط الهندى لحساب الاحتكاك الحضارى تذكر انهم احسنوا الانتفاع بحسهم الحضارى فى الأخذ والعطاء ، وفى انجاز الاضافات الحضارية لحساب حركة الحياة . ونذكر لهم كيف انهم افلحوا فى نقل أشجار القطن على سبيل المثال من موطنها فى شبه القارة الهندية ، لكى يتأتى غرسها فى مساحات على الصعيد الافريقى ، كما نذكر عنهم ايضا انهم افلحوا فى نقل صور كاملة من أهم الانجازات الحضارية الهندية لكى يطلع عليها وينتفع بها أهل واقوام المدنيات القديمة فى عالم البحر المتوسط ، وصور كاملة من أهم الانجازات الحضارية فى المدنيات القديمة فى عالم البحر المتوسط لكى يطلع عليها وينتفع بها اهل واقوام شبه القارة الهندية .

هذا ولم يكن من شأن هذه الرحلة التى سجلت فيها الرحلة البحرية ريادة الحضور العربى المقترب ان تنتهى إلا فى الوقت الذى فك فيه الاجتهاد الرومانى طلاسم المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندى . ولقد تأتى للاجتهاد اليونانى ان يفعل ذلك فى حوالى القرن السابق لميلاد المسيح معتمدا على نفسه . وليس فى المصادر التاريخية ماينبىء بالكيفية التى انجحت الاجتهاد الرومانى فى دخول المحيط الهندى واجتيازه ، ولكن الذى نؤكد عليه هو ان الملاحين العرب لم يفرطوا ابدا فى معرفتهم الجغرافية طوعا أوكرها [٩] .

ولئن كان الاجتهاد الرومانى قد انهى المرحلة الطويلة التى عملت فيها الرحلة البحرية فى جو خال من المنافسة فإنه قد فتح الباب على مصراعيه لكى تبدأ الرحلة البحرية غير العربية فى المحيط الهندي .

(٩) [illegible] ، [illegible] التعامل .

وهذا معناه بداية المنافسة الحقيقية فى وقت تصاعدت فيه الحاجة وزاد الطلب على منتجات وسلع من شبه القارة الهندية . ومعناه ايضا فتح قنوات الاتصال المباشر لحركة التجارة بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ، ومعناه فى نهاية الامر ظهور اجيال جديدة غير عربية تعمل فى حقل الوساطة التجارية وتجنى ثمرة الانجاز الرومانى بصفة عامة .

وهكذا بدأت الرحلة الثانية التى شهدت الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية جنبا الى جنب وهما تعملان لحساب حركة التجارة مع عالم المحيط الهندى . ومن الجائز أن تسجل هذه المرحلة بداية المنافسة بين الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية ، ولكن وزن الحضور العربى المغترب فى مراكز التجارة كان بالضرورة فى عون الرحلة العربية فى نصرها وشد أزرها فى هذه المنافسة . ومن ثم كانت كفتها الأرجح فى ميدان الوساطة التجارية وتؤكد قصة هذه المنافسة على ان حجم الطلب على حصاد هذه الرحلات كان كبيرا ومتزايد الى الحد الذى حال دون وصول هذه المنافسة الى إنهاء أو توقف أى من هاتين الرحلتين .

وصحيح ان الاقتحام الرومانى وتحمل المخاطرة فى المحيط الهندى قد كسر طوق احتكار الرحلة البحرية العربية لحركة التجارة والوساطة ، وصحيح ايضا ان الرحلة البحرية غير العربية قد اطلقت العنان للمنافسة فى المحيط الهندى ، وجاءت هذه المنافسة زيادة الطلب على المنتجات والسلع من عالم المحيط الهندى . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان ذلك التحول الجديد قد انهى تفرد الحضور العربى المغترب بالمعرفة الجغرافية عن المحيط الهندى .

وانهاء تفرد الحضور العربى واشتراك حضور غير عربى معه فى منافسة معناه رفع الحظر الذى كان مفروضا على غير العناصر العربية . . ورفع الحظر بهذه الصورة لايعنى انسحاب الحضور العربى من الميدان . بل ولا يعنى فتور همة الاجتهاد العربى فى خدمة الشكل البسيط من التجارة الدولية او انخفاض معدلات أدائه الوظيفى . وتؤكد كل الحقائق التى اسفرت عنها هذه المنافسة فى المحيط الهندى عن الفراغ فى الغموض الذى ستر أو حجب الحقائق الجغرافية . كما تصور هذه الحقائق كيف تحول الحضور العربى المغترب من حضور رائد متفرد امسك بزمام الاحتكار تجاريا وحضاريا الى حضور متسيد أمسك بزمام التفوق .

وهكذا انهكت الرحلة العربية فى أداء دورها فى المحيط الهندى ومن ورائها الحضور العربى المغترب الراسخ فى مستوطناته . وربما كانت المنافسة بينها وبين الرحلة البحرية غير العربية مسئولة عن توسيع

دائرة الابحار فى المحيط الهندى ، وعن تكثيف الاجتهاد الاقتصادى مع العملاء فى العالم الآسيوى . ولقد تجاوزت الرحلة العربية شبه القارة الهندية بكل تأكيد ومدت مسيرتها المنتظمة الى الملايو ومجموعة الجزر فى جنوب شرق آسيا .

وينبغى أن ندرك كيف أن الحضور العربى المغترب فى عالم المحيط الهندى لم يتضرر بالرحلة البحرية غير العربية ولا بالحضور غير العربى . بل وينبغى ان ندرك ايضا كيف احتفظ هذا الحضور العربى المغترب بزمام التفوق وهو يشد أزر الرحلة البحرية العربية ويجنى ثمرات اجتهادها . والأهم من ذلك كله هو تصاعد نشاط هذا الحضور العربى المغترب تصاعدا حفز الرحلة البحرية العربية حتى وسعت دائرة نشاطها وانتشارها فى انحاء المحيط الهندى . وادى ذلك الى رحلات بحرية عربية ناجحة فى شرق آسيا . وانفتح الباب على مصراعيه لكى تتقابل هذه الرحلات مع الرحلات البحرية الصينية (١٠) .

وهذا معناه انفتاح الحضور العربى المغترب على مدى اكثر اتساعا فى هذه المرحلة بداية من القرن الاول الميلادى . ومعناه ايضا تصعيد وتكثيف حصاد الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى اقتصاديا وحضاريا . بل وينبغى ان نتصور كيف كان ذلك كله من وراء النتائج التالية :

١ ـ توسيع دائر انتشار الحضور العربى المغترب واستيطانه فى انحاء وأ قطار من عالم المحيط الهندى .

ب ـ تأكيد ودعم مكانة العمل العربى فى حقل الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط .

ج ـ تهيئة الاتصال والانفتاح بين عالم المحيط الهندى وعالم شرق آسيا والصين على وجه الخصوص ، وفى ضوء هذه النتائج يجب ان نستشعر كيف ازداد تشبث الحضور العربى المغترب بالارض فى كثير من المواقع المنتخبة فى جنوب شرق آسيا . ولجأ هذا فى المرحلة السابقة الى الاختلاط ومصاهرة السكان المحليين ، لكى يدعم هذا التشبث ويشد أزره ويقوى ساعده . وهذا معناه ترسيخ سيادة الحضور العربى المغترب على الجبهة الآسيوية وعلى الجبهة الافريقية على حد سواء . بل لقد مضى هذا الترسيخ فى طريقه الصحيح لكى تتخذ بعض مراكز التجارة شكل الدويلة التى اصبح للحضور العربى المغترب فيها سلطانا سياسيا قويا وحاكما .

---

(١٠) حافظ الحضور العربى على وجوده دائما . وأمد العلاقة التى نشأت بين الاقرنة الى شكل من أشكال الاستقرار والاستمرار على الجبهة الافريقية .

وهذا الوضع الذى اسفر عن سلطان سياسى للحضور العربى المغترب فى المهجر أسفر عن اضافة تمثلت فى صياغة عمق استراتيجى سياسى على صعيد واسع فى احضان عالم المحيط الهندى . ومن الجائز ان نستشعر معنى العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد ، وكيف أمن الحضور العربى المغترب وحافظ على تسيده الاقتصادى والحضارى . ومن الجائز ان نستشعر ايضا العلاقة بين هذا العمق الاستراتيجى السياسى على هذا الصعيد والسلطان السياسى للدويلات فى جنوب جزيرة العرب . ولكن المؤكد أن هذا العمق الاستراتيجى السياسى فى المهجر قد أمن وآزر الوجود السياسى لدويلات الجنوب العربى لانه كان عمقا قويا ومستقرا ، ولاشك فى ان السلطة فى هذا العمق الاستراتيجى السياسى لم تتضرر ابدا فى هذه المرحلةالتى شهدت تقلبات الاحوال وكل التغيرات التى تعرضت لها السلطة فى الجنوب العربى(١١)

وبهذا المنطق ينبغى ان نتصور كيف كانت الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى من وراء حضور عربى يمنى مغترب،اكثر استقرارا واكثر امنا واكثر فاعلية حضاريا وسياسيا واقتصاديا من الوجود العربى اليمنى الاصيل فى الجنوب العربى . بل ولم يفلح الاجتهاد الرومانى ولا الرحلة البحرية غير العربية التى نافست الرحلة العربية فى زعزعة الحضور العربى المتسيد أو زحزحته من مكانته فى خدمة حركة التجارة الدولية المحدودة آنذاك . وهناك اكثر من دليل على ان هذا الحضور العربى المغترب قد افلح بكل تأكيد فى احتكار الحجم الاكبر من تجارة الذهب والمر والبخور وخشب الزين وغيرها من منتجات عالم المحيط الهندى . وحافظ هذا الاحتكار على حيوية العمل فى الموانىء العربية على ساحل الجنوب العربى وابقاها فى المكانة المرموقة وهى تلعب دورها الوسيط فى عمليات التبادل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط (١٢) .

هذا ، ويبدو ان الصراعات داخل الامبراطورية الرومانية على السلطة ، قد اضعفت فاعلية المنافسة التى تعرضت لها الرحلة العربية البحرية فى المحيط الهندى الى حد كبير ، كما كان ابتعاد الحضور العربى المغترب النشيط والمتسيد فى مراكزه التجارية ودويلاته فى حوض المحيط الهندى عن الصراعات التى شهدتها الارض العربية فى احضان الوطن الام فى الجنوب العربى ، من وراء التفرغ الكامل والمطمئن للأداء الوظيفى الذى كرست من اجله الرحلة البحرية لحساب التجارة الدولية .

---

(١١) وضع السلاسل الجبلية الوعرة التى تطوق شبه القارة الهندية ، من الذى خلق حركة للاتصال مع العالم الآسيوى فيما وراءها . بل لقد دعا حركة الملاحة النشيطة الدافعة بالفتح الحضارى لاستغلال البحر [illegible] وسيلة لأهم قنوات الاتصال فى العالم الخارجى .

(١٢) التحدى الطبيعى المتمثل فى [illegible] حركة الملاحة فى جنوب الجزيرة من التحدى الحضارى . ولم تحل الكتل الجبلية المنتشرة على [illegible] وصيانتها [illegible] لزراعة المحاصيل . لم يكن التحدى الثانى [illegible] حركة الملاحة وصناعتها [illegible] والقصاد فى كم للانتاج الزراعى [illegible] .

ومهما يكن من أمر فان هذه المرحلة من مراحل العمل البحرى الملاحى فى المحيط الهندى لاتسجل انفتاحا صريحا يفصح او يكشف عما يخدم المعرفة فى المحيط الهندى والاقطار التى تعاملت معها الرحلة العربية او الرحلة غير العربية . وصحيح ان دائرة الرؤ ية الجغرافية قد اتسعت ، وصحيح ان عناصر غير عربية قد اشتركت فى هذه الرؤ ية الجغرافية والاحاطة بها . ولكن الصحيح ايضا ان اطراف المعرفة الجغرافية التى تكشفت قد اغرقت بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى فى خضم السياق الاسطورى للخرافة حتى شوهت وجه الحقائق الجغرافية الى أبعد الحدود .

وفى اعتقادى ان اخفاء الحقائق التى تخدم وتوسع دائرة المعرفة الجغرافية قلنا ـ كان متعمدا فى بعض الاحيان ، ذلك ان الاخفاء والتشوية سواء من جانب الاجتهاد العربى او من جانب الاجتهاد غير العربى كان مطلوبا بكل الالحاح حماية للمصالح الذاتية بين المنافسة فى المحيط فى الهندى . ومع ذلك فلا ينبغى ان نقلل من حجم المعرفة التى تسربت لكى تكون اضافة الى الرصيد الجغرافى المعروف فى ذلك الوقت ، ولان المعرفة الجغرافية فى هذه المرحلة كانت أمانة فى عنق الجغرافيين المسيحيين الذين طاوعوا هوى الكنيسة ، فانهم قد اغرقوها كما اغرقوا معظم التراث الجغرافى فى ضلال كبير وهذا معناه ان المعرفة الجغرافية لم تتضرر فقط بالاخفاء والتستر والتشويه من جانب الاجتهاد العربى بل تضررت ايضا بموقف الكنيسة والجغرافيين المسيحيين من المعرفة الجغرافية . (١٣)

ومع ظهور الاسلام وانتصاره على صعيد الارض الأسيوية ، كانت كل التغيرات التى أسفرت عن نقطة تحول خطيرة فى مسيرة حركة الحياة بصفة عامة . وربما اسفر التحول عن انهاء مرحلة وبداية مرحلة اخرى من المراحل التى ادت فيه الرحلة البحرية العربية دورها الوظيفى فى المحيط الهندى ، ولكن يبقى السؤال الذى نسأل فيه عن دور هذه الرحلة فى خدمة المعرفة الجغرافية .

وصحيح ان التحول الذى أدى اليه الاسلام قد تسبب فى التغيير الى ما هو افضل اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وسياسيا على الصعيد العالمى ، ولكن الصحيح ايضا ان انتصار الاسلام الحاسم على كل الجبهات قد كبح جماح الاجتهاد الرومانى واحبط سعيه وانتشاره فى المحيط الهندى . وكان ذلك اشبه مايكون بالانسحاب من ميدان المنافسة فيه ومن ثم انفردت الرحلة البحرية العربية مرة اخرى

(١٣) من خلال [illegible] على الصعيد الافريقي ... وهي [illegible]
[illegible]
[illegible] ١٩٦٤

بالعمل فى هذا الميدان . وكان عليها ان تكون على مستوى المسئولية فى ظل اوضاع جديدة تشد أزرها وهى تؤيد دورها المرموق والمتسيد فى خدمة حركة التجارةالدولية بين الشرق والغرب .

وهكذا ، ينبغى ان نتصور كيف أحدث الاسلام أوضاعا جديدة تماما على الصعيد المحلى وعلى الصعيد الاقليمى وعلى الصعيد العالمى فى وقت واحد ، وكيف دعت هذه الاوضاع الجديدة الى بداية مرحلة جديدة من المراحل التى عملت فيها الرحلة البحرية فى المحيط الهندى لحساب التجارة الدولية . اما الاوضاع الجديدة فهى وليدة انتشار الاسلام انتشارا واسع النطاق وممارسة دوره كدين ودولة بعد الانتصار الساحق على دولتى الفرس والروم . من ثم كانت دولة الاسلام المظفرة على الصعيد الأسيوى والافريقى فى موقع ممتاز اكسبها سلطة ومكانة الدولة الاعظم فى مجتمع الدول آنذاك سياسيا واقتصاديا وحضاريا .

هذا ، ولقد ترتب على وجود دولة الاسلام الكبرى نتائج كثيرة اثرت بشكل مباشر او غير مباشر على حركة الحياة ، ليس فى اطارها السياسى فحسب ، بل فى كل المعروف من الارض فيما وراء حدودها وسلطانها الحاكم . ونذكر من هذه النتائج اشاعة الامن فى ربوعها وسيادة النظام الذى أمن حركة الحياة . ونذكر منها ايضا تهيئة الاجواء العامة لاحتكاك حضارى هادىء وبناء بين الاقوام التى انخرطت فى بنائها البشرى وحدثت النمو الحضارى والاقتصادى والاجتماعى فى الامصار والاقطار التى تجمعت أوصالها فى كيانها المادى والروحى .

وصحيح ان دولة الاسلام الكبرى لم تهتم ببسط سلطانها السياسى على المحيط الهندى ، ولم تحتفظ فيه باسطول بحرى حربى يفرض ذلك السلطان الحاكم . ولكن الصحيح ان هيبة هذه الدولة قد اشاعت فيه جوا من الأمن والامان وأمنت الملاحة العاملة فى انحائه . وما من شك فى ان الرحلة البحرية قد انتفعت بجو الامان فيه الى حد كبير . بل ولقد استثمر هذا الامان ايضا الحضور العربى المغترب على الجبهتين الافريقية والأسيوية . بمعنى ان هذه المرحلة التى عاشت فيه حركة الحياة على المعروف من الارض تحت مظلة الأمن والامان الاسلامى قد شهدت وسجلت نشاطا بحريا متصاعدا فى المحيط الهندى لحساب التجارة الدولية . كما عاش الحضور العربى المغترب الازدهار والعز والمكانة المرموقة فى مستوطناتهم الافريقية والأسيوية .

هذا ويبدو ان وزن دولة الاسلام التى هيمنت اعتبارا من القرن الثامن الميلادى على البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى ، ومرور التجارة فيها بين الشرق والغرب قد حقق لها الانتفاع بمزايا

الموقع الجغرافي الحاكم وأحبط في نفس الوقت اي منافسة واجهت الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي . كما ان عدم وضوح الرؤية الجغرافية بشأن وضع وامتداد الأرض الافريقية وامكان الدوران من حولها والتحرك من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهندي قد اغلق باب المنافسة بالفعل في مياه المحيط الهندي . ومن ثم اطلق هذا الوضع الجديد العنان للرحلة البحرية العربية لكي تصول وتجول وتهيمن منفردة على المحيط الهندي ، ولكي تعيد للحضور العربي المغترب المتفرد في الرحلة السابقة لميلاد المسيح سيرته الاولى .

ـ ومع ذلك ، فينبغي ان نميز بين تفرد الحضور العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على جهالة وعدم معرفة غيرهم بالمحيط الهندي وعلى التخوف من الابحار والمخاطرة فيه ، وتفرد الحضور ـ العربي والرحلة العربية البحرية ، بناء على عجز حقيقي ابطل مفعول المنافسة الاوروبية وشل فاعليتها . وهذا معناه ان تفرد الحضور العربي قد بنى على استبعاد الاجتهاد البحري غير العربي عن الابحار والملاحة في المحيط الهندي . ومعناه ايضا ان مكانة الوجود الاسلامي وهيبته المرموقة قد اوقفت منافسة الرحلة البحرية غير العربية للرحلة البحرية العربية ، من غير ان يصدر حظرا وتحذيرا ، أو من غير أن تخوض حربا معلنة او غير معلنة ضد الاجتهاد الاوروبي .

ـ وهكذا نصر الاسلام الرحلة البحرية العربية في المحيط الهندي وشد أزرها . كما أسبغت عليها هيبة الاسلام ومكانته في مجتمع الدول على صعيد العالم المعروف آنذاك أمنا واطمئنانا مطلقا على الطريق في المحيط الهندي . ومن ثم كان على الرحلة البحرية العربية ان تواصل اداء مهمتها لحساب هيمنة اقتصادية على حركة التجارة في المحيط الهندي وان تصعد نشاطها في خدمة تجارة دولية تزداد معدلاتها وتنمو نموا مستمرا بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط وأوروبا .

ـ وفي هذه المرحلة من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر الميلادي ، شهد المحيط الهندي وشهدت مستوطنات الحضور العربي على الجبهتين الافريقية والاوروبية اقصى درجات الاجتهاد العربي في الرحلة البحرية . بل ولقد اوشك الحضور العربي بعد ان هيمن او سيطر على المحيط الهندي ان يكون حضورا كاملا ومتسيدا في وقت واحد . وحمل هذا الحضور العربي أمانة العمل البناء في خدمة التجارة والوساطة التجارية . وتولى في الوقت نفسه مهمة الدعوة الى الله ونشر الاسلام على صعيد الارض التي تعامل معها تجاريا وعلى صعيد المهجر في آسيا وافريقية . ومن ثم رسخ هذا الحضور العربي المغترب وجوده في المهجر ترسيخا سياسيا وحضاريا واجتماعيا .



(٤)

ـ وكان فيض هذه الرحلة البحرية العربية الغزيرة ونجاحها الباهر في دنيا التجارة الدولية اضافة هامة ورئيسية لحساب الاسلام والمسلمين . بل لقد عزز هذا الفيض المثمر مكانة دولة الاسلام اقتصاديا ، حيث امسكت بزمام حركة التجارة الدولية وجنت ارباح كل تجارة العبور او المرور بين الشرق والغرب . بمعنى انه قد تحقق اعظم مثل للانتفاع المتبادل بين هيبة دولة الاسلام التي اشاعت الامن والامان من جانب ونشاط حضور عربي اسلامي مجتهد انكب على اداء دوره في خدمة التجارة الدولية من جانب آخر .

ـ ولقد سجل الاجتهاد العربي المتطور في هذه المرحلة ، انجازات هامة ومثمرة لحساب عملية الملاحة البحرية ، وتأمين السفر البحري . وكانت اهم هذه الانجازات التي طورت تجهيز وبناء تشغيل السفينة مبنية على ابداع فني متخصص اسفرت عنه خبرة وتجارب المدى الطويل في احضان المحيط الهندي . وكان بعضها الأخر وليد الانفتاح والاحتكاك الحضاري مع العاملين من سكان شرق وجنوب شرق آسيا في الملاحة البحرية . وصحيح ان دولة الاسلام قد جنت ثمرات هذه الانجازات . ولكن الصحيح ان بعض ثمرات هذه الانجازات كانت لحساب حركة الحياة في العالم بصفة عامة .

ـ وهكذا لاينبغي ان تنكر دور الحضور العربي في المحيط الهندي وهو يجتهد او وهو يتجر ليس لحسابه الشخصي فقط بل لحساب الاسلام ودولة الاسلام والعالم المعروف آنذاك ايضا ، وما من شك في ان الاغتراب وحياة الحضور العربي اليقظ في المهجر قد تشبثت بالصلة بينها وبين الوطن الام في الجنوب العربي . كما انها حافظت على صلاتها الطيبة بالوطن الكبير الذي ضم عالم الاسلام كله على الصعيدين الافريقي والآسيوي .

ـ وحضور عربي مغترب نشيط اتصل سعيه وكلل بالنجاح على المدى الطويل ، ورحلة بحرية مثمرة في انحاء المحيط الهندي لا يمكن ان نقلل من شأن رؤيتها الجغرافية الواسعة التي احست وعاشت في المكان وعايشت وتعاملت مع الانسان في ارجائه . ولاينبغي ـ على كل حال ـ ان نتصور ان هذه الرؤية الجغرافية ، لم تحقق اضافة مفيدة الى المعرفة الجغرافية لمجرد ان الحضور العربي المغترب قد كتم هذه المعرفة وقتر في مجالات الاعراب عنها ، تحسبا لخطر المنافسة على مصالحه الاقتصادية الخاصة والعامة . بل لاينبغي ان نقلل او نهون من شأن بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، التي كشفت الرواية او القصة عنها . واغرقتها في معظم الاحيان بقصد او من غير قصد في سياق السرد الاسطوري والخيال . وما من شك في ان تسرب بعض جوانب المعرفة الجغرافية ، قد وضع بدايات مبكرة مهدت ورشدت حركة الكشوف الجغرافية الكبرى اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادي .

ـ وهناك مثل كاشف لمعنى ترشيد حركة الكشوف الجغرافية نضربه لأولي الألباب ، لعلهم يعرفون ويقتنعون ، والمثل الذي أعنيه بالفعل ، هو الكاشف عن معرفة الحضور العربي المغترب في جنوب غرب آسيا ، معرفة مؤكدة بالارض الجنوبية التي عرفت فيا بعد باستراليا . وكانت هذه المعرفة التي تسربت من بين شفاههم في سياق الرواية او القصة كفيلة باعلام صريح عن أرض مجهولة في موقعها الجغرافي القصصي في نصف الكرة الجنوبي . ولقد اصبح هذا الاعلام وحده ، الصيحة التي نادت بعض المغامرين وحفزتهم للكشف عن هذه الارض ، ولادخالها في اطار المعروف من الارض على الصعيد العالمي .

ـ وصحيح ان هذا الاعلام الصريح كان من قبيل الشائعات التي روج لها وحدث عنها الحضور العربي المغترب ، وصحيح ان هذه الشائعات لم تضع الانسان الباحث عن المعرفة الجغرافية في مواجهة مباشرة وواضحة مع الحقيقة الجغرافية ، ولكن الصحيح ايضا ان هذا الاعلام وتلك الشائعات قد حددت بداية الطريق بالفعل التي شهدت مسيرة الاجتهاد الاوروبي الباحث عن الارض الجنوبية المجهولة Tarra Incognite في جنوب آسيا .

ـ ونذكر في هذا المجال كيف استخلص ماركو بولو في سنة ١٢٩٥ معلومات من افواه التجار العرب تحكي وتقص عن وجود هذه الارض الجنوبية المجهولة . ولقد اورد ماركو بولو وهو في طريق عودته من رحلته في الصين واثناء مروره ببعض الجزر والمستوطنات التي احتوت الحضور العربي المغترب في جنوب شرق آسيا ذكر جزيرة جاوه الكبرى . واكد على وجودها وكيف انها تقع جنوب جزيرة جاوه ، وانها اكبر جزر العالم واعظمها مساحة [١٤]

ـ ومن خلال الرواية التي استمع اليها ماركو بولو ، اشارة الى علاقة التجار العرب في مستوطناتهم في جنوب شرق آسيا بسواحل جزيرة جاوة الكبرى الشمالية ، وذكر انها قد احتوت مخازن التوابل والمنتجات المتنوعة التي تخصصوا في الاتجار فيها ونقلها على سفن الرحلة البحرية العربية . ومن ثم نعتبر ما اورده ماركو بولو أول أعلام صريح عن هذه الارض الجنوبية لافت لنظر الباحثين عن اضافة لحساب المعرفة الجغرافية .

ـ وما من شك في ان بهايم Behaim الذي صمم وأعد كرة نورمبرج في سنة ١٤٩٢ قد انتفع بهذا

(١٤) صلاح الدين الشامي : استراليا القاهرة ١٩٦٤ صفحة ١٠ ، ١١

الاعلام الصريح . ولقد تضمنت هذه الكرة التي صورت او جسدت توزيع اليابس والماء امتدادا أرضيا عبر عن الارض المجهولة في جنوب المحيط الهندي . وتكرر هذا التصوير او التجسيد مرة اخرى على الكرة التي صنعها هنت لينوكس في عام ١٥١١ ، على الخريطة التي رسمت تحت رعاية هنري الثاني ملك فرنسا في عام ١٥٣٦ ومن ثم نستطيع ان نتصور كيف اطلق العنان للرحلة الاوروبية بعد ذلك للكشف الجغرافي عن حقيقة هذه الارض المجهولة .

ـ هذا ، وينبغي ان ندرك كيف وصلت الرحلة بالبحرية العربية بشكل منتظم الى هذه الارض المجهولة ، لكي تنتفع وتستخدم المخازن التي امتلكوها . والوصول الى المخازن على ساحل الارض الجنوبية المجهولة (جاوة الكبرى) معناه ان علاقة ما قد تأتت بين الحضور العربي المغترب في جنوب آسيا وهذه الارض . وفي اعتقادي ان هذا الحضور العربي المغترب انقسم قسمين من حيث العلاقة بهذه الارض . القسم الاول ضم اولئك الذين عاشوا في شكل من اشكال الاستقرار في حراسة المخازن والمحافظة على محتوياتها . اما القسم الآخر فلقد ضم أولئك الذين سيروا الرحلة المنتظمة من والى مواقع المخازن على ساحل تلك الارض الجنوبية المجهولة .

ـ ومهما يكن من أمر فان تكتم اخبار هذه العلاقة بين الرحلة البحرية العربية وساحل استراليا الشمالي لبعض الوقت أهم دليل لايضل ولايضلل على اهتمام العربي المغترب وصاحب المصلحة في تجارة المحيط الهندي بتوسيع دائرة معرفتهم الجغرافية والانطواء عليها وعدم التفريط فيها ، ويبدو ان عدم التفريط في المعرفة الجغرافية التي نعنيه كان امرا مطلقا ، والا فكيف نفسر خلو التراث الذي اسفر عنه الاجتهاد الجغرافي الاسلامي من حشد أو عرض صور من الرؤية الجغرافية في انحاء المحيط الهندي .

●●●

ـ وبهذا المنطق ، نتبين كيف افلحت الرحلة البحرية العربية في ارتياد المحيط الهندي ، وكيف واصلت هذه المهمة من غير انقطاع . كما نتبين ايضا كيف افلح الاجتهاد العربي الذي نظم هذه الرحلة وانتفع بها ، في تكتم المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي في كل المراحل المتوالية التي شهدت انتظام الملاحة العربية فيه . ومع ذلك فلقد تسربت بعض هذه المعرفة الجغرافية من خلال الروايات والقصص التي سجلت المغامرة البحرية العربية .

ـ وفي المرة الثانية كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح نقطة انطلاق جديدة لكي يتسلل الاجتهاد الاوروبي الى المحيط الهندي . وأحيا هذا التسلل الانتفاع ببعض المعرفة الجغرافية التي كانت قد تجمعت كحصاد للاجتهاد الروماني البحري . وما من شك في ان هذا التسلل الاوروبي قد مهد للاقتحام الكاسح في المحيط الهندي اعتبارا من القرن السادس عشر ، وانه كان على غير ارادة الحضور العربي المغترب ولغير مصلحته التي تضررت كثيرا .

ـ هذا ، ولم تتغير الاوضاع التي دعت الى التستر على الرؤية الجغرافية في المحيط الهندي وعالم المحيط الهندي الا بعد الكشف الجغرافي عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولقد تبنى الاقتحام الاوروبي ارادة الكشف الجغرافي عن المحيط الهندي . وصحيح ان معرفة الحضور العربي الجغرافية عن عالم المحيط الهندي قد رشدت حركة الكشوف الجغرافية التي قادها الاجتهاد الجغرافي الاوروبي . ولكن الصحيح أيضا أن الاضافات التي اسفرت عنها هذه الحركة كانت ثمرة مفيدة للمعرفة الجغرافية ونقطة بداية للحركة الاستعمارية الأوروبية .

***

رحلات جليفر

منور شريف

« إن أدب السخرية كالمرآة يكتشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا وجوههم . ولعل في هذا تفسير للقبول الذي يلقاه هذا النوع من الأدب في العالم ، وفيه تفسير أيضا لقلة من يجد فيه مثارا لغضبهم » .

هكذا قال جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) Jonathan Swift أعظم كاتب ساخر أنجبته انجلترا في تاريخ أدبها الطويل . وقد يكمن فيما قاله « سويفت » عن تأثير أدب السخرية المميز على القارىء السر في استمتاع القراء على مر العصور بكتاباته الساخرة - فما زال « سويفت » الى اليوم ، وبعد مرور أكثر من قرنين من الزمان على وفاته موضع اهتمام الباحثين والدارسين والقراء على السواء ، وما زال منطق كتاباته يلمع في بقاع الأرض الواسعة . فأينما وجدت الحروب والظلم والاستغلال والفساد والنفاق على المستوى السياسي العام ، والغرور والوضاعة والجحود والجشع والحماقة على المستوى الفردي ، فستظل كتاباته محتفظة بحيويتها وعصريتها ، وطالما كان الانسان يعيش تحت وطأة القوى المدمرة التي تنذر بفناء الجنس البشري فسيجد القارىء في أدب « سويفت » الافكار والمشاعر التي تجيش في صدره ، والتي تتلخص في الاشمئزاز والغضب من السلوك الاحمق اللاأخلاقي . فلا غرابة اذن في ان كتاب رحلات جليفر (١٧٢٦) Gullivers Travels ، وهو

أشهر مؤلفات « سويفت » قد أصبح كتابا عالميا ترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، كما ترجم الى ثمانية وعشرين لغة من لغات الاتحاد السوفيتي .

كان « سويفت » عالميا في تفكيره رغم اتجاهاته المحدودة . فكانت ميوله الدينية والسياسية محافظة ، ومع ذلك فقد تسببت كتاباته في كثير من الاحراج للكنيسة الانجليزية وللحزب « المحافظ » ، وكانت شعبيته عظيمة في ايرلندا ، حيث ولد ومات ، ودافع عن قضاياها ضد انجلترا ، حتى أصبح « الوطنى الايرلندى » الوحيد في القرن الثامن عشر الذي استطاع أن يوحد بين صفوف الايرلنديين ، ولكنه أراد أن يعتبر سيدا انجليزيا ورفيقا للسياسيين والحكام الانجليز ، والواقع اننا لا نستطيع أن نقيد « سويفت » الاديب بحزبية ضيقة أو بوطنية محدودة ، إنه من الخالدين الذين لا وطن لهم ولا عصر .

لم يكن أديبا انشغل برؤياه ومشاكله الفنية بحيث عاش بعيدا عن المجتمع وصراعاته . بل كان من الأدباء والفنانين الذين ساهموا مساهمة فعلية في الحياة العامة ، فجاء ابداعه في الكتابة ثمرة لتجاربه العملية . وقد بدأ في شبابه ككاتب ذى قدرة فائقة على السخرية من تناول الانسان للدين والعلم والمعرفة وتشويهه لها . ثم استعان بشعره ونثره الساخر في عمله الرسمي كمسئول عن الاعلام في وزارة « المحافظين » ولجأ الى قلمه كأداة لانجاز سياسة الحزب الحاكم الذي انتمى اليه . وتأثرت كتاباته في هذه المرحلة من حياته بالاتجاهات السياسية والحزبية .

ولحسن الحظ وجد « سويفت » نفسه فيما بعد بعيدا عن العمل السياسي ومعزولا عنه ، فسنحت له فرصة الملاحظة والتأمل واستعادة الذكريات وتسجيل التجربة على نحو أكثر موضوعية وشمولية ، وهنا انطلق كما يجب ان ينطلق الأديب ، وأطلق العنان لخياله الابداعى ، وأصبح سيد مادته وليس عبدا لاهتمامات خارج العمل الادبي نفسه . فكتب للأجيال القادمة ، وتناول قيما أخلاقية وانسانية بقوة وثقة مكنته من تحطيم حدود الزمان والمكان . فجاء أدبه أثرا خالدا للروح الانسانية والفكر الانسانى .

ورحلات جليفر من نتاج هذه الظروف المواتية .

●●●

ولد « سويفت » عام ١٦٦٧ من أبوين انجليزيين في ايرلندا ، وأمضى هناك الجزء الأكبر من حياته . وتلقى دراسته في كلية « ترينتى » Trinity في « دبلن » ، ولكنه اكتسب معرفته الواسعة من مكتبة « مور بارك » Moor Park في « صارى » Surrey حيث عاش بضع سنوات كسكرتير لـ « سير وليم تمبل » Sir William Temple وهو سياسي متقاعد ذو اهتمامات ثقافية . وفي عام

١٦٩٥ أصبح من رجال الدين ، ثم انتقل عند وفاة « سير وليم » عام ١٦٩٩ الى أبروشيته في ايرلندا التي اتخذها مقرا دائما له . وفي تسعينات القرن السابع عشر كان « سويفت » قد كتب مؤلفين هامين نشرا عام ١٧٠٤ هما :

معركة الكتب **Battle of the Books** وهو اسهام مرح في الجدل القائم وقتئذ حول الأدبين المعاصر الحديث والكلاسيكي القديم ، وهو موضوع شغل بال الكثيرين في انجلترا وفرنسا في القرن السابع عشر ، وكتاب قصة برميل * **A Tale of a Tub** وهو مؤلف وصفه « سويفت » بانه تعريض بسوء استخدام الانسان للمعرفة والدين الى درجة قضت على قيمتهما . وقد أكسبه هذا المؤلفان اعجاب رؤسائه في الكنيسة الايرلندية أيام كانت الموهبة الأدبية والفكرية جوازا للوصول الى أعلى المراكز في الدولة . فكلفته الكنيسة بمهام خاصة في انجلترا عند حكومة « الأحرار » **Whigs** أولا ، ثم عند حكومة المحافظين « **Tories** التي انضم اليها فيما بعد . وقد أصبح ذا نفوذ كبير في لندن اثناء حكم « المحافظين » من عام ١٧١٠ حتى وفاة الملكة « آن » عام ١٧١٤ . ولكنه عاد الى « دبلن » كأسقف كاتدرائية « سانت باتريك » عند سقوط حكومة « المحافظين » وبذلك انتهت المرحلةالأولى في حياته السياسية .

كانت السنوات الاربع من عام ١٧١٠ الى عام ١٧١٤ أهم فترة في تجربة « سويفت » السياسية . وليس أدل على عمق الأثر الذي تركته في حياته وفكره من رائعته الأدبية « رحلات جليفر » . وقد كتب باستفاضة ومن وجهة نظره الشخصية عن تلك الفترة الحاسمة في تاريخ انجلترا ، معبرا عن آماله ومخاوفه وأفكاره الى صديقة العمر « استيلا » في يومياته لاستيلا **Journal to Stella** . وكانت لندن آنذاك في حالة من الغليان السياسي بسقوط وزارة « الاحرار » بزعامة « جدلفن **Godolphin** وحلول وزارة « هارلي **Harley** و « سنجين **St John** » المحافظة » محلها ، وذلك على أثر الانتخابات العامة التي اسفرت عن حصول « المحافظين » على أغلبية ساحقة وسيطرتهم الكاملة على مجلس العموم ، وكانت الدعوة الى السلام مع فرنسا ، التي كانت في حرب مع انجلترا وحليفاتها منذ بداية حكم الملكة « آن » عام ١٧٠٢ ، على وشك النجاح . في هذه الاثناء كان « سويفت » على اتصال دائم بعدد كبير من السياسيين الناقمين على الاوضاع السائدة . وسرعان ما طلب « هارلي » رئيس الوزارة مقابلته ، ووعده بمساندة الكنيسة الايرلندية ، وهي المهمة التي سبق أن أخفق « سويفت » في انجازها مع حكومة « الاحرار » ، وكان فشله أحد الاسباب العديدة التي خذلت أمله في الحزب الذي عمل

* يشرح « سويفت » معنى العنوان في المقدمة ، فيقول انها عادة البحارة ، عندما يهاجم حوت السفينة ، ان يلقوا برميل في البحر ليلهو الحوت ليشغله عن السفينة ولعبة « سويفت » كانت تلهي اللقاء من مهاجمة نقاط الضعف في الكنيسة والحكومة .

معه ودافع عن سياسته . فانصرف عن « الاحرار » ، وهاجم دوق « موربلورو **Duke of Marlborough** » الذي شن الحرب ضد فرنسا وأصبح من اعوان حكومة « المحافظين » الجديدة التى رحبت به لأهمية الدور الذي يستطيع ان يلعبه بقلمه . فعمل كرئيس تحرير لصحيفة « الممتحن **The Examiner** » التى كانت تهدف الى تعبئة الرأى العام فى صف « المحافظين » ، وأصبح « سويفت » كاتب الحزب الرئيسى ومستشاره الادبى . وعندما تحركت الحكومة فى نهاية الامر لانهاء الحرب بتوقيع معاهدة « أترخت **Utrecht** » ألف كتيبا بعنوان سلوك الحلفاء **The Conduct of the Allies** وهو من أقوى حجج العصر السياسية واكثرها شعبية . سائد فيه سياسة الحكومة « المحافظة » فى سبيل معاهدة السلم مع فرنسا . وكافأته حكومة « هارلى » على خدماته بتعيينه أسقفا لكاتدرائية « سانت باتريك » وهو مركز اعتبره « سويفت » عن حق أقل بكثير مما يستحقه بعد المجهود الذي بذله فى تأييده الحكومة .

وبموت الملكة « آن » وتولى جورج الاول (من اسرة « هانوفر **Hanover** ») عرش انجلترا سقطت حكومة المحافظين ، وفقد سويفت بعودة « الاحرار » الامل فى مركز رفيع فى الدولة . فعلى أثر فرار « بلنجبروك **Bolingbroke** » الى فرنسا وسجن اكسفورد **Oxford** فى قلعة لندن (وهما من وزارة المحافظين السابقة) انتظر سويفت الى الاقامة فى اسقفيته فى دبلن . وباستثناء زيارتين قصيرتين لاصدقائه فى انجلترا بقى حتى آخر ايامه فى ايرلندا التى اعتبرها منفى سياسيا وفكريا ، وان كان لم يكف عن نشاطه فى ايرلندا ، بل بدأت المرحلة الثانية لنفوذه السياسى فى عشرينات القرن الثامن عشر ، عندما ناصر الشعب الايرلندى فى مطالبه ، ودافع عن البرلمان الايرلندى ضد وزارة الأحرار تحت رئاسة « روبرت وولبول **Robert Walpole** » فى انجلترا . واصبح معبود الشعب الايرلندى الذي اطلق عليه اسم « الوطنى الايرلندى » و « الاسقف العظيم » . ويحكى أنه عندما أراد وولبول أن يلقى القبض على سويفت فى ايرلندا ، نصحه اعوانه بانه لن يستطيع ذلك إلا إذا أرسل جيشا من عشرة آلاف جندي للقيام بتلك المهمة ، لأن الايرلنديين سيقطعون وولبول إربا فى شوارع دبلن . ولا تعنينا هذه المرحلة الثانية فى حياة الكاتب السياسية ، والتى جاء كتاب رحلات جليفر ثمرة لها .

إنهار عالم سويفت من حوله عام ١٧١٤ ، وانسحب من الحياة العامة شاعرا بالهزيمة والفشل والاحباط . وبعد فترة من الاكتئاب الغامر والاحساس بانه « سوف يموت فى منفاه (فى دبلن) مثل الفأر المسموم فى جحره » ، لم يلبث أن عادت اليه حيويته وثقته بالنفس ، وأصبح كما سبق أن كان « الأسقف الفطن » والرفيق المتحضر فى مجتمع ايرلندا المتأخر . غير أنه مرت سنوات قبل ان يستعيد

الطاقة الفائقة اللازمة للعمل الابداعي، وانتقل بعدها الى مرحلة من الانتاج الادبي يختلف عما سبقه من حيث عمق التفكير وروعة الأداء ، ولمع في السنين ما بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٢٩ ليس ككاتب ذي اهتمامات واسعة ومهارة في الجدل المثور والفكر الساخر فحسب ، وانما كفنان اديب ينتمي الى عالم أرحب ، واخذ ينمي صداقات جديدة في ايرلندا ، كما اخذ يراسل اصدقاءه القدامى في انجلترا ، وبدأ نجمه يتألق مرة اخرى ، وظهر في أوج عظمته كمؤلف رسائل درابير (١٧٤٢) **Drapiers Letters** ورحلات جليفر (١٧٢٦) واقتراح متواضع (١٧٢٩) **A Modest Proposal** التي هاجم فيها سياسة انجلترا نحو ايرلندا هجوما عنيفا ساخرا .

وبرز كشخصية مرحلة مميزة في المجتمع الايرلندي حتى وصل إعجاب الشعب به وحبهم له الى حد العبادة . وعلينا إذا أردنا أن نعطي صورة صادقة لهذه الشخصية الادبية البارزة في مجتمع القرن الثامن عشر أن نشير الى نواحي سويفت المتعددة ، حتى نستطيع أن نقيم عملا مركبا مثل رحلات جليفر تقييما كاملا . فلم يكن سويفت مجرد كاتب سياسي يتأمل في سخرية أخطاء الانسان ونقاط ضعفه ، وانما كان ايضا مفكرا مثقفا جالس عظماء وكتاب عصره ، وانسانا رقيقا حنونا كما هو واضح من خطاباته وقصائده التي كتبها لصديقته / استيلا / .

ويتضح مما سبق أن الفترة التي كتب فيها /سويفت / رحلات جليفر كانت من اغنى فترات حياته واخصبها ، تمتع خلالها بقدرة إبداعية فائقة ونشاط فكري ثري . ولا بد أن نؤكد هذه الحقيقة لكثرة ما كتب عن حالة سويفت العقلية عندما أنتج رائعته الادبية ، وبالذات الجزء الأخير منها ، أي رحلة جليفر الى بلاد « الهوينوهمز» **Avoyage to the Country of the Houynhnms** فقد مال النقاد ، بسبب ما اعتبروه تشاؤما قاتما في نظرته الى الانسان ، ما لوا الى الاعتقاد بأن سويفت كان قد فقد قواه العقلية وأصيب بلوثة جنون .

●●●

كتب سويفت جزءا كبيرا من رحلة جليفر الأولى وبعض أجزاء من رحلته الثالثة عام ١٧١٤ ، وكان هدفه السخرية بروح مرحة خفيفة من التحذلق في مجالات المعرفة المختلفة ، بما في ذلك المجال العلمي . وعندما صدم في طموحه السياسي ونفي الى « دبلن » ترك فكرة الرحلات جانبا مدة من الزمن الى أن انقشعت عنه القتامة التي ألمت به واستعاد قدرته على الكتابة . وبدأت فكرة الرحلات

تراوده مرة أخرى . ورغم أنه لم يحمل معه المؤلف كاملا للنشر الى انجلترا حتى عام ١٧٢٦ ، إلا أنه واضح من رسائله أنه كان منشغلا عام ١٧٢١ في اضافة الجديد الى ما سبق أن كتبه وفي تحريره ومراجعته . وقد اعتمد في كتابة رحلات جليفر على قراءات عديدة كلا سيكية وحديثة . ولكنه أجرى تغييرات كبيرة في كل ما استعاره من سالفيه ، وحور في اتجاهات تلك الاستعارات لتخدم روح الفكاهة والهدف الساخر اللذين اشتهر بها . وعندما بدأ كتاب الرحلات يأخذ شكله النهائي أدخل في نسيجه إشارات الى السياسة المعاصرة واهتمامات « الجمعية الملكية » (١) Royal Socicty .

كما بدت له في مناقشاتها وتقاريرها . فجاء المؤلف حصيلة غنية لقراءات وتجارب واحد من أعظم العقول المثقفة في القرن الثامن عشر .

وكتاب رحلات جليفر من أنضج مؤلفات سويفت وأكثرها عمقا وتفكيرا ، كما انه غاية في التركيب العاطفي ، وان كان ظاهره يوحي بالبساطة . ويلتقي القارىء في هذا الانتاج الأدبي بجميع نواحي مؤلفه التي عبر عنها في كتاباته من خلال أقنعته الساخرة المتعددة التي أخفى وراءها شخصيته الحقيقية . ومن امثالها شخصيات « الاسقف » و « درابير » Drapier و « بيكرستاف » Biekerstaf التي يتحدث سويفت متنكرا على لسانها معلنا عن رأيه ، إما بروح الجدية الساخرة التي اشتهر بها سير فانتيس Cervantes ، أو بروح الكوميديا الضاحكة التي تميز بها رابيليه Rabelais . ففي الرحلات يتجسد الرجل أمامنا في جميع أبعاده وأمزجته وردود أفعاله المتغيرة المتقلبة التي نعرفها في الانسان النابض بالحياة . وفوق كل هذا يكشف الكتاب عن تلك الروح المرحة المأساوية التي لا نجدها الا في عظماء الرجال .

ورحلات جليفر الى حد ما عمل أدبي مأساوي . أو على وجه التحديد انه أقرب الى المأساوية من أي عمل أدبي آخر ظهر في القرن الثامن عشر . وتكمن المأساة في نظر سويفت في اللا عقلانية التي تسود حياة الانسان في جميع تصرفاته وسلوكه . فقد بنى سويفت ، وهو ابن العصر « الاغسطي » أو عصر « العقل » ، كما عرف به ذلك القرن ، بنى عقيدته على « العقل » وقيمته الأساسية في السلوك البشري ، وثار عندما افتقده في صميم الانسان . ورحلات جليفر تعبير عن غضب الكاتب من حماقات ورذائل الانسان ، وعن شعوره الغامر بقصور الانسان المأساوي .

---

١ - أقدم جمعية علمية في انجلترا وأشهر جمعية من نوعها في العالم . بدأت عام ١٦٤٥ باجتماعات اسبوعية للعلماء في لندن . وفي عام ١٦٦٠ انعقدت رسميا بموافقة الملك « تشارلز الثاني » .



جوناثان سويفت (بريشة ديفيد ليفين)

ومع ذلك فالكتاب روعة من روائع الادب الهزلى ، ومن الخطأ اعتباره نتاج يأس قاتم . فرغم أن الغضب والاحتقار والاشمئزاز أساس جميع كتابات سويفت الساخرة ، الا انه كتبها تحت تأثير اعتقاده الراسخ بأن رؤية الذات ومعرفتها على حقيقتها ستؤدى فى نهاية الأمر الى السلوك السليم . وكان هدفه من كتابة رحلات جليفر ، كما قال هو « اصلاح العالم » مما يوحى بالامل وليس بالتشاؤم . ومما يؤكد هذا ايضا روح الفكاهة المرحة المتوغلة فى الرحلات ، التى تنفى ما أصر عليه عدد من النقاد من أنه نتاج عقل مريض على شفا الجنون ، فهذه الروح دليل قاطع على صحة سويفت العقلية والروحية عندما كتب الرحلات . أما مرضه العقلى فلم يصب به الا بعد ظهور الكتاب بسبعة عشر عاما .

ويخدم المرح والفكاهة والهزل فى رحلات جليفر السخرية ، وهو هدف سويفت الاساسى ،

والسخرية اكثر شراسة من الهزل فى هدفها الاخلاقى لأنها تقيس السلوك الانسانى بمقارنته بالنموذج المثالى وليس العادى . وترفع أمام ناظر القارىء مرآة تعكس صورة مشوهة مبالغ فيها لحياته ، لا يلبث ، ان كان على قدر من الوعى ، أن يكتشف فيها صورته هو . ويكون وقع الصدمة بمقدار الهوة التى تفصل بين المقاييس الاخلاقية التقليدية وبين السلوك الواقعى .

وكان العصر « الاغسطى » من اكثر العصور ملاءمة للأدب الساخر . وساعد الايمان السائد آنئذ بالطبيعة والعقل » فى رأى بازل ويلى (٢) Basil Willey على انتشاره ، حتى أصبح النصف الاول من القرن الثامن عشر العصر الذهبي لذلك النوع من الأدب . فكلما راقت « الطبيعة » فى مجموعها للانسان بدأ هو نفسه قاصرا بالمقارنة وقد آمن العصر بنظام الطبيعة » ، ويبحث للانسان عن مكان فى ذلك النظام الذي تصوره للكون . وأكد عدد من الفلاسفة والمفكرين من أمثال انتونى آشلى كوبر Anthony Ashley Cooper وشافتسبرى Shaftesbury طيبة الانسان الخيرة ، ووصفوه بأنه مخلوق اجتماعى عاقل بطبيعته ، وكانت نظم مجتمعه فى نظرهم امتدادا لنظام الكون الالهى . وباختصار فقد وجدوا أن « كل شىء على ما يرام فى العالم » وأن عالمنا « على أحسن ما يمكن أن يكون » ووفقا لنظرية عريقة ترجع الى أرسطو ، ساندتها الرواقية والمسيحية ثم أكدها الفيلسوفان ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) Lock ، فان جوهر الانسان هى روحه العاقلة . وحالة « الطبيعة » الحقيقية ، كما قال لوك يحكمها قانون « الطبيعة وهو قانون « العقل » ، ولا تنتظم أمور الانسان الا عندما تطابق النظم الاجتماعية نظرية الطبيعة البشرية الخلة واعتقد المرء فى العصر « الاغسطى » أن مثله العقلية المستنيرة قد تحققت وأصبحت المقياس الطبيعى المتبع . ولكن عندما نظر المفكرون والادباء من حولهم تنبهوا الى الفرق الشاسع بين النظرية والتطبيق .

طبق الادباء الساخرون المقاييس « الطبيعية » على الواقع السائد فى اوائل القرن الثامن عشر . فوجدوا أن الانسان الذي سبق أن كان روحا خالدة تنشد الاخلاص ، أو روحا عاقلة تبحث عن الفضيلة ، أصبح ذاتا اقتصادية أو سياسية تتلهف على المال والجاه والسلطة ، وكانت الدوافع المادية ما زالت مختبئة وراء ستار الدين والسياسة فى القرن السابع عشر . اما القرن الثامن عشر فقد أزيح الستار وظهرت الدوافع الاقتصادية والملكية كأقوى باعث للعمل الفردى والجماعى . وجاء ما قاله المفكر هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) Hobbes فى طبيعة الانسان ، البدائية المتوحشة المبنية على المنافسة والصراع مطابقا للواقع ، عندما تهالك الأفراد والدول على اقتناء ثروات العالم واستغلالها . ومع ذلك

٢ - Eighteenth Century Background, A note on Swift, London, 1940.

فقد استمرت المقاييس القديمة موضع الاحترام ، وان كانت فقدت قيمتها العملية وعاش رجل القرن الثامن عشر طبقا لها ولو نظريا على الأقل . ووجد الشخص الذي تمسك بتلك المقاييس والذي استطاع في نفس الوقت أن يرى الأمور على حقيقتها ، وجد بين يديه مادة غنية للكتابة الساخرة . وكان سويفت من أئمة هؤلاء الكتاب ، وهو الذي قال عنه ألدوس هاكسلي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢) **Aldous Huxley** انه « لم يستطع أن يغفر للانسان أبدا كونه حيوانا ثدييا فقريا وروحا خالدة معا » .

ورفض سويفت تعريف الانسان بأنه حيوان « عاقل » وعرفه بأنه « حيوان ذو قدرة على العقل » (٣) **rationis capax** ولعل فى هذا التعريف ردا على « ديكارت » الذي يبدو أنه نسى أن الله قد خلق الانسان فى مرتبة أقل من مرتبة الملاك ، وأنه يتمتع بقدرة محدودة من العقل ينظم به عالمه الدنيوى ويرشده الى عالمه الابدى . وفى خطاب كتبه سويفت الى صديقيه بوب **Pope** وبولنجبروك **Bolingbroke** وضح موقفه من هذا الامر ، فقال « اقول مع ذلك أننى لا أكره الجنس البشرى ، بل انكم انتم الأخرون الذين تكرهونه ، لانكم تريدون الانسان حيوانا عاقلا ، وتغضبون لخيبة أملكم فيه . أما أنا فلم أقبل ذلك التعريف أبدا ، وفكرت فى تعريف آخر خاص بى » . (٤) ويرى سويفت الى أن الشخص الذي يتخذ موقفا غير واقعى بالنسبة لقدرات الطبيعة البشرية قد ينتهى به الأمر الى كره البشر ، لانه ينتظر من الانسان أن يتعدى حدود طبيعته . أما محب الانسانية فلن ينتابه الغضب عندما يكتشف قصور الانسان وحدوده . ولا يعنى تعريف سويفت بأن الانسان كائن « قادر على العقل » أن نظرته سلبية ، وانما يعنى انه يفرض التزاما أخلاقيا على المرء لاستغلال قدرته الى أقصى طاقتها وهو بذلك ليس كاتبا ساخرا فقط ، وانما هو كاتب أخلاقي صارم فى أخلاقياته .

والذي يتألم له سويفت هو أن الانسان لا يستغل قدراته العقلية أحسن استغلال ، بل أنه يتصرف وكأنه أقل بكثير في مستواه العقلي والخلقي مما اراد الله ، ورأى أن يكتشف حقيقة الانسان وطبيعته من خلال تجاربه الخاصة ومعرفته بسلوك معاصريه . فجاءت الصورة التي رسمها تحفة خالدة تمثل جوهر الانسان الثابت منذ بدء الخليقة .

●●●

٣ ـ خطاب لصديقه الشاعر « بوب » **Pope** ٢٩ سبتمبر ١٧٢٥

٤ ـ ٢٦ نوفمبر ١٧٢٥

المشكلة التي واجهت سويفت ، والتي تواجه كل أديب ، هو اختيار القالب المناسب للموضوع الذي يتناوله . وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يكتب بأمانة وصدق وحرية إلا إذا اكتشف وسيلة للتنكر تسمح له بأن يعبر عن آرائه وأفكاره دون قيد . ووجد الحل في رحلات جليفر باللجوء الى الحيلة الأدبية المحببة اليه وهي المحاكاة الادبية الساخرة ، **Parody** وقرر أن يحاكي أكثر أنواع الأدب شعبية في يومه ، أي ادب الرحلات مثل رحلات دامبير **Dampiers Voyages** وان يتخذ من شخصية الرحالة وسيلة للتعبير عن تجاربه في المجتمع الانجليزي المعاصر . ومما يجدر ذكره انه عندما بدأ سويفت بجدية في كتابة رحلات جليفر عام ١٧١٩ كان غريمه دانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) **Daniel Defoe** الذي كان سويفت يدعي دائما أنه لا يتذكر اسمه ، كان قد أتحف قراءه برواية روبنصون كروزو (١٧١٩) **Robinson Crusoe** التي تتناول شخصية بحار وجد نفسه مهجورا على جزيرة نائية عاش فيها سنين طويلة دون أن يرى انسانا . ومما لا شك فيه أن سويفت تأثر برواية ديفو ، كما تأثر بكتب الرحلات التي قرأ العديد منها ، وكانت ذات أهمية خاصة في ذلك الوقت . وكانت « الجمعية الملكية » أيضا تبدي اهتماما بالرحلات وتشجع الملاحين على جمع المعلومات عن البلاد النائية التي يزورونها ، ووصف جغرافيتها ومنتجاتها وسلوك سكانها وعقائدهم . وقد جمع سكرتير « الجمعية » ما بين عامي ١٦٩٣ ، ١٧١٢ ـ مخطوطات لمذكرات كتبها ربابنة سفن وملاحون وقراصنة ومغامرون . وكان هذا الاتجاه جزءا من البرنامج العلمي الذي وضعه روجر بيكون **Roger Bacion** واتباعه لجمع ملاحظات وأدلة عن العالم الطبيعي . وقد اتبع سويفت نفس أسلوب تلك المذكرات ، وسجل دقائق كثيرة في رحلات جليفر ، وزود مؤلفه بخرائط مفصلة تعطيه طابع كتب الرحلات الاصيلة ، وفي محاكاته لأدب الرحلات بعض الانتقاد ، فقد كان سويفت نموذجا لكاتب العصر « الاغسطي » الذي انصب اهتمامه على الصفات المشتركة بين الناس في المجتمع وفي الطبيعة . اما نظرة الكاتب في أدب الرحلات فكثيرا ما كانت مناقضة للنظرة الأغسطية ، فبدا أهل البلاد والمجتمعات الأخرى للكاتب ليس مختلفين عنه فحسب بل غريبي الاطوار وشاذين ايضا . ولم يخل موقف سويفت كلية من تلك النظرة المتعالية في شخصية جليفر ، الا أن هدفه الأساسي كان توجيه عناية القارىء داخليا الى الطبيعة البشرية المشتركة اكثر من توجيهها نحو الملاحظات الخارجية والاختلافات السطحية الناجمة عن مصادفات الظروف . بل وأكثر من ذلك فقد أراد أن يرشد القارىء الى تلك المهمة الشاقة التي تتلخص في كلمتي « إعرف نفسك » .

وتنتمي رحلات جليفر الى نوع خاص من أدب الرحلات المتصل بتراث الادب والفكر الأوربي ، والذي دفع بعض الكتاب والمفكرين الى خلق رؤى لمجتمعات غريبة ، إما أسطورية وإما مثالية ،

بهدف دراسة الفكر السياسي المعاصر . ومن أمثال تلك المجتمعات « جمهورية » أفلاطون المثالية المبنية على حوار حول مفهوم العدالة ، ودولة « أطلانتس » الإسطورية في تيميوس **Timaeus** لأفلاطون ، وهي رمز للنظام العالمي ، ويدور فيها نقاش حول العدالة والتقوى والحق ، وأطلانتس الجديدة (١٦٢١) **New Atlantis** حيث يناقش روجر بيكون السعادة الانسانية وامكانية التوصل اليها عن طريق التعاون العلمي ، (*) وينتمي الى هذا التراث أيضا المؤلفات التهكمية الساخرة التي تتناول الدول المثالية الخيالية مثل يوتوبيا (٦) (أول ما نشر باللاتينية عام ١٥١٦) **Utopia** سير توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) **Sir Thomas More** وتبع الاهتمام بقصص الرحالة ظهور سلسلة من الرحلات الاوروبية الخرافية مستخدمة الخيال الجامح بأسلوب ساخر وجدلي . وقد يكون مؤلف « لوكيان » حوالي (١٢٠ ـ ١٨٠ م) **Lucian** باللغة اليونانية بعنوان التاريخ الحقيقي **True History** النموذج الاصلي لهذا الشكل الادبي ، وهناك عدد كبير من المؤلفات مثل دول وامبراطوريات القمر ودول وامبراطوريات الشمس **Les Etats et Empires de la Lune et Les Etats et Empires du SoleiL** لسيرانو دي برجراك (١٦١٩ ـ ١٦٥٥) **Cyrano de Bergerac** أكثر ارتباطا بأدب الرحلات ، وتقدم أسلوبا جديدا في استخدام الرحلات الخيالية لمناقشة الافكار الفلسفية المتطرفة أو المواضيع المحرمة .

ورحلات جليفر سلسلة من « الجمهوريات المثالية » ومجموعة من « الرحلات الفلسفية » تتسم تارة بالواقعية وتارة بالخيال المبالغ فيه . والكتاب أيضا رحلة استكشاف ساحرة في خفايا الطبيعة البشرية ، ويكشف عن دخائلها من خلال ملاحظات الرحالة « جليفر » ، وعن ظواهرها من خلال النظم السياسية والاجتماعية للبلاد التي يسافر اليها وسلوك سكانها . فأسفار « جليفر » رحلة أو تجربة ذهنية تنتقل بالقارىء من حالة الرضا التام المبني على الجهل الذي يتصف به الرجل الانجليزي النمطي ، الى حالة الرفض التام الذي يتبع اكتشاف الحقيقة المؤلمة اللاذعة المختفية وراء الخداع والوهم اللذين كان يعيش فيهما .

●●●

* ـ تمثل الفكاهة « لاجادو » في رحلات جليفر سخرية « سويفت » من رؤية « بيكون » العلمية .

٦ ـ معنى الكلمة باليونانية القديمة « لامكان »

شخصية جليفر

« وجليفر » الرحالة الذي اختاره سويفت ليسرد تفاصيل مغامراته الخيالية شخصية مستقلة ، يجب الا نخلط بينها وبين المؤلف كما حدث مع كثير من النقاد . انها قناع ابتدعه سويفت لأغراضه الساخرة . وتختلف عن الشخصيات التي اعتدنا أن نراها في « الجمهوريات » المثالية والرحلات الخيالية ، وكلها غريبة عنا لا نعرف شيئا عنها وعن مجتمعها وعملها وآمالها ومخاوفها وطموحها وحياتها الخاصة ، وكان الكتاب يستخدمون مثل هذه الشخصيات المحايدة الخالية من الارتباطات ليصوروا من خلال أعينها البريئة المجتمعات التي تستكشفها . أما « جليفر » فهو نموذج للرجل الانجليزي العادي متوسط الحال ماديا ، غير المتميز عقليا ، واسع الحيلة شجاع وان لم يكن بطلا ، صاحب فضائل جمة يتصف بها أهل بلاده ، ولكنه يقع في كثير من الاحيان فريسة لخداع النفس وأنصاف الحقائق التي تدخل على نفسه السكون والطمأنينة . إنه شخصية قريبة الى ذهن القارىء .

ويعطي سويفت عند أول لقاء بين « جليفر » والقارىء نبذة مختصرة عن حياته لا تزيد عن خمسمائة كلمة يغطي فيها الأعوام التسعة والثلاثين التي عاشها حتى لحظة إبحار السفينة « انتيلوب » من ميناء بريستول في شهر مايو عام ١٦٩٩ ، في أول الرحلات . ورغم الميل الملحوظ الى الاختصار ، فان وضوح التفاصيل المتعلقة بحياة « جليفر » والاشارة الى الاماكن التي عرفها ، والتي ما زالت مألوفة حتى اليوم ، تجعل من السهل على القارىء أن يتخيل دقائق أخرى تضفي على الشخصية حياتها الخاصة . ويشبه سويفت « دانيال ديفو » الى حد كبير في أسلوبه السردي والحيلة الأدبية التي يلجأ اليها لاقناع القارىء بواقع ما يكتبه . وهذه الحيلة مبنية على الاسلوب التقريري ذي التفاصيل الدقيقة غير المهمة التي يحرص الكاتب على ذكرها بأمانة لما تتركه في القارىء من انطباع بالحقيقة والواقع . فعندما يشير سويفت الى زواج « جليفر » مثلا لا يكتفي بذكر الواقعة نفسها ، بل يزودنا باسم زوجته ، واسم والدها ومهنته كقماص ، وموقع متجره في شارع « نيوجيت » مضيفا الى هذه الدقائق التافهة كون الزوجة هي ابنة ابيها الثانية ، ثم المبلغ الذي تسلمه « جليفر » كمهر للعروس وهو أربعمائة جنيه ، وينتهج « سويفت » نفس المنهج عندما يشير الى المعاملات المالية الخاصة ب « جليفر » فيقول :

عندما تركت عملي مع مستر بيتش ذهبت لزيارة أمي وبمساعدته ومساعدة عمي جون وبعض الاقارب حصلت على أربعين جنيها ، وعلى وعد بثلاثين جنيها أخرى سنويا لتغطية مصاريفي في

« لايدن » وهناك درست الطب لمدة عامين وسبعة أشهر علما مني بأن هذه الدراسة ستكون ذات نفع لي في رحلاتي . (٧)

ونلاحظ الدقة في ذكر المدة التي قضاها « جليفر » في دراسته في لايدن **Leiden** ، وكان من الممكن ان يقول عامين ونصف أو حوالي عامين ونصف ، ولكنه تعمد ذكر « سبعة أشهر » ليوحي بأننا بصدد الواقع وليس الخيال .

وتضفي هذه الدقائق صلابة على شخصية « جليفر » ، فهو كما وصفه سويفت لا يعيش في فراغ ، وإنما له مكانه المحدد في البناء الاجتماعي ، ولا تفتقر حياته الى المشاكل العادية والصعاب المهنية والعلاقات الفردية ، الايجابية منها والسلبية ، مع اصدقائه واعدائه وزوجته وأولاده . فهو رجل في منتصف العمر من الطبقة المتوسطة يستطيع القارىء أن يفهم تفكيره وتصرفاته وأن يتعاطف أو يختلف معه . اختار سويفت هذه الشخصية كأداة لتأمل المجتمع البشري الاوروبي والانجليزي ، وخاصة مجتمع انجلترا في القرن الثامن عشر الذي تنتمي اليه الشخصية . وتحدد شخصية « جليفر » أفق وأساليب السخرية التي تختلف تماما عن السخرية النابعة من شخصية غير واقعية تجد نفسها وجها لوجه مع مجتمع غريب عنها .

واذا كان « جليفر » لا يمثل الشخصية البسيطة المثالية المحايدة التي تلعب دور ـ المتفرج الموضوعي ، فانه في نفس الوقت ليس شخصية واقعية مركبة نفسيا متفاعلة تفاعلا كاملا وعمليا مع عالمها الخارجي ، فواقعية « جليفر » تستند الى حد كبير الى كونه شخصية نمطية محاطة بعدد لا حد له من التفاصيل الدقيقة . ولا يلتفت سويفت الى حياة « جليفر » الداخلية أو النفسية إلا في حالات قليلة عندما يهدف الى اثارة بعض المشاعر البشرية المحددة في القارىء . فخداع النفس والأوهام وتجاهل الحقيقة التي تظهر في ردود افعال « جليفر » لا تشير الى اهتمام سويفت بتصوير نفسيته ، وانما هي اشارة للقارىء الذي عليه أن يكتشف أوجه الشبه بين نفسيته ونفسية « جليفر » الرجل العادي . « فجليفر » الممتلىء غرورا بطفولته وهو يتحدث عن بلده لملك « بروبد نجناج » **Brobdingaag** (٨) ، والذي ينخدع بحلم عندما يسمع عن « الخالدين » (٩) ، انما يمثل نموذجا عاما لمشاعر البشرية . وليس هناك

٧ ـ الجزء الأول ، الفصل الأول .
٨ ـ الجزء الثاني ، الفصلان السادس والسابع
٩ ـ الجزء الثالث ، الفصل العاشر .

مثل واحد لتصرف أو سلوك أو مشاعر تميزه عن بني جنسه ، بل الشيء الوحيد الذي يميزه هو غرائب الاشياء التي تصادفه في رحلاته . « فجليفر » وسيلة يستخدمها الكاتب ليضع العامل البشري المشترك أو « الرجل العادي » الذي يقيع بداخلنا جميعا في مواقف غير عادية لمراقبة سلوك الانسان وتصرفاته .

حرص سويفت اذن على تقديم « جليفر » بدرجة من الواقعية تمكن القارىء من المطابقة بينه وبين نفسه ، الا انها مطابقة محدودة وليست كاملة . والذي يتحكم في درجة المطابقة هو اداة السخرية التي تدفع بالقارىء الى الفصل بين « جليفر » وبينه . فهناك المطابقة والفصل معا . وعند عملية الفصل ، نتيجة لعنصر السخرية ، يجد القارىء نفسه ناقدا لـ « جليفر » وناقدا لذاته في نفس الوقت لمطابقته لـ « جليفر » في بعض نواحي تفكيره وسلوكه .

ولما كان « جليفر » يصور نواحي مختلفة من أوجه البشرية التي تتعدد بتعدد الظروف والمواقف قلما نجد فيه صورة متناسقة مكتملة ، فـ « جليفر » وسط أقزام « ليليبت **Lilliput** يختلف الى حد كبير عن « جليفر » وسط مردة « بروبنجنلد نجناج » ، ومع ذلك لا يجد القارىء مجالا للاعتراض على مثل هذه التناقضات ، ولا يحاول التوفيق بينها في بحثه عن تفسير أعمق للشخصية البشرية المركبة كما يحدث في الحياة الواقعية أو في الرواية المتطورة . فاذا رغبنا أن نحس قراءة رحلات جليفر فعلينا ان نرى « جليفر » كما أراد سويفت أن نراه ، أي كأداة يستخدمها الكاتب ليشوه بها رؤيتنا لأنفسنا وللواقع ، مثل المرآة المعوجة التي تعكس الاشياء على نحو ملتو . ويختبر القارىء من خلالها عددا من التجارب التي اختارها الكاتب لتعريف القارىء بحقيقة نفسه . « فسويفت » اذن يستخدم شخصية « جليفر » كوسيلة للانتقال بالقارىء بين المواقع الاستكشافية التي يستطيع منها أن يشرف على دخائل الطبيعة البشرية .

●●●

(١) رحلة الى ليليبت **A Voyage to Lilliput**

وأساس المواقع الاستكشافية هي المواقف التي يجد « جليفر » نفسه فيها ، وتمثل في البلاد التي يزورها أثناء رحلاته ، والتي يعتمد سويفت في تخيلها على المبالغة المتصورة وتمد هذه البلاد الكاتب بالأداة الاساسية الثانية التي تمكنه من استخدام سلاح السخرية الحاد المدمر . فزيارة « جليفر » لأربع

بلاد مختلفة هي « ليليبت » بلد الأقزام ، و « بروبدنجناج » بلد المردة و « لابوتا » Laputa وجيرانها « بلاد العلوم والسياسة المجردتين » ، وبلد « الهوينوهمز » التي يحكمها الحصان العاقل ويقطنها « الياهو » الانسان الحيوان ، زيارة « جليفر » لكل من هذه البلاد تواجهه بمواقف لم يسبق له أن مر بها .

وقد اتخذ « سويفت » أساس سخريته في الرحلتين الأولى والثانية المقارنة بين الحجمين الكبير والصغير . ووجد في فكرة « سلسلة الوجود الهائلة the great chain of being » الهاما لرؤيته للانسان في هاتين الرحلتين ، بالاضافة الى الرحلة الرابعة الى بلد « الهوينوهمز » ، وكانت الفكرة القائلة بأن الانسان يحتل في الوجود مكانا وسطا من الافكار المألوفة أيام « سويفت » ، وكان كثير من الناس يعتقدون أن الوجود قد نظم باتقان ودقة على شكل درجات في « سلسلة وجود هائلة » ، ابتداء من الخالق الذي يتبعه عدد لا يحصى من الكائنات الروحية والذهنية المجردة ، الى الانسان والكائنات الحيوانية والاشكال الميكروسكوبية من الحياة ، حتى تنتهي الى لا شيء . ويشغل الانسان في هذه « السلسلة » وضعا لا يعرف فيه الراحة ، لأنه يشارك الى درجة محدودة ، الكائنات الذهنية السامية ، في عقلها ، بينما يشارك الى درجة غير محدودة ، الحيوان في غرائزه الحسية . فالانسان « حلقة الوصل » ونقطة الالتقاء بين العقل والحس . وقد استخدم سويفت صورة الانسان هذه في موقعه الوسط في « سلسلة الوجود الهائلة كوسيلة للفكاهة والتهكم والسخرية . وقد اعتمد في فكرة المقارنة بين صغر حجم « جليفر » بالنسبة الى سكان ليليبت و « بروبدنجناج » ، اعتمد على نظرة الفيلسوف باسكال Pascal (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) في قوله : « أين الانسان من الطبيعة ؟ انه اللا شيء اذا ما قورن باللا متناهي » ، والكل اذا ما قورن باللا شيء . انه الوسط بين المتناهي واللا متناهي » ويستعير سويفت فكرة « النسبية » هذه ويحورها لتكون أداة سخرية فعالة . فيكتشف « جليفر » في الرحلتين الأولى والثانية ، عدم تناسبه وسط الظروف المحيطة به . وعندما ينظر الى أقزام « ليليبت » من علوه الشاهق يدرك انه انسان ثقيل الحركة يفتقر الى الرشاقة ، وان كان ماردا طيب القلب . أما في « بروبدنجناج » فيتجه نظر « جليفر » من موقعه الوسط الى أعلى « سلسلة الوجود » ، وليس الى أسفلها كما حدث في « ليليبت » ، مكتشفا سلالة من المردة يبدو هو بالمقارنة بهم قزما أو لعبة صغيرة كما كان أهل « ليليبت » بالنسبة اليه .

والتركيز هنا على الحجم الجسدي ، وهي الناحية التي تستحوذ على خيال القارىء الطفل فيجدها مسلية للغاية . وفكرة « النسبية » ليست بجديدة اذ سبق سويفت اليها آخرون ، وانما الابتكار يرجع

الى كيفية تنفيذ الفكرة باستخدام التفاصيل الدقيقة الوافية المتعلقة بظروف الموقف . فسواء كان القارىء طفلا أم بالغا فانه يتتبع متلهفا أهل « ليليبت » وهم يحلون المشاكل التي يواجهونها عند اكتشافهم وجود « الرجل الجبل » في بلدهم . فعليهم أن ينقلوه الى وسط المدينة ويحضروا له الطعام ويصنعوا له سريرا . ويجد القارىء تسلية في وصف حيرة هذه الكائنات الصغيرة التي لا يزيد طولها عن ست بوصات وهم يفحصون الاشياء التي يعثرون عليها في جيوب « جليفر » ـ المشط وقطع النقود والمنديل والنشوق ـ دون أن يفهموا ماهيتها ـ ومن بين هذه الاشياء ساعته التي تبدو لهم كآلة هائلة ، فيقولون في وصفها :

> وتدلت من جيبه الايمن سلسلة فضية كبيرة في نهايتها ما يشبه الآلة الكبيرة العجيبة . فطلبنا منه أن يسحب الشيء المعلق بالسلسلة ، والذي بدا كروي الشكل ، نصفه من الفضة ونصفه الآخر من نوع من المعدن الشفاف . ورأينا على الناحية الشفافة أشكالا مستديرة غريبة اعتقدنا أول الأمر أننا نستطيع أن نلمسها ، ولكن حالت دون ذلك تلك المادة الشفافة وقد رفع هذه الآلة الى آذاننا ، وكان ينبعث منها صوت لا ينقطع مثل صوت طاحونة المياه . واستنتجنا أنها إما حيوان غير معروف ، أو الاله الذي يعبده ، ولكننا نميل الى الرأي الأخير لانه أكد لنا . . . . . أنه قلما يفعل شيئا دون أن يستشيرها وقد سماها الوصي ، وقال أنها تشير الى الوقت المحدد لكل فعل في حياته . (١٠)

وتسيطر الناحية الفنية من المغامرات على خيال القارىء ويجد فيها تشويقا عظيما . ومنها على سبيل المثال ، طريقة استيلاء « جليفر » على أسطول « بليفسكو » Blefusco البلد المعادية لـ « ليليبت » ، وسحب السفن وراءه في البحر ، ممسكا في يد واحدة بالخيوط التي ربطها بها ، فبدت قطع الاسطول التي تهدد كيان الأقزام كلعب الاطفال . وهناك مشهد العرض العسكري المقام على سطح منديل « جليفر » المنصوب على أعمدة ، وكأن المنديل ساحة رحبة . ويستمتع القارىء بمتابعة الحلول الفنية المبتكرة ، كما يستمتع برؤية ناضرة لعالمنا المألوف ، وكأننا نراه لأول مرة من خلال أعين الطفل البرىء الذي لم يفقد بعد بساطته وقدرته على الدهشة ، كما في مشهد الساعة ، ولا تفوت سويفت فرصة استغلال التناقض في الموقف بين المارد والقزم لاثارة الضحك ، مثلما يفعل عندما يشير الى الشك الذي يساور « فليمناب » Flimnap عن وجود علاقة غرامية بين زوجته القزم و « جليفر » المارد . ولا شك أن الكاتب يحسن استغلال الامكانيات الكامنة في الموقف الاساسي للتسلية والفكاهة دون أن يهدف الى أي غرض آخر .

---

١٠ ـ الجزء الأول ، الفصل الثاني

ولكن صغر حجم أهل « ليليبت » يؤكد نوعا آخر من الضآلة وهي الضآلة الاخلاقية التي تبدو في غرور امبراطور « ليليبت » . فعندما يراه « جليفر » لأول مرة لا يغيب عنا عبث ذلك الكائن اللعبة ، وقد وقف مختالا بسيفه في يده وخوذته الذهبية على رأسه ، وكلاهما مرصع بالجواهر الثمينة . ويصف « جليفر » مقابلته الاولى مع الامبراطور ، فيقول عن ذلك الموقف المضحك الساخر :

ولكي أراه عن قرب استلقيت على جانبي حتى أصبح وجهي موازيا لوجهه ، بينما وقف على مسافة ثلاث ياردات فقط مني . . . . . وعلى أية حال فقد وضعته في قبضة يدي مرات عديدة منذ تلك المقابلة الاولى ، ولذلك فلم أكن مخطئا في وصفي له . لقد كانت ملابسه بسيطة مجردة من الحلية . . . . ولكنه ارتدى على رأسه خوذة خفيفة من الذهب محلاة بالجواهر . . . . . وقد أمسك بسيفه في يده ليدافع به عن نفسه خوفا من أن أفك وثاقي ، وكان المقبض والقرب من الذهب المرصع بالماس . [11]

ويتكرر الايحاء بغرور الانسان القزم عندما يسرد « جليفر » سلسلة طويلة من الالقاب التي منحها الامبراطور ، فالسخرية كامنة في التناقض بين فخامة الألقاب وعظمتها وصغر حجم صاحبها . ومن ألقابه التي اختيرت على وزن ألقاب الملوك والاباطرة في العالم الواقعي :

أمبراطور « ليليبت » الجبار ، بهجة ورعب الكون ، الذي تمتد ممتلكاته خمسة آلاف « بلا صتروج » (أي بقطر طوله حوالي أثني عشر ميلا) حتى اطراف الكرة الارضية . ملك الملوك ، يامن هو أطول من أبناء البشر [12] ، ومن تصل قدماه الى مركز الارض ، ويعلو رأسه فيصطدم بالشمس . يامن يرتعد لمجرد ايماءة من رأسه أمراء الكون . لطيف مثل الربيع ، مريح كالصيف ، مثمر كالخريف ، ومرعب كالشتاء . [13]

وتبدو سخرية سويفت اكثر وضوحا عندما تظهر المقارنة بين « ليليبت » ومجتمع انجلترا المعاصر ، ومن أشهر مشاهد المقارنة الساخرة الذي تخصص فيه اهل « ليليبت » والذي يجد فيه الامبراطور تسلية كبيرة ، مشهد الألعاب البهلوانية ، ويقوم به المتقدمون لوظائف الدولة المرموقة ، وهم يتنافسون عليها

---

١١ - الجزء الاول ، الفصل الثاني

١٢ - سبق أن أشار « جليفر » إلى أنه أطول من أبناء شعب ليليبت بمقدار « نصف طول ظفر الخنصر » .

١٣ - الجزء الاول ، الفصل الثالث

بالرقص على الحبل المشدود محاولين الاحتفاظ بتوازنهم . ويصف « جليفر » هذه اللعب « البهلوانية » التي يحاول فيها كل لاعب اثبات تفوقه على منافسيه ، فيقول :

أبدى الامبراطور في أحد الأيام رغبة في تقديم بعض التسلية لي عن طريق عدد من الاستعراضات الوطنية التي تتفوق فيها الليليبت على جميع دول العالم التي عرفتها من حيث المهارة والأبهة . وقد وجدت أعظم تسلية في استعراض الراقصين على الحبل الذي أدوه على خط أبيض رفيع امتد حوالي قدمين وارتفع عن سطح الارض بحوالي اثنى عشر بوصة . . . . . . ولا يؤدي هذه اللعبة الا أولئك المتقدمون للوظائف العامة والمراكز الرفيعة في البلاط . انهم يتدربون على هذا الفن منذ صغرهم . وهم ليسوا دائما من أصل نبيل أو ذوي تعليم راق . وعندما يشغر مركز خطير في الدولة ، إما بسبب موت من كان يشغل ذلك المركز أو بسبب فضيحة (مما يحدث كثيرا) يلتمس خمسة أو ستة من المتقدمين تسلية الامبراطور والقصر بتقديم رقصة على الحبل ، والفائز الاول الذي لا يهوى الى الارض يرقى الى الوظيفة . وكثيرا ما يصدر الأمر للوزراء الاوائل أنفسهم باستعراض مهاراتهم لاقناع الامبراطور بأنهم ما زالوا محتفظين بها . »(١١)

ثم ينتقل سويفت الى اللعبة التالية التي لا تؤدى الا في مناسبات خاصة ، ولا يسمح لأحد سوى الامبراطور والامبراطورة ورئيس الوزراء أن يستمتعوا بها . ويلاحظ أن الحركات أكثر تنوعا ، وتوحي حركة « الزحف من تحت العصا » بالرياء والنفاق والخنوع الذي يتطلبه الحاكم لابداء رضاه نحو أصحاب المهارات . واليكم وصفا لهذه التسلية التي تنفرد بها « ليليبت » :

يضع الامبراطور على المنضدة ثلاثة خيوط رفيعة طولها ست بوصات : واحد منها ازرق ، والآخر احمر ، والثالث اخضر . وهذه هي الجوائز المقترحة لمن يريد الامبراطور أن يؤثرهم بحظوته . ويقام الاحتفال في صالة جلالته للمراسم الكبيرة حيث تختبر مهارة المتقدمين على نحو يختلف عن الاختبار السابق ، كما تختلف تماما عن أي شيء رأيته في أية دولة أخرى ، سواء في العالم القديم او الجديد ، ويمسك الامبراطور بعصا في يديه في وضع مواز للأفق ، بينما يتقدم المرشحون الواحد تلو الآخر ، تارة يقفزون من فوق العصا ، وتارة يزحفون من تحتها عدة مرات الى الأمام والى الخلف تبعا لوضع العصا : واحيانا يمسك الامبراطور بطرف واحد بينما يمسك الوزير الاول بالطرف الآخر . واحيانا

١١ - الجزء الاول ، الفصل الثالث

يمسك الوزير الأول العصا بمفرده والشخص الذي يؤدي دوره بمهارة أكثر ويستمر في القفز والزحف مدة أطول من غيره يكافأ بالخيط الأزرق ، ويكافأ من يليه بالخيط الأحمر ، والذي يليه بالأخضر . وهم يتمنطقون بهذه الخيوط . وقلما تصادف شخصا عظيما في هذا القصر الا وقد تحلى بهذه الأحزمة . (١٥)

وعندما يتبين أن هذه الخيوط تمثل أعلى الأوسمة (١٦) التي يمنحها ملك انجلترا للذين يتمتعون بحظوته ، يبدأ القارىء في التساؤل عن أوجه الشبه الأخرى بين ليليت والمجتمع الانجليزي المعاصر ، وعن مدى تطابق شخصيات العصر في « ليليت » مع الملكة « آن » والملك « جورج الأول » وابنه « أمير ويلز » الذي أصبح فيما بعد « جورج الثاني » ، وشخصية « فليمناب » **Flim-nap** التي تمثل « روبروت وولبول » رئيس الوزراء (او الوزير الاول كما سمي في ذلك الوقت) الذي استمرت رئاسته لوزارة « الاحرار » في عهد « جورج الاول » سنين طويلة ، والذي صوره سويفت كأكثر الرجال حذقا في الرقص على الحبل لطول بقائه في الحكم . ويتبين للقارىء أيضا أن دولة « بليفسكو » في حربها مع « ليليت » تمثل فرنسا في حربها مع انجلترا . وفي اشارة سويفت الى الخدمات التي أداها « جليفر » لامبراطور « ليليت » في حربه مع « بليفسكو » تذكره بالخدمات التي اداها « سويفت » نفسه للقصر وللوزارة دون أن يلقى من أيها اعترافا بالجميل . كما يفسر قول « جليفر » في نهاية الرحلة الأولى عندما يتآمر البلاط والوزارة ضده : ولذلك قررت ألا أضع ثقتي بعد اليوم في أمير أو وزير » .

وان التطابق بين « ليليت » وانجلترا (١٧) اذن واضح من بعض الشخصيات السياسية التي يمكن ان نتعرف عليها من التاريخ ومن بعض تجارب سويفت عندما كان يعمل قريبا من السياسيين والحكام . ولا شك أنه كان يستنكر حكومة جورج الاول ووزيره ودلبول الذي ـ اشتهر حكمه بالفساد ، وانه استخدم سخريته لكشف النقاب عن الحياة السياسية كما عرفها . ولكن « الرحلة » أعمق بكثير من كونها هجوما عنيفا مبنيا على تجربة شخصية محضة ، ومحاولة للأخذ بالثأر ممن خذلوا سويفت في طموحه . ولو كانت كذلك لما ارتفع كتاب رحلات جليفر الى مصاف الادب العالمي . فهذا المؤلف ، وبالذات الرحلتان الأولى والثانية ، هجوم ساخر على الانسان بوصفه حيوانا سياسيا واجتماعيا .

---

١٥ ـ المكان السابق ذكره.

١٦ ـ الازرق Order of the Garter الاحمر Order of Bath الاخضر Order of the Thistle

١٧ ـ انظر T.P. Lock, The Politics of Gulliver's Travels, Oxford, 1980

ورحلة « ليليبت » كغيرها من رحلات « جليفر » ، تُهتم بالعموميات التي يمكن استخلاصها من الصورة التي قدمها « سويفت » للحياة السياسية في بلد الاقزام التي تكشف عن تفاهة الانسان وافتقاره الى المبادىء . وليس هناك من هم أنسب لتصوير هذه الصفات من تلك الكائنات الصغيرة . فضآلتها الجسدية كناية عن انحلاقياتها الضحلة ، وتفاهة اهتماماتها تبرز بوضوح عند مقارنتها بغرورها وإحساسها الطاغي بأهميتها . وقد وجد سويفت في الحياة السياسية حيث الصراعات على المراكز وعلى التقرب من الحاكم ، وجد فيها مثلا للنشاط البشري الاحق اللامبدأى الذي يؤكده السلوك « البهلواني » والذي لا يليق بانسان وهب العقل ليستعمله .

والمهم في اتجاه رحلات جليفر الساخر ليس مضمون السخرية نفسه وانما الشكل الادبي الذي اتخذه ، مما جعل رحلة ليليبت أسطورة شعبية يعرفها الصغار والكبار على السواء . ومن العجيب أنها ليست مبنية على حبكة روائية كما في قصة « سندريللا » ، أو على حلم رومانسي كما في القصة « اليوتوبية » ولا على شخصية أساسية مثل شخصية « سيرانو دي برجراك » ، وانما هي مبنية على موقف بسيط بدائي مستمد من الاحلام ، ويتعرف عليه القارىء بسهولة لكونه جزءا من عالم خياله الجامح . ويتلخص فن سويفت في التناقض بين الواقع والخيال الخرافي المنطلق . فهدفه أن يتخلص القارىء من الاوهام وخداع النفس ليواجه الحقيقة ، ولكي يصل الى هدفه يستغل سويفت انجذاب الانسان الطبيعي نحو عالم الخرافة ، فيوهم قارئه بأنه سيرحل معه الى عالم سوف يشبع خياله ورغبته في الهروب من الواقع ، ومع ذلك فانه يحاول اقناع القارىء ، عن طريق الدقة في الوصف ، بانه في عالم واقعي . فالخلط بين الخيال والواقع في الشكل والأسلوب هو أحد مميزات « سويفت » الساخرة ، ولا يلبث القارىء أن يتمادى في الضحك من المواقف المسلية الفكاهية بين « جليفر » وأهل « ليليبت » حتى يكتشف أن رحلته هي رحلة الى اغوار الحقيقة ، وليست كما تصورها أول رحلة خرافية ، وان كانت الخرافة هي وسيلة الكشف عن الحقيقة .

وتتلخص موهبة سويفت الفنية في تجسيد الموقف والفكرة في صورة حية . فيرمز الى حزبي المحافظين والاحرار اللذين كانا في صراع محتدم ، يرمز اليهما باسمي « الترامكسانز **Trameckasans** » و « السلا مكسانز **Slamecksans** او بحزبي « الكعوب العالية » **High Heels** و « والكعوب المنخفضة » **Low Heels** والاشارة هنا الى وضع سياسي يمتد الى أبعد من الشخصيات التاريخية والطقوس السياسية من « قفز » و « زحف » الى القضايا السياسية والدينية التي شغلت بال العصر .

كانت هذه القضايا السياسية [١٨] غاية في الخطورة . فقد دفع حزب الاحرار انجلترا الى سلسلة من

١٨ - انظر T.P. Lock المرجع السابق ذكره

الحروب التجارية الدامية المكلفة ، اما حزب المحافظين فقد نجح خلال فترة حكمه القصير في توقيع اتفاقية سلام غيرت من معالم اوروبا ومهدت الطريق الى الاستقرار في انجلترا . ولكن الاوضاع كانت أكثر تعقيدا من ذلك . فكان مؤيدو المحافظين من ملاك الأرض والمحافظين في الدين والاقتصاد وأساليب الزراعة والقيم عامة ، بينما كان الاحرار من المساندين للطبقة التي بنى عليها ثراء المجتمع الانجليزي ـ أي طبقة التجار البرجوازيين المنشقين عن الكنيسة الانجليزية ، التقدميين في فلسفتهم الاقتصادية والزراعية والتجارية وفي ارآئهم في الاخلاق والقيم . وكان الأحرار من أنصار اسرة هانوفر الملكية ، بينما كان المحافظون من أنصار الملك جيمس الثاني الملك المخلوع الذي فر الى فرنسا ، أي انهم كانوا من مساندي القوى التي كانت تهدد الأمة بحرب أهلية . ورغم خطورة هذه القضايا التي كان يتوقف عليها مستقبل انجلترا ونظام الحكم فيها ، فقد تعمد سويفت أن يظهرها في مظهر تافه عابث . فيقول عن ميل الملك جورج الاول الى حزب الأحرار وعن تردد ولي العهد في اتجاهاته السياسية :

ان الكعب الامبراطوري أكثر انخفاضا عن كعوب أي من أعضاء حاشيته بمقدار « در » [١٩] على الأقل . . . . . ونلاحظ أن السمو الامبراطوري وولي العهد يميل الى حد ما الى « أصحاب الكعوب العالية » ، ومن الواضح أن واحدا من كعبيه على الأقل يبدو أكثر ارتفاعا من الآخر ، مما يجعله يعرج في مشيته . [٢٠]

ويلخص سويفت في هذه الصورة المجسدة للكعوب العالية والمنخفضة « السياسة الحزبية في انجلترا ومساندة الملك أو مناهضته لها .

أما القضية التي أثارت جدلا طويلا حول المسيحية والانشقاق الديني في انجلترا ، والتي كانت من القضايا الهامة في عصر سويفت ، فقد رأى أن يصورها بنفس الاسلوب الساخر الذي صور به الخلافات السياسية مقللا في الظاهر من خطورتها . فحول الصراع الديني المرير بين الكاثوليك والبروتستانت والعداوة بينهما الى مشكلة « كسر البيضة » كما سماها ، وتتلخص المشكلة في « هل من الأفضل أن تكسر البيضة من القمة العريضة أم من القاع الضيق » ، وسمى الكاثوليك « اتباع القمة العريضة **Big — Endians** والبروتستانت « اتباع القاع الضيق **Little — Endians** . وبهذا تبدو القضية التي قاست منها انجلترا سنين طويلة والتي أدت الى اضطهاد ديني وحرب أهلية وثورة قلبت

١٩ ـ وحدة قياسية في « ليليبت » اخترعها « سويفت »
٢٠ ـ الجزء الاول ، الفصل الرابع

نظام الحكم من ملكية الى جمهورية ، تبدو فى رحلة « ليليبت » سخيفة وتافهة نتيجة للصورة المصغرة العابثة التى تظهر عليها . وتنحصر سخرية سويفت فى السبب العابث الذي قدمه كتفسير للاضطهاد الدينى الذى أدى الى موت الآف المواطنين الكاثوليك ، وهو رفض « اتباع القمة العريضة من « الاذعان لكسر بيضهم من القاع الضيق » .

هذه القضايا السياسية والدينية التى اهتز لها كيان الامة بأسرها ، وان كانت تبدو فى « ليليبت » من عبث الانسان القزم ، ومثارا للضحك ، الا أنها كانت ذات عواقب وخيمة فى انجلترا ، وهنا يظهر للقارىء الفارق الكبير . بين ليليبت وانجلترا على الرغم من أوجه الشبه الواضحة بينهما ، فوجود « جليفر » وسط الاقزام وتصرفاته العاقلة وتسامحه واعتداله يعطى القارىء مقياسا انسانيا يحكم به على أهل ليليبت ، كما يعطى أملا فى استطاعة الانسان دراسة مشاكله بتفهم وعقل ، وتقديم حلول فعالة تتناسب مع مكانته فى « سلسلة الوجود الهائلة » . والواقع ان سويفت رفع « جليفر » فى هذه الرحلة الى مكانة تستحق الاحترام ، وأثنى من خلال شخصيته فى ليليبت على الانسان العادى ، وعلى قدرته على التصرف الحكيم .

ولا يستخدم سويفت طريقة السخرية المبنية على صفة « العدسة المصغرة » طوال رحلة ليليبت . وانما يلجأ فى الفصل السادس الى وسيلة أخرى أساسها فكرة « اليوتوبيا » أى الدولة المثالية الخيالية . وهنا يطرأ تغيير على الدور الذي يلعبه « جليفر » . فبعد ان كان مجرد شخصية عملية تلاحظ ما يدور حولها وتسجله وتتفاعل معه ، يصبح شخصية مثالية تقدمية عائدة من بلد مثالية ، حاملة معها اخبار هذه البلد التى فاقت بلاده فى النظم السياسية والتعليم والأخلاق .

وتتحول ليليبت الى شكل جديد من اشكال أدب الرحلات « اليوتوبية » وتتناول النواحى التى تبعث على الاعجاب بالانظمة والقوانين والتربية والتقاليد فى ليليبت ، والتى تفتقر اليها انجلترا . ويلاحظ أن النقد السياسي والاجتماعى والتعليمى الموجه الى انجلترا هو أساسا نقد أخلاقى . فبدلا من ان تسن ليليبت « القوانين » لحماية الملكية الفردية وتثير فى الافراد الخوف من القانون وتجبرهم على الاذعان له ، فانها تعمل على تشجيع الناس على الفضيلة ، فالنظم فى ليليبت تكرم أولئك الذين يحترمون القانون وتعاقب الخارجين عنه . وتهدف الانظمة والقوانين فى الدولة الى اقناع المواطن بأن السلوك الفاضل فى متناول الجميع وفيه مصلحة للجميع ، لأنهم يعتقدون أن « كل انسان يستطيع أن يتحلى بالصدق والعدل والاعتدال وما اليها من صفات » . وبناء على ذلك فان حكم البلاد ليس أمرا عسيرا ولا يتطلب

مهارة فائقة . وهذا ما يكتشفه « جليفر » أيضا فى « بروبد نجناج » ، وهو أن « تناول الشئون العامة للدولة ليس سرا من أسرار الكون » ، وكل ما هو مطلوب من الحاكم وأعوانه هو « الفضيلة والخلق الطيب والايمان وليس المواهب العقلية » . ولذلك فان هدف التعليم فى ليليبت هو تكوين المواطن الصالح . ومن أجل هذا يفصل الاطفال عن أهاليهم فى المراحل الأولى من حياتهم حتى لا تساء تربيتهم ، ويلتحقون بمؤسسات الدولة حيث يعيشون حياة بسيطة ويتفادون العادات السيئة ويتدربون على الفضائل . وهذه هى الوسيلة ، كما رآها « سويفت » ، لغرس « مبادىء الشرف والعدل والشجاعة والتواضع والرأفة والدين وحب الوطن » فيهم ، وهى الفضائل التى من أجلها يضحى المرء بالحب الأسرى .

ويلاحظ القارىء تناقضا فى هذا الانتقال المفاجىء من ليليبت بلد الاقزام الذي يجسد عددا كبيرا من نقائص وعيوب الأنظمة فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، الى ليليبت البلد المثالى ، حيث يوجه التعليم والتربية والقوانين الى ترسيخ القيم الاخلاقية . فكيف يصور اقزام « ليليبت » التفاهة والوضاعة والفساد والغرور ، وفى نفس الوقت يمثلون مزيجا من الحكمة والعقل والخلق القويم . لا شك أن سويفت قد تنبه الى هذا التناقض الذي أضعف الشكل الفنى للرحلة الأولى ، ولكن سويفت المفكر تغلب على سويفت الفنان . وعندما حاول أن يعطى تفسيرا للتناقض ، جاء التفسير واهنا ، وهو أن الأنظمة المثالية والسلوك الشريف والخلق الطيب ، التى وصفها « جليفر » ، ما هى الا آثار باهتة من آثار الماضى التى اندثرت بمرور الزمن عندما تعرض أهل ليليبت لقوى الفساد .

وتنتهى الرحلة مرة ثانية ، كما بدأت ، بصورة غير مشرقة لأهل ليليبت » بل ان الصورة تزداد قتامة فى الجزء الأخير من الرحلة عندما يتطور الدور الذي يلعبه « جليفر » ، فبعد أن كاد هذا الدور يتلخص فى الملاحظة الموضوعية والتعجب من الاقزام الذين يبعثون على التسلية والضحك ، بدأ يأخذ شكلا آخر عندما احتك « جليفر » الطيب الرقيق بأهل ليليبت » ، وأخذ يلعب دورا فعالا فى حياتهم . عندئذ يظهرون على حقيقتهم أى على جانب كبير من الفساد والنفاق والخداع والقسوة والشر ، بينما يبدو « جليفر » ليس أكبر حجما فقط وانما أعظم خلقا وسلوكا من أهل ليليبت الذي لا يتناسب صغر حجمهم مع مدى خطورتهم واتساع شرورهم . لقد ساعد « جليفر » الليليبتيين فى حربهم مع بليفسكو » وأنقذهم من غزو أكيد ، ولكن عندما رفض أن يقضى قضاء تاما على العدو ، أثار غضبهم ، وأصر مستشارو الامبراطور على تقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة . وبعد الحكم عليه بالموت رأوا « تخفيف » الحكم بفقء عينيه ، وتركه ليموت جوعا ، لأن ذلك سيسهل عليهم التخلص من جثته

الضامرة . عندئذ يقرر « جليفر » الهرب لأن بقاءه فيه خطورة على حياته وقد يعرضه دفاعه عن نفسه لتدمير « ليليبت » ، وهو لا يرضى لنفسه ذلك الفعل القاسى . فيجمع حاجياته ويهرب أو لا الى « بليفسكو » ثم يبحر على مركب الى انجلترا ، وقد ملأ جيوبه بنماذج من حيوانات ليليبت الصغيرة التى تسبب اثارة واهتماما كبيرين فى انجلترا ، وتؤكد حقيقة الرواية التى يسردها « جليفر » عن رحلته .

وبهذا تنقلب روح الفكاهة فى الرحلة الاولى الى نقد لاذع عندما يتضح أنه على الرغم من عظم حجم « جليفر » فانه لا يملك القوة الكافية لمواجهة وضاعة أهل ليليبت الاخلاقية فالقوة التى يتمتع بها « جليفر » فى أول الرحلة يكاد لا يعرف لها حدودا ، والصعوبات التى يلاقيها ترجع الى صغر ووهن الأدوات المتاح له استعمالها ، فالحبال فى ليليبت لا تعدو كونها خيوطا ، وجذوع الاشجار ليست الا عصيا من البوص ، وهناك مشاكل فنية كثيرة تتطلب حلولا سريعة . ولكن المشكلة الجادة التى يصعب التغلب عليها هى مشكلة الانسان أو المشكلة الاخلاقية . وعلى الرغم من قوة « جليفر » الجسدية الجبارة فهو ضعيف بمقارنته بأهل ليليبت « فى خداعهم ونفاقهم وخيانتهم وحقدهم وكيدهم وغرورهم وحبهم لسفك الدماء ونكرانهم للجميل . فهم وان كانوا يبدون كالدمى ، الا أن نصيبهم من النقائص البشرية عظيم ، وقدرتهم على التدمير شامل . والخطر المحدق بـ « جليفر » اذن لا ينشأ من الظروف المادية المحيطة به وانما ينشأ من الطبيعة الانسانية القاصرة نفسها ، وعلى هذه الطبيعة تتوقف نوعية الحياة .

●●●

(٢) رحلة الى بروبد نجناج A Voyage to Brobdingnag

ويصور سويفت فى الرحلة الثانية الى بروبد نجناج بلاد المردة بنفس نسبة التفاوت فى الحجم الذي سبق أن صوره فى الرحلة الأولى ، ولكن بطريقة معكوسة ، فبينما « جليفر » هو المارد وأهل ليليبت هم الاقزام فى الرحلة الاولى ، يصبح « جليفر » هو القزم وأهل ليليبت هم المردة فى الرحلة الثانية . واذا ما استخدمنا صورة « سلسلة الوجود الهائلة » فيكون مكان « جليفر » فى أسفل السلسلة « ناظرا الى أعلى ، كما ينظر القزم الى المارد فى الرحلة الثانية ، بينما كان فى الرحلة الاولى فى أعلى « السلسلة » ناظرا الى أسفل ، كما ينظر المارد الى القزم . ويستطيع « جليفر » من علوه ان يلتقط فى نظرة واحدة شاملة

« لليليبت » بأسرها . أما في « بروبد نجناج » حيث ينظر من زاوية ضيقة فانه لا يرى الا جزئيات صغيرة من العالم المحيط به . لقد أصبح « جليفر » هنا هو القزم « الليليبتي » المسلي الذي لا أهمية له ، وأهل « بروبد نجناج » هم الكائنات المتفوقة ، ويبدو هذا التفوق أول الأمر على المستوى المادي ، أي انه تفوق في الحجم ، ولكن في نهاية الرحلة يبدو التفوق أخلاقيا أيضا ، وهذا هو التفوق الحقيقي .

ويهدف سويفت منذ أول وهلة الى رسم صورة موضوعية ل « بروبد نجناج » وأهلها كما بدت لأعين « جليفر » القزم ، مؤكدا في كل خطوة يخطوها التفاوت بين حجمه الصغير والحجم الكبير للأشياء من حوله . فعندما تطأ قدما « جليفر » لا يلاحظ بيوتا على الاطلاق لأنها خارج مجال بصره لصغرها وانخفاضها . وتنعكس الصورة في « بروبد نجناج » ولا يكاد القزم « جليفر » يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة وسط سنابل القمح التي تشبه الغابة في كثافتها . ويجعل سويفت حقل القمح مكان أول لقاء بين « جليفر » والمزارع ليؤكد الشبه بين « جليفر » القزم والحيوان الصغير ، الذي يحاول أن يفر هاربا عندما يشعر بمنجل الفلاحين في موسم الحصاد . وعندما تراه امرأة الفلاح تعتقد لأول وهلة أنه فأر أو عنكبوت ، فتصرخ وتتراجع كما تفعل النساء في انجلترا « عندما يرين تلك الحيوانات والحشرات . ويستخدم سويفت صور الحيوان هذه بكثرة خلال رحلة « بروبد نجناج » ، موعزا الى العلاقة بين « جليفر » والحيوان ، ولكنه يستخدمها في أكثر الأحيان ليذكر القارىء بضآلة حجم « جليفر » ولاثارة الضحك ، وتتكرر هذه الصورة الحيوانية في الرحلة الاخيرة أيضا في بلد الجياد ، ولكنها تأخذ أبعادا خطيرة . اما في « بروبد نجناج » « فجليفر » الحيوان الصغير لا يثير الاشمئزاز . بل أن مظهره وحركاته المسلية تدفع الفلاح الذي يكتشفه الى حمله في جيبه مسافرا الى انحاء البلاد المختلفة لعرضه على الأهالي مقابل مبلغ من المال ، كما يفعلون في السيرك .

وتطغى روح الفكاهة على الجزء الأول من رحلة « بروبد نجناج » حيث تكثر المواقف الفكاهية المبنية على فكرة النسبية في الحجم . ففي أحد المشاهد يكاد الطفل المارد أن يبتلع رأس « جليفر » ، وفي مشهد آخر يلقى مهرج البلاط القزم « بجليفر » في صحن من القشدة حيث يكاد يغرق لولا أنه يجيد السباحة . ويسقط التفاح كالقنابل على رأسه ، وتهاجمه حدأة ، ويتعثر في قوقعة ويتعصر في عظمة نخاع ، ويقع في أسر قردة تصر على أن تدفع الأكل الى فمه معتقدة أنه أحد أبنائها . ويمتاز المشهد الأخير بروح الفكاهة والمرح التي لا تشوبها سخرية . ، ومع ذلك ففيه ما يذكر القارىء بأن « جليفر » ينتمي الى عالم الحيوان . وهذه هي الحقيقة التي لا تستطيع تجاهلها أو الهروب منها في الرحلة الرابعة . وحتى في هذه الرحلة الثانية لا يتصور ملك « بروبد نجناج » أول الأمر أن « جليفر » كائن عاقل .

وتبدو طيبة « جليفر » الطيبة في أول رحلة « برويد نجناج » ، فهو لا يغضب أو يثور عندما يجد نفسه في مواقف حرجة أو في مازق تكاد أن تودي بحياته ، بل انه يتقبل كل شيء بصدر رحب وبروح مرحة ، فيتقرب الى كل من حوله ، ويحبونه كما يحب المرء الحيوان الصغير الأليف . وليس هناك أثر لسخرية الكاتب وهو يسرد مغامرات « جليفر » في بلد المردة ، بل انه يميل الى الاعجاب بروحه الخفيفة .

وأقصى ما يصل اليه نقد سويفت في هذا الجزء من الرحلة الثانية هو التهكم البسيط من هذا الكائن الصغير الذي يحاول أن يعطي لنفسه أهمية لا تتناسب مع حجمه . فحركات « جليفر » وايماءاته بعد تعثره في كسرة من الخبز فيها مبالغة مضحكة ويصف « جليفر » الموقف قائلا :

لقد قمت من وقعتي في الحال ، وعندما لاحظت قلق الناس الطيبين من حولي أخذت قبعتي (التي كنت أضعها تحت ذراعي علامة السلوك الحسن ولوّحت بها من أعلى رأسي هاتفا ثلاث مرات لأريهم أنه لم يلحق بي سوء من عثرتي .-(٢١)

ويبدو « جليفر » بنفس المظهر المضحك الساخر الخفيف عندما يتصارع مع فأرين هائلين يهجمان عليه وهو نائم . ويظهر غروره عندما نراه يتبسم بفخر مشيرا الى الفأر الذي قتله ، والدماء تتساقط من سيفه الصغير . فتنادي سيدته خادمتها لتتخلص من الفأر الميت ، وتمسك به الخادمة بملقاط ملقية به من النافذة ، ثم تضع « جليفر » على المنضدة ويمسح الدماء من سيفه الذي يعيده مثل البطل المغوار الى غمده . وغرور « جليفر » كان يبدو طبيعيا لو أن مغامراته كانت وسط أقرانه في الحجم ، ولكنها تبدو مضحكة متى رأيناها من خلال أعين المردة .

ولكن الرحلة الثانية لا تستمر طويلا على مستوى الفكاهة والمرح ، ولا تلبث سخرية سويفت أن تطفو على السطح من جديد . فيستخدم المردة الطيبين لتوجيه ضربة قوية الى غرور الانسان ، عندما يقدم لأول مرة في الرحلات الشعور بالاشمئزاز من الجسم الأدمي الذي عرف به سويفت ، والذي يتضاعف الى درجة تجعله يسود الرحلة الرابعة في بلاد « الهوينوهمز » ولعل في هذا الاشمئزاز ردا على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين أعجبوا بجسم الانسان لكماله وابداعه اللذين يتناسبان مع وضعه في نظام الكون . والسؤال الذي يطرحه سويفت بطريق غير مباشر عندما يصور المردة من خلال عيني « جليفر » هو : « كيف يبدو جسم الانسان للكائنات الأصغر منه بكثير ؟ كيف يبدو للحشرة مثلا ؟

---

٢١ - الجزء الثاني ، الفصل الأول

(أى « لجليفر ») وتتوقف الاجابة على السؤال على وجهة النظر ، فالجمال والقبح مسألة نسبية . ويجيب سويفت على السؤال باتخاذ وجهة نظر « جليفر » الذي يشمئز لمنظر المردة الذين يرى دقائق أجسامهم كأنه يتفحصها تحت مجهر مكبر ، فلون جلدهم مبقع ، ومسامهم كالثقوب الكبيرة ، وشعرهم كالأسلاك الشائكة ، ورائحة أجسامهم تثير الغثيان .. ويبلغ الاشمئزاز اشده عندما يشارك القارىء نفور « جليفر » من منظر الشحاذين اللذين انتشر في أجسامهم السرطان والقمل .. وهذا التركيز على قبح الجسم البشرى يهيء القارىء لنفس النفور والاشمئزاز اللذين يشعر بها « جليفر » عندما يواجه « الياهوز » في الرحلة الاخيرة ، وهم رمز للجسد والغرائز . ويلاحظ ان هذا النفور يمثل الحرب التى خاضها سويفت طوال حياته ضد الجسد ، ويعد واحدا من خصائص كتاباته . وأيا كان التفسير الشخصى لهذه النظرة النافرة ، فالمهم أنه استخدمها استخداما فنيا ناجحا ليكشف بها عن نواحى الانسان الحيوانية ، المادية منها والمعنوية .

ولا يتطرق سويفت الى الرمزية فيما يتعلق بالنفور من الجسد في رحلة « بروبد نجناج » ، فاشمئزاز « جليفر » ناتج في الواقع عن قصور في زاوية رؤيته لصغر حجمه . وهو لا يستطيع أن يرى الا التفاصيل المكبرة من جسم المارد ، بحيث يرى الجزء وليس الكل ، وبذلك يفوته التناسق في الشكل الكل وتبدو التفاصيل مشوهة .

ويفشل « جليفر » بنفس الطريقة في تطبيق النظرة الشاملة على أخلاقيات اهل بروبد نجناج » . وكما يفوته شكل « البروبد نجناجيين » الجسدى الكامل ، يفوته أيضا مستواهم الاخلاقى الرفيع . وهنا تنكشف سخرية سويفت اللاذعة في الرحلة الثانية ، ويبدو « جليفر » ضئيل الجسم وضعيف الخلق عندما يتباهى بانجازات بلاده السياسية والتعليمية ونظامها الحزبى الرائع التى يعتبرها ملك « بروبد نجناج » عن حق فاشلة تماما . وفي مشهد ساخر يلخص فيه سويفت وجهة نظر الملك ، يمسك المارد « بجليفر » بين الابهام والسبابة ويربت عليه برقة مستفسرا يتهكم عن ميوله السياسية ، فيسأله « وهل انت من حزب الاحرار » أم حزب « المحافظين » [٢٢] وكأنه يلقي سؤاله على حشرة صغيرة .

ولا يبقي سويفت نقده لمجتمع « جليفر » على المبالغة في مثالية مجتمع « بروبد نجناج » فالمردة لا يختلفون عن البشر الا في حجمهم ، وهم مزيج من الخير والشر ومن الحكمة والحماقة ، ويتصفون بالطيبة ولكنهم قساة أيضا في بعض الاحيان . ويستخدم سويفت صغر حجم « جليفر » ليظهر هذه

---

٢٢ - الجزء الثاني ، الفصل الثالث

الناحية القاسية في سلوكهم وان كانت غير متعمدة ، وذلك عندما يطوف الفلاح « بجليفر » في انحاء البلاد جريا وراء المكسب ، دون مراعاة للارهاق الذي يسببه « لجليفر » الضعيف البنية . ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يوصف مجتمع « بروبد نجناج » عامة بالقسوة المقصودة والشر المنظم المخطط ، كما هو الحال في مجتمع « جليفر » الذي تطور فيه الفساد والروح العدوانية ، حتى بلغت درجة من التعقيد يصعب معها تحليل أو تفهم دوافعها . بل يمتاز أهل « بروبد نجناج » بالبساطة والتواضع والأمانة وحسن المعاملة . وأهم من هذا فهم يحبون السلام ويكرهون الحرب ، ولا يسمون الى المجد الزائف ، وانما يتقون الحياة الهادئة غير المعقدة . ويمثل ملكهم الصفات التي يعجب بها سويفت : « التفهم الممتاز والعقل والحصافة » ، ويتخذ سويفت من هذا الملك المارد حكما للمجتمع الانجليزي والأوربي الذي يفخر به « جليفر » . ويمثل في ردود أفعاله لكل ما يقوله « جليفر » عند وصفه لأنظمة مجتمعه السياسية والحروب التي يخوضها ، يمثل الحكمة الطبيعية والتجربة الانسانية التي تفوق نظرة « جليفر » المشوهة للأشياء . ويستخدم الملك كمقياس للزيف الأخلاقي الذي يدافع عنه « جليفر » دون وعي ، ومن خلال وجهة نظره العاقلة يبدو « جليفر » قزما في قصوره الخلقي .

وتتضح سخرية سويفت تدريجيا في المقابلة بين الملك و « جليفر » ، فعندما يطلب الملك منه تقريرا عن نظام الحكم في بلاده ، وعن السياسة والتعليم وتربية الطفل وسلوك المواطن ، يجيب عليه « جليفر » باعتداد وحماس الوطني الذي يريد أن يظهر أمته في أحسن صورة . ويشاركه القارىء في موقفه أول الأمر ، وينبهر بأسلوبه الخطابي في وصفه لعظمة انجلترا ونظامها الطبقي ودستورها وقوانينها ومجدها الحربي وتاريخها العريق ، في هذه الاثناء يترك الملك العنان « لجليفر » دون أن يقطع عليه حديثه . ويلاحظ القارىء صمت الملك الذي ينصت باهتمام وتركيز وتفكير ، وبعد قليل يداخله الشك في صحة وجهة نظر « جليفر » ، وهو شك مبني على العقل والتفكير المتزن ، ثم يبدأ الملك في التساؤل ، ويطرح السؤال تلو الآخر دون هوادة ، وهنا ينقلب الوضع ويغلب على « جليفر » الصمت ، بينما تبدو أسئلة الملك ثاقبة نفاذة . وبدلا من ثناء « جليفر » المباشر على وطنه يظهر نقد وتهكم وسخرية الملك بطريقة غير مباشرة تتدرج نحو القوة ، الى أن يأتي النقد اللاذع والضربة القاضية في نهاية المشهد عندما ينطق الملك بحكمه بعد أن يكون القارىء قد انتقل بتعاطفه الى وجهة نظر الملك السليمة الصائبة .

والأسئلة البريئة في ظاهرها التي يطرحها الملك على « جليفر » كلها أسئلة « توطيئية » ، أي انها تحوي اشارة الى الجواب ، وهي في جميع الأحوال جواب بالنفي ، وقد رأى سويفت أن تبقى أسئلة

الملك المحرجة ذات صبغة عامة تنطبق على كل زمان ومكان دون انتظار إجابة خاصة من « جليفر » ، مما جعل نقد المجتمع في رحلة « بروبد نجناج » عاما شاملا أكثر منه معاصرا وانجليزيا كما هو في رحلة « ليليبت » ، ومن بين أسئلة الملك : « ماهي الأساليب المستخدمة لتنمية أجسام وعقول شبابنا الارستقراطي ، وكيف يمضون السنين الأولى من حياتهم التعليمية ؟ » ويعطي هذان السؤالان للقارىء و « لجليفر » معا دفعة الى التفكير جديا في نظام التعليم في أيامهما والحكم عليه بمقاييس رفيعة ، والتساؤل عن مدى نجاح ذلك النظام في اثراء مجتمعنا والدور الذي يلعبه في تطور وعي شبابنا وتنمية فكره وابداعه وتلوقه للحياة . وينتقل الملك بعد ذلك الى السؤال عن النظام المتبع في اختيار من يسند اليهم مقاليد الحكم والكفاءات المطلوبة لذلك : « هل يتوقف ذلك الاختيار على مزاج أمير او ملك ؟ او على مبلغ من المال يقدم لسيدة من سيدات البلاط او لرئيس وزراء . . . وهل هم متحررون من الجشع والتحيز والحاجة الى درجة تبعد عنهم اغراء الرشوة او غيرها من السلوك الخبيث ؟ وهل يرقون الى تلك الوظائف على أساس معرفتهم بالأمور الدينية وصلاح حياتهم وقداستها ؟ويطرح الملك أسئلة مشابهة عن أعضاء مجلس الشعب والأسلوب المتبع في انتخابهم ، والدور الذي تلعبه الرشوة والفساد في ترشيحهم . وتليها أسئلة عن مفهوم العدل وتطبيقه ، وعن الحروب وجيوش المرتزقة ، والصراعات الداخلية في البلاد ويتضح من هذه الاسئلة أننا نستمع في نفس الوقت بطريق غيرمباشر الى مباهاة أحد أقزام « ليليبت » بعظمة بلاده التي نراها من وجهة نظر ملك « بروبد نجناج » فتبدو صورة للفساد والانحلال ، أما « جليفر » القزم ، جسما وعقلا وخلقا ، فيتمادى في الافتخار دون أن يعي الأثر المروع الذي يتركه على سامعه ، الحاكم العادل الذي يطبق المقاييس الأخلاقية في حكمه . ويسخر « جليفر » من ضيق أفق الملك الذي لا يستطيع أن يفهم عظمة انجلترا ومجدها كما يصورها « جليفر » له . فتكون السخرية المضاعفة هنا في عدم فهم « جليفر » لتعجب الملك مما سمعته أذناه . ويحكم الملك على الاوضاع في انجلترا حكما لاذعا مريرا :

> لقد ذهل (الملك) تماما للتقرير التاريخي الذي أعطيته عن أحوالنا خلال القرن الماضي . واعترض عليها قائلا بأنها ليست إلا سلسلة من المؤامرات والتمرد وجرائم القتل والمذابح والثورات والنفي . وكلها من أسوأ آثار الجشع والحزبية والانشقاق والنفاق والغدر والقسوة والحنق والجنون والكراهية والحسد والشهوة والنكاية والطموح .[٢٣]

وهكذا تتكشف أخلاقيات « جليفر » التي تتناسب مع حجمه « الليليبتي » ، ويبدو التطابق بين

---

٢٣ ـ الجزء الثاني ، الفصل السادس

حجم الملك المارد وقيمه . ونستنتج من أسئلته « لجليفر » أن البديهة والعقل والرحمة هي أصول من الحكم والسياسة ، وأن المؤهلات المطلوبة من المتقدمين لوظائف الحكم في الدولة هي التقوى والصلاح والبسالة والنزاهة والحكمة ، التي تتمثل في ملك « بروبد نجناج » نفسه الذي يحتقر المكايد السياسية والغدر ، ويمجد المهارة التي تستطيع أن تنتج سنبلتين من القمح أو ورقتين من العشب في نفس التربة التي سبق أن أنتجت واحدة فقط » ، ويستعصي على الملك الطيب الذي يحكم شعبا بسيطا أن يفهم أسباب الحروب والتعصب الديني والصراعات السياسية . فالحكم في « بروبد نجناج » ليس وليد الرغبات والشهوات الشخصية ، ولا يعتمد على أسرار تعرفها القلة ، وانما اساسه احترام القانون والخلق الفاضل . وتبدو القيم الأخلاقية واضحة في تعليق الملك الساخر على مباهاة « جليفر » ببلاده ونظمها ، ويجيء حكمه شاملا للجنس البشري بأجمعه في قوله :

> لا يسعني إلا أن استنتج مما قلته أن أهل بلادك في مجموعهم هم جنس دنيء مقيت من الحشرات ، بل انهم أبغض ما سمحت الطبيعة في أي زمن من الأزمنة أن يزحف على وجه الارض . (٢٩)

ولا تنتهي سخرية سويفت عند هذا الحد ، بل ان الحوار المذكور مع الملك ليس الا مقدمة لسخرية اكثر حدة مما سبق . لقد باءت بالفشل المحاولة الأولى التي قام بها « جليفر » ليبهر الملك بعظمة وقوة بلاده . ومع ذلك فلم يظهر « جليفر » نفسه بمظهر كريه في هذه المحاولة ، فهو مجرد الشخص المحب لوطنه ، المتحمس له ، الذي يتباهى بما يعتقد أنها انجازات هائلة . وكما ان الملك في حكمته لا يستطيع أن يعقل اعتزاز « جليفر » ببلاده الوحشية فان « جليفر » أيضا في جهله لا يستطيع أن يفهم موقف الملك الساخر . وبدلا من أن يلقي «جليفر » اللوم على الملك فانه يبدو بمظهر الشخص المتسامح العاقل الذي يحاول أن يجد المبررات لموقف الملك ، فيقول في ترفع : « يجب أن نلتمس الأعذار لملك عاش حياة منعزلة عن بقية العالم حددت من معرفته وتفكيره » ، والسخرية هنا من « جليفر » لانه في ادعائه التفهم والتسامح نحو ما يعتبره قصورا في تفكير الملك انما يكشف عن ضيق أفقه هو .

أما في الحوار التالي مع الملك فيكشف سويفت عن نقائص خطيرة في « جليفر » تجعله نموذجا للجنس البشري المدمر البغيض الذي اشار اليه الملك في تعليقه . وتصبح السخرية بذلك لاذعة الى أبعد الحدود . ويظهر « جليفر » في أصغر حجمه وأقصى دناءته عندما يعرض على الملك هدية ثمينة يعتقد

انه لا يمكن لأحد في قواه العقلية أن يرفضها . وهذه الهدية هي « سر اكتشاف البارود » . ويعطي « جليفر » صورة كثيرة لخطورة هذا الاكتشاف ومدة أثره على البشرية من قتل ودمار . فيجيء رد فعل الملك عكس ما كان منتظرا . ارتاع الملك للتفاصيل الفظيعة التي رواها « جليفر » ، واعتبره مجردا من الانسانية لانه روج لتلك الافكار المروعة ، وحرم عليه ذكر هذا الموضوع كلية . ولكن « جليفر » يفشل في فهم وجهة نظر الملك ، ويأخذ في السخرية منه ، الى ان تنعكس السخرية على « جليفر » نفسه ، فيعتبر رفض الملك لهديته « الثمينة » دليلا واضحا على « علمه المحدود . . . ومبادئه القاصرة ونظرته الضيقة » ويكمن التهكم هنا في أن قصور مبادىء « جليفر » هي التي أعمته عن الحقيقة ، حقيقة لا انسانيته ، وحقيقة انسانية الملك . ونلمس في الاقتباس التالي فزع الملك الواضح من الأساليب الفتاكة التي تستخدمها اوروبا ، والتي تجعل الانسان وحشا ضاريا :

> لقد ارتاع الملك للوصف الذي قدمته لتلك الآلات الفظيعة ، وللاقتراح الذي عرضته عليه . لقد تعجب كيف تستطيع حشرة عاجزة دنيئة مثلي (هكذا كان تعبيره) أن تفكر بهذا الاسلوب الوحشي كأنه شيء عادي ، دون أن تبدي أي تأثر على الاطلاق لمشاهد الدم والخراب التي رسمتها كنتيجة طبيعية لتلك الآلات المدمرة . . . أما من ناحيته هو فقد صرح مؤكدا أن الاكتشافات الجديدة في الفن والطبيعة هي أكثر الأشياء التي تدخل عليه السرور ، ومع ذلك فهو يفضل أن يفقد نصف مملكته من أن يشارك في مثل ذلك السر الذي أمرني الا أعود الى ذكره أبدا ، لو كنت أحرص على حياتي . (٢٥)

لقد نجح سويفت في أسلوبه الساخر في هذا الجزء من الرحلة الثانية في تأكيد لا وعي « جليفر » الساذج وثقته العمياء بنفسه وآرائه . « فجليفر » في غمرة غروره في غفلة عن الأثر السيء الذي يتركه في حديثه على الملك ، وعن الصورة المروعة التي تحطمه كلية في نظر كل من الملك والقارىء اللذين يريانه من خلال عيني الملك المارد العاقل الحكيم ، وبذلك يصبح « جليفر » الممثل الشرس لانسانية فاسدة قاسية . والى جانب السخرية المتضمنة في موقف « جليفر » من الملك ، هناك السخرية المتضمنة أيضا في حجم « جليفر » المثير للضحك بمقارنته بحجم الملك . فغرور « جليفر » كما هو الحال مع اهل « ليليبت » يتنافى مع حجمه وخطابته وتشامخه ، وخاصة عندما نتذكر أن الملك يستطيع أن يحتويه بين أصبعي الابهام والسبابة .

وربما بدا للبعض أن سويفت حين ينظر الى « جليفر » من علو شاهق ، أي من مستوى نظر المارد ،

٢٥ ـ الجزء الثاني ، الفصل السابع

يريد أن يفصل بين القارىء وبين الجنس البشري بأجمعه . ولكن الواقع في هذه الرحلة غير ذلك ، لأن أهل « بروبد نجناج » وهم أيضا يمثلون للبشرية بما فيها من عيوب ومحاسن . فالملك كائن ذكي وعاقل وفاضل ، ويمثل بأخلاقياته أحسن ما في الانسان من ايجابيات ، ومع ذلك فهو ليس نموذجا مثاليا فوق مستوى البشر . ولا يجد القارىء صعوبة في تطابق وجهة نظره مع وجهة نظر الملك والعدول عن وجهة نظر « جليفر » « الليليبتي » . وقد توصل سويفت في هذه الرحلة الى الفصل بين طرفي النقيض في الانسان : الطرف الدنيء الشرير والطرف العاقل الذي يجيد الحكم على الأشياء . ومن طريق التقابل بين الطرفين المجسدين في « جليفر » والملك نرى كلاهما على حقيقته ، وندين الناحية الشريرة ونتقبل الناحية الفاضلة .

أن رحلة « بروبد نجناج » هجوم عنيف على سلوك ودوافع الانسان الجنونية ، ودفاع عن السلوك الأخلاقي في جميع نواحي الحياة ، ومع ذلك فلا يشعر القارىء أن سويفت يلقنه درسا أخلاقيا أو موعظة ، لأنه يستخدم جميع أساليب الفنان الحق . فهو يضع نصب عينيه طوال الرحلة المقابلة التي بدأها بين الحجمين الكبير والصغير ، كما يستخدم التصوير الواقعي الدقيق الى جانب الخيال الخارق ، ولا يبالغ في تصوير المردة البسطاء الذين يعيشون على سجيتهم ويتحلون بالصفات الانسانية . وفي جميع الاحوال يلجأ « سويفت » الى الصورة المرئية المجسدة التي تضمن يقظة القارىء . وترقى كتابته الى مستوى الفكاهة والفكر الجاد معا ، وهي مزيج متعادل من السخرية الناعمة في مظهرها واللاذعة في باطنها .

وعندما يعود « جليفر » الى بلاده بعد نهاية رحلة « بروبد نجناج » يتصرف وكأنه عائد مرة ثانية الى ليليبت . فتعوده على المردة يجعل من الصعب عليه أن يرى أهله في حجمهم الحقيقي ، بل يبدون بالمقارنة بمردة « بروبد نجناج » كالأقزام . ويؤكد سويفت هذه الصورة بتصرفات « جليفر » التي تبعث على الضحك ، والتي تثير في أهله الشكوك حول قواه العقلية . وهذا موقف يتكرر في نهاية الرحلة الأخيرة أيضا ، ويتضمن الى جانب الفكاهة سخرية موجهة الى أهل وطنه . ويقول « جليفر » في وصفه لعودته الى انجلترا :

> وبينما كنت أسير في الطريق لاحظت صغر حجم البيوت والأشجار والماشية والناس ، فخيل الى أنني في « ليليبت » وكنت أخشى أن أدهس كل مسافر قابلته في الطريق ، مما عرضني مرة أو مرتين للضرب بسبب وقاحتي .

وعندما وصلت الى منزلى ، الذي اضطررت أن استفسر عنه ، فتح أحد الخدم الباب ، فانحنيت لأدخل (كما تفعل الأوزة) خشية من أن يصطدم رأسى بالباب . وخرجت زوجتى لمعانقتى ، ولكننى انحنيت الى مستوى أقل من مستوى ركبتيها ، اعتقادا منى أننى ان لم أفعل ذلك لما استطاعت أن تصل الى مستوى فمى . وركعت ابنتى لتطلب بركتى ، ولكننى لم استطع أن أراها الى أن نهضت . وكل ذلك لأننى تعودت لمدة طويلة أن أقف ورأسى وعيناى الى أعلى على مستوى ستين قدما . ثم اقتربت لأرفعها بيد واحدة وضعتها حول خصرها . ونظرت الى أسفل الى الخدم ، والى واحد أو أثنين من الاصدقاء اللذين كانوا فى المنزل ، وكأنهم أقزام وأنا مارد .. وبالاختصار فقد تصرفت على نحو يدعو للغرابة الى درجة أنهم كانوا جميعا من رأى القبطان عندما قابلنى لأول مرة ، واعتقدوا أننى فقدت عقلى . وانا أذكر كل هذا كمثل للأثر الذي تتركه العادة والتعصب فى حياتنا .. (٢٦)

وهكذا يبدو أن « جليفر » فى هذا التصرف قد أخذ يشعر بالقوة التى تفصله عن ذويه نتيجة لتجاربه الشخصية فى رحلاته . لقد بدأ ينظر الى أهله كما نظر الملك اليه . انها نظرة المارد الى القزم .

●●●

٣ ـ رحلة الى « لابوتا » و « بلنباربى » و « جليبدبريب » و « لجناج » A Voyage to Laputa , Balnibarbi , Glubbdubdrib and Luggnagg .

هناك ما يشير فى نهاية الرحلة الثانية الى أن « جليفر » بدأ يرى الأشياء من وجهة نظر أهل « بروبد نجناج » اللذين سبق أن انتقدهم وسخر منهم . وكان من أسباب انتقاده اهمالهم الناحية الفكرية المجردة والبحث العلمى النظرى ، فقد انصب اهتمامهم على ما هو عملى ومفيد فى الحياة اليومية العادية ، وطبقوا دراساتهم للرياضيات تطبيقا عمليا مستفيدين منها فى تطوير الزراعة والميكانيكا . ولم يستطع « جليفر » طوال بقائه فى « بروبد نجناج » أن يقرب الى أذهان أهلها الأفكار المجردة . واعتبر فشله فى هذا نقصا فى تكوينهم العقلى ، ومن الواضح من تعاطف سويفت مع أهل « بروبد نجناج » وسخريته من « جليفر » أنه لم يكن يحبذ الاتجاه العلمى النظرى الذى أعجب به « جليفر » ومال اليه عصره . ولم

---

٢٦ ـ الجزء الثانى ، الفصل الثامن

يؤمن سويفت بأن كثيرا من المزايا العملية قد تعقب اكتشاف نظريات علمية تبدو لأول وهلة عويصة للرجل العادى . وكان في رأيه أن هدف العلم والتكنولوجيا يجب أن يكون أولا وآخرا الفائدة التى تعود على الانسان . انها بديهية لا يمكن انكارها . وفي الرحلة الثالثة يسخر سويفت من بلاد فشلت في الاعتراف بتلك البديهية ، ويكشف عما لا بد أن يحدث في مجتمع أطلق فيه العنان للاتجاه النظرى البحت .

وعلى الرغم من أن سخرية سويفت موجهة في هذه الرحلة الى المواقف والأنظمة المعاصرة ، والى السياسيين ورجال العلم ومطوري الزراعة والمخترعين والمكتشفين ، الا أنها ليست موجهة الى أشخاص أوسياسة بالذات ، كما هو الحال في رحلة « ليليبت » فالسخرية أكثر شمولا منها في الرحلة الأولى ، وقد صوبت الى السعي المحموم وراء كل جديد ، والافتقار الى ماهو عملي وما يمليه العقل ، والى الفوضى السائدة في القيم ، وقد أدخل « سويفت » في هذه الرحلة كل ما تبقى من مادة لم يجد لها مكانا في الرحلات الأخرى مما يفسر التفكك البنائي الملحوظ . بعكس الوحدة الحركية والطابع المميز للرحلات الاخرى ، ومع ذلك فهناك على الأقل موضوع واحد مشترك ، وهو سوء استعمال الانسان لعقله ، والواضح في الاتجاه الى الفصل بين العلم واحتياجات الانسان .

ولم يكن « سويفت » متبحرا في العلم ، ولكنه لم يكن جاهلا به تماما . لقد قرأ في العلوم المعاصرة وتطورها ، وكان على معرفة بديكارت ونيوتن ، كما كان متتبعا تقارير ومناقشات « الجمعية الملكية » . والشيء الذي راعه في مجال العلم هو غلو كثير من العلماء والباحثين في غرورهم وتعاليهم ، وفي اعتقادهم بتفوقهم على الفرد العادي ، وتماديهم في أبحاث لا علاقة لها بواقع الحياة . ففلاسفة « الجزيرة الطائرة » تائهون في تجريدات الرياضيات والموسيقى والفلك ، وبدلا من أن تتبع الرياضيات الأشكال الطبيعية للأشياء ، فقد شكل « اللابوتيون » الأشياء لتتفق مع الرياضيات . فقدموا غذاءهم من طيور وحيوان على موائدهم بأشكال هندسية ، وأعجبوا بالنساء لا لجمالهن وانما للتشابه بين أجسامهن وبين أشكال معينة . وطبقوا أسلوبا رياضيا معقدا في حياكة الملابس ، فجاءت غير متناسقة مع مقاييس أجسامهم . ومن الأدلة التي تشير الى بعد سكان هذه الجزيرة عن الواقع موقفهم من زوجاتهم وعدم شعورهم بالغيرة عليهن على الاطلاق ، فزوجاتهم أمام أعينهم ، ومع ذلك لا يلاحظون شيئا مريبا في سلوكهن . ويرمز « سويفت » الى الرجل الذي يحيا حياته منقطعا عن العالم المادي بصورة انسان ذي عين مصوبة الى داخله والعين الأخرى الى السماء . ويقدم وصفا لسلوك ومظهر هؤلاء الرجال العجيبين ومعهم مرافقوهم الذين سماهم « سويفت » « بالمنبهين » ومهمة « المنبه » تنبيه الباحث الى مالا يسمعه ومالا يراه بخفق قربة منفوخة تحوي حبات من الفول عند شفتيه

وأذنيه ، ليسمع ويتكلم عندما يخاطبه أحد ، ويحكي « جليفر عن عجائب سكان جزيرة « لابوتا » قائلا :

وكانت رؤوسهم جميعا منحنية إما الى اليمين واما الى اليسار واحدى اعينهم متجهة الى الداخل والأخرى متجهة مباشرة الى كبد السماء . وكانت ملابسهم الخارجية مزينة بأشكال من الشموس والأقمار والنجوم ، المتداخلة مع أشكال أخرى لآلات موسيقية مثل الكمان والفلوت والقيثارة والبوق والهارسيكورد وغيرها من آلات موسيقية نعرفها في اوروبا . ولاحظت هنا وهناك كثيرا من الأشخاص في زي الخدم يحملون في أيديهم قربا منفوخا مثبتة في طرف عصي قصيرة ، وتحوي القرب كمية من حبات الفول الجاف أو الحصي الصغيرة الحجم . وكانوا يخفقون هذه القرب من آن لآخر قريبا من أفواه وآذان الواقفين بجانبهم . ولم أفهم دلالة هذا التصرف أول الأمر . ولكن اتضح لي أن هؤلاء الأشخاص منهمكون في تأمل عميق الى درجة أنهم لا يستطيعون الكلام ولا الاستماع الى حديث الغير دون أن ينبههم أحد الى ذلك بلمسة خفيفة على أعضاء حديثهم وسمعهم . وهذا هو سر احتفاظ من تسمح لهم ظروفهم المادية بـ (منبه) كخادم في الأسرة . وهم لا يخرجون أو يقومون بزيارة اطلاقا الا ومعهم « المنبه » . [٣٧]

ويلاحظ في الفقرة السابقة بساطة أسلوب « سويفت » المباشر ووضوح الصورة التي تعبر عن الفكرة . فالمجاز عنده ليس حلية وانما هو أسلوب التفكير والفهم . وفي الرحلتين الأولى والثانية يجسد رؤيته للأشياء في صورة « نسبية الحجم » وتظهر الفكرة على نحو مبسط أساسه تكبير الصورة أو تصغيرها . وهذا أمر مستساغ لأن الأفكار التي يريد أن ينقلها الى القارىء تتفق مع مثل ذلك التجسيد . أما في الرحلتين الثالثة والرابعة فعملية التجسيد اكثر تعقيدا ، وعلى « سويفت » أن يظهر براعته في ابراز الفكرة المجردة بالوضوح الحسي ووقعه . وترجع الصعوبة هنا الى انه لا يمكن أن يرمز الى الصفات الذهنية والفكرية والمقاييس العقلية بالصورة « الكمية » أي بالحجمين الكبير والصغير ، فكيف يصور العالم الباحث الذي يحلق بفكره بعيدا عن الارض وعن كل ما هو مادي ، وكيف ينقل الى القارىء أسلوب حياته غير الطبيعية ؟ لم ير « جليفر » في رحلاته العديدة جنسا من البشر في مثل غرابة أهل « لابوتا » الذين يكرسون كل جهودهم لأبحاث عابثة في محاولة « لغزل خيوط العنكبوت » و « استخراج أشعة الشمس من الخيار » و « تليين الرخام لصنع وسائد صغيرة لحفظ الدبابيس » و « استخراج الحرير الملون من الذباب » ، واكتشاف طريقة « للبناء من أعلى الى أسفل » . ومع ذلك

---

٣٧ ـ الجزء الثالث ، الفصل الثاني

تنجح سويفت في تجسيد هذه النظرة العجيبة للأمور التي تفصل بين عقل الانسان وجسمه . فالى جانب الأمثلة التي يذكرها سويفت ليقرب الى الاذهان حالة هؤلاء « العلماء الباحثين » وبعدهم عن الواقع في تجاربهم ، يستخدم صورة « المثيه » الساخرة التي تجسد فكرة الهوة الشاسعة بين « عقل » « أهل لابوتا » وحواسهم .

« والجزيرة الطائرة » ، وهو معنى كلمة « لا بوتا » ، ليست مجرد مجاز للعلم ، وانما هي أيضا صورة لما يحدث عندما تتركز السلطة السياسية في أيدي مجموعة من الناس غير العمليين الميالين الى التجربة والعفوية ، والبعيدين في اهتماماتهم وتفكيرهم عن احتياجات البشر الأولية . وتبدو مآسي وخطورة هذا النوع من الحكم عندما يزور « جليفر » « بالنباري » التي تحكمها « لابوتا » فيقول في وصفه :

كان الناس في الشوارع ، وكان مظهرهم شاردا ، ونظراتهم شاخصة ، واجسامهم مغطاة باسمال بالية . ومررنا من أحد أبواب المدينة ومشينا حوالي ثلاثة أميال في الريف حيث رأينا عددا من الفلاحين يعملون في الارض ، أدوات مختلفة . ولكنني لم استطع أن اعرف ماذا كانوا يفعلون . كما انني لم ألاحظ ما يدل على احتمال وجود قمح أو حشائش بالرغم من أن التربة كانت تبدو ممتازة .(٢٨)

ان « لا بوتا » محكومة بمجموعة من الأشخاص الطائشين الذين يحكمون بمقاييس علمية مجردة ، ولا يأبهون بالمقاييس الأخلاقية وبواجب الانسان نحو أخيه الانسان ، فالجزيرة الطائرة عديمة الصلة بالبلاد التي يحكمونها ويستغلونها . ويشير « سويفت » هنا بالذات الى حكم انجلترا الظالم لايرلندا . وقد جعل موقع « لابوتا » الجغرافي ، باعتبارها جزيرة طائرة ، موقف قوة ، فهي تستطيع ، كما يقول جليفر ، أن تحجب الشمس وتمنع المطر عن البلاد التي تقع في ظلها متى أرادت أن تنزل بها عقابا . وفي امكانها أن تحطم كل محاولة للمعارضة في البلاد التي تقع تحت سيطرتها بمجرد أن تهبط عليها بثقلها فتسحقها سحقا . ولا يسع القارىء الا أن يقارن بين هذا الحكم المستبد وحكم ملك « بروبد نجناج » الحكيم المستنير :

وهناك نتائج أخرى خطرة لدولة العلم النظري المجرد . فتركيز القوة والسلطة كما هما مركزان في « لابوتا » يؤدي الى الطغيان والخوف . وتصبح الدولة المجردة ، كما صورها سويفت ، هي الدولة البوليسية . لقد استحوذ على أهل « لابوتا » حلم خرافي ، حلم القوة التي لا تعرف حدودا . ومن

٢٨ ـ الجزء الثالث ، الفصل الرابع

الممكن أن يتصور القارىء ما الذي يحدث عندما تتركز السلطة المطلقة في أيدي حكام عديمي المسئولية كالأطفال ، لايسألون عن تصرفاتهم ولا يحاسبون عليها ، بينما يستمدون قوتهم السياسية من العلم الحديث ، وكان سويفت على وعي عام بامكانيات الاكتشافات العلمية الحديثة والقوة التي تحملها في طياتها . ولكنه أيقن ان العلم بدون العقل والأخلاق لا يؤدي الى ما فيه خير للانسانية . بل انه يصبح قوة مدمرة فتاكة . وقد اكتشف ببصيرته اللماحة اننا هنا لأول مرة بصدد وضع في منتهى الخطورة ، وهو طغيان غاشم يستمد قوته من العلم وليس من الجهل كما سبق في التاريخ ، وبذلك تنتهي سخرية « سويفت » بعكس الموقف الذي بدأ به . فيصبح العلم النظري المجرد تطبيقا عمليا يخدم أهواء أصحاب السلطة . هذه هي ثمار جنون الانسان وغروره الذي دفع به الى وضع ثقته المطلقة في العقل واعطائه قدرات خارج حدود طاقته ، التي توحي بأنه يستطيع أن يبني دولة مثلية على أساس مبادىء لا علاقة لها بالقيم الانسانية والاخلاق .

وقد تنبأ « سويفت » في هذه الرحلة بمشكلة لم تنتبه اليها إلا اخيرا . وأوصى في سخريته من العلم الحديث بسؤال يشغل بال الكثيرين في عصرنا الحالي هو : ما الذي فعلناه بانتصارنا بعد أن وصلنا الى القمر وانتصرنا على الطبيعة ؟ لم يؤمن « سويفت » باستطاعة الانسان ان يصل الى القمر وسخر من الفكرة ، وكان في ذلك خطئا . ولكنه كان محقا فيما قاله عن الفصل بين العلم والقيم الاخلاقية الذي يؤدي الى الدمار . واعتقاده بأن العلاقة بين العلم الحديث والأخلاق معدومة هو السر في عدم اطمئنانه الى العلم الحديث في عصره .

وموقف « جليفر » في هذه الرحلة هو موقف الرجل العاقل المتزن الذي يتعجب مما يراه . وهو يلعب دور المتفرج الذي يلاحظ ويسجل تصرفات من حوله دون أن يتفاعل معهم أو يتأثر بأحلامهم وأوهامهم . ويحتفظ باتزانه وبتفكيره السليم في الجزء الاكبر من الرحلة الثالثة حيث تغلب روح الفكاهة على سخرية الكاتب ، فلا يشارك « جليفر » أهل « لابوتا » و « وبالنباربي » حماقتهم ، بل تبقى قدماه ثابتتين في الارض بعيدا عن عالم الآخرين الخرافي ، وفي نفس الوقت لا تمس القارىء سخرية سويفت فتفقده احترامه لنفسه ، بل يقف هو الآخر خارج نطاق ذلك العالم المصاب بلوثة الجنون . ولكن لا تلبث السخرية أن تأخذ لونا أكثر قتامة وشكلا أكثر عمقا . ويدخل القارىء مع « جليفر » من جديد عالم الاوهام وخداع النفس في الرحلة الى « لجناج » .

يبني سويفت سخريته مرة اخرى في هذه الرحلة على موقف خيالي خرافي . و « لجناج » هي بلاد الـ

« سترلد برجز » Struldbuggs أي الخالدين ، الذين يشكلون نسبة صغيرة من سكان تلك البلاد . وكما هو الحال في جميع رحلات « جليفر » يصور الكاتب الفكرة المجردة وهي فكرة الخلود هنا ، في صورة مجسدة ملموسة . و« الخالدون يولدون ببقعة حمراء مميزة فوق العين اليسرى ، وتتحول هذه البقعة في مراحل متأخرة الى اللون الأخضر ، ثم الأزرق وفي نهاية الأمر الى الأسود . وعندما يسمع « جليفر » عن هؤلاء « الخالدين » يسيطر عليه حلم الخلود الواهم الذي يجد فيه سعادة وحكمة لا حدود لها . وهنا تتجه السخرية في نهاية الرحلة الثالثة اتجاها جديدا ، فبعد أن كانت تتجه الى انتقاد المجتمع ، وحماقات السلوك التقليدي ، والعلاقات بين الناس ، والحكم والسياسة والحرب والتعليم والقانون ، أصبح هدفها الآن الأوهام التي تسيطر على بني البشر . فالحلم الخرافي المتعلق بفكرة الخلود يصعب مقاومته . والقلة هي التي تستطيع أن تستسلم لفكرة الموت ، اما الغالبية فتحلم بالأبدية وتتمناها ويمثل « جليفر » حلم الغالبية . ولكن الأسلوب الخطابي الذي يستخدمه عندما يشير الى السعادة الملازمة للخلود ، كما يعتقد ، ينبه القارىء الى سخرية الكاتب من أوهام « جليفر » ، ويبدو تهكم الكاتب في مغالاة « جليفر » في الحماس لتلك الفئة الغريبة من الناس التي يتصور انها وصلت الى قمة السعادة ، فيقول :

> صحت في نشوة ، يالها من أمة سعيدة ، أمة تتيح فيها لكل طفل فرصة الخلود . يالهم من سعداء ، أولئك الذين يستمتعون بأمثلة حية للفضيلة الغابرة ، ويجدون من حولهم أساتذة على استعداد لتلقينهم حكمة العصور السابقة . يالها من سعادة ليس بعدها سعادة حياة معشر الـ « سترلبرجز » الممتازين الذين يولدون معفين من تلك الكارثة التي تشارك فيها البشرية جمعاء متحررين في أذهانهم من وطأة كآبة النفس التي يسببها الخوف الأزلي من الموت . [٢٩]

وهنا يبتسم الرجل الذي تحدث الى « جليفر » من « الخالدين » ابتسامة المجرب المشفق على سذاجة سامعه ، ويأخذ في وصف حياة الـ « ستلد برجز » كما هي في الواقع وليس كما تصورها « جليفر » . فيقول انهم يعيشون حياة طبيعية حتى سن الثلاثين ، ثم يبدو عليهم الاغتمام حتى سن الثمانين ، وعندئذ تظهر عليهم ليس مجرد حكايات وضعف المسنين عامة ، وانما صفات اخرى تنشأ من « المصير المريع » أي الحياة الأبدية ـ التي تنتظرهم . فهم لا يتصفون بالعناد فقط وضيق الخلق والطمع والاكتئاب والغرور والثرثرة . وانما يتصفون بفقدان المشاعر الطبيعية نحو الآخرين ، ويحسدون صغار السن على ملذاتهم ، كما يحسدون الموتى على تحررهم من حياة أصبحت كريهة إليهم . انهم يتذكرون

---

٢٩ ـ الجزء الثالث ، الفصل العاشر

بشكل غير دقيق الاشياء المتعلقة بشبابهم وكهولتهم فقط . أما أولئك الذين هم أسعد حظا فلا يتذكرون شيئا على الاطلاق . وفي سن الثمانين يعتبرون من الأموات في نظر القانون . وفي سن التسعين يفقدون حواسهم وتستمر أمراضهم . ويحرمهم فقدان الذاكرة من سلوى القراءة . وباندثار لغة الأكبر سنا منهم يصبحون غرباء وسط اهلهم . وبهذا يعيشون في وحدة ازلية قاتلة « ويوجه مظهر « الخالدين » المحزن المرعب الضربة القاضية لأوهامنا .

وفي هذا الجزء من الرحلة ، الذي شهد بقوة سويفت التصويرية ينجح الكاتب في اقناع القارىء بقبول فكرة الفناء بتصوير ملازماتها من الشيخوخة بكل تفاصيلها المأساوية مجسدة في الـ « ستراليرجز » المنحوسين ، الذين حرموا ملذات الحياة ونعمة الموت . وتبدو تعاستهم واحباطهم في الوصف التالي :

ان الحسد والرغبات العقيمة هى أقوى المشاعر التى تسيطر عليهم . ولكن الاشياء التى يبدو أنهم يوجهون ضدها مشاعر الحسد أساسا هى رذائل الأصغر سنا ، وموت الأكبر سنا . فعندما يتأملون الأول يجدون أنفسهم مقطعين عن أى احتمال للمتعة وعندما يرون جنازة يندبون ويتبرمون لأن غيرهم رحلوا الى مأوى للراحة لا أمل لهم فيه أبدا . (٣٠)

ويهاب الناس الموت فى جميع البلاد ماعدا « بجناج » حيث يذكرهم « الخالدون » بواقع الحياة ومصير الانسان . اما « جليفر » فيتحرر الى حد ما من أوهامه ويستيقظ من احلامه ، ويتعلم أن الحياة تجربة صعبة وجادة ، وان الانسان محدود فى امكانياته وقدراته ، وأن البشر هم دائما البشر لن يطرأ عليهم تغيير ، ولا أمل للهروب من رذائلنا وتفاهاتنا . وينتهى « جليفر » بقوله « لقد كنت غاية فى الخجل من الرؤى المتعة التى شكلتها ، وأيقنت انه ما من طاغ يستطيع ان يخترع ميتة بشعة تمنعنى من أن ألقى بنفسى بمنتهى الرضا هربا من تلك الحياة . ويقصد هنا حياة الشيخوخة المجسدة فى « الخالدين » ولكن حياة « السترابلد برجز » كما وصفها « سويفت » فيها الكثير من سلوك الانسان العادى ونقائصه ، حتى قبل أن يصل الى مرحلة الشيخوخة . ومهما تميز الإنسان فانه ما زال بشرا . وبهذا فان الرحلة الى « لابوتا » التى بدأت وسط أناس تافهين عن واقع الحياة ، تنتهى بمواجهة حقيقة الوجود البشرى ، وتكشف عن قتامة لم يسبق لها مثيل فى الرحلات السابقة . ومن ثم فهى تمهد الطريق للرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينوهمز » . و (الياهوز) .

ومن ناحية اخرى فان الرحلة الثالثة ، فيما عدا الجزء الأخير منها ، تتصف بروح الفكاهة والمرح ،

---

٣٠ . المكان نفسه

مما يفسر لنا السبب الذي دعا سويفت الى وضعها في المكان الثالث من الرحلات وقبل الرحلة الأخيرة بالذات . فعلى الرغم من أن سويفت كتب الرحلة الرابعة قبل الثالثة فقد فضل أن تأخذ رحلة « لابوتا » الترتيب الثالث رغبة منه في اعطاء القارىء مهلة يلتقط فيها أنفاسه ، ويستمتع فيها بشيء من المرح قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة في اتجاه الظلام المحيط بالرحلة الرابعة التي لا أثر فيها للمرح المتوغل بشكل ملحوظ في جميع الرحلات السابقة ، وفي الثالثة منها بالذات .

وقد يكون هناك سبب آخر دفع « سويفت » الى الترتيب الحالي للرحلتين الثالثة والرابعة ، وهو أن صورة « الهوينوهم » ، الحصان الانسان ، « والياهو » الانسان الحيوان ، تتطلب خيالا خارقا ، بعكس أقزام ومردة « ليليبت » و « بروبد نجناج » الذين هم كائنات بشرية يمكن أن يتصورهم القارىء دون صعوبة . ولكي يسهل « سويفت » على القارىء قبول « الهوينوهم » و « الياهو » البعيدين عن التصديق ، فقد سبقها بكائنات لا تقل عنها غرابة في الرحلة الثالثة . ومتى تعود القارىء على أهل « لابوتا » وأطوارهم يستطيع أن يستسلم دون مقاومة لخيال بلاد الجياد العاقلة الناطقة . ويمكن اعتبار الرحلة الرابعة أيضا تتمة لسابقتها التي أبدى فيها الانسان رغبته الملحة في الحياة ، والتي وضع الكاتب خلالها سؤالا نفاذا وهو : وما هي الظروف التي يمكن فيها للانسان ان يقبل الحياة ، وما هي نوعية الحياة التي يريدها ؟

●●●

٤ - رحلة الى بلاد الهوينوهمز A Voyage to the Houyhnhnms

يبدو سويفت في أوج عظمته كأديب ساخر في الرحلة الأخيرة الى بلاد « الهوينوهمز » التي هاجمها النقاد بعنف لأنهم أساءوا فهم معناها ، وكان « ثاكراي » (١٨١١ - ١٨٦٣) Thackeray الروائي الفكتوري الشهير ، واحدا من أولئك الذين أغضبتهم الرحلة الى درجة انه نصح مستمعاته من السيدات ، في محاضرة ألقاها عن سويفت في لندن « بالامتناع عن قراءاتها لأن سويفت كما وصفه ، « رجل فاجر تماما ، يائس ، مجنون ، وعواطفه وحشية ، وقوته التي يتباهى بها وضيعة . وهو وصمة للحيوان كما يستحق أن يكون فعلا . والجهل أحسن بكثير من « العقل » الذي يتشدق به » . ويصف « ثاكراي » الأسلوب الذي يستخدمه سويفت في هذه الرحلة بأنه أسلوب « الياهو » الذي يسخر منه سويفت نفسه . ويستمر في القول« انه وحش مريع يصرخ ويزمجر ضد الانسانية . . قذر في ألفاظه ، قذر في فكره ، ساخط ، هائج بذيء » . وتدل كلمات « ثاكراي » الحانقة أن هذه الرحلة قد صدمته صدمة قوية وأثارته الى أقصى الحدود . وهذا في الواقع هو التأثير الذي تتركه الرحلة على كثير من القراء

لأنها تصيبهم فى كبريائهم كبشر . فالسخرية هنا لم تعد مجرد هموم على سلوك الانسان المعاصر وحياته الاجتماعية ونظمة السياسية ، وانما هى أكثر شمولا ، وتتناول جشع الانسان ودناءته وكبرياءه وأوهامه وتصرفاته الحمقاء فى كل زمان ومكان .

ولا شك أن أثر الصدمة يرجع الى صورتى « الهوينوهم » (الحصان العاقل الناطق) « والياهو » Yahoo (الانسان الحيوان) اللتين يقارن بيها « جليفر » الانسان واساس المقارنة فى هذه الرحلة يختلف تماما عنه فى رحلة « برويد نجناج » . فمهما قيل عن الهوة التى تفصل بين « جليفر » وملك « برويد نجناج » فى السلوكيات والاخلاقيات فان المقارنة ما زالت بين صورتين من الجنس البشرى ، أى أن احتمال وصول « جليفر » الى مستوى أهل « برويد نجناج » العقلاء ليس مرفوضا تماما ، بينما هذا الاحتمال غير وارد على الاطلاق فى الرحلة الرابعة ، لأن « الهوينوهمز » ينتمون الى جنس مختلف كلية عن الجنس البشرى . وبذلك « فجليفر » لا ينتمى الى « الهوينوهمز » لا من قريب ولا من بعيد ، ولو انه يحاول دون جدوى أن يصل الى مستواهم الرفيع . ويقضى سويفت اذن على الاعتقاد الراسخ الذى بنى الانسان على اساسه نظرته المتعالية ، وهو الاعتقاد بأنه الكائن الوحيد العاقل ، لأنه وهب العقل ويتذوق رحلة « برويد نجناج » ان الأمل ما زال قائما فى وصول « جليفر » بمجهوده الى ما وصل اليه الملك بسجيته . ولكن فى بلاد « الهوينوهمز » يجد « جليفر » نفسه مضطرا الى التخلى عما ادعاه من الخلق والعقل اللذين تحلى بهما « الهوينوهمز » وقد سبق ان لمح سويفت الى القرابة بين « جليفر » و « الياهو » فى المغامرة مع القرد الذى اختطف « جليفر » وعامله كوليده ، ويوحى هذا الحدث الفكاهى فى الرحلة الثانية بحيرة « جليفر » فى الرحلة الرابعة من حقيقة ذاته ، وبالكابوس الذى يعيش فيه حتى عودته الى اهله تاركا بلاد « الهوينوهمز » وراءه وعلى ذلك فان قرد « برويد نجناج » الى جانب الصور الموازية الاخرى ، هى اشارة الى صورة « الياهو » المتطورة فى الرحلة الأخيرة .

وقد بنى سويفت الرحلة الرابعة ، كما بنى الرحلتين الأولى والثانية ، على موقف خيالى خراق قدم فيه « جليفر » فى وضع وسط بين نقيضين . ففى « ليليبت » و « برويد نجناج » ترى جليفر بين المارد والقزم ، وفى الرحلة الأخيرة تراه بين « العقل » و « الحس » المجسدين فى « الهوينوهمز » و « الياهو » .

فبعد أن استولى القراصنة على سفينة « جليفر » واجبروه على تركها ، وجد نفسه فى بلاد ذات مساحات شاسعة مزروعة قمحا وشعيرا ، وهذه ملاحظة لا يفهم القارىء كنهها الا فيما بعد عندما يعلم ان الجياد العاقلة هم من سكان هذه البلاد . اما اول ما يقع عليه نظر « جليفر » فهم « الياهو »

وهي حيوانات قبيحة مقززة غطى أجزاء من أجسامها شعر كثيف ، بينما كشفت أجزاء أخرى عن جلد أسمر ، ولم يكن لها ذيل ، وكانت مخالبها طويلة مما ساعدها على تسلق الأشجار في خفة السنجاب . وقد شعر « جليفر » بنفور قوي عندما اقترب منه أحد هذه الحيوانات ، وحدق في وجهه ، ورفع احدى رجليه الأماميتين نحوه ، فضربه « جليفر » بسطح سيفه . عندئذ صاح الحيوان بصوت عال ، وجمع من حوله أربعين حيوانا من جنسه أخذوا في العويل ولوي وجوههم ، وبدأ بعضهم يتمرجحون على أغصان شجرة وقف « جليفر » تحتها مدافعا عن نفسه ، ورموه بوابل من افرازات أجسامهم القذرة حتى كاد أن يختنق . وفجأة تفرق الجميع ، وظهر حصان يمشي بتؤدة الى أن وصل بالقرب من « جليفر » ، فنظر الحصان اليه متعجبا ، وفحص يديه وقدميه . ثم حاول « جليفر » ان يدلل الحصان ، ولكنه هز رأسه ، ورفع عنه يد « جليفر » بقدمه ، وأخذ في الصهيل بلغة غريبة . عندئذ حضر حصان آخر وحيا الأول باحترام ودخل ، كما يبدو ، في مناقشة طويلة معه عن شخص « جليفر » وبدأ يفحصان يديه وملابسه . وكان سلوكهما هادئا رقيقا يدل على تفكير منظم عاقل الى درجة جعلت « جليفر » يعتقد انهما سحرة في مظهر جياد . وقد دفع سلوكهما « جليفر » الى الاعتقاد بأن حكام هذه البلاد لا بد ان يكونوا ذوي عقول فوق المستوى العادي بمراحل . ويجد الحصانان نفسيهما في حيرة من أمر « جليفر » كما يجد هو نفسه في حيرة من أمرهما أيضا . ويخاطب سويفت القارىء بهذا الموقف الغريب وتلك الكائنات العجيبة ، ويستمر في القراءة ليكتشف السر وراءها .

يبدو من هذه المقدمة أن سويفت جاء مرة أخرى في بناء الساخر الى استخدام حلم أو خرافة يشترك في تصوره الناس جميعا . فعدد لا يحصى من « الكائنات الشعبية وحواديت » الأطفال التي تتناول الحيوانات المتكلمة العاقلة . وهناك « حكايات » أخرى خرافية ، وان كانت أقل شيوعا من النوع الاول ، تتناول فكرة الانسان الحيوان ، ولكن سويفت كما تعودنا شكل الموقف الفولكلوري الأصلي ليتناسب مع أهدافه الخاصة . ففي الحكاية الشعبية أو « حدوتة » الأطفال يلعب الحيوان المتكلم دور الناصح للانسان الذي يطرى عليه لسبب أو لآخر ، أو يؤدي دور الواعظ الذي يعلق على سلوكياته . وفي بعض « الحكايات » يرافق الحيوان سيده الانسان في مغامرة سحرية . اما « الهوينوهمز » فهي من ابداع سويفت الساخر ، ويستخدمهم على نحو مبتكر ، ليس كأداة للثناء على الانسان ، وانما كوسيلة لمواجهة الانسان بحقيقته وبسخف الصورة المتعالية التي رسمها لنفسه . أي أن هدف سويفت هو أن يصدم الانسان بواقعه .

و « الهوينوهمز » كائنات لا علاقة لها بالجياد الا في مظهرها الخارجي ، وهي مخلوقات تبعث على الاعجاب في تلاؤمها التام مع العالم الطبيعي . انها عائلة لطيفة عاقلة متزنة في اسلوب حياتها

وسلوكها ، صادقة لا تتحدث الا عن الشيء الكائن . فهي لا تعرف الكذب ولا تحوى لغتها كلمة بمعنى « الكذب » ، وانما تعبر عنها ب « الشيء غير الكائن » . والفضيلة بالنسبة « للهوينوهمز » هي المعرفة وأساس تفكيرهم العقل والمنطق ، أى أن تفكيرهم مطابق لتفكير الفلاسفة .

وبلادهم تشبه الى حد كبير الكمال الذى تصوره افلاطون فى « جمهوريته » المثالية التى يحكمها الفلاسفة ، فالسياسة بمعناها المعاصر لا وجود لها ، لأن المواطنين منظمون يقومون بدورهم بمسئولية تامة ، ويرون ما يجب عمله ويؤدونه . والحروب القائمة على المنافسات والمصالح المادية معدومة ، ويعيش « الهوينوهمز » حياة بسيطة يساهم فيها كل فرد من أفراد المجتمع ، ولا يعرفون النقود أو المعاملات المالية أو المصالح الشخصية . وبما أن حياتهم على الفطرة ، فهم يجهلون فنون الطب والجدل والخطابة . ولا يهابون الموت ولا يحزنون على موتاهم . ويعتبرون الارض التي ينتمون اليها هي أمهم الأولى . أما الزواج فهو غير مبنى على الرغبة الشخصية وانما على العقل . ولا مكان للحب والعاطفة الجامحة في حياة هذه الكائنات العاقلة . انهم يعيشون أزواجا في بيوتهم الخاصة ، ولكنهم ينفصلون عن الأسرة عند الضرورة ، ويساعدون الآخرين عند الحاجة ، الى درجة انهم يتبادلون الأطفال في سبيل المجموعة . ولا يحبون اولادهم أو يظهرون نحوهم عاطفة الأمومة والأبوة كما نعرفها . وانما يرعونهم في سبيل المصلحة العامة .

« والطبيعة » هي المقياس الذي اتخذه « الهوينوهمز » لحياتهم ، وهذا ما يشير اليه اسمهم كما شرحه « جليفر » ، فمعنى كلمة « هوينوهم » هو « كمال الطبيعة » وهي تعبر عن مثل أعلى بكثير مما يصبو اليه الانسان في لحظاته الروحية والعقلية ، وهي مثل كان يعتز بها معاصرو « سويفت » الاغسطيون بالذات .

أما طرف النقيض الآخر فهو ممثل في صورة « الياهو » وهو أقوى رمز ورد في أي عمل من اعمال سويفت . و « الياهو » نقيض العقل ، أي انه يرمز الى العنصر الحيواني في الانسان ، تلك الناحية غير المستنيرة ، غير المتطورة ، اللا عاقلة في الجنس البشري . انه يجسد اذن الغريزة التي يشترك فيها الحيوان والانسان معا . ويشعر « جليفر » باشمئزاز لا حد له عندما يرى « الياهو » القبيح ظاهرا وباطنا . فشكله الظاهر ما هو الا انعكاس لأخلاقياته المنكرة الكريهة . انه جشع ، حانق ، حسود ، غيور ، مغرور ، بليد ، عبد للشهوة ولغريزة التملك ، خاو فكريا وعقليا وعاطفيا . انه أسير طبيعته الفاسدة وشهواته . وعلاقته ببني جنسه علاقة عدائية لأن رغباته لا تعرف الاعتدال . ويحكي « سيد » « الهوينوهمز » عن تصرفات معشر « الياهوز » [٣١] فيقول : ان الجشع يبلغ بخمسة منهم الى

٣١ ـ الجزء الرابع ، الفصل السابع

حد المشاجرة العنيفة حول غذاء يكفي خمسين « ياهوا » . فيكادون يقتلون بعضهم البعض لو لا افتقارهم الى الاختراعات الحديثة المدمرة التي سبق أن وصفها « جليفر » لملك « بروبد نجناج » . ويصف « السيد » كيف يحفرون الارض بمخالبهم بحثا عن الأحجار الملونة ، ويحملونها الى « زريبتهم » حيث يخبئونها بعيدا عن الأنظار . واذا ضاعت منهم يكادون أن يموتوا حزنا عليها . وهناك شراب يتناولونه مصنوع من عصير نبات مسكر ، وعلى أثر تناولهم إياه يتعانقون أحيانا ويتشاجرون أحيانا أخرى ، ويولولون ويضحكون ويثرثرون ويتطوحون ويتعثرون ويتهاوون الى الأرض حيث ينامون وسط القذارة . وصورة « الياهوز » تلك الكائنات التي لا تعرف لها حدودا طبيعية ولا تستطيع أن تتحكم في طبيعتها الفاسدة ، هذه الصورة مثل ناضج لأدب « سويفت » الساخر الذي يجمع في آن واحد بين السخرية من الصفات الجسدية والخلقية .

وهذه المقارنة بين « الهوينوهمز » و « الياهوز » ، أ بين العقل والحس المجردين ليست مقارنة بين نوعين مختلفين من البشر فلا يرمز « الهوينوهم » أو « الياهو » الى الانسان على الاطلاق . وانما الذي يرمز اليه هو « جليفر » الذي يشارك لسوء طالعه في طبيعة كل من « الهوينوهم » و « الياهو » طرفي النقيض . والحيلة التي يلجأ اليها « سويفت » في هذه الرحلة هي الفصل بين العنصرين الأساسيين اللذين يتحدان في الانسان ذي الطبيعة « الثنائية » حتى يتمكن « جليفر » من ان يتأمل كلا منهما في جوهره .

ولما كان « جليفر » حلقة الوصل التي تجمع بين النقيضين فقد وجد نفسه في وضع يسمح له بأن يكون حكما بينهما . ويبدو حكمه منذ أول وهلة في نفوره من « الياهوز » وانكار قرابته لهم ، وانجذابه نحو « الهوينوهمز » وادعائه القرابة لهم . وتكمن سخرية سويفت في نظرة كل من « الياهوز » و « الهوينوهمز » فبينما لا يجد « جليفر » أي وجه شبه بينه وبين « الياهوز » يرى « الهوينوهمز » ذلك الشبه واضحا ، بل انهم يندهشون عندما يبدي « جليفر » ما يدل على العقل والقدرة على الكلام مثلهم ، فهو بالنسبة اليهم ليس الا « ياهوا » وللتأكد من ذلك يضع بعض « الهوينوهمز » « جليفر » جنبا الى جنب مع ثلاثة من « الياهوز » للمقارنة . وتكون الصدمة المروعة عندما تتجلى الحقيقة « لجليفر » شيئا فشيئا . ويصف المشهد فيقول :

وبعد دخولي مباشرة وقف الفرس منتصبا من على حصيرته واقترب مني . وبعد أن تمعن في يدي ووجهي نظر إلي نظرة احتقار . ثم التفت الى الحصان ، وسمعت كلمة « ياهو » تتكرر مرارا بينهما ، وهي كلمة لم أفهم معناها آنذاك . . . . ولكن لم ألبث أن عرفته ، فأصابني شعور بالخزي والعار الأزلي . وقد قادني الحصان الى مكان كالفناء . وعندما دخلنا

رأيت ثلاثة من تلك المخلوقات المقيتة . . . وهم يأكلون بعض الجذور ولحوم الحيوانات ، اكتشفت فيما بعد انها لحوم حمير وكلاب أو لحم بقرة ماتت في حادث او على أثر مرض ، وقد التفت حول اعناقهم حبال قوية عقدت الى عامود خشبي . وأمسكوا غذاءهم بمخالب اقدامهم الأمامية ، واخلدوا يمزقونه بأسنانهم . (٣٢)

ويكتشف « جليفر » التطابق بينه وبين « الياهو » فيقول :

لا أستطيع أن أصف ارتياعي ودهشتي عندما تبينت في هذا الحيوان البغيض جسم انسان كامل . كان الوجه بلا شك مسطحا وعريضا . والأنف مفرطحا ، والشفتان سميكتين ، والفم عريضا . ولكن هذه اختلافات تشترك فيها جميع الأمم المتوحشة . . . . أما قدما « الياهو » الأماميتان فلا تختلفان عن يدي اذا ما استثنينا طول الاظافر وخشونة راحة اليد وكثافة الشعر على ظهرها . وكان هناك نفس الشبه والاختلاف بين أقدامنا ، التي كنت أعرفها جيدا ، وان كانت الجياد تجهلها لاختفائها تحت الحذاء والجورب ، كان التماثل واحدا في كل جزء من أجزاء أجسامنا باستثناء كثافة الشعر ولون البشرة اللذين سبق أن أشرت اليها . (٣٣)

والشيء الذي تعجبت له الجياد هي ملابس « جليفر » التي جعلته يبدو مختلفا عن « الياهو » ، وكانت تجهل انه يستطيع ان يخلعها متى أراد . أما « جليفر » فقد حمد ربه على جهل « الهوينوهمز » الذي حال دون مطابقتهم « جليفر » بالياهو » تماما . ولكن لم يلبث أن اكتشفوا سر هذه الملابس ذات يوم عندما دخل حصان على « جليفر » فوجده نائما وقد خلع ملابسه ولم يستطع « سيد » « الهوينوهمز » أن يفهم الحكمة في فكرة الملابس ، والدافع الذي يدعو أي مخلوق الى اخفاء بعض اجزاء جسمه الذي وهبته الطبيعة اياه . ومع ذلك فقد سمح « السيد » « لجليفر » أن يحتفظ ببعض ملابسه عندما أخذ يفحصه من جديد . وفي هذه المرة وجد « جليفر » مطابقا تماما « للياهو » رغم بشرته الناعمة البيضاء وشعره القصير وافتقاره الى المخالب الطويلة ، وعادته في المشي منتصبا على رجليه الخلفيتين ، وهي عادة اعتبرها « الهوينهم » نوعا من التصنع والتكلف . وتتأكد هذه المطابقة في مشهد « لجليفر » وهو يستحم في النهر . وتراه أنثى « ياهو » شابة فيثير فيها رغبة شهوانية باعتباره واحدا من أبناء جنسها . وتقفز الى النهر وتعانقه بعنف ، ولا يستطيع أن يتخلص منها الا عندما يقذف واحد من خدم

٣٢ - الجزء الرابع ، الفصل الثاني
٣٣ - المكان نفسه

« الهوينوهمز » . وبعد هذه التجربة يصبح من المستحيل أن ينكر « جليفر » حقيقته « الياهووية » أو أن يخفيها .

ومع ذلك فقد اعترف « الهوينوهمز » بأن هناك اختلافا بين « جليفر » و « الياهوز » وأساسه مظاهر العقل التي تبدو عليه والتي جعلته أحد خوارق الطبيعة . ولكن هذا الاختلاف يزيد من نفور « الهوينهمز » منه بدلا من أن يقربه منهم . فهم يرفضون ادعاءه العقل مؤكدين أن ما يتمتع به « جليفر » هو مجرد « مظهر » العقل الذي يرجع الى قدرته على « محاكاة » المخلوق العاقل . وهذا يجعل « جليفر » في نظرهم أحط من « الياهو » لأن مظهر العقل فيه ليس إلا « زيفا وخداعا » . ويشرح « جليفر » ما يعنيه « سيد » الهوينهمز » فيقول على لسانه :

عندما يدعي مخلوق العقل ، ويبدي في نفس الوقت القدرة على سلوك في مثل تلك الجسامة ، فانه يخشى أن افساد هبة العقل قد يكون أسوأ من البهيمية نفسها . ويبدو أنه كان على يقين من أننا نمتلك ، بدلا من العقل ، صفات شكلت على نحو يزيد من شرورنا الطبيعية . (٣٤)

بدأ « جليفر » بالاعجاب « بالهوينوهمز » ثم انتقل بعدئذ الى قبول حكمهم عليه وعلى بني البشر عامة ، ولم يعد يطيق النظر الى نفسه فيقول :

اذا ما تصادف أن رأيت انعكاس صورتي في بحيرة أو في نهر ، أدرت وجهي في انزعاج ، شاعرا بالبغض نحو شخصي . انني أحتمل مظهر « الياهو » العادي أكثر مما احتمل مظهري . (٣٥)

وبذلك اصبح « الهوينوهمز » المثل الأعلى « لجليفر » رغم رفضهم المطلق له . ونراه في نهاية الرحلة منبوذا ومعزولا تماما ، فلا هو يريد أن ينتمي الى « الياهوز » ولا يقبل « الهوينوهمز » انتماءه اليهم . ومع ذلك كان يسعى الى عقلانية « الهوينوهمز » وحكمتهم الفطرية البسيطة معتقدا في النهاية انه بلغ مأربه . ولكن سويفت ينكر امكانية ذلك بوضعه في موقف ساخر فضل « جليفر » فيه رائحة حصانيه وحديثهما على صحبة زوجته واولاده ، فبدا وكأنه فقد عقله . ويصف « جليفر » عودته الى وطنه وأسرته وما شعر به من اشمئزاز في قوله :

---

٣٤ ـ الجزء الرابع ، الفصل الخامس

٣٥ ـ الجزء الرابع ، الفصل العاشر

لقد قابلتني زوجتي وأسرتي بدهشة وفرح عظيمين ، لأنهم كانوا يعتقدون انني قد مت. ولكن يجب أن اعترف أن مظهرهم ملأني بالكره والاشمئزاز والاحتقار وباللذات عندما فكرت في القرابة التي تربطني بهم . وقد أجبرت نفسي ، منذ ان نفيت من بلاد « الهوينوهمز » على تحمل شكل « الياهو » والحديث مع « دون بدرودي منديز » الا ان ذاكرتي وخيالي سيطرت عليها فضائل وآراء « الهوينوهمز » ، تلك الكائنات السامية ، وحينما بدأت أفكر انني ، بزواجي من واحدة من جنس « الياهو » ، قد اصبحت أبا لعدد أكبر منهم ، شعرت بالعار والضياع والارتياع . [٣٦]

عندما دخلت الى المنزل عانقتني زوجتي وقبلتني ولما كنت قد نسيت لمسة ذلك الحيوان المقيت ، بعد تلك السنين الطويلة ، أغمي علي مدة ساعة تقريبا ، والآن قد مرت خمس سنوات منذ عودتي الأخيرة الى انجلترا . ولم أستطع خلال السنة الاولى تحمل وجود زوجتي وأولادي بالقرب مني ، فلم أكن أطيق رائحتهم ولا أن أراهم وهم يأكلون في نفس الحجرة . وحتى هذه الساعة فانهم لا يجرأون على وضع أيديهم على خبزي أو ان يشربوا من نفس الفنجان . ولم استطع أن أسمح لأحد منهم ان يمسك يدي . وقد اشتريت بأول مبلغ وفرته حصانين احتفظ بها في اسطبل جيل . واعتبر « سايسهما » احب شخص الي من بعدهما ، لانني اشعر بانتعاش نفسي عندما اشم رائحة الاسطبل التي تعلق به ويفهمني حصاني الى حد كبير . وانا اتحدث اليهما مالا يقل عن اربع ساعات يوميا . وهما يجهلان السرج واللجام ، ويعيشان معي في ود عظيم ، ومع بعضهما في صداقة تامة . [٣٧]

ويبدو من هذه الفقرة ان سويفت قد بدأ يوجه سخريته نحو « جليفر » وان كان عدد من النقاد قد فشل في ادراك ذلك ، وأصروا على المطابقة بين « جليفر » والمؤلف . ولكن القارىء المقصر لا يفوته التهكم البارع في نهاية الكتاب عندما يتأمل « سويفت » غرور « جليفر » الذي يعتقد أنه تخلص من الرذائل التي التصقت ببني البشر الذين ينتمي اليهم « جليفر » في الواقع مهما انكر ذلك الانتماء . ويظهر تعالي « جليفر » على جنسه الذي لا مبرر له في قوله :

ان اعادة الوفاق بيني وبين جنس « الياهو » عامة قد لا يكون صعبا الى درجة كبيرة ، لو انهم اكتفوا بتلك الرذائل والحماقات التي خولتها لهم الطبيعة . وانا لا استثار عندما تقع عيناي

---

٣٦ - الجزء الرابع ، الفصل الحادي عشر
٣٧ - المكان نفسه

على محام او نشال بكباشي او احمق او لورد او مقامر او سياسي او قواد او طبيب او شاهد او غاو او وكيل او خائن وما الى ذلك . فهم جزء من طبيعة الاشياء . ولكن صبري ينفد تماما عندما أرى كتلة مشوهة من المرض العقلي والجسدي تكبت بالغرور ولا يمكن ان يتبادر الى ذهني كيف ينال الجمع بين ذلك الحيوان وتلك الرذيلة .[٣٨]

وتكمن سخرية هذا الموقف في كون « جليفر » نفسه مثلا لكائن ابتلى بالغرور . لقد سافر الى العديد من بلاد العالم ، وواجه مخاطر لا حصر لها ، ولكنه لم يتعلم شيئا من تجربته . ان الرحلات التي قام بها كانت الى أغوار الطبيعة البشرية ، وكانت أخطر مغامراته هي المغامرة الأخيرة التي أثبتت ضعفه تجاه الحقيقة التي اكتشفها عن نفسه وعن بني جنسه ، والتي أدت الى فقدانه الواضح لأنسانيته في تنكره لأسرته . وانتهى به الامر الى الوقوع فريسة لتلك الرذيلة التي طالما سخر منها في الرحلات السابقة ، وهي الغرور البادي في اعتقاده أنه قد بلغ أقصى درجات العقل والحكمة كما وجدها في « الهوينهمز » . ويظهر تعاليه في الفقرة التالية عندما يشير الى العدوى التي بدأت تتسرب اليه مرة ثانية نتيجة احتكاكه ببني جنسه الذين فقد الأمل في اصلاحهم . وما كان يجب أن يحاول ذلك ، بل أن مجرد المحاولة دليل على بدء تفشي « الياهووية » فيه ، لأنها تعني انه عاد الى الأوهام التي لا تتفق مع العقل . ويقول « جليفر » في خطابه الى قريبه « سيمسون » :

> يجب أن اعترف أنه منذ عودتي من رحلتي الأخيرة ظهرت في من الجديد بعض مظاهر الفساد الناتجة عن طبيعتي « الياهووية » ، نتيجة اتصالي ببعض أفراد جنسكم ، وخاصة أفراد أسرتي ، وهو مالم يكن منه مفر . والا ما فكرت في ذلك المشروع الجنوني الذي يهدف الى اصلاح جنس « الياهو » في هذه المملكة . ولكنني قد عدلت الآن والى الابد عن أمثال تلك الخطط الخيالية . [٣٩]

ويجب أن نتساءل هنا ما الذي كان سويفت يعنيه من فكرة « العقلانية » التي سعى اليها « جليفر » ، وظن انه نجح في سعيه ؟ هل كان سويفت يعتقد أن الانسان يستطيع أن يتوصل الى درجة « العقلانية » التي جسدها في « الهوينهمز » ؟ وهل هذا مثل يحتذى ؟ يبدو من الرحلة الرابعة أن « العقلانية » بمقارنتها ببهيمية « الياهوز » هي فعلا مثلا يحتذى . ولكن هل كان سويفت يريد أن يصبح « جليفر » تجسيدا للعقل المجرد مثل « الهوينهمز » ؟ لقد ظن كثير من نقاد سويفت الأوائل أن هذا كان هدفه من

---

٣٨ - الجزء الرابع ، الفصل الثاني عشر

٣٩ - A Letter from Captain Gulliver to his cousin Sympson.

كتابة الرحلات . ولكن بعض النقاد فيما بعد رأوا أن المثل الأعلى ليس فى متناول اليد ، بل انهم ذهبوا الى أبعد من ذلك . وقالوا ان سويفت كان يقصد توجيه سخريته الى العقل المجرد وعقلانية جمهورية « الهوينوهمز » المثالية . ولذلك أكدوا ضرورة الفصل بين « جليفر » المبهور « بالهوينوهمز » وبين سويفت الذي يسخر من انبهار « جليفر » وسعيه الى المستحيل .

لا شك أن الجياد كما صورها سويفت فى رحلة « الهوينوهمز » هى حيوانات نبيلة جميلة فى مظهرها وحركتها وسلوكها . وحياتها البسيطة بعيدة عن الادعاء والتكلف ، فهى اذن من صميم « الطبيعة » المتناسقة . ولكن ليست هذه هى الحقيقة بأكملها ، وهناك نواح اخرى يجب أن ندخلها فى الاعتبار اذا ما أردنا ان تكون صورة كاملة صادقة لحياة تلك الكائنات الغريبة . وأول هذه الحقائق أن « الهوينوهمز » ليسوا من البشر ، وبذلك فلا يمكن أن نأخذ حياتهم كمثل أعلى للانسان . والحقيقة الثانية أن حياتهم العقلانية محدودة وتفتقر الى الحيوية . فحديثهم محدود واهتماماتهم محدودة وموقفهم من الحياة محدود ، يتقبلون المصائب بصدر رحب ، ويأكلون وينامون باعتدال ، ويؤمنون بالمحبة للجميع كمثل اعلى ، ومن ثم فليس هناك علاقات شخصية قوية أو أفضليات بين الاصدقاء والاسر ، وينظم الاصدقاء الزواج فى المجتمع باعتباره ضرورة بالنسبة للكائن العاقل » ، ويحب الزوج زوجته واطفاله كما يحب غيرهم من أفراد المجتمع لا أكثر ولا أقل . وينظرون الى الجنس كناحية من نواحى الحياة الطبيعية ، ولكن هدفه ، مثل جميع الغرائز الاخرى ، عملى محض ، وهو انجاب الاطفال فقط ، اما لغتهم وفنونهم وعلومهم فكلها تؤدى مهمة عملية مقصورة على ضروريات الحياة الاجتماعية الهادئة المتناسقة . وهم لا يعرفون الغيرة او العاطفة الفياضة او المشاجرة أو السخط او الاستياء ، ويعيشون حياة قبلية منعزلة عن العالم .

هذه الحياة التى أعجب بها « جليفر » كل الاعجاب هى أيضا صورة للحياة المثالية كما تصورها معاصرو « سويفت » الذين آمنوا بالعقل ، والطبيعة وقد رسم سويفت هذه الصورة على نحو يوحى بأنه هو نفسه يعتبرها مثلا ايجابيا اذا ما قورنت بصورته السلبية الساخرة « للياهوز » . ولكن سخرية سويفت لم تكن أبدا تمثل هذه البساطة المبنية على المقارنة المباشرة ، بل هى دائما مركبة ومصاغة فى أسلوب غير مباشر . واذا ما أمعنا النظر فى حياة « الهوينوهمز » فسنجدها قاصرة وسلبية الى درجة ليسوا فضلاء بالمعنى الايجابي . وافتقارهم الى العاطفة يجعل فضيلتهم ليست انتصارا للعقل والاعتدال على النزعات والاهواء ، وانما يجعلها نتيجة مناعة طبيعية ضد الشهوة والغريزة ، بل ضد الحياة والحيوية . فهم لا يعرفون الغرائز الجنسية والملذات الحسية والعاطفة الانسانية العميقة ، والرغبات والخوف وحتى الافكار . ومعنى هذا أنهم ، وان كانوا لا ينحدرون الى حضيض البهيمية ، الا انهم فى نفس الوقت لا

يرتقون الى السمو والمجد . ولعل مقال ف . ر . ليفيز **F.R. Leavis** الناقد المعاصر المشهور ، بعنوان « سخرية سويفت » هو أول اشارة الى موقف سويفت السلبي بالنسبة « للهوينوهمز » أصحاب العقل ، والى سخريته من مثالية « جليفر » الذي وجد في الجياد العاقلة تجسيدا لايمانه بالعقل . ومنذ ظهور ذلك المقال وقارىء « سويفت » يحاول أن يصل الى كنه سخريته في هذه الرحلة غير مكتف بالسخرية الظاهرة المباشرة الموجهة ضد « الياهوز » . يقول « ليفيز » في مقاله مؤكدا القصور الملحوظ في « الهوينوهمز » العقلانيين :

> يمس « الهوينوهمز » بطبيعة الحال ، العقل والصدق والطبيعة ، وكلها ايجابيات « اغسطية » وكان سويفت جادا الى أقصى حد في مناشدته اتباع هذه الايجابيات أصحاب العقل ، ولكن « الياهوز » هم المخلوقات التي تنبض بالحياة . وكان سيد « جليفر » و « الهوينوهمز » يعتقد أن الحيوان العاقل يكتفي بالطبيعة والعقل كمرشد له في حياته ، ولكن الطبيعة والعقل كما يكشف عنها « جليفر » يتصفان بسلبية غريبة والحيوانات العاقلة تفتقر الى كل ما هو في حاجة الى الارشاد . (٤٠)

وقد تنبه القراء والنقاد منذ ظهور مقال « ليفيز » الى صفة التركيب والاسلوب غير المباشر في سخرية « سويفت » . ولم يعد قارىء الرحلة الاخيرة يرى في « الهوينوهمز » مثلا أعلى يحتذى فتقول كاثلين وليامز **Kathleen Williams** ان « الهوينوهمز » لا يبدون للقارىء كائنات تستوجب الاعجاب بهم يثيرون الضحك احيانا بل والنفور أيضا ، ونشعر بالاشمئزاز من تملق « جليفر » في حبهم » (٤١) . وعندما نستمع الى مناقشات مجلس « الهوينوهمز » التي تدور حول مصير « جليفر » و « الياهو » ، نصطدم بحقيقة ذلك الجنس الذي يخلو من أية مشاعر انسانية دافئة . ويتبين من نظرتهم للأشياء تصور حياة العقل وحده ويتفق هذا التفسير الحديث لسخرية « سويفت » من « الهوينوهمز » مع أسلوبه المعروف في السخرية ورفضه الدائم اعطاء القارىء اهدافا ايجابية واضحة لا لبس فيها . فسخريته تسبب للقارىء كثيرا من القلق والازعاج . انها ليست من النوع المدمر فحسب ، وانما تبعث على التفكير والتأمل .

---

٤٠ - The Irony of Swift, Scrutiny, 'March 1934.

٤١ - Kathleen Williams, 'Gullivers Voyage to the Houyhnhnms' A Journal of English Literary History xv 111, Decmber, 1951 انظر النقد الحديث عن الرحلة الرابعة .

وعند وضع « الهوينوهمز » داخل اطار العصر « الاغسطى » نجد ان السخرية موجهة الى نظرة الاستنكار السائدة فى عصر « سويفت » نحو المشاعر والعواطف القوية التى وضعت تحت امرة العقل . فلم يكن للمشاعر مكان على الاطلاق فى بحثهم عن الحقيقة . ولكن « سويفت » كان يعلم جيدا ان القضاء على المشاعر او السيطرة عليها عن طريق العقل مستحيلة بسبب طبيعة الانسان « الثنائية » وبالكشف عن مخاطر الفصل بين العقل والعواطف كما فى « الهوينوهمز » « والياهوز » وبالحكم على الاول بالفضيلة والثانية بالرذيلة ، وضع أصبعه على نقطة ضعف خطرة فى فلسفة عصره . وبهذا جاءت الرحلة الرابعة نقدا « للاغسطية » .

وقد تكون السخرية موجهة ضد سويفت نفسه ، وهو الذى استولت عليه فكرة جمال العقل كما هو واضح من الرحلات السابقة التى يسخر فيها من كل من يفتقر الى العقل ، سواء أكان « جليفر » أو سكان البلاد التى يزورها . ولكن « سويفت » كان متفهما لطبيعة الانسان وقدراته بما يكفى ليدرك ان الانسان لن يصل أبدا الى الحلم الذي يسيطر فيه العقل على الحياة . لقد وجد تسلية فى بناء نموذج للمجتمع البشرى مفترضا انه يمكن اقناع الانسان ان يتصرف تصرفا عاقلا ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى حلمه طويلا دون أن يتأكد من فشل الانسان وسخف الحلم . والحلم مبنى على نظام ديموقراطى كامل ، ولكن لا تلبث أن تتطور الديمقراطية الى دكتاتورية يطغى فيها العقل . ويتبدد الحلم من أول لحظة بسبب وجود « الياهوز » الفوضويين الذين يتحدون نظام وتناسق الحلم الخرافى .

ويعلم سويفت جيدا أن الانسان لن يفلح فى تجسيد حلم الانسان العقلانى ، وانه اذا اعتقد أن ذلك ممكن يكون قد وقع فريسة لغروره وأوهامه . ويصبح هدفا لسخرية « سويفت » ، وهذا ما يحدث فعلا فى الرحلة الرابعة .

ونحن هنا اذن بصدد الفكرة الأساسية فى الرحلات وهى موقع الانسان الوسط فى سلسلة الوجود الهائلة ، وغرور الانسان لادعائه العقلانية التى هى من صفات الكائنات السامية التى خلقت فى مرتبة أعلى من مرتبة الانسان ، وهبوطه من ناحية أخرى الى مستوى الحيوان الذي هو أقل بكثير من مستواه الطبيعى . وفى صورتى « الهوينوهمز » و « الياهوز » والفصل التام بينهما يكمن السبب الذي دعا نقاد « سويفت » الاوائل الى تأكيد سلبيته وتشاؤمه . ولكننا نستطيع ان نكتشف فى هذه السلبية ، الواضحة فى افتقار « الهوينوهمز » و « والياهوز » الى دفء العاطفة والحب الانسانى ، نستطيع أن نكتشف فيها اشارة الى الصفات الانسانية الايجابية التى يؤمن بها « سويفت » وان كانت هذه الصفات غير موجودة فى تلك الكائنات المجردة ، السامية منها والحيوانية ، الا انها تظهر من آن لآخر فى مخلوقات

أخرى فى الرحلات : فى « جليفر » نفسه فى الرحلة الاولى ، وفى الملك ومربية جليفر « « جلمد لكلتش **Glumdalitch** الطفلة الحنون فى الرحلة الثانية ، وفى الفرس « الهوينوهمز » التى تحب جليفر وتحزن على فراقه وفى « دن بدرو دى منديز » ربان السفينة التى تنقذ « جليفر » ، والذي يعامله بانسانية غامرة وتفهم عطوف فى الرحلة الرابعة . ويؤكد وجود الشخصيات ما قاله سويفت عن موقفه من البشرية جمعاء ، فرغم كراهيته للجنس البشرى الا انه يحب الأفراد ، وقد عبر عن هذا الموقف لصديقه « بوب » فقال « لقد كرهت دائما جميع الأمم والمهن والمجتمعات وحبى كله للأفراد . فأنا أكره ، على سبيل المثال - معشر المحامين ، ولكنى أحب المستشار فلان والقاضى علان . . وينطبق هذا أيضا على الأطباء (ولن أتحدث عن مهنتى) والجنود والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين وغيرهم . ولكنى اكره وأمقت أساسا ذلك الحيوان المسمى بالانسان ، وان كنت أحب من كل قلبى جون وبيتر وتوماس » . وقد وجد سويفت فى أصدقائه من يستحق حبه واخلاصه ، ومنهم صديقه « اربثنت » **Arbuthnot** الذي قال عنه سويفت انه لو كان هناك عشرة من أمثاله لما رأى ضرورة لرحلات جليفر ، ولأشعل فى الكتاب النار .

ولقد تأثر سويفت ، باعتباره من رجال الكنيسة المسيحية ، بصورة الانسان الذي يحمل الخطيئة والشر فى طياته ، وهى الصورة التى بدت واضحة فى مواعظه وانعكست فى الرحلات . ولم يعتقد فى يوم من الايام فى امكانية تغير الطبيعة البشرية الثابتة ، ومع ذلك فقد حاول ، كما يقول متهكما على نفسه ، فى غمرة من الغرور وفى لحظة من الحماقة والجنون أن يحرك الانسان « ويغضبه » ليتخلى عن رذائله . فهدفه من كتابة رحلات جليفر كما قال ، هو « اغضاب العالم وليس تسليته » .

●●●

انرحلات جليفر هو انتاج سويفت الانسان الذي جمع بين صفات « الياهو » و « والهوينوهمز » فالغضب والغيظ والحدة والعنف والكره التى عبر عنها « سويفت » كلها من صفات « الياهو » ولكنه وجهها ضد اسوأ الرذائل ، لأنه أراد الانسان ان يكون كائنا فاضلا وليس مجموعة مشوهة من الشرور . و « سويفت » الكاتب الاخلاقى لا يسعه الا أن يثور ويزمجر ويكشر عن أنيابه ، لأنه يود أن يكون الانسان انسانا وليس حيوانا . فالرحلات اذن نتاج عواطف قوية ايجابية وسلبية معا . ورغم محاولاته الايجابية فى الاصلاح كان موقنا ان الفشل سواء مع الافراد او الجماعات ، وقدر لها ، لان السخرية وهى الاداة التى استخدمها « سويفت » « كالمرآة يكتشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين لا

وجوههم » . ومع ذلك فقد استمر « سويفت » في المحاولة لشعوره الداخلي بالحاجة للاصرار ، وللمتعة التي استمدها من الكتابة الساخرة نفسها .

وهنا نجد أنفسنا ازاء الناحية العقلية والادبية والجمالية التي تقرب « سويفت » من « الهويتوهنز » فرحلات جليفر هي انتاج روح متقدة وعقل متيقظ تستمتعان الى اقصى الحدود بالنشاط الذهني . لقد وجد « سويفت » متعة حقا في عملية الابداع وفي سخريته المركبة المدمرة وتحكمه المتمكن الماهر فيها . فالتهكم الساخر ليس مجرد معركة محتدمة ضد الرذيلة والشر ، وانما هي أيضا لعبة مسلية متحضرة توحي بالعقل المتنبه والوعي الاخلاقي . ولا شك أن « سويفت » قد شعر بالاستمتاع الفني والذهني ، كما يشعر به القارىء في اقصى لحظات التوتر والشدة والغضب في سخرية الرحلات . فطبيعة التهكم الساخر هي تلقين الدرس الأخلاقي بأسلوب ممتع جذاب . وتجاهل عنصر التسلية والمتعة في هذا الأدب ومايوحي به من مستوى رفيع من التحضر ، تجاهل هذا يؤدي الى نظرة مبسطة غير واقية خادعة لعمل مركب عميق الأثر .

ولعلنا نستطيع أن نلخص هاتين الناحيتين الأساسيتين في الرحلات التلقينية الاخلاقية والفنية الجمالية في قصة رواها صديق للناقد صموئيل هولت منك **Samuel Holt Monk** قال انه صدم أحد معارفه صدمة قوية عندما أخبره أنه . . ضحك كثيرا عندما قرأ رحلات جليفر ثانية . وعلق قائلا « وماذا كان يجب أن أفعله ؟ هل كان يجب أن أصوب مسدسا نحو رأسي ؟ لا شك ان « سويفت » نفسه كان يوافق على رد فعل الصديق الذي ضحك ولم ينتحر ، فهذان هما الاحتمالان الوحيدان أمام قارىء الرحلات . ولولا عنصر الفكاهة والمرح الكامن في التهكم الساخر للجأ القارىء ومعه « سويفت » الى الاكتئاب وربما الى الانتحار على اثر كشف النقاب عن الصورة القاتمة للطبيعة البشرية في الرحلات . ففي « سويفت » الساخر المتحضر هو الذي يضمن لنا العقل والاتزان .

وبهذا يتطور القارىء في فهمه وتقييمه لرحلات جليفر في كل قراءة جديدة لهذه التحفة الادبية ، متدرجا نحو نظرة الى الحياة والأدب اشمل واعم . والتدرج هو من التسلية المجردة التي يجدها الطفل في الرحلات ، الى الاهتمام بالنقد الاخلاقي الموجه الى سلوك الانسان السياسي والاجتماعي والفردي الذي يبديه القارىء البالغ ، الى الاستمتاع الذهني بالناحية الجمالية والفنية الذي يشعر به القارىء المتحضر المثقف المرهف الحس . وفي هذا التطور دليل على الثروة الكامنة في واحد من اعمق وارفع واروع الامثلة الادبية في التهكم الساخر .

بعض المراجع الرئيسية

1 — Herbert Davis, Jonathan Swift : Essays on his satire and other Studies, V.L.P, 1946

2 — Bonamy Dobrec , English Literature in the Early Eighteenth century, Oxford 1959

3 — Denis Douoghre . m Jonathan Swift : a critical Introduction C.U.P. 1969

..4 ————) editJonathan (swift : a critical anthology , pengein ,1971

5 — A . E . Dyson , E ssays , Studies , Swift tne Matamorpois of Iron 1958

6 — Irvin Ehrenprais, The Persanality of Jonathan Swift, Methuen 1958.

7 —F . R . leavis , scrutiny , Tne Irony of swift march 1934

8 —F . P . Lock , Tne politics of Guillivers travels, Oxford ,1980 .

9 — Samuel Monk , sewanee review , The Pride of Lemuel Gulliver, L X 111, 1955.

10 — George Orwell Politics V. Literature : an Examination of Gullivers Travels, 1964, reprinted in Sonid orwell and Jan Angus (edits) The Collected Essays, Journalism and Letters of George orwell, Vol 4, 1968.

11 — Ricardo Duintano, Swift : An Introduction, O. U. P. 1955

12 — Ernest Lee Tuveson, Swift : A collection of Critical Essays, Prentice Hall, 1964

13 — David Ward, Jouthan Swift : An Introductory Essay.

14 — Basil Willey Eightaenth century Background, London 1946.

15 — Kathleen William, Jouthan Swift and the age of compromise, University Kansas Press 1958.

***

الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد

نادية محمود عبد الله

أستاذ مساعد الأدب الفرنسي المعاصر
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

يتميز أندريه جيد بتحرره العقلي وميله الشديد الى التجربة ، كما يعرف برغبته العارمة في ارتياد المجالات الجديدة التي تخرج عن نطاق المألوف . لذلك تبدو لنا شخصيته دائمة التفتح والتعطش الى كل ما هو جديد وفريد . من ثم يمكن اعتبار مؤلفاته الأدبية الزاخرة بالحياة الجياشة بحثا دائبا ومحاولة متصلة لكشف الأسرار واكتناه الالغاز التي تتناثر على طريق الحقيقة . كما أن مؤلفاته ـ لا شك . بحث أصيل عن ذاتيته خلال هذا الوجود .

لاجرم أن يدعو هذا الباحث عن الآفاق الجديدة الى الرحلة كوسيلة من الوسائل الناجعة لتجاوز حياتنا الأليفة وتحقيق الانفصال عن عالم الأسرة وما يمثله من قيود وأعباء . ولا شك أن المؤلف يدرك أن كل انفصال أو قطيعة يتضمن عواقب وخيمة وآثارا بالغة الخطورة ، إلا أنه على الرغم من ذلك يتحمل مسئولية هذه القطيعة مع الاسرة والبيئة والثقافة والعقيدة ، الأمر الذي سوف يترك في مؤلفاته آثارا من الصعب أن تمحى أو تختفي في وقت قريب .

وعلى النقيض من كاتب مثل « موريس باريس » الذي يؤمن بأن انسلاخ الشباب عن بيئته يحوله الى ضرب من « الحيوانات الصغيرة التي لا مأوى لها » يعتقد أندريه جيد أن قضية الانسلاخ ودور الرحلة في تعميق جذوره من

الأمور الحيوية بالنسبة للانسان ، اذ أنه يذهب الى أن كل رسوخ هو لون من التقوقع والجمود ، وأن كل استقرار هو تفاهة وانحدار . فالرحلة بالنسبة لأندريه جيد هي علامة قوة وشباب . ويجدر بنا في نظره ، أن نقاوم كل القوى الغاشمة التي تحاول أن تستعبدنا ، وذلك بمحاولة التأقلم المستمر عن طريق الإنسلاخ الدائم . ولقد استخدم الكاتب في مؤلفه « صراع شجر اللبلاب » ألفاظ علم النبات للدلالة على أن الغرس الطيب هو عادة ذلك الغرس الذي زرع في أماكن عدة .

كما كتب أندريه جيد في دراسته حول موريس باريس » بصدد الرحلة :

« لقد سمحت لنفسي أن أنصح الآخرين بالرحلة ، بل فعلت أكثر من ذلك : لقد دفعت وأجبرت الآخرين على الرحيل ، وهناك من الناس من لم يجر قط ولكنه التقى بي في بلاد بالغة البعد ، ومن الناس من أجلسته في القطار ، ومن صاحبته في سفره بل لقد فعلت أكثر من ذلك ، اذ أني كتبت كتابا كاملا يتسم بالجرأة المديرة تمجيدا لجمال الرحلة . »

انطلاقا من هذا التصريح ، سوف نستخرج مبدأين تقيم عليهما تصورنا هذه الدراسة :

أ ـ أن أندريه جيد لا يكتفي بتأييد الرحلة فحسب ، انطلاقا من قناعته الذاتية ، وانما هو يحث الآخرين كذلك على الارتحال .

ب ـ انه يشرع في تحرير أدب كامل عن الرحلات يستلهم فيه اما ذكريات رحلات حقيقية واما رحلات خيالية أو رحلات تقوم على تقليد كتابات الآخرين : مثل كتاب ألف ليلة وليلة .

إن أندريه جيد مغامر جريء متفائل يسعى الى الاندماج في الحياة عن طريق اكتشاف عالمه الخاص في تفاعله مع عوالم الآخرين مدفوعا في ذلك برغبته في تحقيق قدره . ولما كانت حدود عالمه هي حدود العالم قاطبة ، فان السعي الى الرحلة يصبح لديه سعيا حقيقيا وراء المعرفة والاكتشاف ، كما يصبح انغماسا كاملا عبر الزمان والمكان لما يمثله الكون بالنسبة له ، من وحدة متكاملة يصعب فصل عراها .

ولكن ما هي رمزية الرحلة ؟ أليست ، قبل كل شيء ، ضربا من الهروب من الذات ؟ ان الرحلة ، في بعض الأحيان ، لايمكن أن تتم الا في قلب الوجود . كما أن هدفها قد يكون البحث عن

الحقيقة أو السكينة والسلام ، كما قد يكون بحثا عن الخلود ، وفي أحيان أخرى ، سعيا وراء اكتشاف مركز روحي .

وبالنسبة لهذه الحالة الأخيرة ، يمكن للرحله أن تأخذ طابع التدرج الروحي ، وأن تظهر الى العيان في صورة انتقال حول محور للعالم ، كما هو الحال في رحلة الاسراء للنبي محمد أو رحلة دانتي . ورحلات أخرى مثل رحلات يوليس وهرقل أو مينيلاس يمكن تفسيرها على أساس أنها بحث ذو طابع نفسي أو صوفي .

ان الرحله تعبر عامة عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي تنشأ متوازية مع الحاجة الى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها ، في الواقع ، عن تغيير مكاني .

وهذا هو يقين « يونج » على الأقل ، الذي تعبر الرحلة لديه عن عدم الرضا الواعي أو اللاواعي للفرد . وهو احساس يدفع الانسان الى البحث عن اكتشاف آفاق جديدة ، كما يتساءل « يونج » اذا لم يكن كل مطمح الى الرحلة هو رمز الى السعي وراء « الأم المفقودة » . الا أن المحلل النفسي « سيرلو » يعتقد ، على العكس من تصور « يونج » ، أن الرحله تعبر بالأحرى عن الهروب من الأم . على كل حال ان هذا موضوع يثير كثيرا من الجدال ولم يدل فيه بعد بالرأي القاطع .

كما تعبر الرحلة ، وفقا لبعض التفسيرات المعاصرة ، عن الرغبة في الرجوع الى المصدر أي الى حالة اللاوعي ؛ من ثم تكون الرحلة ضربا من التعبير عن حاجة الانسان الى التبرير ، الا اننا لسنا نعرف اذا كان المقصود بهذا التبرير هو لون من الحماية الذاتية أو العقاب الذاتي !

أندريه جيد رحالة

يتميز هذا الكاتب ، كما أشرنا الى ذلك ، بحساسية دينية وعاطفية عميقة . لذلك نراه تواقا الى مد آفاقه الى ما لانهاية . ولقد دفعه حبه الشديد للرحلة ومتعها الكبيرة التي يحظى بها . من ثم قام بتمجيد أرض « أفريقيا الفاتنة » هذه الأرض المضيئة التي تعدنا بكثير من الأحاسيس النادرة . ولقد دفعه شغفه العظيم هذا بالرحلة الى تجاوز الأخلاقيات التقليدية لوطنه والى اعلان أسفه على رفض الفرنسي

مراجعة أفكاره وتصوراته القبلية تجاه العادات والتقاليد الأجنبية ، كما يدفعه يقينه الراسخ بدور الرحلة في اكتشاف الآخرين الى تقديم نفسه كوسيط متطوع يقود الآخرين أو الراغبين منهم الى « الطرقات المقدسه » التي يعرفها جيدا نظرا لما عقده فيها من أواصر عديدة ومتينة . انه يجعل من نفسه إن صح هذا التعبير « خلية اتصال » من أجل أصدقائه وخلانه الذين يلجأون اليه حينما تدفعهم الرغبة الى التعرف على « فضائل » الأرض الأفريقية .

لا غرابة اذن أن يكون أثره عظيما على كثير من الأدباء ، ونود أن نذكر منهم بوجه خلص « بيير لويس » PIERRE LOUYS و « فرنسيس جام » FRANCIS JAMMES وفالي لاربو VALERY LARBAUD . ولقد تبعه هذا الأخير الى كثير من المدن الجزائرية ومدن المغرب العربي ، الأمر الذي دعم لديه تقديره الكبير واعجابه العظيم بمؤلف « الأغذية الأرضية » . كما تبع أندريه جيد ، من جهة أخرى ، في نزعته الى التنقل والارتحال عدد كبير من الفنانين ، الأمر الذي نسج علاقات قوية وحركة تبادل حميم بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ان أندريه جيد ، هذا الرحالة الابدي ، لا يكف قط عن اثارة دهشتنا واعجابنا ، فهو دائب الحركة والتنقل لا يكاد يستقر في مكان . ويحلو له ان يشير الى هذه السمة بقوله في « مفكرته اليومية » بأن « الاسكندر الأكبر لم يكن يتقدم نحو الاراضي الجديدة كرحالة وانما كفاتح يبحث عن حدود العالم » . ان الاستقرار في مكان محدد يذكر كاتبنا بركود المستنقعات . لذلك نراه سريع الحركة ، لا يطيل الاقامة في مكان واحد . ولقد دفعه حبه للترحال بين البلاد الأجنبية الى التجوال المستمر ، مما دفع بعض أصدقائه ، خاصة « أدمون جالو » بوصف عادته هذه بالنزعة الى « الهجرة » أو هوس « التجوال على الطرق العامة » .

ويكفينا أن نتصفح « مفكرة » جيد لنجد الدلائل القاطعة والمذهلة على نزعة الترحال هذه . ويمكن تقسيم رحلات الكاتب بين فترتين جد متمايزتين :

أولا : ما تعارف النقاد على تسميته بالمرحلة الأفريقية ، بين ١٨٩٣ و ١٩٠٣ ، وهي فترة الرحلات الافريقية ؛

ثانيا : الفتره الممتده من ١٩٠٣ الى ١٩٥١ التي يزور خلالها على التوالي ايطاليا ، تركيا ، المغرب ،

تونس ، الكونغو ، تشاد ، الجزائر ، جزيرة سان لويس ، الاتحاد السوفيتي ، اتحاد غرب أفريقيا ، مصر ، اليونان ـ وغيرها . . . وهو يعود على بعض هذه البلدان أكثر من مرة ، خاصة شمال أفريقيا . وليس من شك في أن أرض أفريقيا ، بوجه خاص ، هي التي تفتنه وتبهره . من ثم نراه يسعى الى استنفاد كل امكانياتها والتعرف على « بدائية » الطباع والعادات الأفريقية :

لا شيء يساوي حقا في الادب ، كما يدون الكاتب في مفكرته ، أكثر مما تعلمنا إياه الحياة » .

لقد استطاع جيد أن يوازن بين وصف البيئات الأجنبية وحركة استبطانها ، ومن هنا قدرته الخارقة على تحويل انطباعاته وملاحظاته الى عمل بالغ الذاتية ، وهو الأمر الذي جعل من « رحلات » الكاتب شهادة انسانية حية يندرج من خلالها وصف العالم الخارجي تحت ظلال الادراك الأنطولوجي .

وفي الواقع ، لا تعد زيارة الكاتب لافريقيا أو بالأحرى اختياره لهذه القارة مجرد صدفة ، فلقد تلقى جيد دعوتين في هذا الصدد : أما الدعوة الاولى فلقد وجهها اليه ابن خالته « جورج بوشيه » الذي عرض عليه رحلة علمية الى أيسلندا ، والثانية فلقد عرض عليه من قبل صديقه « بول ـ ألبير لورانس » الذي دعاه الى جولة فنية في أفريقيا . وبعد تردد طويل ، يميل الكاتب الى قبول الدعوة الأخيرة . على هذا النحو يبحر أندريه جيد الى افريقيا خلال شهر أكتوبر ١٨٩٣ في صحبة « بول ـ ألبير لورانس » . أيمكننا أن نتخيل ما كان قد آل اليه حال أندريه جيد اذا قبل الرحلة الى أيسلندا . أو بالأحرى اذا لم يكن قد ذاق متعة السفر الى القارة السوداء ؟

ان عرضا سريعا للرحلات الست التي قام بها الكاتب الى شمال افريقيا بين عام ١٨٩٣ وعام ١٩٠٣ سوف توضح لنا جيدا تعلق الكاتب الشديد بهذه القطعة المفضلة من الأرض :

١ ـ في أواخر شهر اكتوبر سنة ١٨٩٣ يرحل أندريه جيد الى مدينة « بسكره » بالجزائر صحبة بول ـ ألبير لورانس ، ويقيم فيها حتى نهاية يناير ١٨٩٤ . ويبلغ اعجابه بهذه المدينة حدا كبيرا لدرجة أنه يعاود زيارتها أكثر من عشر مرات . لقد وصل اليها مريضا لدرجة أنه أحس بأن ـ حياته في خطر . ولقد دفعه الخوف من الخطيئة الى البقاء على وفائه لحبه الطاهر الذي ربطه طويلا بابنة خاله « مادلين روندو » ومع ذلك ، فان سفره الى شمال افريقيا كان لأسباب أخرى ، أو على الأقل ، هذا هو ما يقوله لنا في كتابه « اذا لم تمت حبة الغلال » :

« أجل ، يكتب في مؤلفه كنت أنا وبول عاقدين العزم عند رحيلنا . . . . وإذا طلب مني كيف استطاع بول ، الذي تلقى ـ لا شك ـ تنشئة خلقية ، ولكنها تنشئة كاثوليكية وليست متزمتة ، في وسط فتائن وإثارة مستمرة من قبل الرسامين ونماذجهم ، أن يبقى بعد سن الثالثة والعشرين عفيفا ، أجيب بأن أقول هنا حقائق وليست حكايته وأن هذه الحالة شائعة اكثر مما نعتقد (. . .) وإني لا تذكر أنه في محادثتنا قبل الرحيل كنا نتدافع نحو مثل أعلى من التوازن والكمال والصحة » .

٢ ـ في شهر فبراير ١٨٩٤ يرحل أندريه جيد الى تونس ومنها الى الجزائر مرة أخرى حيث يقابل في بداية عام ١٨٩٥ إسكار وايلد ولورد ألفريد دوجلاس . ومرة أخرى تعد هذا الاقامة بالنسبة له أقامة « فردوسيه » ، يعود منها سليما معافى ومتحررا من كل النواحي الجسدية والأخلاقية خاصة بعد أن كشفت عنه حجب نفسه ، كما يقول « مفاجئات الواحة المتأججة » . ولا شك انه وجد هنا طريقه بعد أن فشلت تجاربه الجسدية مع المرأة ونجحت نوازعه المريبة مع مرشده الشاب .

ولدى عودته الى فرنسا يتزوج أندريه جيد من « مادلين روندو » في الثامن من اكتوبر ١٨٩٥ . وهو الزواج الذي يقوم على أوهام كل من الطرفين .

٣ ـ وفي فبراير ١٨٩٦ يرحل العروسان الى شمال افريقيا لقضاء شهر العسل . ويمكثان شهرين متنقلين بين تونس والجزائر . وخلال هذه الرحلة سوف يتفجر التناقض القائم في نفسية الكاتب بين المتطلبين اللذين يتنازعانها : فهو من جهة لا يستطيع أن يسيطر على هذا « الجزء من كيانه » الذي يدفعه الى تذوق كل أنواع الملذات ابتداء مما هو أكثرها بشاعة في نظر البشرية ، ومن جهة أخرى يشعر بتأنيب الضمير تجاه زوجته التي يدفعها كرها منه لا طوعا نحو الأماكن التي تجلت له فيها « غواياته » الافريقية ، ولا شك أن هذا التمزق الذي يحدثه لديه فوضى الانطباعات الحسية والرغبة في السيطرة على النفس بالأضافة الى تأنيب المجتمع الصامت وضغط الضمير المتبرم سوف يساعد على خلق شخصيه « اللا أخلاقي » لديه ، وهي الشخصية التي يقدمها لنا وهي تسعى الى تحقيق لون من التوازن الغريب بين الاحتفاظ بطهارة العلاقة الزوجية واضفاء الشرعية على كل أنواع الملذات الأخرى ، وسوف تطبع هذه الازمة حياته ومؤلفاته بطابعها الحاد المتوتر .

٤ ـ في أبريل ١٨٩٩ يذهب جيد الى مدينة القنطرة بالجزائر حيث يقضي شهرا كاملا . وسوف يسجل الكاتب خلال هذه الاقامةادق اهتماماته وأقلها شأنا، كما سوف يتابع تسجيل خلجاته الداخلية بطريقة

مستمرة . على هذا النحو يعمل على خلق الجو الروحي الذي تنمو فيه أحلامه وأوهامه . ووفقا لمنهج الكاتب الثابت ، نراه يقيم ادراكه للعالم الخارجي على أدق خلجاته النفسية وفي شبه اتحاد كامل مع أعمق وأصدق مكنونات وجدانه .

٥ - وفي ديسمبر ١٩٠٠ تقود أندريه جيد رحلته الافريقية الخامسة الى قطاع بسكره - توغرت . كذلك تعد هذه الرحلة خامس رحلاته الى واحة بسكره التي تمثل بالنسبة اليه مرفأ سلام وسكينة كما تمثل مصدر لذة ونعيم . وسوف يترجم فيما بعد افتتانه العظيم وانبهاره الشديد الناجمين عن صدمة الالتقاء بين روحه وهذه الارض الساحرة . فهو لن يكتفي بوصف المظاهر الخارجية للبلد من مشاهد وآثار وأناس وأزياء وطنية فحسب ، وانما يسعى كذلك الى النفاذ الى قرار الاشياء يقينا منه بأن رجل البيئة المحلية الذي يزور كوخه وخيمته انسان مثله يتمتع بطريقته الخاصة في المعاش ، كما يتميز بنمط حياته وأفكاره ومعتقداته وقيمه . من ثم يستطيع أندريه جيد تحويل أحاسيسه وانطباعاته الى عمل فني وزياراته وجولاته الى رحلات فنية .

٦ - وأخيرا يحاول أندريه جيد خلال خريف ١٩٠٣ أن يدفع الخمول الذي ينتابه منذ مدة ، وذلك بالشروع في رحلة سادسة الى شمال أفريقيا . وهو يجوب هذه المرة الجزائر بلا هدف واضح ، ومرة أخرى تقع بسكره في مسار رحلته . وسوف يسجل بدقة كل انطباعاته ويعد صفحات مفكرته ، وأهم ما يعنى بوصفه الاحداث التي تؤثر في حواسه ووجدانه . الا أنه لن يحول هذه الاحداث الى نسيج روائي الا فيما بعد . ومن الواضح أن الأرض الافريقية لا تمثل بالنسبة للكاتب مجرد اطار عابر ، اذ أنها امتزجت لديه بمعاناة حقيقية كما ارتبطت بحالاته النفسية المتغيرة .

ولقد أوضح لنا أندريه جيد في « مفكرته اليومية » بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٣٥ الأسباب التي تدفعه الى البحث عن « المكان الآخر » .

« ان الذي يشكل جاذبية وفتنة المكان الآخر ، وهو مانسميه البرانية ، وليس مرتبطا بكون الطبيعة أكثر جمالا ولكنه يعود الى أن - كل شيء يبدو لنا جديدا ، وأنه يفاجئنا ويتجلى لنا ظريفا في ثوب من البكارة . انها ليست « الاوراق » « الاعرض » بقدر ما هو « الشذى الذى لم يختبر بعد » .

ان البحث عن « البرانية » يتحول لدى جيد الى اكتشاف لعالم غريب . ولقد كتب في هذا الصدد :

« لا استطيع مقارنة البرانية » أفضل من مقارنتها بملكة سبأ التي تأتي الى جوار سليمان تقترح عليه ألغازا . »

ان تعطش الكاتب الى المغامرات والحرية والاحلام يؤكد لديه رغبة الهروب من بلدته « كوفرفيل » . ولربما كان ينزع ، لا شعوريا ، الى الهروب من ذاته والمطالبة بشرعية وضعه كغريب . ولا شك أن رمزية الغريب تعني ، هنا ، حالة من حالات ضياع النفس أو فقدان جانب من جوانبها الضالة أو التي تندمج بعد في هويتنا الشخصية .

ويبدو أن افريقيا وحدها هي التي استطاعت أن تنسي جيد حالة العزلة التي عاني منها في « كوفرفيل » ، والتي مكنته من استغلال كل طاقاته الكامنة وامكانياته الراكدة . ان التعرف على افريقيا يتيح له تحقيق الانتقال العنيف من ايقاع حياة جامدة « لا يحدث فيها شيء » ، الى حالة من التحرر الذي يصل اليه بفضل اصراره وعناده ، وسوف تظل تجربته الجنسية الاولى مرتبطة بشمال افريقيا حيث استطاع أن يصل الى ذروة النشوة الحسية وقمة لذة المغامرة واكتشاف الذات عبر الآخر . وسوف تطبع هذه التجربة معظم مؤلفاته . ولا شك أن جيد سوف يظل دائما أمينا مع نفسه ، ذلك أنه لن ينسى أبدا البحث عن ذاته في كل مشهد أو منظر يحظى برؤيته كأنما هو يسعى ، في نهاية الامر ، الى اكتشاف لغزه أو سره الخاص . ألم يكتب لنا ، في هذا المعنى ، في « مذكرات رحلة في منطقة بريطانيا » ؟ :

« لقد كان يبدو لي أن المشهد الطبيعي لم يكن الا اسقاطا للذاتي المنبعثة فيه ، إلا جزءا نابضا من كياني - أو بالأحرى لما كنت لا أشعر بنفسي الا من خلاله ، كنت أعتقد بأنني مركزه » .

في هذه الاحوال يمكننا أن نعتبر أن أية رواية يقدمها لنا جيد لرحلة من رحلاته تمثل انعكاسا لرغباته اللاشعورية ولربما ، فيما يخص شمال أفريقيا ، تعبر بطريقة غير مباشرة عن ميوله الجنسية المكبوته .

الا اننا نميل الى الاعتقاد ، في أعقاب الشاعر بودلير ، أن جيد ينظر الى الرحلة نظرته الى ضرب من الشوق العاطفي الذي يؤدي الى خلق العمل الفني ، في هذه الحالة تصبح روايته نصا فرويديا حقيقيا يترجم تسامي غرائزه بواسطة تسامي عملية الخلق الفني . ولا شك أننا هنا أمام حالة من النشوة العقلية التي تنتج عن عملية التحرر التي يحققها انجاز العمل الفني الذي يعبر في هذا الصدد عن فحص منهجي للذات .

يبدو أن جيد يبحث خلال رحلاته وجولاته العديدة في افريقيا عن الطابع المحلي من خلال حياة الجماعات وتحركاتها المكثفة . ونرى أن الحضارة الاسلامية هي التي تسود في مؤلفاته ، وذلك في صورة

لوحات للمساجد ومآذنها ، ـ وللعادات والتقاليد المحلية . ويحاول جيد أن يرى كل شيء في اطار الاسلام بحيث تصبح كل المدن الشرقية بالنسبة اليه سابحة في « لون فجر اسلامي ، وذات مآذن خيالية شاهقة » .

أو كما يقول هو عن أجواء هذه المدن : « كانت المآذن المدببة تمزق السحاب وكانت هذه المآذن شاهقة الى درجة أن السحب كانت تظل عالقة بها ، كما لو أنها رايات من الذهب . »

وفي مكان آخر نراه متأثرا أمام هذه المآذن التي ينطلق منها دعاء المؤذنين الى درجة أنه يكتب في « رحلة أوريان » :

« كانت نغمات هذا الدعاء مدهشة الى درجة أننا بقينا بلا حراك ، في حالة من النشوى . »

ويذهب جيد في اعجابه بدعاء المؤذنين الى حد الاعتقاد بأن الاهازيج الهادئة التي تصحبه يصعب تجاوزها ، وهو الأمر الذي يدفعه الى تكرار اعجابه في عبارات مؤثرة ، جميلة الجرس والايقاع . انه يقول في « رحلة اوريان » :

« ولكن ، عبر فجر ما زال بعد نائيا ، لم تكن تصدر الا بعض الهمهمات المجهولة التي كانت تضيع في فراغ الفضاء . وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد من مئذنة ، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة ، نشيد مؤثر وعجيب كدنا نبكي تأثرا به . كان الصوت يرسل ذبذبات حادة . وتفجر دعاء ثم دعاء ، واخذت المساجد تستيقظ مترنمة عند التقائها بأول ـ شعاع من أشعة الشمس . . وكان المؤذنون يتجاوبون في الفجر كما لو أنهم طيور القُبَّر . »

اننا هنا ، لا شك بصدد فنان موسيقى ، وليس أمام كاتب واصف للطبيعة ، ـ يعبر عن نفسه ! ويتميز ولع جيد بالحضارات الأخرى المغايرة للحضارة الأوروبية الصناعية بالاهتمام كذلك بالتفاصيل والسمات المحلية المميزة . من ثم نراه يعنى بوصف رقصات الدراويش وصيحاتهم ، ولا يفوته ان يصور لنا انطباعاته في هذا الصدد .

ولا يسعنا في هذا المقام الا الاعجاب بقدرة الكاتب الفائقة على تصوير أدق الخلجات وأكثر اللحظات الانسانية قربا من الاتحاد بالمطلق والذوبان فيه .

لقد قضى جيد ، على هذا النحو ، عشر سنوات من الرحيل والانتقال عبر شمال افريقيا ملتهما فيها بنظراته كل ما يلتقي به من مشاهد طبيعية ومن حيوانات ونباتات محلية ومستمتعا برقة الجو ودفء الشمس . ولا شك أن ذلك كله كان له بالغ الأثر في توجيه صدمة سيكولوجية له نتيجة اللقاء المفاجىء بين روحه وهذه الأرض الفريدة . لا غرابة اذن أن تصبح افريقيا ، من الآن فصاعدا جزءا لا يتجزأ من عالم أندريه جيد . لقد أصبحت انعكاسا لقدره ومرآة لمغامراته واكتشافه وفشله أحيانا . ان هذه القارة ، التي تغوص على هذا النحو في قرار كيانه ، تصبح علامة دالة على مؤلفه الأدبي الذي يصبح ، ضمن هذا التصور ، مؤشرا دقيقا لمشاغله واهتماماته الشخصية .

على كل حال ، لقد حاول جيد في كتابه « اذا لم تمت حبة الغلة » أن يبرر وضعه بالقاء نظرة فاحصة الى الوراء على فترة العشر سنوات هذه التي قضاها في افريقيا . لقد كشف القناع عن نفسه بصراحة لا تحتمل الرياء حينما أوضح أنه بفضل سيطرة الدفعات الغريزية للحياة على هيمنة الضمير والحس الخلقي . الا أنه يبدو أن الكاتب يحاول هنا في الواقع اضفاء طابع انساني على صورته وذلك بتحديده لها بعدا خياليا وضربا من الكثافة والعمق ونوعا من التسلسل المنطقي .

لقد كانت الرحلة الافريقية فرصة خلاص وتحرر بالنسبة لأندريه جيد وذلك بالقدر الذي استطاع فيه أن يتخلص من تربية الخلقية المترمتة وأن يحقق نوعا من الارضاء والاشباع الناجز لحواسه المرهفة . ألم يقل لنا ، في « الاغذية الارضية » بأن « كل لحظة من حياتنا لا تعوض أساسا » . ان الانطلاقة الافريقية قد حققت لاندريه جيد مجموعة كاملة من الملذات التي حققت لجسده وروحه التضرع والتألق والانطلاق . لقد كتب لنا في هذا الصدد « أندريه روفير » احد مؤرخي حياة أندريه جيد عام ١٩٢٧ :

« ان جيد في دفعته الحسية ، يتجاوز حدود العادة مدفوعا بحيوية جسدية وسفسطة خاص توحي بأن خطيئته لم تبلغ بعد حد الكفاية . انه في حاجة الى كل الثمرات المحرمة حتى يعصرها بلذة وتلذذ . »

يميل جيد ، كما نرى ، الى الاستمتاع بأحاسيسه الآنية ، ويجنح الى تلقي متع « الروائح والألوان والاصوات » في كل لحظة كما لو أنها تنبعث من الطبيعة بفضل قوة حلولية . من هنا اعتقاد الكاتب بالطابع الخير للطبيعة وطيبة كل الثمار التي تقدمها للانسان ، مدفوعا في ذلك بقوة حسية لا تقاوم . ولا

يحاول جيد أن يتجنب دعاء الطبيعة ، بل على العكس ينغمس فيها نشوانا وجذلانا متغنيا بكل أعمالها البديعة كالشفق وفتنة الصحراء وشدو العصافير والسحر ونسيم الليل وغير ذلك . . ولا شك أن ذلك كله يغمره في نوع من السكر الحسي الذي يتأرجح بين البراءة والخبث .

وليس من شك في أنه لم يفهم الاسلام حق فهمه . خاصة أنه يضع كل انطلاقاته الشخصية في « الاغذية الارضية » تحت راية الحضارة الاسلامية . فالاسلام لا يعرف هذه ـ « النشوى الحسية » التي يحاول جيد أن يتذرع بوجودها فيه ، اذ أنها أقرب الى المتعة الطبيعية التي كانت تتميز بها العقائد الوثنية . ان جيد يحلم في الواقع بالخلاص من تربيته الدينية المتزمتة التي تلقاها في فرنسا ويحلم بالتالي بجنة وهمية لامكان فيها لقانون أو الزام خلقي . ولا شك أنه وجد في مدينة بسكره جنة أحلامه ، الامر الذي يبرر هذه الرحلات المتعددة التي قام بها الى هذه الواحة الجزائرية .

لاجدال في أن نزعة التنقل والارتحال في افريقيا قد احدثت تغييرا كبيرا في نفسية الكاتب سواء في سلوكه أو مفاهيمه الفكرية والفنية ، ويبدو واضحا أن الكاتب قد اهتم ، خلال جولاته العديدة ، بالآداب الشرقية . غير أن تذوقه لهذه الآداب ظل في أغلب الاحيان سطحيا ، الامر الذي يتضح لنا بسهولة حينما يميل الى وصف العالم الشرقي فتكثر أخطاؤه ويبدو جليا سوء فهمه وتعثر تفسيراته . وفي الواقع . لم يقدم له من الشرق أكثر من بعض المواد الضرورية لتأكيد وبلورة مفاهيمه الفنية الجديدة التي كان يطمح اليها . ومن ثم تظهر لنا نزعته الى « البرانية » في صورة اتجاه الى عنصر شاعري بالغ الخصوبة ، والى مصدر عظيم وهائل من مصادر الانفعالات الجمالية والاخلاقية . لاعجب اذن ان تكون هذه الفترة ، التي قضاها جيد في الارتحال والتنقل بين ربوع شمال افريقيا بالغة الاهمية بالنسبة لفهم كثير من القضايا التي تعالجها مؤلفاته الادبية وعلى رأسها كتابه : « اذا لم تمت حبة الغلة » على كل حال ان هذه الفترة تتميز بطابعها العملي والتجريبي الذي يضفي على رحلات أندريه جيد قيمة موضوعية أساسية .

●●●

بالنسبة لرحلات الكاتب الأخرى ، فهي لا تمثل ـ بالرغم من تعددها ـ نفس الاهمية التي تحتلها رحلاته الى شمال افريقيا . وتستغرق هذه الرحلات مدة طويلة تمتد من عام ١٩٠٣ الى عام ١٩٥١ ، وعلينا الآن أن نتتبع الكاتب في جولاته الأخيرة هذه .

تعتبر الفترة الواقعة بين ١٩٠٣ و١٩١٢ فترة هادئة الى حد كبير ، اذ يكرس فيها أندريه جيد معظم

وقته لتحرير « مفكرته اليومية » التي كان قد بدأ في تحريرها منذ عام ١٨٨٩ وكذلك مؤلفه « الباب الضيق » الذي نشره عام ١٩٠٩ .

ولقد قام الكاتب خلال هذه الفترة برحلات عديدة داخل فرنسا تتخللها فترات اقامة في منطقة نورمانديا . كما يساهم بفعالية ملحوظة في تأسيس مجلة الدراسات الأدبية : « المجلة الجديدة الفرنسية » (N.R.F.) وابتداء من عام ١٩١٢ نراه يبدأ من جديد في التنقل والترحال .

يذهب أندريه جيد ، خلال عام ١٩١٢ ، الى ايطاليا ، بينما هو في الواقع كان ينوي ، في الأصل ، الذهاب الى تونس ثم الجزائر حيث كان يتوقع اللحاق بأندريه - بنيامين كونستان . وهو فعلا يأخذ القطار الى مارسيليا في ٢ مارس بنية الابحار الى تونس يوم ٤ مارس . الا أنه لأسباب ستظل غامضة ، سوف يغير رأيه في آخر لحظة ويأخذ القطار الى ايطاليا حيث ينوي الاقامة في مدينة فلورنسا ، ويوضح لنا ذلك جيد في مفكرته قائلا :

« لم أذهب الى تونس ... انني اتخلى عن تونس وأسرع الى فلورنسا خشية سوء الجو وبسبب عدم الصبر . »

ولكننا نتساءل لماذا هذا التغير المفاجيء ؟ ولماذا لم يخش سوء الجو من قبل ؟ وأخيرا لماذا هذا القلق وفقدان الصبر ؟ يا ترى ماذا دار في خلد الكاتب خلال هذين اليومين بين ٢ و ٤ مارس حتى يغير مشروعه الاول ؟ ان الغموض يخيم تماما على هذا الموضوع .

بعد انقضاء عامين على زيارة ايطاليا ، يتوجه الكاتب الى تركيا حيث يقضي شهورا في زيارة مدنها الرئيسية مثل القسطنطينية وبروس وكارا - هيسار وقونيه وغيرها . ومرة أخرى نراه يسجل في دفاتره كل انطباعاته التي سرعان ما يقوم بتنميقها وتفخيمها خياله المتدفق السخي ، وسوف ينتج عن ذلك كتاب جميل اسمه « العتبة التركية » LA MARCHE TURQUE يكتظ بالملاحظات النفسية البالغة الصراحة . وهو ، في الواقع ، لم يعجب بأي شيء في تركيا . ولقد كتب ذلك صراحة في أول مايو ١٩١٤ :

« أيا قرن الذهب أيها البوسفور ، يا شاطيء سيكوتاري وأشجار أيوب ! انني لا استطيع أن أهب قلبي الى أجمل منظر في العالم اذا لم أحب الشعب الذي يقطنه . »

من الواضح أن أندريه جيد لا يستطيع أن يصف شعبا من غير أن يرتبط به عاطفيا ، وهو لم يعجب بالاتراك ولم يحبهم ، وكثيرا ما يخط قلمه كلمة « قبيح » التي تتكرر أكثر من مرة . انه يقول مثلا عن الأتراك : « الشعب قبيح ، انه الرغوة التي خلفتها الحضارات » وهو يرى أن إللباس التركى قبيح كذلك ، ويعتقد أن ذلك يتلاءم مع أرض الاناضول التي تثير حفيظته وامتعاضه . ويدفعه هذا الامتعاض الى كيل النعوت القبيحة الى سكان هذه المنطقة والى تحقير الحضارة التركية التي لا يرى فيها أي قدر من الاصالة والابتكار . وليس من شك في أنه يبالغ كثيرا حين يقول :

« أتعجب ببعض العمارة أو بظاهر مسجد ما ؟ حينئذ سرعان ما تعلم انها من صنع الألبان أو الفرس . كل شيء أتى الى هنا بالقوة الغاشمة ، وبقوة المال . فلم ينبثق أي شيء من التربة ولا نعثر على شيء أصلي تحت هذه الرغوة الكثيفة التي أحدثها الاحتكاك الطويل لكل هذه الاجناس والاحداث والمعتقدات والحضارات . »

ويمكن تفسير هذا التحيز الواضح ضد تركيا على أساس أن الرؤية الأولى لشمال افريقيا كانت لدى أندريه جيد بمثابة النموذج المثالي للاطار الشرقي ، ولربما يكون الكاتب قد حاول أن يجد في تركيا نشوته الافريقية فأسقط في يده حينما وقع على وحشة المنظر وسوء طالع الوجوه الكالحة التي قابلته في هذا البلد . على كل حال ، اذا كانت قونيه تعد بمثابة مدينة القيروان ، الا أنه شتان بين هذه المدينة ومدينة القيروان أو حتى واحة بسكره . ولقد دون في مفكرته في هذا الصدد :

« بفضل موقعها بالنسبة للجبل القريب والسهل ، تذكرنا قونيه بشدة بواحة بسكره . ولكن كم تعد هذه الجبال أقل روعة ، شكلا ولونا ، من جبال « خادو الأحمر » ، وكم هو أقل جمالا من الصحراء هذا السهل ، وكم هي أجمل أشجار النخيل من هذه الاشجار ، وأولئك العرب من هؤلاء الأتراك » .

وفي مكان آخر يقارن الكاتب جمال الطابع المحلي لشمال افريقيا بالمناظر القبيحة القميئة التي شهدها في تركيا حيث « كل شيء متسخ ، ملتو فاقد الأصالة والبريق » ، الأمر الذي يدفعه الى تقديم هذه الملاحظات المؤلمة : « هل كان علي أن آتي الى هنا حتى أعرف كم كان طاهرا وخاصا ما رأيته في افريقيا » .

أخيرا ان هذه الادانة القاطعة وهذا الهجوم العنيف وهذا اللوحة القاتمة كلها أمور تدل على خيبة أمل

الكاتب - من غير شك - في العثور على مبتغاه في تركيا . من ثم نراه يصل الى هذه النتيجة في مؤلفه « العتبة التركية » :

« ان الدرس الذي استخلصه من هذه الرحلة يتناسب مع امتعاضي من هذا البلد . وحينها سأحتاج الى هواء الصحراء والى روائح عنيفة ووحشية ، فانني سأذهب الى الصحراء من جديد للبحث عنها » .

اذن افريقيا أبدا ودائما !

وفي عام ١٩٢٣ ، يلبي أندريه جيد دعوة الجنرال ليوتيه الى المغرب حيث يذهب في صحبة صديقه بول ديجاردان . ويمكث الكاتب في المغرب من ٢٨ مارس الى ٢٠ أبريل ، وفي الرابع من سبتمبر خلال العام نفسه يسافر الكاتب من جديد الى تونس حيث يقضي شهرا كاملا .

ومن يوليو ١٩٢٥ الى يونيو ١٩٢٦ مدفوعا برغبته العارمة في « الزهد » وتطويع النفس ، يرحل مرة أخرى الى افريقيا . ولكنه يتجه هذه المرة الى الكونغو حيث قام برحلة طويلة يكتشف فيها أن له « قلب رسول اجتماعي » . وفي الواقع ان ما يؤثر فيه خلال جولاته في القارة السوداء هو استغلال الاستعمار والرأسمالية البشع للسكان السود اللذين تقوم باستعبادهم قلة من المستغلين البيض . وسوف يحرر « رحلته الى الكونغو » عام ١٩٢٧ و « العودة من تشاد » عام ١٩٢٨ حيث يدين الاستعمار والرأسمالية اللذين اتحدا في سبيل قهر السود . ويوضح جيد بفخر في مفكرته بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ أن موظفا كبيرا في وزارة المستعمرات أنبأه بأن كتابه عن الكونغو كان المرجع الوحيد خلال المؤتمر الدولي بجنيف الذي نوقش فيه مشروع قانون لتنظيم عمل سكان المستعمرات .

وسوف يكلف أندريه جيد فيما بعد (خلال عام ١٩٣٨) من قبل لجنة التقصي بوزارة المستعمرات باعداد تقرير تفصيلي عن العمالة واليد العاملة الاهلية في منطقة غرب افريقيا الفرنسية . الا أن التقرير الذي يحرره يظهر ثقة الكاتب في المؤسسات الفرنسية ، اذ انه يصل الى أن السكان المحليين يعاملون جيدا وأن الادارة الفرنسية تنصفهم ، كما انها قضت على نظام الرق المستتر في القرى النائية ، واقامت جمعيات لرعاية اليد العاملة الوطنية وتقديم كافة أنواع المساعدات لها .

ويقضي أندريه جيد شهر يوليو من عام ١٩٢٨ في تونس ، ثم يمضي الشتاء التالي في التنقل بين

ربوع الجزائر ، وأخيرا يعود مع نهاية عام ١٩٣٠ وبداية ١٩٣١ الى تونس حيث يصطحب « البزابيث فان رايسلبرغ » الى واحات الجنوب التونسي . ونراه يسجل في مفكرته بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٣٠ بهذه المناسبة :

« ان واحة جابس ، التي لم أكن أعرفها بعد ، تبدو لي من أجمل الواحات التي رأيتها . . . وما كنت أظن نفسي قادرا على مثل هذا الاعجاب . اني لو عثرت على جابس في سن العشرين لكنت - كما يبدو لي - أفدت أكثر من الفادني من بسكره » .

ويبحر أندريه جيد في عام ١٩٣٢ الى طنجه حيث يقيم شهرا كاملا ، ومنها يتجه الى فاس . ويصف لنا أجواء هذه المناطق في مفكرته قائلا :

« زرقة ملائكية - ولا حق للمحة واحدة . ان الانسان ليشعر بالذنب اذا لم يبحر أمام بحر مثل هذا » .

وفي عام ١٩٣٦ يقضي شهري فبراير ومارس في واحة غور الصخرة ، ثم في جزيرة « سان - لويس » حيث يشاهد - تبهورا « عيد الأضحى الذي يفسر معناه على أنه « الجسد المجرد » ويرى فيه رمز الفداء والتكفير والتضحية .

خلال هذه السنه (١٩٣٦) نفسها يتلقى جيد دعوة لزيارة الاتحاد السوفيتي حيث يذهب لاكتشاف عالم قد « يتحقق فيه ما لم يحلم به أحد » ويكون لقاؤه حارا ومصحوبا برايات النصر . الا أن هذه النشوى سرعان ما تزول فيصاب بخيبة الأمل حينما يزور المصانع والحقول وحضانات الأطفال وأخيرا الوحدات الصناعيه والكولخوز . لقد تبين له أن جميع هذه التنظيمات الجماعية سيئة الادارة . من ثم أخذ ينتقد تسلط الجهاز الاداري على هذه التنظيمات في الاتحاد السوفيتي - والطابع الموجه لسياسة هذه الدولة . وسوف يسجل عام ١٩٣٦ في كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » كل انطباعاته عن هذا البلد ، كما سيبين حكمه السلبي على الشيوعية عن رغبته الصادقة في اتخاذ موقف بالنسبة لكبرى قضايا العصر ومشاكله في شكل التزام من أي نوع كان . وسوف يصدر أندريه جيد بعد مضي عام من رحلته منشورا سياسيا عنوانه لمسات على عودتي من الاتحاد السوفيتي » يقدم فيه عددا من الاحصائيات التي استقاها لدى التروتسكيين .

وفي عام ١٩٣٩ تشد مصر انتباه الكاتب . ومرة أخرى نراه يصدم في البداية اذ أنه يعلن في « مذكرات من مصر » الصادرة بتاريخ ٢ فبراير ١٩٣٩ أنه عانى الجحيم في شوارع القاهرة ، وأنه لم يستطع اقامة أية علاقة قوية مع أهلها . الا أنه سرعان ما يجد بعض الراحة في مدينة الاقصر . وسوف يقيم الكاتب في « وينتربالاس » (القصر الشتوى) بالاقصر الذي يبهره بحدائقه الغناء الزاخرة بكل أنواع الزهور النادرة . ولقد أعجبه هذا الاطار الفردوسي الذي كان يحلو له الجلوس فيه ومشاهدة عمال البساتين وهم يؤدون عملهم في رشاقة وفي حركات متسقة توحي له ، بفعل خياله الجامح ، أنه يعيش في جنة الخلد . من ثم تحلو مصر في ناظريه وتعطى شعبها لديه بكل مظاهر الحب والاعجاب . ومع ذلك ، نلاحظ أن « مذكرات من مصر » لا تشير كثيرا الى الآثار الفرعونية ولا تذكر الا تلميحا مرور الكاتب بالاسكندرية والقاهرة والاقصر والكرنك وطيبة ووادى الملوك ومدينة حابو ونجع حمادى وأبيدوس ودندره وإسنا وادفو ورشيد .

وفي السادس من مايو ١٩٤٢ يرحل الكاتب الى تونس حيث يستقر في البداية بمدينة تونس نفسها ، ثم في بلدة سيدى-بو سعيد من ٢٥ يونيو الى ٢٣ سبتمبر عند بعض الاصدقاء . وفي السابع والعشرين من مايو ١٩٤٣ يغادر تونس الى الجزائر ثم الى المغرب . وبعد عودته في السادس والعشرين من يونيو ١٩٤٣ الى الجزائر حيث يدعوه الجنرال ديجول الى العشاء الذي أقامه في بلدة البيار . وسوف يشير في « مفكرته » الى هذا اللقاء بقوله :

« مقابلة ديجول كانت بالغة الود والبساطة ، كما أن الاحترام والتقدير اللذين أظهرهما نحوي كادا يقنعاني بأن شرف ومتعة اللقاء كانا له . »

وفي السابع من فبراير ١٩٤٤ يستقر جيد في مدينة فاس . الا أنه يتلقى أمرا بالذهاب الى مدينة الجزائر في أسرع وقت . ويبدو أن الجنرال ديجول كان يفكر في أن يوكل اليه دورا سياسيا ، الأمر الذي يفسر لنا استدعاءه على وجه السرعة الى مدينة الجزائر، المقر المؤقت لحكومة فرنسا الحرة .

وفي ابريل ١٩٤٥ يقوم برحلة ترفيهية جديدة الى الجنوب الجزائرى وفي الأيام الاخيرة من ديسمبر ١٩٤٥ ، وخلال شهرى يناير وفبراير ١٩٤٦ يعود الى مصر ومنها ينتقل الى بيروت التى دعى اليها . ويتم استقباله رسميا في بيروت يوم ٢٩ مارس ١٩٤٦ من قبل عديد من الشخصيات السياسية . وسوف يلقى في بيروت محاضرة عنوانها « ذكريات أدبية ومشاكل حالية » حيث يقص حياته كأديب

ويعلن عدم ايمانه الا بقيمة فعالة واحدة وهي الفردية . وبعد برهة من الزمن يلقى في الاذاعة اللبنانية حديثا يظهر فيه ادراكه لدوره كممثل للأدب الفرنسي ووعيه باسهام الثقافة الفرنسية في لبنان .

وفي عام ١٩٤٧ يحصل على جائزة نوبل التي ترد له اعتباره بعد أن كان قد تعرض في السابق الى كثير من التهجم والنقد . وحتى بعد بلوغه سن الثامنة والسبعين ، لا يتخلى عن ميله الى الرحلة والسفر ، اذ أنه يعتقد بأن التخلى عن الرحيل هو علامة الأفول . ولا شك أن حب الكاتب للحياة وملذاتها سوف يظل مرتبطا ، في المقام الأول بالنسبة اليه ، بفترات اقامته في شمال افريقيا . ولقد كان ينوى في أخريات حياته الذهاب الى مراكش ، الا أن المنية منعته من تنفيذ هذا المشروع الأخير .

ومع ذلك ، فان أندريه جيد لم يكن يرى أن كل هذه الرحلات كافية لاشباع عطشه الى السفر والارتحال ، ولكن أظهر ، في أكثر من مناسبة ، أسفه على عدم ذهابه الى نهاية العالم والى منطقة الاستواء على وجه الخصوص . لقد كان يود أن يرى كل بلدان العالم ، وأن يعود اليها اكثر من مرة ولكن الكسل والملل كانا ، في النهاية ، أقوى منه .

أدب الرحلات : الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية

لا شك أن الرحلة الواقعية ، أى الرحلة التى قام بها صاحبها فعلا ، هى الأصل في أدب الرحلة عند أندريه جيد . ويمكننا أن نميز ـ في هذا الصدد ، من جهة مفكرته اليومية التى يدون فيها بدقة ملاحظاته وانطباعاته الآنية والمقابلة فيا بعد للشرح والتفسير والاطناب ، ومن جهة أخرى روايات الرحلات التى أشرنا الى كثير منها في الصفحات السابقة حيث تخضع الملاحظات الواقعية الحقيقية للتضخيم من قبل خيال الكاتب الفياض وتحت تأثير قراءات الكاتب العديدة للمؤلفين العالميين . وليس من شك في أن الأدب العالمى يزخر بقصص الرحلات التى ترمز ، الى قدر ما وفي أشكال وصيغ مختلفة ، الى السعى أو البحث عن الحقيقة .

بالنسبة لأندريه جيد يمكن للكتب أن ترمز بفضل عالمها الخيالى ، الى المكان الذي يصعب الوصول اليه ، فكل رحالة ، سواء كان يبحث عن حقيقة ملموسة أو حقيقة روحية ، يسعى الى البحث عن ذاته ان لم يكن يعمل على الهروب منها . من ثم تصبح الرحلة ، على ضوء هذا المعنى ، مرادفا لضرب من الرفض المستمر للذات .

ومن الواضح أن كاتبنا قد دفع الاعتراف ، في اختياره الدقيق هذا للذاته ، الى الحد الأقصى مما يمكن التفوه به . كما أنه اذا كان كل حدث ينطلق عند جيد من الأنا ، الا أن هذا الأنا لا يخلو من بعد عالمي - بعبارة أخرى ان الحقيقة النفسية التي يصل الى تسجيلها الكاتب من خلال تجربته الذاتية لا تخرج عن اطار التجربة العامة للانسان . وقد يلجأ الكاتب في سبيل تحقيق هدفه الى خدعة استخدام « أنا » الآخر ، ان صح هذا التعبير . أنه يقول لنا في هذا الصدد في مفكرته :

« ان انتصار الموضوعية ، هو أن تسمح للروائي باستعارة « أنا » الآخر . لقد خدعت الناس بسبب توفيقي الكبير في ذلك ، اذ اعتبر بعض الناس كل كتبي مجموعة من الاعترافات المتتابعة » .

يمكن القول اذن بأن جيد تحدث عن ذاته بواسطة مخلوقاته الخيالية ، وان تطلعه الى معرفة الآخرين قد زود الأدب الفرنسي بكثير من الوثائق النفسية عن تصوراته لمختلف شعوب المعمورة ، وعلى وجه الخصوص شعوب الشرق . وهو خلال تنقلاته العديدة ، قد استطاع أن يجني محصولا ضخما من الاحاسيس والانطباعات النادرة التي أثرى بها ، فيما بعد ، شخصياته الروائية . هذا بالاضافة الى تحليله لذاته نستشفه من معظم هذه المخلوقات الوهمية . على هذا النحو نكتشف أن نزعته الى الهروب والانطلاق واغراء المجهول والبحث عن « المكان الآخر » تشكل مجموعة من الموضوعات الرئيسية التي تتناثر في مؤلفاته . ولقد عبر عن هذا المعنى الناقد المعاصر « مارك بايجيز » بقوله :

« عنده لا يوجد الانسان بدون الفنان ولا الفنان بدون الانسان » .

كانت الرحلة بالنسبة لأندريه جيد ، بمثابة مغامرة أتاحت له الاتصال المباشر بالعالم الخارجي . واذا كان شمال افريقيا يعد ، من الآن فصاعدا ، موقعا « أدبيا » فذلك ليس بفضل الاقامات المتعددة لكثير من الكتاب بقدر ما هو راجع الى الاهمية التي أولاها له أندريه جيد في مؤلفاته ، ومن بينها خاصة « اذا لم تمت حبة الغلة » . لقد صار شمال افريقيا متصلا اتصالا وثيقا بأندريه جيد اذ أنه متمق أو مشوه بفضل أحاسيسه وانطباعاته . . ولقد كان ميل الكاتب الى التحليل النفسي والى فحص انطباعات الذات يدفعه الى نبذ كل الاعتبارات الأخرى ذات الطابع السياسي والى تعميق فهم وتحليل مأساته الداخلية . ولما كان عاجزا عن الانفصال عن مشاكله وقضاياه الذاتية نراه يصب تأملاته على أهم مشاغله وهواجسه النفسية . انه يمزج مؤلفاته بعصارة فكره ، الأمر الذي يجعل هذه المؤلفات تعبر تعبيرا مباشرا عن الأحداث التي تأثر بها وتحمل عددا مهما من الأنباء والمعلومات الخاصة بحياته

الفكرية والأخلاقية والعاطفية . غير أن كل نظرة يلقيها الكاتب على سريرته تستطيع أن تضفي مغزى عالميا على أقل مغامرة من مغامراته الشخصية .

أن الموضوعات الرئيسية التي تعالجها مؤلفات جيد لا تشكل صورة مطابقة لحياته ، ولكنها مرآة لها ان صح هذا التعبير . ويتعذر علينا أن نفهم أدب ـ جيد اذا لم نطلع على انطباعات رحلات الكاتب التي دونها هنا وهناك . وعلى الرغم من تعدد الأنواع الأدبية وتنوع الأنشطة الثقافية التي عرفها الكاتب ، وعلى الرغم من شغفه بالاطلاع وتمثل الانتاج الفكري العالمي ، نجد أن الأدب الشرقي يحتل المكانة الرئيسية والسائدة في مؤلفاته . ويظهر الأدب الشرقي في صورتين :

١ ـ في صورة الأدب الذي حرره بنفسه ويخص في الجزء الأكبر منه منطقة شمال افريقيا .

٢ ـ في صورة الأدب المحوره الذي تناوله بالنقد والتعليق : مثال ذلك ـ التحليل المطول الذي قام به ، خلال « خطاباته الى أنجيل » طوال الفترة الممتدة من ١٨٩٨ الى ١٩٠٠ ، لترجمة كتاب ألف ليلة وليلة التي قدمها « ماردروس » .

ويتضح أن معظم الأحكام التي يطلقها الكاتب على هذه الترجمة ذات طابع ذاتي ، الأمر الذي يدل على حسن استيعابه لآداب وتاريخ المنطقة .

ويمكننا القول في هذا الصدد بأن أندريه جيد يعد من أوائل الداعين للأدب الشرقي في فرنسا . من هنا نفهم نشاط المجلة الفرنسية الجديدة (N.R.F) التي عملت من جهة على تعريف العالم الخارجي بالأدب الفرنسي ، ومن جهة أخرى على تعريف الفرنسيين بالآداب الاجنبية . لاجرم أن يكون الأمر الجوهري بالنسبة لأندريه جيد ، على شاكلة « مونتاني » MONTAIGNE الذي كان يرى في الرحلة فرصة « لحك وصقل عقله مع عقل الآخرين » هو توصيل خبرته وتجاربه الى الغير . من ثم يمكن اعتبار مجمل مؤلفات أندريه جيد الخلاصة المركزة لخبرته في الحياة وتأملاته التي جمعها في رحلاته عبر العالم .

لقد دون الكاتب تفاصيل رحلاته العديدة الى شمال افريقيا في « مفكرته اليومية » وبلورها ، بوجه خاص ، في مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغلة » ولقد نشر هذا الكتاب الأخير عام ١٩٢٠ ، وهو لا شك

يعبر عن ذكريات الصبا . ويروي لنا جيد في هذا الكتاب استيقاظ حواسه وتفتحها على الحياة مع التأكيد على أن تطور وجدانه كان مطابقا لمنطق تطور شخصية نفسها . ولا شك أن التفسيرات الخاطئة أو الصحيحة أو المعقولة التي يقدمها لنا الكاتب تعطينا فكرة عن مدى الاضافات الخيالية التي يلجأ اليها أندريه جيد حينما يختص الأمر برحلاته وجولاته في شمال افريقيا . الا أنه اذا كان الكاتب يفحص ذاته ويحللها عبر الأحداث التي يسوقها ، فان العناصر الخاصة بتاريخ حياته تعد ، مع ذلك ، قليلة ولا تخرج عن كونها نقاط انطلاق للبحث والتحليل . فالكاتب يطور الاحداث بتعليقاته ، الأمر الذي ينقلها بالتدريج من مستوى الاعتراف الى مستوى العمل الفني .

من جهة أخرى ، يحاول جيد في هذا الكتاب تفسير سلوكه في شمال افريقيا كنتيجة لتربيته في الطفولة ، بعبارة أخرى انه يريد أن يقنعنا بأن بدايات حياته هي التي قادته الى ماصار اليه ، اذ أن الحبة التي انبثقت ونمت هي نفسها الحبة التي ذوت ، وكل فرد منا يحوي في قرارته مجموعة امكانات متعاوضه تشبه البراعم ، ويكفي أن نسمح لبرعم مصاب بالنمو حتى يولد لنا زهرة ذابلة . من ثم اذا كانت طفولة الكاتب رديئة المنبت ، لا غرابة ـ في نظره اذن ـ أن تكون النتيجة نباتا رديئا . ومن هنا يرى الكاتب أنه متسق مع نفسه .

ان اندريه جيد يعتقد بأنه وجد في شمال افريقيا الأرض الأجنبية التي تنبعث منها اصداء غامضة تأخذ عليه لبه وعقله جميعا . من ثم تفيض كل أحاسيسه وتتفجر كل رغباته التي استطاع أن يكبتها وأن يبقى عليها حبيسة في وجدانه الى هذه اللحظة . وهو يشعر بتحرر تام يسمح له بالاختلاط بمختلف الفئات الاجتماعية وتلقى ، من غير تمييز ، كل أنواع التجديد التي يمكن أن يعثر عليها في بلد أجنبي ، كما يدفعه هذا التحرر والانطلاق الى تمجيد القيم الجديدة التي يشيد عليها مفهومه الخاص للأخلاق . ومقابل غالبية ـ الروائيين الرحالة الذين أقاموا نزعتهم الى « البرانية » على الوصف الدقيق للمظاهر المختلفة والنادرة التي تقابلهم في عادات وحضارات الشعوب الأجنبية يتميز أندريه جيد بابتكاره ضربا من « البرانية الشخصية » . اذ أن ضميره المتفتح أمام كل المشاهد الغريبة والنادرة سوف يظل دائما مسرحا لانطباعات تتدافع وتتنافس من خلالها عواطفه ومشاعره . ولما كان الكاتب ينزع الى لون من الحياة الحسية القوية ، فانه وجد في البيئة الأجنبية البسيطة نمطا من الحياة الأولية التي تستطيع أن تنقع غلته وتشفي جوعه الى كل الأحاسيس المباشرة والطبيعية . لا عجب اذن أن يكرس الكاتب الجزء الثاني كله من مؤلفه « اذا لم تمت حبة الغلة » الى تبرير هذه الحقيقة البالغة الأهمية بالنسبة له ألا وهي : لا يجدر بنا أن نعارض قط حياة الغريزة . ويفسر الكاتب هذا الادعاء باضفاء حكمة قيمة على هذا

البعد الغريب لسلوكه بزعمه أن السلوك الغريزي يتفوق على القيم الخلقية المكتسبة . وتماديا في رغبته في تبرير سلوكه الشاذ هذا يزعم أن ارادته لا تلعب أي دور في هذا الصدد ، وأن مسئوليته ليست محل تساؤ ل ، اذ أنه حينما يخلي بين نفسه وبين تذوق ثمار هذه الأرض وملذاتها لا يقيم بينهما في الواقع ، أي اختيار سابق أو عمد ، ان الكاتب يريد أن يحيا حياته الحاضرة وأن يغمض عينيه عن عواقب أفعاله حتى لا يكدر نعيمه أو ينغص عليه شيء متعته ولذته .

وتمثل عقد الطفولة التي يفصلها لنا الكاتب تفصيلا في الجزء الأول من كتابه « اذا لم تمت حبة الغلة » البذور التي قادته « حتما » الى ما صار اليه . من ثم يحاول جيد أن يفيد من قوانين الوراثة ودروس الحتمية والفرويدية ليشرح لنا سلوكه البالغ على ضوء عقد الطفولة ، وهو يبرع جدا في سوق مثل هذه المبررات وتصنيفها .

فمن الناحيه الدينيه يبرز لنا قسوة وتزمت التربية البروتستانتية التي تلقاها في طفولته وشبيبته . ويبدو أن هذه التربية تؤكد في المقام الأول دور الضمير الذي تمثل هنا في مجموعة من المواقف الخلقية القائمة على ضرب من الاتفاق المطلق . من ثم لم تكن طفولته الا مجموعة من المحرمات والنواهي ، وسوف يرى نفسه كل يوم في مواجهة التمييز بين الخير والشر . ومن الناحية الاجتماعية يتضح لنا أن أسرة الكاتب من جهة الأب هي أسرة برجوازية من رجال القضاء . ومن جهة الأم أسرة من البرجوازية العليا المقيمة في مدينة « روان » شمال غرب فرنسا من هنا يرث أندريه جيد لونين من السلوك الاتفاقي والنمطي : نمطية السلوك البروتستانتي من جهة ونمطية السلوك البرجوازي من جهة أخرى ، الأمر الذي يؤكد تأثير القيم التقليدية والمحافظة على طفولته . وأخيرا من الناحية الجنسية يؤكد الكاتب على جميع مظاهر الاحباط التي كان ضحية لها خلال طفولته ، ويبرز دور البيئة البرجوازية والبروتستانتية المتزمتة في اخماد دفعاته الجنسية ، وخاصة بعد نزعاته الشاذة ، الأمر الذي أحدث به صدمة عاطفية قوية وجعله يعيش في جو الركود النفسي والخمول .

لا جرم أن مؤلف أندريه جيد « اذا لم تمت حبة الغلة » لا يشكل وثيقة نفسية فحسب تشرح لنا سلوك الكاتب وتبرره ابان رحلاته الى شمال افريقيا ، اذ أنه ، بالاضافة الى ذلك ، يمثل تقريرا سياسيا واجتماعيا هاما عن شمال افريقيا وافريقيا السوداء وكثير من البلدان الاخرى التي زارها . ولقد لمس جيد بنفسه بؤس المهاجرين السوريين في مارسيليا حيث يتجمعون في انتظار سفرهم الى المكسيك بحثا عن عمل . ويقص علينا الكاتب آلامهم ومشاكلهم باسهاب وبنبرة لا تخلو من الحرقة والأسف . ولقد لاحظ كذلك في مارسيليا أن ما يسمى بالحي العربي ليس الا ملجأ للبؤس والتعاسة والشقاء .

أما على المستوى السياسي فان أحداث تركيا هي التي سوف تستوقفه في كتابه «المحنة التركية» هذا بالاضافة الى العداوة المعلنة التي أظهرها نحو هذا البلد . وهو يعتقد بأن مذبحة الأرمن ليست فعلا يتميز بالوحشية النادرة بقدر ما هي دليل على فشل النفوذ أو التأثير الفرنسي في هذه المنطقة وارتباط هذا البلد بسياسة ألمانيا . ولقد عبر عن رأيه هذا في كتاب له الى الكاتب «موريس باريس» الذي كان يخالفه في الرأي :

«هل كانت هناك جدوى من كتابة مقالاتك المدوية لدى عودتك من آسيا الصغرى ، أيا باريس . انى ما زلت اتذكر الحنق الذي أحدثته لدى هذه المقالات ، أنا الذي اعود أيضا من هناك ، لقد بدا لي أن بعضا من رجاحة العقل كانت كافية لفهم كم كان عملنا ونفوذنا هناك مضطربا وزائلا ، ان لم نقل ، ميئوسا منه» .

ولقد قام جيد ، بجانب التقارير الاجتماعية والسياسية ، بتقديم صورة للأحداث العسكرية التي كانت تدور في شمال افريقيا . فلقد شاهد محاولة الأمريكيين لاحتلال تونس وفشل هذه المحاولة ثم شاهد استقرار القوات الالمانية والايطالية في مدينة تونس في ٣٠ نوفمبر ١٩٤٢ واخيرا تحرير تونس من قبل قوات الحلفاء في ٨ مايو ١٩٤٣ . كما أنه سيشهد بعد مرور عام من ذلك ، الثورة الاهلية بالمغرب العربي .

ويعبر جيد في تقاريره العسكرية عن وجهة نظر المقيمين في مخاوفهم وعن تعقيباتهم على البيانات الرسمية ، ويقدم لنا صدى الخطب السياسية وتعليقات الصحف المحلية . انه يعنى ، في الواقع ، بلعبة الحرب وتطور المعارك بين القوتين المتحاربتين حول تونس أكثر من اهتمامه بانعكاسات الصراع على المستوى الدولي . ونراه بعد وصف دقيق للعمليات العسكرية الدفاعية والهجومية ولمدى الخراب والخسائر المادية الناتجة عنها ، يهتم بسرد وقائع الحصار وتصوير المحاصرين بكل ما تمثله من مشاكل وآلام مثل نقص المواد الغذائية وانقطاع الغاز والكهرباء والماء واختفاء الوقود وتسعيرة السلع النادرة والسوق السوداء .. الخ . كما يعنى بتقديم صور للخلافات التي تدب بين جنود المعسكر الواحد كالألمان والايطاليين ومعلومات قيمة عن عقلية المتحاربين وسلوك ومواقف السكان المحليين .

كل هذه الكتابات تبين ، كما نرى ، عن شخصية الكاتب على الرغم من طابعها الوثائقي والاعلامي . كما أن الكاتب كثيرا ما يتأثر بمشاهداته فيرفع صوته شاجبا الظلم ومدينا كل صنوف

الاستغلال التى تتعرض لها الشعوب المستعمرة . هذا ـ بجانب نزعته الأصلية الى الهروب في الرحلة والاستفادة منها في تنويع انتاجه واثراء معارفه وخبراته بالنفس البشرية وأغوارها .

مهما يكن الأمر ، تظل مفكرته اليومية الوثيقة الأساسية والمرجع الرئيسي بالنسبة لكل من يهتم بحياته وأعماله . ففى هذه المفكرة قد دون ـ أندريه جيد أفكاره وتأملاته وانفعالاته ودفعات حماسه وثورات غضبه وحنقه ، باختصار كل خلجاته كانسان وكاتب . ولا شك أن قدرته على الافادة من كل ملاحظاته وتأملاته للمظاهر والأشكال الخارجية قد زود أعماله بقدر كبير من المفاهيم الانسانية ذات الفائدة العامة . واذا كان حبه للاستطلاع وفضوله من السمات التى تتجاوز كل حد ، فهما ، من غير شك ـ صفتان تؤكدان رغبته في تعميق معرفته لذاته وميله الى تفهم العقليات المغايرة لعقليته شحذا لروحه الناقدة وتجديدا للمصادر التي يمكنها أن تغذي أعماله ومؤلفاته بالموضوعات الجديدة الثرية بأبعادها ومعانيها .

ونلاحظ وجود مسافة زمنية طويلة بين تحرير مفكرته اليومية الذي جرى في الفترة الممتدة من ١٨٨٩ الى ١٨٩٣ وبين نشرها عام ١٩٣١ ، وقد يكون ذلك دليلا قويا على ميل الكاتب الى صقل صورته أو أسطورته ككاتب أمام جماهير القراء . ولقد قام الكاتب ، عند نشره هذه المفكرة ، باختيار بعض الاجزاء المتبقية عنده بعد عملية تدمير أولية ، وذلك بغرض تكريس صورته المثلى لدى قرائه المعجبين . ولا يجب أن ننسى ، في هذا الصدد ، النزعة النرجسية لدى الكاتب ، هذه النزعة التى تؤكدها الخطابات الطويلة التى أرسلها أندريه جيد طوال سنوات عديدة الى زوجته مادلين روندو ، والتى يحاول فيها أن يبرز ذاته في أحسن مظهر وأفضل صورة معتمدا في ذلك على أسلوب منمق ومتقن النسق والايقاع . ان جيدحين يتحدث عن ذاته انما يتحدث عنها في صورتها المثلى وليس كما هى في الواقع قاصدا بذلك تكريس هذه الصورة للأجيال القادمة . الا أن زوجته قد أحست بهذه الخدعة ، وقامت في لحظة غضب باحراق كل هذه الخطابات التى كان قد وجهها اليها الكاتب . ولقد أعلن جيد أن فقدان هذه الرسائل يعد أكبر خسارة بالنسبة له ، اذ أنه فقد ، مع ضياعها ، كل العناصر اللازمة لاقامة الدليل على تكوين شخصيته على هذا النحو وفي الوقت نفسه جزءا كبيرا من مذكرات شبابه .

لا شك أن أندريه جيد حينما يسجل ذكريات الرحيل والانتقال يحول مشاكلهالفردية الى صورة أدبية ، لا سيما حينما يعالج فيض عواطفه وانفجار حواسه ، وتدفعه ذاتيه العارمة الى اضفاء حماسه وجيشان أحاسيسه على مناظر الطبيعة نفسها . ولا يغير من طبعه تعب الرحلة أو اجهاد المرض أوحسرة

خيبات الامل العابرة . لذلك نراه دائما قوي التأثر مستجيبا لكل نداء توجهه اليه الغريزة أو الطبيعة . ويتميز جيد عن غيره من كتاب عصره بصراحته المطلقه التي تجعله يطلعنا على أدق خلجات نفسه الخفية وعلى أعمق مكنونات وجدانه الحميم .

أن أندريه جيد يكتب - من غير شك - بحثا عن ذاته وابتغاء حل صراعه وعقده النفسية بوضوح وبصيرة . ومن هنا تمثل الرحلة من بين ما تمثله بالنسبة له ، مخرجا يتغلب به على غواية الجنس واغراء الشهوات ووسيلة تسمح له بالقضاء على تسلط الغرائز وملاحقتها له خلال رحلاته المتعددة . من هنا يقدم لنا أدب الرحلة عند جيد مزيجا من الوقائع والمطامح والآمال .

ومن العسر علينا أن نفصل بدقه في هذا الأدب بين ما يتصل بالواقع وما يتصل بالخيال طالما أن الكاتب العبقري يبرع ، بطريقة منقطعة النظير ، في المزج التام بين ذاته الحميمة وبين العناصر الخارجية ، بحيث يتبدى له كل عالم يلتقي به أو يكتشفه في صورة كل متناسق ، وبحيث يصبح كل عنصر جزءا لا يتجزأ من تركيب شمولي وليس عنصرا قائما بذاته لا يدرك الا في فرديته وخصوصيته الأساسية .

على هذا الأساس يقوم أدب الرحلات عند أندريه جيد على هذه المبادىء الرئيسية :

أ - تشكل الرحله الواقعية أو المعاشة نواة المؤلف الأدبي .

ب - تضاف الى ذلك المؤثرات المختلفة الناتجة من القراءات العديدة لكتاب الرحلات الفرنسيين والأجانب .

ج - بالاضافة الى ذلك ، لا يجب اهمال دور الخيال وأهميته .

لقد رأينا كيف ينطلق جيد من عالم الواقع ، وكيف ينتقي منه الانطباعات المؤثرة القوية ، وكيف يمزج ذلك بخياله الخصب الخلاق فيخرج لنا تركيبا رائعا تتحد فيه روحه بالعالم وتضفي عليه حياة جياشة بفضل ذاتيتها المتدفقة . أما بالنسبة للقراءات التي يفيد منها الكاتب في تدعيم خياله وتغذيته بالصور والمقارنات فهي جد طويلة وليس بوسعنا الا الوقوف عند بعض معالمها البارزة .

لقد اهتم أندريه جيد اهتماما كبيرا بالفكر والأدب الألماني فقرأ لجوته ونيتشه وشوبنهاور وهاين وفشته ونوفاليس ، كما اهتم بالأدب الانجليزي فقرأ أعمال شكسبير وديكنز وأوسكار وايلد وكونراد وبليك ، وبالأدب الأمريكي فاطلع على أعمال شتاينبك ووايتمان وآلان ـ ادجارپو ، وبالأدب الايطالي فقرأ لدانتي وبيترارك وبالأدب الروسي فقرأ لدوستويفسكي وتولستوي وتور جنيف وبوشكين ، كما كانت له اهتمامات خاصة بالأدب والحضارة اليونانية واللاتينية فقرأ الالياذة والأوديسا والانيادة وتاريخ هيرودوت وتاريخ حرب البيلوبونيز ، من غير أن تنسى المراجع الأساسية في هذا الصدد مثل « **الأسطورة الذهبية للارساليات** » و « **عادات وأخلاق المسلمين** » و « **النيل والحضارة المصرية** » . ويجدربنا الا تنسى أيضا المؤلفات الأجنبية الخاصة بالشرق مثل : « **الرحلة الى الشرق** » لهرمان هس (ترجمة جان لا مير وقدم له جيد نفسه عام ١٩٤٨) . و « **يوسف في مصر** » لتوماس مان ، و **هيروديا**س » لفليليز ستيفن . من جهة أخرى ، لقد أظهر الكاتب اهتماما خاصا بأعمال سابقية من الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن الشرق أو حتى لمحوا اليه أو تخيلوه تخيلا أمثال راسين في مأساة « **بجازيت** » وفولتير في قصتي « زاديج » و « كانديد » وبلزاك في رواية « سرازين » وفكتور هيجو في ديوانه « **الشرقيات** » ، وبالنسبة لمعاصريه : كلوديل في « معرفة الشرق » وبيير لويس في « **أغنيات بيليتس** » مارتان دي جار في « الاعتراف الافريقي » ومونتيرلي في « التركية » وسانت اكزيبوري في « **رحلة ليلية** » . أضف الى ذلك كتاب الأيام لطه حسين وألف ليلة وليلة وكثيرا من قصائد الرعاة للكتاب اللاتين وأخيرا الكتب المقدسة الثلاثة الخاصة بديانات التوحيد، ولا شك أن تأثير هذه القراءات لا يتم عند جيد بطريقة النقل وانما عبر عملية من التفاعل مع الواقع المعاش بواسطة الخيال الذي يلعب دورا كبيرا لا بد لنا من الوقوف عنده .

فما هي الطريق اذن التي تقود الكاتب من الوثيقة الانسانية التي تشكلها الرحلة الواقعية الى الوثيقة الخيالية التي تشكلها الرحلة المروية ؟ ليس من شك في أن الاماكن التي تغنى بها الشعراء والكتاب وأحاطوها بهالات الحب والحنين والود والوفاء جد متوفرة في الأدب العلمي . في هذه الأماكن التي تقطنها الأحلام وترفرف عليها أجنحة الخيال يبرز الماضي بصفة خاصة لارتباطه بذكرياتنا الأولى ، هذه الذكريات التي لا تخلو من مسحة حزن ، الا أنها مسحة محببة الى النفس ، فهي متصلة أتصالا وثيقا بهذه السعادة التي فقدناها والتي نود أن ـ نحييها في وجداننا الى الأبد .

لا شك أن جيد كان يحاول عند تأليفه لكتبه احياء ماضيه وتحليل الخوالج والأحاسيس التي تتصل به . الا أنه لما كانت ذاكرته تخونه دائما ، فهو كان غالبا ما يلجأ الى خياله لتعويض هذا النقص . ولم

يكن يتحرج في اضافة تجارب الغير اذا أعوزته الخبرة الشخصية أو اضطرته الحاجة الى ذلك . من ثم كثيرا ما تتميز تجاربه التي يرويها لنا ببعض الغموض والتناقض . وغالبا ما يقوم الخيال في هذه الظروف بوظيفتين متمايزتين :

١ - وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالي الذي يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة ، وهي ترادف « الفراغات الفكرية » التي ينسبها فرويد الى عمل الرقابة خلال الحلم .

٢ - عملية تحريف الذكرى ، وهي إما إرادية خاصة حينما يحذف الكاتب عمدا بعض التفاصيل خشية الفضيحة أو رغبة منه في تقديم صورة مثالية لذاته ، واما لا ارادية حينما يعتقد الكاتب أنه يقص فعلا حقيقة جربها وعاشها .

ويمكننا تمثيل هذه الأفكار بالنموذج التالي :

الرحلة المروية = الرحلة المعاشة + قراءات + عمل الخيال .

وهو يتفرع كما يلي :



ان الرحلة المروية تنشأ من مجموع هذه التقاطعات وتعطينا وثيقة انسانية معقولة ، ولكنها غير قابلة للتأكيد في جملتها .

وهناك مؤلفان آخران للكاتب يستحقان منا وقفة متأنية ونظرة فاحصة نظرا لارتباطهما هما أيضا بانطباعات وذكريات عالم الرحلة ، ونعني بهما كتابي : « الأغذية الأرضية » و « اللا أخلاقي » الصادرين تباعا عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ ، أي خلال الفترة الافريقية لرحلات الكاتب ، ونحن نكاد نستشف منها طبيعة المادة المكونة لأحداثها وهي تعطينا انطباعا قويا بالحضور الافريقي .

في كتاب « الاغذية الارضية » ترتفع أحاسيس الكاتب ومشاعره الى درجة النشوى عند التغني بأمجاد الشرق والغرب على السواء ، حيث يمتزج تنوع المناظر الطبيعية وتجدد الرؤية الشاعرية لدى الكاتب مع بلوغ حواسه الى ذروة اللذة في مقطوعة سيمفونية واحدة . ونسوق مثالا على الأحاسيس البصرية التي تمتزج بالوصف الشاعري الذي فجرته احدى مناظر الطبيعة الساحرة :

« لقد رأيت تحت شعاع الصباح المائل جبال الأحمر خادو وهي تتورد وتكاد تشبه المادة المشتعلة .

« لقد رأيت الريح وهي تدفع الرمل من قرار الأفق وتثير لهاث الواحة التي أصبحت مثل سفينة ترجها العاصفة ،

« لقد رأيت على طول الطرق المهجورة هياكل نياق بيضاء » .

وفي مكان آخر تشدنا أحاسيس الشم والتذوق :

« كان هذا الشارع من مدينة الجزائر يعبق ظهرا برائحة الينسون والشراب الممزوج بالعلقم . وفي مقاهي بسكره العربية لم يكن يشرب الناس الا القهوة وشراب الليمون والشاي . الشاي العربي ، حلوى بالفلفل ، زنجبيل » . . .

وحينما يصف أندريه جيد مدينة بليدا ، فان جماع أحاسيسه يولد لنا فنا بالغ الدقة تمتزج فيه العناصر التصويرية والموسيقية والشاعرية في تركيب بديع :

بليدا ، أيا بليدا ! يازهرة الساحل ! أيتها الوردة الصغيرة ! لقد رأيتك دافئة عاطرة . زاخرة بالأوراق والأزهار ، بعد هروب جليد الشتاء . في حديقتك المقدسة كان مسجدك الأبيض الناصع يشع بروحانيته ، والشجر المتسلق ينحني تحت الزهور . وكانت شجرة الزيتون تختفي تحت أطواق النباتات ، والنسيم الطيب يحمل شذى أزهار شجر البرتقال ، وحتى شجر اليوسفي النحيل كان يعبق » .

ولا شك أن عبور الكاتب بمدينة الجزائر وبسكره وشتمه وعماش وتوطرت كانت يشكل في « الأغذية الارضية » ذريعة يصطنعها لادخال عناصر البيئة المحلية في أوصافه ، فهو حينا يصف لنا ساعات السكينة والراحة اللذيذة التي كانت توفرها الحدائق الغناء حيث تعبق الزهور وتفوح الروائح الزكية ويتجول النحل ، وحينا آخر يحدثنا عن الواحات العائمة في الصحراء كالجزر في البحر ، وحينا آخر يتوقف عند القوافل المتعبة المكدودة التي تتأرجح بين اليأس والرجاء ، وأخيرا تحتل الصحراء في هذه الأوصاف المكان الأعظم . وتظهر الصحراء في صورها المختلفة من رمال متحركة أو كثبان تشبه أمواج البحر ، ومن مناطق جرداء ينبت فيها نبات الحلفا وتكثر الثعابين ، ومن مناطق صخرية تتأرجح فيها نار الشمس ، ومن أراض صلصالية لا تخلو من فرص الحياة حينما يتوفر الماء .

ويصل خيال الكاتب أحيانا الى درجة تشخيص المدن التي يزورها ، فهو يقول في « الاغذية الارضية » :

« لقد رأيت أزمير ترقد كالبنت الصغيرة ، ونابولي مثل السابحة المثيرة وزغوان كراع من قبائل البربر تحمر خدودها جميعا عند اقتراب الفجر . أما مدينة الجزائر فترتجف حبا تحت أشعة الشمس وتذوب عشقا في أحضان الليل » .

كما يمجد المدن الاسلامية :

« انك لم تر جدران هذه المدينة الاسلامية .. هذه الجدران العميقة حيث انصب ضياء الشمس خلال النهار ، جدران ناصعة البياض كالصلب .. أيتها المدينة لقد بدوت لي بللورية شفافة ! »

الا أن الكاتب يبرز في مؤلفه « اللاأخلاقي » بصورة أوضح حنينه الدائم الى الحياة الغريزية . كما أنه يشير بالخطوط العريضة المميزة للمناظر الطبيعية فيبدو لنا ، في هذا الكتاب ، دقيقا بفضل ايجازه واقتصاده في ذكر التفاصيل . ولقد فرضت عليه الطبيعة التونسية هنا وجودها كما فرضه من قبل موقع بسكره الجزائري . ونحن نرى بطل هذا الكتاب : ميشيل اللا أخلاقي وهو يتجول في نفس الأماكن التي خلبت لب المؤلف ، الأمر الذي يسقط رغبات الكاتب على بطله على الرغم من ادعاءات الاستقلال والتباعد التي يبرزها بين الفينة والفينة تجاه هذا الأخير . ونحن كثيرا ما نتساءل أمام هذا الكتاب : أهو بشكل وثيقة صادقة أم هو من نسج الخيال ؟ وفي الواقع ، ان اتفاق الصدف هنا لبالغ الدلالة . لا شك أن أندريه جيد أفاد كثيرا من تجربته الحية على مستوى وصفه للطبيعة وعلى مستوى تأثيره بها وأحاسيسه وخلجاته . وليس غريبا بعد ذلك أن يتولى خيال الكاتب الخصب ربط القطبين

الذاتي والموضوعي لديه ربطا محكما ، فذاتية الكاتب ، كما أوضحنا ، ذاتية غامرة تبث حياتها وروحها الجياشة في الطبيعة ، وموضوعية الطبيعة بدورها تتلاشى تدريجيا لتتوحد بخيالات الكاتب وأوهامه .

ونحن نشعر منذ مقدمة « اللا أخلاقي » أن نشيد الكاتب الموجه الى الصحراء ، في هذا البلد المشع بمجده ورونقه وبهائه ، سوف يظل بالنسبة اليه الصورة الكاملة للرغبة . يقول أندريه جيد :

« لا شيء يثبط التفكير أكثر من الحاح صفو السماء فهنا يصبح كل بحث مستحيل طالما أن اللذة تتبع الرغبة عن كثب . »

وهو في كل رحلة الى شمال افريقيا يقول بتجديد وتنشيط أحاسيسه التي ظنها زائلة ، وها هو ذا لدى عودته الى تونس يكتب في « اللا أخلاقي » :

« عند تفجر أحاسيس جديدة ، كانت تتحرك بعض أجزاء مني وبعض القدرات النائمة التي احتفظت ، نظرا لعدم استخدامها ، بكل أسرار شبابها » .

وكان الشعب العربي يبهره ويفتنه وهو يصفه بقوله :

« ان الشعب العربي يتميز بصفة رائعة ، وهي أن فنه فن يعيشه ويتغنى به ويبدده كل يوم » .

لقد رحل الى شمال افريقيا يضا لا أمل في شفائه ، فكانت واحة بسكره ومدينة تونس كشفا حقيقيا بالنسبة له . لقد بعث في هذه الاماكن بالمعنى الكامل والحقيقي للكلمة ، لقد استرد وجوده وذاتيته ، فلا عجب أن يكون هذا البعث معجزة . يقول جيد :

« ذات يوم صحوت ، فجأة ، وسط اللازورد ، وجريت فور نهوضي الى أعلى سطح . وكانت السماء صافية بين طرفي الأفق . وتحت أشعة الشمس المتوقدة بدأت تتصاعد الأبخرة وتغلفت بها الواحة كلها بينما نسمع في الارجاء البعيدة هدير الوادي الغائر . وكان النسيم نقيا وجميلا الى درجة شعرت فيها بالتحسن » .

لقد استولت أضواء تونس فعلا على لب الكاتب وبهرته حتى حسبها أقرب الى الوفرة والسخاء منها الى الحدة والقوة ، كما عنى بمراقبة تتابع الفصول حيث يتناول برد الشتاء القارس مع ريح السموم الملتهبة خلال الصيف . وهو يصف في واقعية واعتدال جمال الحدائق التونسية والسلام الذي يغمر بساتينها المثمرة ويبرز افتتانه أمام « هذه الأماكن الهادئة المليئة بالظل والنور التي تبدو في مأمن من

الزمان » . وتبرز واقعية الكاتب كذلك في هذه الصورة التي يرسمها للمرأة التونسية ، وهي هنا أم بشير :

« كانت امرأة رائعة ، راسخة ، ذات جبهة عريضة يعلوها وشم أزرق ، كانت تحمل سلة غسيلها على رأسها مثل حاملات القرابين القدامى ، وكانت تتلفع برداء فضفاض داكن الزرقة يبرز فوق الخصر ثم يسقط دفعة واحدة حتى القدمين » .

وعلينا الآن أن نتساءل : كيف يقبل رجل غربي حضارة مغايرة تماما لحضارته بكل هذا الاقتناع والتحمس ؟ وكيف تهتز جوارحه وتنبض ذاتيته تجاوبا مع كل ما يحيط بها من مظاهر جديدة وفريدة خلال تنقلات الكاتب في الشرق ؟

ومن الواضح أن جيد لا يأخذ عن الشرق الا ما يلائم هواه أو مزاجه ، ولا يجب أن ننسى أنه يبحث فيه عن تجديد قواه الروحية ، أو على الأقل يجري وراء هذا الوهم ، كما يبحث عن أحاسيس الانسلاخ الشامل الذي يحققها له شعور البرانية . من ثم يعمل هذا التوافق بين العالم الشرقي وبين رغبات الكاتب الدفينة على خلق نوع من الاتحاد والالتئام لديه بين البيئة الخارجية وبين ذاتيته . لذلك ليس غريبا أن تكون هذه الزيارات والرحلات العديدة ذريعة لوصف مشاعر الكاتب وتقديم بعض نظرياته الشاذة الغريبة . من ثم هو يخلق حولنا جوا خاصا يطبعنا بروحه ويشركنا مع الكاتب في انفعالاته وردود فعله ازاء الاشياء والعالم الخارجي .

ولا شك أن موقف الكاتب هذا قد يعبر عن كبت عميق لديه ، وهو حينما يفصح عن ذلك فانما يعمل على اشباع نزعاته الخفية التي تثور في أعماق سريرته . وقد يكون هذا الموقف ناتجا عن الضغوط الخارجية التي تعرض لها الكاتب خلال طفولته والتي تحولت ، مع الزمن ، الى ضرب من الالتزام الداخلي . ولقد رأى بعض النقاد في شخصية أندريه جيد « سجين القيود البروتستانتية وهو نمط الشخص الكابت لرغباته عند فرويد » .

ونحن إذا أخذنا بنظرية الكبت عند جيد ، نستطيع أن نفهم بوضوح أكبر مؤلفاته وسلوكه ومواقفه المختلفة من قضايا العصر والحياة . ويمثل حاله ـ لا شك ـ النموذج التقليدي لما يمكن أن تؤدي اليه الرغبات المكبوتة بعد تحريرها وانطلاقها من قيودها . ومن هنا يمكننا أن نفسر أدب الرحلة عند جيد على أساس أن التقاء كاتب بشمال أفريقيا كان بمثابة رد فعل ضد مختلف الصدمات العاطفية التي أصابته

خلال الطفولة . كما أن موقفه الجديد تجاه التزمت واحترام التقاليد يبرر بشكل ما عيوب تربيته ونقائض سلوكه . ولا شك أن كل هذه التحولات سوف تطبع أعماله الأدبية بآثارها العميقة .

على كل حال ، ان الرحلة الواقعية ورحلة الاحلام والافادة من المصادر المختلفة لآداب الرحلات تعد من العناصر الأساسية التى تسمح لنا بابراز سمتين من سمات أندريه جيد :

أ ـ هاوى الرحلات .

ب ـ رائد الأدب الشرقى المعاصر فى الغرب .

اذا كان جيد يتميز بالروح الفردية ، فهو ينطلق بحثا عن آفاق ـ جديدة لاثراء فلسفته الخاصة وأسلوبه الجمالى الخاص . وهو يصل الى تحقيق اكتمال ذاته عن طريق النشوى الحسية ، الا أنه على الرغم من تنوع المناظر والمشاهد التى يقدمها ، لا يصورلنا الا رؤ يته الخاصة للوجود . وليس من شك في أن الرحلة من بلد الى بلد ، والحياة في وسط اجنبى قد أتاحا للكاتب فيها أفضل للغرب ، وهو القائل « يجب المغادرة لتعميق المعرفة » . ولقد أتاحت له اقامته المتعددة في الاطلاع على نمط من المعيشة مغاير لما اعتاده وعاش عليه ، وحتى الموسيقى الشرقية أثرت فيه بأنغامها الراقصة وألحانها القائمة على الطرب . وفي الشرق رأى الوجه الحقيقي للغرب وفهم رسالته التي كان لزاما عليه أن يحققها ، وهي تطوير شخصية الانسان وروحه الفردية بواسطة الثقافة .

الا أن جيد حينما تغلب عليه دفعة الحياة ورغبة العيش الرغيد سرعان ما يتخلى عن شخصيته الغربية ويندفع وراء حماسه العارم ؟ وهو حينئذ يقطر لنا انطباعاته تقطيرا حتى نرشفها رشفات حثيثة وحتى يدفع الغربي الى الاحساس بالجمال الآخر. من ثم تظل ذات جيد ، مهما تنوعت الاماكن والظروف هي المركز الاول لأدب الرحلة عنده . ولقد قال الشاعر بودلير : « ان الرحالة الحقيقيون هم أولئك الذين يرحلون من أجل الرحيل » . الا أنه لاشك أن ـ الرحلة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم هي الرحلة التى يقوم بها الانسان في داخله ، وهو الامر الذي يتحقق مع جيد . فهذا الكاتب ، الذي كان يحلم بكل مجهول ومستعصي المنال ، وهذا الباحث عن كل احساس جديد ، لايني فى البحث عن صورته الذاتية بكل ما تحمله من عقد ومظاهر الكف . غير أنه لن يعثر الا على ما حاول الفرار منه ، أي على ذاته نفسها .

مراجع البحث :

BIBLIOGRAPHIE

1 — ETUDES:

ARLAND Marcel, Essais et Nouveaux Essais critiques, Gallimard,paris, 1952.

ARNAUDIES Anne, Le Nouveau Roman, seuil, paris, 1974.

BARTIHES Roland, Le degre zero de l' ECRITURE, Seuil, Paris. 1972.

BASTIDE ROGER, Anatomie d'Andre Gide, P.U.F., Paris, 1972.

BARTHOLD V.,La Decouverte de l'Asie, Payot,Paris, 1947.

BOISDEFFRE Pierre de, Vie d'Andre Gide, 1869-1951, ESSAI DE BIOQRA/ PHIECRITIQUE, Hachette, Paris, 1970.

BRACHFELD Georges, Andre Gide and the Communist Temptation, Droz, Geneve, 1959.

BUCHET Edmond, Ecrivains intelligents du XXeme Siecle, Correa, Paris, 1945.

CANCALON ELAINE Davis, TECHNIQUES ET PERSONNAQES DANS LES RECITS D' Andre Gide, Lettres Modernes, Paris, 1970.

CHADOURNE Jacqueline, AndreGide et l'Afrique, Le role l' Afri- que dans la vie et l'oeuvre de l'ecrivain), Nizet, Paris, 1968.

DALLENBACH Lucien, Le Recit Speculaire, Essai sue la mise en abyme, Seuil, Paris, 1977.

FAYE Jean- pierre, Theorie du recit, Hermann, Paris, 1972.

FONVIELLE- ALQUIER Francois, Andre Gide, ed.pierre Charron, Paris, 1972.

FREYBURGER Henri, L' Evolution de la disponobilite Gidienne. Nizet, Paris, 1970.

GOT Maurice, Anndre Gide, C.D.U., Paris,1962.
LAMBERT Jean, Gide Familier, Julliard, Paris, 1958.

LOTTMAN Herberst, Rive Gauche, Seuil, Paris, 1981.
MACHERY Pierre, Pour une theorie de la productoin litteraire,Maspero, Paris, 1974.
MANSUY Michel, Etude sur L'imagination de la Vie, Jose Corti, 1970.
MARTIN Claude, Andre Gide, Seuil, Paris, 1974.
La Maturite d'Andre Gide, Klinchsieck, Paris, 1977.
MARTINO P., L'Orient dans la Litterature F rancaise au XVIIe et au XVIIIe siecle, Hachette, Paris, 1906.
MAUCUER Maurice, Gide, l'indecision passionnee, ed. du Centurion, Paris, 1969.
MICHAUD Gabriel, Gide et L' Afrique, ed. du Scorpion, Paris, 1961.
MERCEAU Felicien, Le Roman en liberte, Gallimard, Paris, 1978.
MOUTOTE Daniel, Le "Journal" de Gide et les problemes du moi, 1889-1925, P.U.F., Paris, 1968.
Les Images vegetales dans L'oeuvre d'Andre Gide, P.U.F., Paris, 1970

Painter Georges , Andre Gide , Traduction de l anglais par Jean-Rene Major , Mercure de France , Paris , 1968.

Riviere Jaques , Etudes , (Baudelaire , Claude , Gide,Romeau,etc .) , Gallimard , Paris , 5291 -.

Rousset Jean,Narcisse Romancier,Jose Corti,Prais, 1973.

SCHLUMBERGER Jean, E veils, Gallimard, Paris, 1950.
Madeleine et Andre Gide, G allimard, Paris, 1956.
SCHVEITZER Marcilla, Gide aux oasis, ed. de la Francite, Bruxelles, 1971.
SCHWOB Rene, Le vrai drame d'Andre Gide, Palliart, Paris, 1932.
SIMON E., Patrie de L'Humain, Gallimard, Paris, 1948.
STEEL David, Le Theme de L'Enfance dans L'oeuvre d'A ndre Gide, These d'Universite, Lille, 1974.
THBRRY Jean- Jacques, Andre Gide, Gallimard, Paris, 1968.

II — ARTICLES:

BARTHES Roland, Introduction a l'analyse structurale des recits in Communications, n°8, Seuil, Paris, 1966,pp.1 a 27.
BOIDEFFRE Pierre de, Des Vivants et des Morts, in Temoignages, Paris, 1954, p. 151 a 153.
BIASI Pierre - Marc de Les Figures de l A venir, in Litterature, n°17, Fevrier 1965.
BONAPARTE M., Linconscient et le temps, in Revue francaise de Psychanalyse, n°11,1939, pp.61 a 105.
BONNEFOY G., Les Triomphes de la fiction in Les Nouvelles Litte- raires, n°2369, 19 fevrier 1973.

CAHIERS Andre Gide, N°1, Fevrier 1952.
CAHIERS de la Quinzaine, Andre Gide, 6eme cahier de la XXeme serie, Debat sur Andre Gideau studio Franco- Russe, 1930.
CHADOURNE M., Les Voyages de Gide au Tchad, in La Revue Europeenne, 1928.
DOSSIER Andre Gide, (coupures de presse) , Bibliotheque Jacques Dou- cet, Paris.
ESTÈVE, Le Moi selon Marcel Proust Paul Valery et Andre Gide, in Cahiers du Sud, n° 28, 1938.
GRENIER J., Barres et Gide au Liban, in Combat, 8 novembre 1946.
RAYNALD Hermile. L'Espagne musulmane. in La Nouvelle Revue, 1881.

III — DIVERS:

CORRESPONDANCE RILKE/GIDE 1909 — 1926, ed. Correa, Paris 1952.
LOCOSTE J. Le Romantisme dans L'oeuvre romanesque d'Andre GideMemoire de D.E.S. presente a Paris.
MARGARET Boulle, La Remese en question du personnage, These dacty- lographiee, Paris, 1976.
TAILLIART C.E., L'Algerie dans la Litterature Francaise, RTese pour le doctorat es- lettes, Paris, 1925.
YAGHMAI S. Les Elements autobiographiques dans l'oeuvre romanesque d'Andre Gide, These d'Universite, Paris, 1962.

***

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

جنات خالد غازي

مدرس الادب الفرنسي الحديث
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الرحلة في القصة الفلسفية خلال القرن الثامن عشر

تأثرت القصة الفلسفية في القرن الثامن عشر بالقصص الاخلاقية وقصص المغامرات التي حظيت إبان هذه الفترة بازدهار لا نظير له . ونال السفر والارتحال أهمية قصوى في هذا النوع من الرواية الذي يعد امتدادا لأدب « البيكارسك » (Picaresque) في اسبانيا في القرن السادس عشر .

ويقص علينا مؤلفو روايات « البيكارسك » مغامرات بطل آفاق غالبا ما ينتمي الى العامة ولا تتوافر بصدده معطيات مسبقة تنبيء عنه ، فهو بطريقة أو بأخرى صعلوك تتقاذفه المغامرات والتقلبات المتعددة التي يسوقه اليها تجواله ، وهذا النوع من الروايات غنى بالاحداث التي تتعدد مسارحها ، كما يمثل الطريق والنزل العناصر التقليدية للاطار الذي يغلب عليه .

وتتطور شخصية الافاق في جو أخلاقي يدعو للارتياب ، وتنتمي الشخصيات التي يلتقي بها خلال اسفاره الى كل الطبقات الاجتماعية بدءا من الطبقة الارستقراطية وانتهاء باللصوص وقطاع الطرق ، وهو في ذلك يشهد جرائم غامضة ، وتتوالى نصب عينيه النكبات ، ويصبح لزاما عليه أن يشق طريقه في عالم يسوده الدهاء والخداع . يكتمل لدينا صورة البطل من خلال المغامرات والمكائد التي تتميز كل منها باستقلاليتها عن الأخرى ولا يربط بين مجموعهن سوى شخصية البطل .

قصة جيل بلاس دى سانتيان (١٧١٥ - ١٧٣٥) (Gil Blas de Santillane) للروائى لوساج (Le Sage) على سبيل المثال تدور في اسبانيا وعلى طول الاثنى عشر جزءا التى تقع فيها الرواية يتعرض البطل (Gil Blas) لمغامرات عديدة عنيفه متباينة الأحداث .

واستلهاما من نموذج « البيكارسك » اختار كاتبنا الفرنسي اسبانيا مسرحا لأحداث قصته ، غير أنه يندر أن يظهر الأغراب بها ، فأسبانيا في القصة قناع تخفى وراءه نقده اللاذع لفرنسا .

ويقدم لنا لوساج (Le Sage) فى قصته صورة لتقاليد مجتمع الصالونات وللتقاليد البورجوازية والقروية الفرنسية .

وتنقاد شخصية جيل بلاس (Gil Blas) في تيار سريع من الخطوب ودوامة من الأحداث لتصبح حياته مغامرة مستمرة مقاليدها فى يد الظروف التى يتعرض لها . ونشأة بطلنا متواضعة ، فعلى ظهر دابة مسنة يملكها عمه ، رجل الدين ، يغادر جيل بلاس (Gil Blas) أوفيدو (Oviedo)، البلدة التى شهدت ميلاده ، ليقطع اسبانيا طولا وعرضا ويحوزته أربعون دوقة لتبدأ مغامراته مع أولى خطواته خارج منزل أسرته .

ويستولى سائل على نقوده ثم يخدعه طفيل ويقتاده اللصوص أسيرا فى مجاهل الغابة . ويفر جيل بلاس (Gil Blas) هاربا ليجد نفسه سجينا في سجن « استورجا » (Astorga)بسبب خطأ لم يرتكبه ، ويستقر رأى جيل بلاس (Gil Blas) على صرف النظر عن الدراسة بجامعة سلامنك (Salamanque) التى كانت تمثل هدفه الاصلى ، ويقرر العمل خادما ليجوب الطرقات حرا طليقا كسابق عهده حيث يلقى عددا من المحتالين ومثلهم من الشرفاء . ويلتحق جيل بلاس (Gil Blas) بخدمة العديد من السادة المتباينين ظروفا وطباعا ، فهو تارة طاهى وتارة أخرى ممرض وأحيانا كاتم للاسرار واحيانا اخرى سكرتير الخ ، ويخدمته لعدد من الشخصيات الهامة ذات النفوذ يرقى جيل بلاس (Gil Blas) درجات المجد والثراء حتى انه يتمكن من امتلاك قصر في أسبانيا ويتزوج ابنة أحد مزارعيه .

ويفقده زوجته يعود الى طريق المغامرة وينتهى به الحال الى ان يصبح سكرتيرا للدوق أوليفارس (Olivares) وبعد سبعة عشر عاما فى هذه الوظيفة يعتزل العالم نهائيا ليعيش فى هدوء وعزلة .

ولا شك أن حيوية النص وتنوع أحداثه تقرب قصتنا هذه من أدب الرحلات والمغامرات كما تقربها غزارة العبارات وروح النقد من القصص الاخلاقية . وتصور لنا هذه القصة كافة ظروف الحياة الانسانية ، فحياة السفر والقصور والبورجوازية وحياة القرية تتلاقى معلنة بجيء القصة الواقعية مع ديدرو (Diderot) .

أضف الى ذلك أن هذه القصة التي تتخذ من اسبانيا إطارا لأحداثها تتكرر في قصص أخرى مثل قصة « الفلاح الوصولي » (Le Paysan Parvenu) لماريفو (Marivaux)١٧٣٦ وهي تتخذ من فرنسا مسرحا لأحداثها .

وبصفة تقريبية نجد ان هذه الرواية تحذو حذو قصة جيل بلاس (Gil Blas) فجاكوب (Jacob) القروى الساذج الذي يدهش لكل شيء يتمتع بسعادة بالغة على حياة الترف والتمتع الحسية الدقيقة التي تقدمها له العاصمة باريس .

ويستغل هذا الفتى ذو التسعة عشر ربيعا ملاحته ويصل الى أهدافه بواسطة إعجاب النساء به ، وهو لن يعدم وسيلة للارتقاء في هذا المجتمع . هذا الأخير كما يشير الى ذلك عنوان القصة يدهش لكل ما تقدمه له باريس ، وسرعان ما يبدأ في تبني سلوك تهكمى ، ولذا يصبح له دور في اللعبة الاجتماعية .

وتدور قصة (Le paysan parvenu) « الفلاح الوصولي » كسابقتها جيل بلاس دى سانتيان (Gil Blas de santillane) حول محور التقابل بين الخادم وسادته . والتكوين الروائي في قصة ماريفو (Marivaux) يقابل القروى بساكن الحضر ومتع الريف بفساد المدن ؛ ولجاكوب (Jacob). الذي اختار « سيد الوادى » اسما يناديه الباريسيون به ، مداخله الى صفوة القوم في باريس . وقد أمده ثراؤه بنوع من السلطة والثقة بالذات ، غير انه لم يستطع التكيف مع عادات علية القوم ، ويبقى في داخله احساس بغربته عن هذا المجتمع ؛ ورغم اعتلائه قمم المجد والجاه يفشل جاكوب «(Jacob) في تغيير طبيعته وسلوكه ، وتصرفه هذه الاستحالة عن المحاولة فيعود الى الريف حيث يمكنه أن يجد ذاته ويبقيها على سجيتها ، وقد تبين لجاكوب بعد اختلاقه الى هذه المجتمعات وولوجه فيها ان فسادا خفيا يخلف كل شي ، كما اكتشف ان كل من يحيطون به يمثلون الدناءة والحقارة وقد ابتعد ماريفو (Marivaux) بذلك عن « الوقاحة » المرحة غير المؤذية التي يتميز بها الافاق في أدب البيكارسك »

●●●

بعد استعراضنا لبعض مواصفات رواية « البيكارسك » التي تتخذ من السفر والارتحال محورا لها سوف نتعرض بالتحليل لقصة فلسفية وهي قصة « جاك القدري وسيده » (Jacques Le Fataliste et son Maitre) (١٧٧٣) لدينس ديدرو (Denis Diderot) لبيان الاهمية التي أوليت للرحلة في الفكر الفلسفي في القرن الثامن عشر .

وتدين هذه القصة بالكثير الى رواية « البيكارسك » الانجليزية والفرنسية ويمكننا ذكر « تريسترام شاندى » (Tristram Shandy) للكاتب ستيرن (Sterne) كأحد مصادر الهام ديدرو (Diderot) الخاصة بهذه القصة . وقد ضمن هذا الاخير قصته افكاره الفلسفية ، ولم يأل جهدا في تبيان إنكاره لرواية المغامرات التي تنتمي اليها قصته .

ومن العسير حصر هذه القصة في نوع محدد من أنواع الرواية ، فنصها به عناصر الحكاية الخيالية والاساليب الفنية للقصة والمسرح والتصوير ، كما انها تتميز بثراء وتنوع كبير . وتضيف الاستطرادات هذه الرواية بُعداً اضافيا وعمقا خاصا .

ومن خلال قصته هذه يظهر لنا ديدرو (Diderot) ككاتب واقعي وفيلسوف ومصور لعادات واخلاقيات عصره في آن واحد ، ويختار كاتبنا أجواء اجتماعية متباينة اطارا لموضوعه مضيفا اليها بُعدا فلسفيا واخلاقيا .

وتفيض هذه الرواية بحيوية وديناميكية ويتجسد لنا من خلالها عالم مركب متعدد العناصر يشبه الكرنفال . وتجد هذه العناصر المتعددة والمتناقضة للوهلة الاولى التي نسج منها المؤلف قصته ، نظيرا لها فيما يسميه ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) في دراسته عن دستويفسكى (Dostoievski) « الرؤية الكرنفالية للعالم » . (١)

ويحدد تأثير الكرنفال على الادب قبل كل شيء المساحة الكرنفالية التي تقع كما في رواية « البيكارسك » خارج الحدود المعتادة . من هنا تبدو لنا الاهمية القصوى للارتحال وهو المحور الرئيسي للرواية محل دراستنا ، فالاسفار تعطي للشخصيات فرصة اللقاء الحر والاتصال وتوطيد علاقات من

(١) — Mikhail Bakhtine ' La Poetique de Dostoievski ' Seuil, 1970, p 159.

نوع خاص على غرار تلك التى نلقاها فى الكرنفال ، وتتميز الشخصيات الكرنفالية بالطلاقة وحرية غير محدودة . فتصرفاتهم وحركاتهم تجد في الكرنفال تلقائية لا نلقاها في عداه . وهم يصبحون بذلك « ومن وجهة نظر المنطق المعتاد والمألوف شواذا وغريبى الاطوار . » (٢)

ولما كان الكرنفال مجالا خصبا للحرية واعمال الخيال فكل قلب للنظام الاجتماعي يصير فيه أمرا عاديا نظرا لارتباطه بالرؤية الشعبية للوجود ، وبالتالي يمحى فيه كل تدرج اجتماعي لتنشأ بدلا منه علاقات ملائمة لطبيعة الكرنفال . هذه العناصر الكرنفالية التى أوجدها موضوع الارتحال لا يمكنها بالتالى النشوء والاستمرار الا في جو عام يسوده المرح والغبطة ، فهناك تنطلق الضحكات التى يكون مبعثها إما التهريج المبتذل أو المحاكاة الساخرة . والادب الكرنفالى على غرار الكرنفال ذاته يخالف مكانيا أى مجال تقليدى . فهذا العرض « بدون مطلع درج » (٣) يشاهد ويمثل في مكان عام ، في الشوارع والطرقات ويمكننا القول في مكان مفتوح تسود الألفة والحرية فيه بين البشر . ولا شك أن هذا الجو من الألفة قد أثر تأثيرا قويا على إبتكار شخصية « جاك القدرى » **(Jacques Le Fatalist)**، ويصرح المؤلف بذلك في الصفحات الاخيرة لقصته :

« كانت نهاية رحلتهم وشيكة بما لم يمكن جاك من اعادة قصص حبه » (٤)

وفي قصتنا يبدو لنا موضوع السفر الشائع في مؤلفات القرن الثامن عشر في صورة مغايرة تماما للمألوف . فالواقع أن القارىء لا يدرك من خلال النص بداية رحلة جاك وسيده أو مسارها أو نهايتها ولا يمده المؤلف بأى ايضاح في هذا الشأن :

« من أين جاءا ؟ من أدنى الاماكن وأقربها . والى أين هما ذاهبان ؟ أيدرك المرء وجهته ؟ (٥)

وتبقى مراحل النص واضحة المعالم وكذلك طبوغرافية الاماكن مما يحمل القارىء على شاكلة البطل في العمل الادبى هائما على وجهه في ترحال لا بدء له ولا نهاية . وتدور القصة فى أساسها حول سفر

---

(٢) — Ibid, p 170.
(٣) — M. Bakhtine, op. cit. p 170
(٤) — Denis Diderot, Oeuvres Romanesques, Edition de Henri Benac, Garnier Freres, 1962, p. 767.
(٥) — Ibid. p. 493.

السيد وتابعه جاك الذي يروي مغامراته العاطفية ليقطع الوقت . وتحول الاحداث العديدة التي يتعرضون لها وكذلك روايات الاشخاص الذين يلقونهم دون استرسال جاك في سرد قصته . ويشكل جهل جاك وسيده بالطريق وتعرضهم للتقلبات الجوية والدروب غير الممهدة حائلا آخر دون المضي في السرد ، فكم من مرة عاد جاك وسيده أدراجهما بحثا عن ساعة أو حافظة فقدت منهما . ويعد السفر هنا بالنسبة لديدرو (Diderot) ذريعة يبرز من خلالها أهمية المناظر الطبيعية في الريف وكذلك بؤس القرى في القرن الثامن عشر . ففي عام ١٧٥٠ كان الفلاحون في فرنسا يمثلون عشرين مليونا من مجموع السكان الذين يتراوح عددهم بين ثلاثة وعشرين وأربعة وعشرين مليونا . ويوضح لنا هذا معالم فرنسا وقت ظهور قصتنا هذه . ومن ثم تصبح رواية « جاك القدري » (Jacques Le Fata-liste) وثيقة شاهدة على سنوات البؤس وأزمة ١٧٧٠ التي هزت الاقتصاد الفرنسي .

ويصور لنا ديدرو (Diderot) من خلال سفر الشخصيتين الرئيسيتين في قصته حال عصره . فالقارىء يلتقي بادىء الأمر بالفلاحين الذين يدركون سوء وضع قراهم ، فقد حدث أن أصيب جاك في ركبته وتولت قروية تضميد جراحه في كوخها وسمع بطلنا «زوج القروية يلومها على استضافتها إياه :

« انه عام سيء ومن سوئه نكاد بالكاد نكفي حاجتنا وحاجة أطفالنا ، فالحبوب باهظة الثمن ولا يوجد نبيذ وليس هناك بجانب هذا كله فرصة عمل » (٦)

وتسود البطالة ويصبح الفلاحون أكثر الطبقات احساسا بوطأة البؤس فهم يستدينون ويلاحقهم الدائنون بلا هوادة أو رحمة .

وفي فندق الوعل الكبير « حيث نزل جاك وسيده ، لقي الاثنان فلاحا من نوع آخر ، يدل مظهره على سعة ذات اليد فهو يملك خيولا وماشية ومحراثا ، غير أن سوء المحصول ألجأه الى الاستدانة وأثقلت الضرائب كاهله حتى بات عسيرا عليه أن يجد مخرجا من حالته هذه .

ويلاحظ جاك انه في هذه الظروف العصيبة ينخفض معدل الوفيات وتحدث دفعة ديموغرافية قوية تزيد من حدة الموقف في الريف الفرنسي . وتدفع غريزة البقاء الفلاح الى التنقل وتغيير مهنته أو بلدته

(٦)
—Oeuvres Romanesques, p. 757.

ويتبع ذلك هجرة واسعة من الريف . ونتيجة لذلك تتمزق الاسرة . أما الفلاحون الذين يبقون في قراهم فسوء الحال يوصلهم الى الشحاذة والسرقة وفي بعض الاحيان الى القتل للوفاء بالتزاماتهم واحتياجاتهم . ويخشى اللصوص وقطاع الطرق الريف ويقع جاك فريسة لثلاثة محتالين يسلبونه كل ما يملك .

ونظرا لندرة السلع أصبح وجود الصائدين في الخفاء طبيعيا ومقبولا فحين يتوقف جاك وسيده بعد سفر دام أربعة أيام عند نزل يجد ان فيه كل ما يشبع فيها شهية أضناها صوم لاخيار لها فيه ، وتعزو صاحبة الفندق وفرة هذه الاشياء الى وصول الصائدين الذين يعملون في الخفاء .

وتدل وقفات جاك وسيده على خصائص وسمات الريف الفرنسي ، فحين تقودهم أقدامهما وسط الحقول أو على قارعة الطريق نجدهما يفيضان شوقا الى الافضاء باعترافاتهما الى اللقاءات المتنوعة . وغالبا ما تكون هذه الوقفات في فنادق وملاهي ، الا انها أحيانا ما تكون في اماكن لا تتميز بخاصية فيما عداها كالوكر على سبيل المثال .

وتصبح هذه الاماكن شاهدا على ما يروى من قصص تتلاحق فيها الأحداث ويتعدد فيها الرواة .

ونسوق مثالا على ذلك النزل الذي تجمع أمامه حشد من الناس يستمعون بشغف لحلاق يحكي قصته السيد لوبللوتيه (Le Pelletier) وكذلك الملهى الذي كان مسرحا لحادثة القروية ذات الجرة المكسورة والوكر الذي ألجأ ارتفاع منسوب المياه في الترعة اليه المسافرين ليستمعوا لقصة مدام لابومريه (Mme de la pommeray) الغريبة .

وفي هذه الاماكن المفتوحة التي تستقبل كافة الرواد يشترك الجميع في الاحتفال . وهذا النوع هو الموضوع الذي يتفرد السفر بتقديمه الى الادب ويلاحظ تودوروف (Todorov) أن :

« السفر يسمح للكاتب بربط كافة المواقف مع ابقاء البطل الواحد (وظيفة أولى)

للتعبير عن انطباعاته عن كل الاماكن التي ترد في كتابه (الوظيفة الثانية) وكذلك تقديم نماذج ما كان النص ليستوعبها بدون الارتحال (الوظيفة الثالثة) » (٧)

---

(٧) — Tzvetan Todorov, Therie de la litterature, Seuil 1965, p. 20.

وفي قصتنا هذه تظهر الوظيفة الثانية ، فالكاتب لا يسهب في وصف الاماكن التي يقف عندها بطله أما الوظيفتان الاولى والثالثة فينالا كل الاهتمام .

ويعد « جاك » بطل القصة بدون منازع يحيط به العديد من الشخصيات المتباينة طباعا والمختلفة من حيث المستوى الاجتماعي ونوعية المغامرات ، ويطور الكاتب شخصياته بسهولة ويسر في جو كرنفالي . ويبقى المؤلف قريبا من الاجواء المحيطة ، فأحداثه مسرحها اطار معروف لدى معاصريه وهو لا يبتعد عن الحياة اليومية ، فغايته تجسيد كافة نماذج الشرائح الاجتماعية في عصره بالشخصيات التي يقدمها والتي يواكب فيها الارستقراطي رجل الدين ويدانيهم أناس يشغلون كافة الوظائف والمهن .

ويتخلل الصفحات بذلك عرض حقيقي لشخصيات وحرف متعددة . فالحلاق يصبح راويا يحكي القصص الغريبة ليسل بها المغفلين ويجتلب بها زبائنه وتستوقف رواياته المتسكعين في الطرقات فيستمعون له في شغف ودهشة .

وفي موقف آخر يلتقي جاك ببائع متجول يذكي بضاعته ويحاول إغراءه بشراء ساعة من الذهب . وكم كانت دهشة جاك حين عرف ساعة سيده فخطفها ولاذ بالفرار يتبعه البائع صائحا وجامعا الناس حولها . ويمثل الاثنان أمام النائب العام الذي يقضي بالعدل حاميا بذلك بطلنا جاك . وتتعدد الشخصيات الكرنفالية فنجد الخياط وصانع الاقفال والحلواني وغيرهم . وهكذا يقدم لنا المؤلف صورة لمجتمع القرن الثامن عشر مع ابراز خصائصه .

●●●

وتتمتع الشخصيات الكرنفالية بحرية كاملة في الفكر والتعبير والحركة ومن هنا تبدو فريدة في نوعها . ويجسد جاك البطل الرئيسي في روايتنا الشخصية غريبة الاطوار على أفضل ما يكون . فخارج الجو الكرنفالي نجده تابعا لسيده .

أما في المجال الكرنفالي فهو « المجنون » الذي يوجد ترابط بين افكاره وعباراته واتجاهاته (٨) وجدير بالذكر اننا لا نعني هذا الجنون بمعناه الحقيقي وانما بالمعنى الذي ساقه هيجل :

(٨) يعزو ميشيل فوكو ان المجنون في القرن الثامن عشر يعود الى وضعه كشخصية اجتماعية ويفقد الناس للمرة الاولى ويسخرون منه والجدير بالذكر ان المجنون يعود ويفقد ليأخذ مكانه في الصورة الاجتماعية ثانية .
— Michel Foucault, Histoire de la Folie a l'age classique, Gallimard; 1972, p. 372.

« ليس الجنون فقدانا كاملا للعقل وانما مجرد تناقض » (٩)

وقد مارس جاك عدة مهن ولعب ادوارا متعددة ، فقد كان على التوالي جنديا وفلاحا وتابعا لسبينوزا (Spinoza) ورسولا للصهباء .

ولما كان قد أجبر على التزام الصمت في طفولته(١٠) فقد أصبح ثرثارا مدركا لعيبه هذا بل وفيورا عليه ممن يفوقه ثرثرة مثل مضيفة الفندق . غير ان فعله يعادل قوله ، وعشقه للعمل معين لا ينضب فهو يصنع الحديث ويرويه بطريقته وكما يحلو له .

ويزاوج جنون الثرثرة لديه جنون الخيال ويوصف في ذاته بالجنون فهو يستعيض عن الحضور بالغياب .

وهكذا يطلق جاك خياله العنان كما في حادثة المشانق التي ينصبها رجال الاقطاع أو يرى أشياء لاوجود لها . ويجسم خيال جاك له الاحداث ويغير الكثير من أبعادها مما يقصيه عن عالم الواقع المحيط به .

وتجمع شخصية جاك كافة التناقضات الانسانية فهو يدعي حق التفكير وصياغة الحقائق مهما كانت درجة تناقضها . ويلفت نظره الى الامر بحكمة :

« قد لايكون على الارض رأس بها قدر التناقضات الموجودة برأسك »(١١) وكل شيء ممكن بالنسبة لجاك حتى أكثر الامور تطرفا ، ويكاد يكون الحد الفاصل بين العقل والجنون لديه واهيا حتى لاتقول معدوما . وكذلك فالتغيير بينهما تعسفي فكما يقول « يتبع المرء هواه الذي يسمونه عقلا أو عقله الذي عادة ما لايكون سوى نزوة على شيء من الخطورة . »(١٢)

ويطرح جاك كما يطرح الكاتب في رواية « ابن أخ رامور (le neveu de Rameau) مشكلة الشخصية :

---

(٩) — Philosophie de l'esprit, Germer Baillère, traduction Vera, 1867, p. 37

(١٠) وكان ذلك بطريقة غير مألوفة فقد كان يقطع الوقت بالصمت ويضع في حنجرته وافقا على فمه كمامة .

(١١) — Oeuvres romanesques, p. 545.

(١٢) — Ibid., p. 503.

« هل يكفيني الا أكون أنا ؟ وحينما أكونها هل يكفيني تغيير ذاتي ؟ أو أكون أنا والآخر [١٣] فهو على التوالي ذاته والآخر . ولقد قضى دور المجنون والمهرج هذا على وحدة شخصيته [١٤] وجعله يعاني من ازدواجية داخلية [١٥] ويحول اغترابه عن ذاته دون كونه « ذاته » وهي عملية يشير اليها(Derrida)في كلماته هذه :

« بادخال وجود آخر على الذات تعرضها للتقلب والتغير » [١٦]وكنموذج لعدم الاذعان « يعيش « جاك » ويعايش» حياته بكل حدتها . وهو في سبيله لتحقيق ذلك يطبق فلسفة شخصية وتصفية تعسف الحياة نفسها .

ولكن الم يلتفت اليه سيده لصفات المرونة والندرة التي يتسم بها ؟ فهو يلقي على الحياة نظرة بعيدة وقصية عن الافكار ويتخطيه لكل المألوف والمتفق عليه يقضي على رتابة الحياة ذاتها .

وعلى النقيض منه تجد أن سيده رجل التقاليد والقوالب ، فهو يستخدم العبارات التقليدية حتى تؤكد له التجربة خطأها . فتراه على سبيل المثال يردد لنفسه عبارة : « انه في كل الاحوال هو السيد » وقد اعتاد الوقوع في الخطأ وغالبا ما يكذب حدسه فهو لا يرى الامور الا من زاوية واحدة . وفي الوقت الذي تثري فيه عبارات جاك بعدة معان تجد أن حديث السيد معنى واحدا ولهذا تجده يحد من حرية جاك في القول ويتهم جاك بعدم جدوى قول كهذا :

« أليس لكل انسان طباعه ومصلحته وذوقه وأهواؤه التي تحدد لنا اذا كان يبالغ أو يهون من الامر »[١٧]

وتصاحب آليه الحديث عند السيد آليه في الحركة فقد يتميز بتكرار حركات ثلاث : الاستنشاق بالتبغ والنظر في الساعة واغراق جاك بالاسئلة .[١٨] .

---

(١٣) يرى جاك [illegible] .

— Ibid., p. 498.

Sagesse et Morale dans Jacques le Fataliste dans " The Age of Enlightment " , Malanges Besterman, Ed. Andrews, Oliver and Boyd, 1967 p. 178.

(١٤) في رواية (Le Neveu de Rameau) [illegible] .

Denis Diderot, Oe uvres Romanesques, p. 406.

(١٥) [illegible] (Sancho) [illegible] Ibid., p. 553.

(١٦) —Jacques Derrida, De la Grammatologie,Les Editions de Minuit, 1967, p. 221.

(١٧) —Oe uvres romanesques, p. 544.

(١٨) [illegible]

وتتسع دائرة الشخصيات الكرنفالية وينضم فيها الى جاك وسيده نماذج غريبة من المتوهين . فلو بللوتييه(Le Pelleti)تتملكه عادة الاحسان الى حد أن المحيطين به يعتبرونه مصابا « بنوع » من الجنون فقد أمسى معدما بعد ثرائه نظرا لانه كان يحسن الى الناس بدون تمييز ، حتى لقد وصل به الامر الى التسول ليتمكن من الاحسان الى الآخرين .

أما جوس (Gousse)فهو شخص غريب الاطوار لايعرف له مبدا[١٩] ومصاب بنفس داء لوبللوتييه . فهو أسير لعادته نجده لايتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح لنفسه ببعض الغش لتعويض نقوده . ونسوق هذا مثالا على غرابة أطواره فهو يرفع قضية على نفسه ويكسبها ويجد نفسه رغم ذلك في السجن .

وتتسلط على بونديشيري (Pondichery) فكرة كونه شاعرا ولا ترده رداءة ابياته عن فكرته فهو أسير لعادته نجده لايتردد في اعطاء كل ما يملك الى المعدمين ويسمح رداء أبياته عن فكرته هذه ولا يدري هو نفسه سببا لتسلط هذه الفكرة عليه بيدانه يرد على لائمية لرداءة أبياته بقوله : « بما أنني غير مستطيع منع نفسي من كتابتها فلا مفر لي من الابيات الرديئة . »[٢٠]

لم يحقق كل من القائد جاك وصديقه ذاتيهما الا من خلال مبارزات مستمرة ، الا أن كلا منهما كان يحب الآخر ، ولكن أبسط الأمور تدفعهما الى شهر سيفهما ، كما كانا يتصفان بكل ما يحتاج اليه القائد الماهر من صفات وكان ذلك موضع جنونهما .[٢١]

وتتملك الشخصيات الأخرى انواعا متباينة من الجنون مثل جنون الرغبة لدى الأب هدسون « الوحش ذو الطاقة » والمركيز ديزارسيس أو مدام دي لابومريه التي تتميز بحدة متطلباتها . وتطغى على الأب هدسون :

« الرغبات العارمة وحب لا يكبح جماحه للتمتع والنساء »[٢٢]

---

(١٩) — Oeuvres romanesques, p. 555.
(٢٠) — Ibid, p. 527.
(٢١) ويعد دهلاك مبارزا عنيدا لا يهدأ له بال حتى يقتل غريمه
— Oeuvres romanesques, p. 557.
انظر الى Ibid., p. 754.
(٢٢) — Ibid., p. 673.

وتشكل اللذة احدى ركائز حياته مما يجعل من رغبته العاطفية رغبة واحدة متسلطة عليه فلا يدخل شيء في حسبانه الا الايقاع بالنساء واغرائهن ، كل النساء واشباع حواسه ويماثل المركيز دايزرسيس الاب هدسون في تحول عاطفته وولعه الى هوس ، وليا غدا موضوع رغبته لاوجود لشيء في حياته أو أفكاره ، ويتحول ولع مدام لابومديه بالمركيز دايزرسيس الى غيرة جنونية وتتملكها رغبة في الانتقام منه ويصبح جنونها في ذهنها علامة قدرة . فكل قواها المدفونة سوف تستغل في تحقيق هدفها الماكيافيللي وسوف يمكنها بذلك أن تعيش انتقامها بكل حدته . ولا يوجد تكافؤ بين الدافع وهو هجرانها وبين حدة انتقامها .

وكما في حالة الاب والمركيز ديزارسيس نجد أن الرغبة تحجب الرؤية عن مدام دي لابومديه ولن تعي هذه الشخصيات حدودا لافعالها . وبما أنه لاحدود للجنون فكل السدود والحواجز تنهار أمام المسار الاعمى للرغبة الجامحة والغيرة[٢٣] .

ويقلق الأبناء غير الشرعيين دائرة الشخصيات الكرنفالية . فوجودهم خارج الدائرة يجعل هناك بينهم وبين المجانين وغريبي الاطوار المنفصلين بطبيعتهم عن المجموع وليس ابن الشكلي ديجلان (Desglands) ابنا غير شرعي فحسب ولكنه أيضا صعلوك وغريب الاطوار فقد أنهض بصراخه ذات ليلة ، كما يسوق لنا جاك ، كل أفراد القصر بما فيهم حارسه العجوز الثقيلة الحركة :

« جيء بالحارسة فخطوها البطيء ما كان ليحيها على قطع الطريق بسرعة ولما اجتمعنا أراد منا أن ننهضه ونلبسه ثيابه وأن نذهب به الى قاعة الاستقبال الكبرى ليحتل مقعد والده الوثير . وأبدى رغبته في أن يمسك كل منا يد الآخر راقصين في دائرة » . [٢٤]

وجاء الى الوجود طفل آخر غير شرعي نسب لفرط الشبه بينهما الى الأخ جون ، فقد اعتاد هذا الاخير أن يزوج فتيات قريته وقد تمرس في هذا العمل حتى أن احداهن أنجبت :

« طفلا ممتنا يشبه الأخ جون كما تتشابه نقطتا ماء » . [٢٥]

وليس ابن الآنسة أجاثا (Mlle Agathe) والفارس سان أوان ابنا Saint ouin002tdv غير شرعي فحسب ولكنه مبتور الصلة بأبويه فقد نام على تربيته ويباشره السيد . [٢٦]

---

(٢٣) يلاحظ أن ديدرو (Diderot) يرونا في المهلة الروية التي يصفها بوضوح في نكرة الهيروسي خلافات صدفة وحب وغيره كلها أحدث بلذات الغدة التي يصفها بها . وانعكس حياة حافلة بالأحداث .

(٢٤) — Oe uvres romanesques, p. 751.

(٢٥) — Ibid., p. 535.

(٢٦) انظر أيضا الى الابن غير الشرعي الواعي الذي لا يملك الشيء في الوجود من العلاقة الوحيدة بين الراهب (Hudson) هدسون ومدام دي لا بومراي

Oe uvres Romanesques, p. 684.

وكالمعهود في الشخصيات الكرنفالية نجد أن حرية النماذج التي تتعرض لها في التصرف والحديث تصاحبها حرية في الحركة ، ومن ناحية المدلول الرمزي نجد أن للحركة في الرواية أهمية كبرى ، فهي إما مكملة للقول أو مستعاض بها عنه . وفي كتابه « تقريظ ريتشارد سون » (Elogesur Richardson) يصرح ديدرو : (Diderot)

ان الحركة أحيانا ما تكون رفيعة ومعجزة مثل الكلمة »[٣٧] وتصبح الحركة من هنا رمزا لحرية الاجسام وعكسا بديهيا لأفكارومشاعر الشخصيات . وتأثر بدكارت (Descartes) اللذي تستند نظرية التعبير في القرن الثامن عشر الى مذهبه : توافق حركات الوجه العضلية واحتمالات النفس . »[٣٨]

وبواسطة الحركة يتحول الصمت الى حديث يكشف غموض الافكار ويبرز الانفعالات . وتتدرج الحركة من مجرد التغيير في قسمات الوجه أو عبوسه الى حركة الجسم ككل . ويعتبر اكفهرار أو اشراق وانبساط أساريره مرادفا للطبيعة ذاتها ، ففي اسطورة الخلق هناك توافق بين تعبير وجه الطبيعة وتعبير وجه مخلوقاتها .[٣٩]

ويجسد جاك الرجل « الطبيعي » اللذي لايعرف أي عقبة فهو يطلق الجماح لحركاته ويعبر عنها كاملة . ونسوق مثلا لتعبير وجهه عن الامتعاض حين تذوق الخمر الرديئة . وفي مواقف اخرى نجده يحك جبهته وينفض أذنيه تعبيرا عن حيرته . وتنطق بالحركة معالم الوجه ويستعاض بها عن الكلام وتظهر بواطن الافكار . وقد يستعان بالحركة أحيانا بين اثنين للتخلص من ثالث كذلك الموقف اللذي لم يرغب فيه السيدان بسمعه جاك : «

« أشار السيد الى المضيفة اشارة فهمت منها أنه ليس على ما يرام وان بذهنه خلل . »[٣٠]

وتغني الحركة عن التعليق وتفسر بصورة مباشرة وبدون اللجوء للكلمات فكر المتحادثين ، وفي رواية (Gacques le Fataliste) نجد أن لحديث الايدي أهمية كبرى في أداء نوع من التمثيل الصامت والافصاح عن مشاعر لاتشير اليها الكلمات كاحساس الخزي ومثال ذلك اخفاء مدام ديزارسيس (Mme des Arcis) وجهها بيدها أمام زوجها . وقد تستخدم الأيدي كقناع تتوارى

---

(٣٧) الأعمال الجمالية — Oeuvres Esthétiques, Garnieres, 1959 p. 35

(٣٨) — G. Matoro et A. J. Greimas : " La naissance du genie au XVIII eme siecle " نشأة العبقرية في القرن ١٨ in Le Francais Moderne Oct. 1957, p. 271.

(٣٩) نشير هنا الى ابن أخ رامو (Le Neveu de Rameau) [illegible]
— Op. Cit., p. 487.

(٣٠) — Ibid., p. 598.

خلفه الاحاسيس الحقيقية أو تفصح عن قلق ونفاذ صبر كما في حالة السيد حين استيقظ قبل جاك ورغب في أن ينهض هذا الاخير فلم يتورع عن لكزه بيده ليوقظه .

ولجوء بعض الرجفات والعادات الصغيرة لتبرز الانفعالات المختلفة ونسوق أمثلة لها فمنها فتح السيد وغلقه لعلبة تبغه تعبيرا عن سأمه ووحدته بدون جاك وكأن حركته علامات وقف للزمن دقيقة بعد أخرى حتى يغلبه النعاس .

وفي حين أنه يأخذ نشيقة من علبته وينظر الى ساعته تعبيرا عما يعتمل في نفسه اثر سرد جاك لحكاياته تجد أن حركاته وهو يستمع للمضيفة لايبعث لها سوى العادة . وغالبا ما يكون الجسم كله وحركته تعبيرا عن ديناميكية الحياة ذاتها ، فالشخصيات تتحرك وتجتاح المساحة المخصصة لها بل وتنفشاها .
وقد يعبر بالجسم عن السأم كما يبين لنا ذلك المركيز ديزارسيس الذي مل زيارة مدام لابوريه :

« كان يتلفظ بكلمة ثم يستلقي في المقعد الوثير وتعبث يده بنشرة مكتوبة لم يقلف بها ليحادث كليه أو ليغفو . » (٣١)

وعلى عكس ذلك البطء المعبر عن الملل تجد أن حركات الجسم السريعة تبرز العجلة وحيوية العلاقات الانسانية . ويجسد لنا ذلك اندفاع جاك نحو منقذه وعناقه المتكرر له . وفي الكرنفال يترجم الجسم المتغير الشكل ، الذي عرف كيف يعبر عن السعادة مشاعر الألم .

فالقروية تشد شعرها يأسا أمام جرتها المكسورة وتشبه في حركتها هذه جوستين التي تشهد مشهدا قريبا : -

« انتزعت غطاء رأسها وشدت شعرها ورفعت عينيها الى السماء » (٣٢) وتعبر هذه الحركات العنيفة في ذروتها عن مخاوف يصعب التغلب عليها والحركات التي تفصح عن وجود الانفعال تخفيه أيضا . فهي تواري الغش والنفاق وتخفيها وتصبح بذلك أداة ضرورية للشخصية الكرنفالية . فنحن نرى على سبيل المثال القس هدسون (Hudson) المتهم لأسباب واضحة بخطف بائعة الحلوى يدافع عن نفسه أمام "وجها وقويا مردفا عبارته بحركات ذات الايجاز الدقيق . فحين تدق الاجراس :

(٣١) — Oeuvres Romanesques, p. 608.
(٣٢) — Oeuvres Romanesques, p. 697.

« يفرض هدسون على المجتمع الصمت ويخلع قبعته راسما بيده على صدره صليبا . »[٣٣]

ويصبغ الجنون هذه الشخصيات المنتمية لأوساط اجتماعية متباينة والمتميزة بطبائع مختلفة فلا يمكن ادراجهم بين الشخصيات الطبيعية اذ أن لكل منهم خاصية منفردة . ويقرب انفرادهم وتميزهم بينهم رابطا اياهم بوثاق حب التظاهر والمفاخرة سواء على مستوى التصرفات أو الحديث أو الحركة . وبذلك يتضح لنا أنه على حين يبدو العمل الادبي متشعبا تشكل الشخصيات رابطا موحدا له بذلك الجنون الذي يجمع بينهم .

وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . وهذه الشخصيات جاذبة فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية التي لايمكنها التحكم في ذاتها وينبعث منها نوع من المغناطيسية لايمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال وهم بذلك يضيفون نوعا من التوازن والاستمرارية على العمل . وهذه الشخصيات جاذبة فهي عميقة ومتقلبة تماما كالشخصيات الكرنفالية لايمكنها التحكم في ذاتها ، وينبعث منها نوع من المغناطيسية لايمكننا تجاهلها في انجذابنا نحو دوامة الكرنفال ونزيد على ذلك أن هناك علاقات كرنفالية سوف تنشأ بين هذه الشخصيات المتباينة .

ويسود الرواية من بدايتها نوع من عدم التناسب وعدم التوافق . ويعلن عنوان القصة في وضوح عن وجود من الديالكتيكية بها . « جاك القدري » وسيده (Jacques le fataliste Et son maitre) فالعنوان يرسم المعالم الرئيسية لطبيعة العلاقات بين الاثنين ، بين جاك وسيده ، وبين الخادم والسيد ومنها الى العلاقة بين السيادة والعبودية وهذه العلاقة القائمة على التبعية المتبادلة يبرزها الكاتب مؤكدا على كونها .

« لايصلحا ولا يحسنا شيئا إلا معا ولا قيمة لهما متفرقين تماما مثل دون كيشوت وسانشو »[٣٤]

فعلى غرار ما يفعله سانشو يعارض جاك سيده ولكنه يصبح فيما بعد مساعدا له . والسيد بدون جاك كالانسان الآلي وجاك بعيدا عن سيده يغرق نفسه في أكثر المغامرات جنونا وتؤثر تبعية كل منهما للآخر على سير حياتهما ونمطها .

---

(٣٣) — Oeuvres Romanesques, p. 674.
(٣٤) — Oeuvres Romanesques, p. 533.

وكلمة سيد تقيم علاقة سيد بعبد ، فالسيد هو الذي يأمر وينهى تابعه ؛ ومن ناحية أخرى فالسيد يتجاوز بمعلوماته وعلمه تابعه وهو بذلك يلقنه المعرفة . وفي كافة الاحوال نجد ان فكرة عدم المساواة سائدة وكذلك فكرة قلة شأن التابع بالمقارنة بسيده . فكما تقضي وظيفته نجد أن جاك يتنقل بين أكثر من سيد حتى يستقر به الحال مع سيده الحالي .

وفي بدء الامر نجد أن بينها علاقة سيد ومسود فكلاهما يحترم القوانين التي يفرضها التدرج الاجتماعي . فجاك على سبيل المثال يستخدم في مخاطبته لسيده لفظ الجمع دلالة على الاحترام ، على حين تثبت حرية انتقاء السيد لألفاظه في محادثة جاك .

وتصاحب السيادة الكلامية (في القول) سيادة حركية ، فالسيد لا يتورع عن ضرب خادمه فهو صاحب الامر والنهي ويرغب في أن يطاع . ويتضح لنا هذا من حديث المضيفة التي تقضي يوما بحكم عملها بين جاك وسيده :

« ليأمر أحدكما ويطيع الآخر ويعمل ما في وسعه » (٣٥) ويذعن جاك للأمر برغم نزوعه الدائم الى الاستقلال واثبات ذاته . ويذهب في اهانته الى التقريب بين علاقة التبعية بين الكلب وسيده والعلاقة بين الآدميين :

« سأل جاك سيده اذا كان قد لاحظ انه مهما بلغ بؤس الناس من العامة فهم يقتنون كلابا وهذه الكلاب على اختلافها قد لقنت حركات متشابهة كالدوران والسير على رجلين وعلى القفز أمام الملك والملكة وعلى الاستلقاء كالموتى . وتخلص جاك الى ان هناك رغبة تتملك كل انسان في التحكم في غيره ومن هنا فلكل كلبه » (٣٦) وصورة اخرى لعلاقة السيد بتابعه تبدو جلية حين يفقد السيد جواده فيستولي على جواد جاك ويذهب السيد الى اقصى من ذلك حين يشتري جوادا جديدا ويحتفظ رغم ذلك بجواد جاك متعللا بأن معرفته به أوطد .

ويفرض التدرج قوانينه حين يتناول السيد العشاء مع المركيز ديزارسيس فجاك في هذا الوقت يبقى في الفندق مع سكرتير المركيز . وتبرز الصفحات الاخيرة من الرواية أهمية السيادة واليد العليا للسيد الذي يفر هاربا على جواد جاك مرسلا ذلك الأخير ليسجن بدلا منه .

---

(٣٥) —Ibd., p. 663.
(٣٦) —Ibid., p. 667.

والغريب ان ذلك الذي يتمتع بالسيادة والنفوذ لا شخصية له على حين يحظى الخادم ، رغم كونه مجرد تابع ، بشخصية قوية وان كانت غير واضحة كل الوضوح ؛ فجاك بالنسبة لغير سيده « السيد جاك » ومن هنا فبعض اللبس يشوب العلاقة بين السيد والتابع للمسود ، وتخلق بينها الظروف التي تحيط بمغامراتهما نوعا من المساواة تذهب في بعض الاحيان الى اعلاء التابع على حساب سيده . ويفرض الموقف الكرنفالي نفسه هنا ليقيم ما نتفق مع باختين على تسميته « الحياة المقلوبة رأسا على عقب » (٣٧)

والاختلافات بين جاك وسيده لا يتطرق اليها الشك وتهيىء لقلب جدلية العلاقة بين السيد والتابع ويسمح جاك لنفسه قبل كل شيء بتقيم سيده ويبدى دهشته لتوافر بعض المميزات لديه .

« يرجى أن أعرف فيك انسانيتك فهي صفة قلما تتوافر بين السادة وتابعيهم » (٣٨) ويفوق جاك سيده ثقافيا فهو يدير حوارا شيقا ويعرض فلسفته الخاصة في الحياة ولا يقف الامر عند القول انما يتعداه الى الفعل فهو يلقى نفسه في المخاطر ولا يتردد في المجازفة .

ويبدى جاك بعض التعنت في الرضوخ والطاعة ويمثل أمامنا « موقف عزل الكرنفال وخلعه » (٣٩) ويصبح السيد الملك خادما تابعا ويمسك بالسلطة مهرجا . وواقعة الاطاحة بالملك هذه تعقب حادثة مدام دى لا بوموريه . ويعترض جاك على سلطة سيده نظرا لكونها قابلة للجدل وكما قبل جاك أن يأمر السيد وينهى ، على السيد الاذعان للامر وقبول دور التابع الخادم . هذا التغيير في الموقف يدعو جاك الى القاء عبارة مثل :

« يسوس جاك سيده » (٤٠)

فهو يصبح طاغية وبذا يجسد حلم ابن أخ رامو (Le Neveu de Rameau) وهو رمز الضعف والمهانة في ان يصبح حدا ويحكم بدوره .

●●●

ويسود خلف الأقنعة عدم التوافق وعدم التناسب وهو عامل ضروري في الكرنفال يرمز الى ازدواجية الطبيعة الانسانية . وعلى النقيض من الأقنعة الحقيقية التي تندر في جاك القدري (Jacques le

---

(٣٧) — M. Bakhtine, Op. Cit., p. 170.
(٣٨) — Oeuvres Romanesques, p. 559.
(٣٩) — M. Bakhtine, Op. Cit. p. 170.
[illegible] .
(٤٠) — Oeuvres Romanesques, p. 665.

(Fataliste نجد ان النص يفيض بالاقنعة الغير حقيقية كالنفاق والكذب (٤١) وتظهر وفرتهم كيف تتعايش العناصر المتناقضة والمتكاملة في الوقت ذاته كالخير والشر الصدق والكذب ، الحقيقة والخيال .

ولا يحتل التنكر مكانا كبيرا في الرواية . فالقناع يرتدي مرة واحدة بدافع من الغبطة ورمزا للاحتفال (٤٢)

وترتدي بعض الشخصيات الثانوية الأقنعة لتميط اللثام عن الحقيقية للآخرين ، فالجاسوس على سبيل المثال يرتدي كل انواع الملابس لمباغتة صانعه الحلوى وهي متلبسة بواقعة الخيانة ، ويتنكر القائد جاك في زي فلاح ليجد الصديق الذي كان قد فرق بينهما ، غير أن ذلك كله لا تأثير له على الحبكة الروائية واذا وجد له تأثير ما فهو سريع وعابر .

ويجدر بنا الوقوف قليلا أمام وفرة الأقنعة التي تخفي النفاق والكذب فالخداع يبدو كظاهرة تكاد تكون عامة وكما يلاحظ جاك :

« كان الانسان وسوف يكون دوما وعلى التوالي خادعا ومخدوعا . » (٤٣) وتعتبر وفرة الأقنعة المعنوية دليلا ملموسا على المانوية أي عقيدة الصراع بين النور والظلام التي تسود العالم ويزيد النفاق والكذب من حدة اللبس السائد للوهلة الأولى في الرواية لكونهما مغلفين بالطيبة والثقة . وسيستخدم القناع هنا في اخفاء أكثر الأعمال شرا ومنح مرتديه حرية زائفة ولا يتفق على الاطلاق ظاهر وباطن الشخصيات المقنعة وتتوه تدريجيا حقيقتهم .

وباماطة اللثام عن نفاق رجال الدين تسنح للكاتب فرصة انتقاد رجال الدين في عصره . فبدافع الغيرة من القس ملاك يذهب راهبان الى حد رشوة طبيب ليشهد بأن القس ملاك مجنون ، ولا يغفلان في الوقت ذاته عن مصالحهما المادية فهما يكيلان المديح كيلا للقس ملاك أمام مريديه من علية القوم . ويبث الكاتب بين طيات هذه الأحداث نقده اللاذع كما يسوق لنا مثالا آخر ، فرجل الدير هدسون المنافق محدث وخطيب ديني بارع يرى المحيطون به في كلامه أكثر صور الحديث صدقا . فهو يرتل

(٤١) إن لم تكن الحقيقة لتقال سافرة في القرن الثامن عشر فقد كان ساخرا وكذا جو عامة من القهر والرقابة ويشير Francis Pruner في كتابه L'Unite Secrete de Jacques le Fataliste, Minard, 1970, p. 322.
(٤٢) — Oeuvres Romanesques. p. 610.
(٤٣) — Ibid. p. 701.

الصلوات عن ظهر قلب وقد كون لنفسه بذلك صورة الرجل الورع . وقد استطاع ان يلين شكيمة رجل البوليس بأحاديث محورها أن قبل بجيئه :

« كانت الأمور الروحية مهملة الى حد الفضيحة وكادت الخسارة تلحق بالبيت » (٤٤)

ويقنع مظهره الخادع اسقفه حتى ان هذا الأخير لا يساوره الشك في فضيلة رجل ديره . غير أن « القول والفعل » لدى رجل الدير هدسون لا يتفقان بالمرة فوسائله الى الرذائل تخدع ضحاياه . (٤٥)

وتتناقض أقواله أفعاله بل وتتناقض أفعاله فيما بينها . فعل حين يطرد من البيت مرتكبي الفضائح لا يتورع هو عن فعلها فهو يسجن بائعة الحلوى في قصره .

ويتبع بائعة هوى الى مسكنها . . الخ بل يستخدم المكان المقدس المخصص للاعتراف فيما يخجل من الأفعال .

وهو يأمر السيدة موضع ثقته والتي تعاونه ان تتقن اداء دورها وان تذهب لدى سيدة حسنة السمعة غير أن هذا لا يمت للحقيقة بصلة فسمعتها الطيبة مردها اتقانها الظهور بمظهر الورع .

وتخدع الراهبتان الجديدتان اللتان يداخلهما بعض الشك في رجل الدير هدسون وفي مكان اقامة هذه السيدة وفي عشيقة رجل الدير هدسون بل وفي الدير ذاته ولن يسقط قناع هدسون مطلقا ، بل وأكثر من ذلك يكافأ على خدماته بدير وفير الخيرات وبهذا يكون قد نجح في تغليب المظهر على الجوهر والخيال على الحقيقة .

ويثبت لنا الكاتب أن القناع وسيلة هامة وضرورية أيضا للطبقة الارستقراطية وهم على شاكلة رجال الدين يستخدمون الحب قناعا مما يسمح بوجود الخدع . فالحب كاحساس له أبعاد قدرية (٤٦) فالانسان يتفانى في الاحتفاظ به رغم كل شيء وفي مواجهة الجميع . ويكاد يبدو ان الانسان كلما رقي درجات السلم الاجتماعي كلما مزقته الغيرة وسيطر عليه حب التملك والميل للانتقام . ومن ثم يرتبط الأصل

---

(٤٤) — Oeuvres Romanesques.

(٤٥) لا يجهل القارىء حقيقته وحقيقة أعماله ومن لم يرى الشخصية من كلا جوانبها ويعد الشاهد الوحيد على ازدواج الشخصيات القناع وخلفهم ليه وعلى حين يصبح هذا القناع غير ظاهر لا خلفه بالنسبة لجميع الشخصيات يكون ثقافة القارىء .

(٤٦) يتساءل جاك : التأميل في ان تصبح أولا تصبح عاشقين ؟

النبيل بالاحاسيس الوضيعة . وعلى النقيض من ذلك نجد أن للعامة البعيدة عن الاصول العريقة أحاسيس نبيلة ، فجاك على سبيل المثال لا يعرف الغيرة وشهوة الانتقام فهو يتقبل عدم استمرار الحب ودوامه بوعي وواقعية . فالحب كأي أحساس في الحياة يتحكم فيه التغير والتبديل .

ويصبح المركيز ديزارسيس ومدام دي لابومريه على التوالي خادعين ومخدوعين وكلاهما ذو أصل عريق وعاشق للآخر ، غير أنه يجيء اليوم الذي يتصرف فيه المركيز عنها : حينئذ تلجأ مدام دي لابومريه الى خطة مبدئية لاكتشاف الحقيقة التي تخفيها عنها .

وترتدي هنا القناع للكشف عن الحقيقة . فعلى المكر ان يخترق القناع ليفصح المركيز ديزارسيس عن مشاعره وتبدأ لعبة واعية اختيارية .

وتؤكد مدام دي لابومريه لعشيقها براءتها وتصبح الخدعة جلية حين تدعى انها قد ملت صحبته وتعيد بذلك الأسلحة الى مطلقها عليها تجبره على البوح بالحقيقة .

وتقضي مدام دي لاموريه في لعبة الصراحة الى نهاية الشوط فمن ناحية تدعى تغير مشاعرها تجاهه ومن ناحية أخرى تدعي انها ما كانت ترتكب خطأ اخفاء هذا التغيير الذي يعتري مشاعرها .

ويقع المركيز في الشرك وينخدع الى درجة يدلي فيها بما كان يخفيه ويبلغ في انخداعه الحد الذي يرى معه ان مدام دي لا موريه امرأة صادقة أمينة وفاضلة . ويرى هنا أن للكذب ميزاته فقد سمح لمدام لابومريه ليس فقط بمعرفة الحقيقة ولكن بأن تحظى بصفات اضافية في نظر عاشقها ، غير أن هذا الاعتراف يشعل لديها الرغبة في الانتقام وهي لهذا تدبر خطتها بعناية :

« حين هدأت غضبتها الأولى وذاقت بعض الراحة فكرت في الانتقام واي انتقام ذلك الذي يخيف في المستقبل كل من تسول له نفسه ان يخدع امرأة فاضلة » (٤٧)

وسوف تفعل ما تتراءى لها بالمركيز ديزارسيس الذي ارتكب خطأين : أولهما خداعها وثانيهما اخفاء ذلك عنها . وسوف تلهو به بدورها بوعي وذكاء وحنكة لا يثنيها عن بلوغ هدفها شيء .

---

(٤٧)
— Oeuvres Romanesques, p. 613.

وهي تستخدم لأغراضها ذكاءها وثروتها ولا تترك للصدفة شيئا حتى انها تعطي سيدات (Ais-non) ايتون اللائي سيساعدنها في خطتها الميكافيلية تعليمات مدونة لما يجب ان يلتزمن به في سلوكهن . وفي كل سطر من سطورهاهناك قناع ، فالكلمات والافعال تغطيها كلمات في التعبد والتصوف .

وتنهج مدام لابومرية فهيا الهدف منه اخفاء مشاعرها الحقيقية ومن هنا ينشأ التعارض بين أفعالها وأقوالها من ناحية واحاسيسها من ناحية أخرى وتستمر اللعبة ، فقد كانت تراعي في علاقتها بالمركيز اظهار تقديرها وصداقتها وثقتها على أفضل ما تكون صورها . (٤٨)

وقد توقعت مدام لابومريه كل ما سوف يحدث : فالمركيز ديزارسيس يقع في حب ايتون التي يعتقد انها مخلوق ملائكي . ولم تكن مدام دي لابومريه تنتظر غير هذه اللحظة لتقف حائلا بين لقاءاتها مما يعذب المركيز فكلما بعدت معشوقته عنه كلما تاق اليها وتقود مدام دي لابومريه اللعبة بسادية ومازوشيه في آن واحد فهي تتعذب بدورها وتتلذذ بعذابها وهي تحدثه عن ولعه بايتون وتستمع اليه وهو يبالغ في تصوير حبه لغيرها وتتوالى الخطط وتتشعب لتنتهي يوما بزواج المركيز بايتون وتنتصر مدام دي لابومريه غير انها لا تستمتع طويلا بلذة النصر . فهي لم تكن تتوقع أن تمسك المركيز ديزارسيس بزوجته بعد معرفته بماضيها ووقعت في الشراك الذي نصبته لغيرها . فلم تكن قد وضعت في حسبانها القدر الحقيقي لمشاعر المركيز لايتون مما ضاعف من المها بعد أن سقط قناعها وفقدت مكانتها فأصبحت في الحضيض بعد سموزوارتفاع المركيز وايتون من العبودية الى السيادة .

●●●

ويسمح عدم التناسب من ناحية أخرى بالتقارب والاتحاد الوثيق بين « الأعلى » والأدنى . فالكرنفال مرتبط بصورة خاصة بطقوس شعبية تطبع الرواية بطابع سحري غريب . ويعني بالأعلى هنا الموضوع الميتا فيزيقي كالقدرية ، اما الأسفل الذي يرتبط به فهو عدة موضوعات تتصل بالعامة . فالرواية تلمس بعض المشاكل الهامة التي ارتبط بها فلاسفة عصر التنوير ، فهي تطرح مشكلة القدرية أي الوجه المقابل لمشكلة الحرية .

ومحور مناقشات جاك وسيده وهي معتقدات يصعب النقاش والبت فيها . فجاك التابع والشعبي النشأة قادر على مناقشة الأمور الفلسفية . (٤٩) فمكتبة سيده المنتمي الى طبقة النبلاء مكنته من تنمية

---

(٤٨) —Ibid., p. 621.

(٤٩) كان ديدرو (Diderot) نفسه ابن صانع مدى

مداركه ومعلوماته وها هو ذا يماثل سيده ان لم يفقه اهتماما بالمشكلات الفلسفية ، وكنوع من التناقضات الغريبة نجده أيضا لبقا ومحدثا بارعا لماحا في ملاحظاته ، وتتعارض فلسفته مع فلسفة سيده الذي يؤمن بالحرية الانسانية . ويرفض جاك فرض الحاكم الحر .

وهو يتبع القائد الذي يعد من مريدي سبينوزا . وقد تعلم من تجاربه ان الحرية زائفة . إذ أن « الأسطوانة الكبرى » فقط يمكنها ان تقرر سير الأحداث التي تبقى اسباب وجودها وسيرها غامضة وليس للانسان أي تأثير عليها .

واسلوب جاك على النقيض من سبينوزا مادي :

« كان العالم المادي والمعنوي يبدو لديه فكرة عقيمة خالية من أي معنى » (٥٠)

فالمادة هي الموجود الوحيد بالنسبة لجاك على حين يؤمن سيده بخلود الروح ووجود الله والشيطان . وفي مناقشة له عن الحسية يرفض جاك الأفكار الغريزية والفطرية فالمعرفة بالنسبة له مصدرها الاحاسيس والذاكرة .

« كان يحاول اقناع سيده ان كلمة الألم خالية من كل فكرة وانها تكتسب معنى في اللحظة التي تذكر فيها الذاكرة بأحاسيس اعترتنا أوخالجتنا من قبل . » (٥١)

غير ان هذه التأملات الفلسفية تقع في مجال شعبي وفي اطار قريب نسبيا من الريف الفرنسي في القرن الثامن عشر . فرواية جاك القدري (Jacques le Fataliste) تمد جذورها الى الحياة الواقعية واليومية في الحقبة التي تدور فيها كما رأينا من قبل ، كما أن الوقائع الاجتماعية والسياسية تحتل فيها مكانة هامة .

هذا التمزق بين طريقة التفكير (المناقشات الفلسفية) ونمط الحياة (فرنسا في القرن الثامن عشر) تصحبه سخرية تصل الى حد الاسفاف لتلاحظ بادىء ذي بدء تغليب وجود الجسم والوظائف المتعلقة به ، فغالبا ما يكون محور الموضوع العظم أو الساق والركبة والأجزاء الدقيقة المتصلة بها .

---

(٥٠) —Oeuvres Romanesques, p. 670.
(٥١) —Oeuvres Romanesques, p. 509.

فالجسم كمبدأ حيوي يعرض ويوصف فهو مانح الانسان حركته وديناميته ومستقبل لأكثر الأحاسيس تنوعا ، ومن هذا تظهر أهمية الحقيقة المادية للجسم وتدعم الفسيولوجية الفرضية المادية .

وترجع الصورة لبعض الشخصيات الحقيقية والخيالية في الرواية الى سخرية خالصة فراهب القرية نوع من الأقزام أحدب ذو أنف معقوفة لجلاج وأعور كأقرب ما يكون الى الشخصيات الخرافية .

فحين يشفى جاك من جرح ركبته يفكر في العاجزين وذوي العاهات لخوفه من البقاء معوقا . ونجد في الرواية أيضا وصفا طبيعيا للطبقات الدنيا فعل حين يمضي جاك وسيده الليل عند بائعات الهوى تعترض رجل الدير هدسون :

« إحدى هذه المخلوقات التي تستجدي المارة »[٥٢]

وتكون الوظائف الجسمية في رواية « جاك القدري » (Jacques le Fataliste) نوعا من اللزمات وهي عودة الى المرحلة الفمية (لذة البلع) فالطعام والعشاء والالتهام معان تتردد كثيرا في النص . كل شيء يصلح ذريعة لاحتساء الخمر ، الأمر الذي يتم معه في يسر تغير ملامح الشاربين .

وتخلق حالة الثمالة جوا من الغبطة الجماعية يسقط الفواصل الاجتماعية كما في الكرنفال . فجاك لا تفارقه قنينته يرتشف منها رشفة ثم يناجيها .

وكثيرا ما يمتدح جاك الخمر ويتغنى بمزاياها ممجدا ديونيزوس آله الخمر ، فالخمر قادرة على تقريب رؤيتنا للعالم من السخرية وهي رمز الحقيقة السافرة التي يتغنى بها هذا المتعبد .

وجو الحرية هذا يقويه ويدعمه هذا النوع من العلاقات اللفظية التي تفرض نفسها بفقدان التدرج والمسافات بين الأفراد في الكرنفال ، فلا حائل يقف أمام أقاصيص ولغة العامة . كما يظهر على السطح كلمات جديدة أخفتها الذاكرة ولم تنسها . وينقطع الخيط بين منطوق الكلمات ومسمياتها . ويظهر السباب وغليظ القول بدون حرج ، فالسيد يقذف بتابعه للشياطين ويطلق على جلاده لفظ كلب لاعنا جاك .. الخ ولا يحكم عدم التناسب الدائم والمستمر العلاقات التي تربط بين شخصيات الرواية فحسب بل والقيم المطلقة أيضا كالخير والشر ، الحقيقة والخيال التي تربط بصورة وثيقة في روايتنا هذه .

---

(٥٢) —Oeuvres Romanesques, p. 675.

وتظهر لنا أعالي الأشياء وأدناها في صورة متعددة فهي حين تدور المناقشات الفلسفية المجردة في اطار حقيقي ملموس نجدها تختلط بوظائف جسمية لفظية أو بكلمات مبتذلة .

ويسود جو عام من البهجة يشغل المساحة الكرنفالية . فأصداء الضحكات تدوي وهي ضحكات صادقة مرحة يشوبها بعض اللغز والسخرية ولما كان الضحك أحدى ركائز الكرنفال فاننا نجد في الرواية أساليب وطرق إضحاك متعددة ترمي مجتمعة الى ابراز هذا « الضحك الواعي » [٥٣] الذي يشير اليه أحد نقاد « جاك القدري » (Jacques le Fataliste) ويكسو قائمة اسماء الاعلام في القصة طابع التهريج والتهكم . لنذكر على سبيل المثال اسم التابع الذي يثير عدة تعليقات ، فالاخ جان (Jean) شقيق جاك يصحبه في رحلاته واسفاره الأخ ملاك Ange كذلك يصعب التمييز بين الشخصيات التي تحمل اسم جازون (Jason) وهو اسم ذو معنى مما يؤدي الى اللبس وهو أحد مصادر الضحك في الرواية ويقدمهم جاك بهذه الكلمات :

« كانوا باعة متجولين . كان لجدي جازون عدة أبناء ، كانت اسرة جادة يستيقظون في الصباح ويرتدون ثيابهم ويذهبون الى اعمالهم ثم يعودون ويتناولون عشاءهم . كانوا يعودون دون أن ينبسوا ببنت شفة » [٥٤]

لا يمارسون فقط مهنة واحدة ولكن يعملون كالرجال الآليين بحيث يصعب التمييز بين الواحد والآخر . وكأنما يؤدي التشابه في الأسم الى تشابه في الأفعال والحركات مما يضفي عليهم طابع الفريق المؤدي لرقصة واحدة . ويتكرر اللبس مع والد جاك الروحي فكلاهما يسمى « العجيب » .

ومن الاستهانة والاحتقار والتهيؤات أيضا الضحك . ففي واقعة نيكول على سبيل المثال تندب المضيفة نيكول التي وقعت في براثن اثنين من نزلاء الفندق اساءا معاملتها ، يكتشف القارىء بعد أربع صفحات وعلى أثر سؤال لجاك عن عمر نيكول ورد المضيفة بأنها لم تتجاوز العام والنصف ، ان الحديث يدور حول كلبة صغيرة وفي سرقة حافظة نقود جاك نجد ان جاك بعد ابلاغه الشرطة على السرقة يسترد حافظته ولكنها خالية ، فالقاضي قد أعطى ما بها من نقود للسارقة التي ادعت ان هذه النقود كان جاك قد اعطاها اياه لقاء خدماتها الجليلة .

---

(٥٣) Jacques le Fatalists رواية القدرية الروائية — Robert Loy, Diderot's determined Fatalist. King's Crown Press Columbia University, New York, 1950, p. 127

(٥٤) — Oeuvres Romanesques, p. 606.

ويضبط الناس السيد الذي خدعه القديس أوين (Ouin) متلبسا مع أجاثا ، ويصر ذو العقل الغليظ غير الثاقب بعد رؤيته لصانعة الحلوى مع عشيقها انه ما كان يمكن ان يكون غير زوجها :

« صانع الحلوى هو الذي يشاركها فراشها »(٣٥)

ونجد أيضا ان بعض المواقف منشؤها الملهاة والدعابة وهذا النوع من الضحك يشبه في سخريته ضحك الحكايات الشعبية فالمضيفة تغرق وجه جاك بمحتوي الزجاجة التي تفتحها وديجلان (Desg-lands) ينمر بالبيضة التي كسرها في يده . وجه غريمه والقصة مليئة بالحركات المضحكة التي تعود في أصولها الى حركات الملهاة ، فالفلاحة يدفعها زوجها فتسقط بطريقة تثير الضحك .

وينزع جاك أكثر الشخصيات تهريجا سرج الجواد ليسقط سيده الذي يتقدم بدوره ويضرب جاك ومن ناحية أخرى نجد أن الحركة تبرز القوة بين سبب غضب جاك وأثره .

فجاك يطلق مسدسه لينتقم لشرفه من المحتالين الذين قدموا له طبقا به العظام المتبقية من طعامهم ونهاية هذه القصة لا تقل تهريجا عن بدايتها فجاك يسلبهم ملابسهم بعد اجبارهم على خلعها وعلى الاستغراق في النوم . والحدث الحزين يصبح أحيانا مصدرا للضحك كتلك المرة التي : « انتفضت المضيفة واقفة ووضعت يديها في خاصرتها ناسية انها كانت تحمل نيكول وسقطت تلك الأخيرة مذعورة تتخبط في وثاقها وظلت تنبح واختلطت بنباحها صيحات المضيفة وضحكات جاك »(٣٦)

لتسود الفوضى عارمة فلا يمكن التمييز فيها بين الصرخات والضحكات والنباح ، وتصبح هذه الفوضى مصدرا عاما للضحك .

وتكثر الدعابات اللفظية المتنوعة التي تسر القارىء وتثير ضحكه جاعلة من رواية « جاك القدري » (Jacques le Fataliste) عملا مضحكا وساخرا وكثيرا ما تظهر تلقائيا بعض العبارات الغريبة في الأحاديث والخطب لوبللوتيه (Le Pelletier) على سبيل المثال يضرب اوبورتو (Auber-tot) وهو يستجدي الناس من أجل فقرائه ولا يتمالك هذا الأخير نفسه فيصفعه ويرد لوبللوتيه من فوره :

(٣٥) — Oeuvres Romanesques, p. 586.
(٣٦) — Oeuvres Romanesques, p. 499.

« هذا نصيبي فأين نصيب فقرائي » . [٥٧]

وحين تمل الطبيبة التي تعالج جاك من الاصرار على أن يتناول مريضها شوائه بالسكر تصرخ قائلة :

« لكن سوف يكون اذن من نصيب أولادي ومن نصيبي [٥٨] وتختلط الاجابات والردود السريعة احيانا بالوقاحة فعندها يسأل الناس جوس (Gousse) عن اخبار ابنه الذي يتمتع بعينين جميلتين وقوام ممتلىء وبشرة صافية يصدم جوس سائليه قائلا بدون مقدمات :

« على ما يرام أفضل كثيرا من غيره . . لقد مات » [٥٩] فجوس من الشخصيات التي تحب اللعب بالكلمات . وحديثه يشبه أحاديث شخصيات موليير . ويبرز المؤلف ذلك بنفسه فالغاية الحقيقية من المعنى كثيرا ما تبدو وتظهر لتصبح مصدرا للدعابة . . .

فلو كان قد حظى بزوجة تشكو « أطفال ثلاثة على عاتقها لرد عليها من فوره « اتركيهم من على عاتقك » [٦٠] ويحمل صاحب الفندق ملامح شخصيات موليير فهو لغضبه من استضافة زوجته لجاك لا يكف عن ترديد عبارة واحدة .

« بالله ماذا كانت تفعل أمام بابها » .[٦١]

وتضاف السخرية الى العبارات الهازلة وتظهر على مستوى الكلمات والتكوين الروائي وبذلك تتضمن القصة سخرية على سخرية فالراوي لا بد له من مستمع . والكتابة التي تصل من خلالها الرواية يكون الراوي فيها مؤلفا والمستمع قارئا .

وبالتالي لا يمكن للقارىء المستمع خلال هذا الدور المزدوج أن يبقى سلبيا وفي « هذا ليس بقصة »(Ceci n,est pas un conte) لنفس الكاتب نراه يدرس العلاقات بين الراوي والمستمع فيقول :

« حينما نروي حكاية نفترض مستمعا نتوجه اليه الا انه حينما تطول الرواية بعض الشيء فمن الصعب الا يستوقف المستمع الراوي أحيانا » [٦٢] وتصبح مشكلة الراوي الأولى هي العلاقة بين الراوي والمؤلف وفنه فهو يفكر في عمله الأدبي ونحن كقراء نكون أمام عمل يتكون ويفضح الخدع في

(٥٧) — Ibid., p. 546.
(٥٨) — Oeuvres Romanesques, p. 546.
(٥٩) — Ibid., p. 554,
(٦٠) — Ibid, 553.
(٦١) — Ibid., p. 507.
(٦٢) — Oeuvres Romanesques, p. 793.

الأعمال الروائية وتصبح أمام سخرية من الشكل ومن المعنى الذي يظل دائما مثار الأسئلة والذي قد يقضي عليه .

ويوصي المؤلف بأنه يريد اشباع وارضاء قارئه وخدعته فهو يستمر بأحداث روايته كما يحلو ويجعل منا نحن القراء ضحاياه كما يجعل من المفاجأة وسيلته . فحين نحذر وجهته ونتكهن بها عن مساره يغير خطته تماما مثل جاك الذي يظن ان كل شيء مكتوب في الورقة الملفوفة . فالمؤلف لديه خطه وحبكته الروائية معدة حتى وان بدا لنا أنه يخلط بين الأحداث أو يوقفها حينا ويجعلها تستمر حينا آخر

وتوضح لنا ذلك العلاقات بين الراوي والشخصيات ، وذلك من خلال موضوعية الراوي الذي يستخدم أكثر اشكالها شيوعا في النصوص وهو استخدام ضمير الغائب « فرجاك من يدي سيده وكان يبدو على وجهة ونبرة صوته الصدق لدرجة أن . . »[٦٣] والراوي يعلق على الأحداث وعلى أقوال ابطاله بأكثر الطرق محايدة وبدون أدنى تدخل منه كقوله « كان كلاهما على حق » .

غير انه يحدث ان يتحول الراوي الى بطل بدوره ويصبح له وجود مادي ملموس مثلهم يشاركهم مغامراتهم ويشهدها معهم .

« سمعت المضيف يصرخ من زوجته بالله ماذا كانت اذن فاعلة عند بابها »[٦٤]

هذا التحول غير المحسوس من الغائب الى المتكلم تمكنه من مشاركة شخصياته حياتهم والاختلاط بهم مطالبا بحقوقه كمؤلف شاهد على مايرويه من أحداث . فالقصاص يصر على ان تؤخذ ذاتيته في الاعتبار وهو بهذا يكشف عن خدع الأعمال الروائية وهو يتدخل مشوها حوار شخصياته : فكلمة (Engastrimute) من وحي الكاري اما الكلمة في النص الأصلي فهي (Ventriloque)[٦٥] ومعناها المتحدث من بطنه .

وهو بهذا يضع نبرة على وجود المؤلف الذي لا يمكنه الظهور الا من خلال مخلوقاته وتزخر القصة في هذا الشأن باعترافاته . فهو يتحمل مسئولية الكلمات الغريبة كالخائف من الماء على سبيل المثال : (Hydrophobe) ؟ جاك قال (Hydrophobe)؟ لا يا قارئي لا . . أعترف انها ليست منه ولكن بقسوة النقد هذه الحداك ايها القارىء تقرأ حوارا واحدا في أي عمل ملهاة كانت أم مأساة بلغت درجة جودته بدون ان تقع عينك على كلمة للمؤلف في فم أحد شخصياته » .[٦٦]

---

(٦٣) — Oeuvres Romanesques, p. 500.
(٦٤) — Ibid., p. 507.
(٦٥) — Ibid., p. 719.
(٦٦) — Oeuvres Romanesques, p. 762—763.

وقلب دور الراوي يتم عن طريق السخرية . فالمؤلف الراوي موجود وغائب على التوالي يظهر ثم يختفي ويعلن عن نفسه ثم يتوارى فقد أخذ على عاتقه ان يروي لنا حكايات هو بادئها غير انه سرعان ما يعطي الكلمة لرواة آخرين كجاك أو سيده أو المضيفة أو الحلاق ؛ ويجد القارىء نفسه بين عدة رواة وهو اسلوب لا يطمئنه . ويذهب المؤلف الى أبعد من ذلك فهو يقترح على قارئه بثقة متناهية أن يكون مؤلفا بدوره وهو يسخر منه ويضلله ليمسك من جديد بمقاليد النص وكثيرا ما يرهق المؤلف الراوي نفسه فهو يرتب بدقة متناهية لكل شخص مكانها :

« السيد الى اليسار مرتديا طاقية نومه ورداءه مستلقيا يتكاسل على مقعد وثير ومنديله ملقى على المقعد وفي يده علبة نشوقه . والى الخلف المضيفة في مواجهة الباب قريبة من المائدة وأمامها كوبها . جاك بدون قبعة الى اليمين مرتكز بمرفقيه على المائدة مطرق الرأس بين زجاجتين إفترش اثنان على مقربة منه الأرض » . [٦٧]

هذا الوصف المفصل يدعو القارىء للدهشة«فالراوي لم يكترث على حد الاطلاق باعطائه هذا الفيض من التفصيلات عن مسرح الاحداث أو وصف الأحداث واطارها أو وصف لأحاسيس شخصياته الخ . .

وهو يفسر رفضه هذا حتى لو أدى ذلك الى ان يخيب ظن قارئه : « واذا اظهرتم لي قليلا من الامتنان لما أقوله فاحفظي لي بالكثير مما لم أقله » [٦٨].

ويبدو من هذا أن كل محاولة من جانب الراوي للافصاح عن ذاته والمثول في روايته تقابلها رغبة مضادة في الاختفاء .

ويصبح قارؤه أيضا مستمعا له يوافقه حينا ويعارضه حينا آخر . وهو يعبر عن ذاته بكافة أنواع الاعتراضات وهذا القارىء وفقا لهوى المؤلف موجود ابتداء من الصفحات الأولى غير ان مهمته لا تقتصر على كونه قارئا فهو مخاطب له دور في النص وجانب من الحوار يشارك به في إعادة بناء الجو العام للرواية وهو ليس بالشخص السلبي المتقبل لكل ما يقال له ، فالكاتب يتحدث الى ذهن حاضر للنقد يثير ويثار .

وعلى غرار السيد الذي يخطىء في تكهناته واستقراءاته نجد أن القارىء يغرر به أكثر من مرة.ويلفت الكاتب نظره لذلك ويقوم نيابة عنه برأب الصدع وتصحيح الخطأ وتكثر الاصطلاحات التي تبرز قرب

---

(٦٧) — Ibid. p., 622.
(٦٨) — Oeuvres Romanesques, p. 499.

وقوع القاريء في الخطأ كقوله « سوف تعتقد » سوف تقول » وكما أبرزنا ذلك من قبل فالقاريء هنا مستمع ومخاطب في آن واحد .

هذه العبارات تظهر في النص كاللازمة ، والقاريء ليس كالسيد في ارتكاب الأخطاء فقط وانما محافظ وتقليدي مثله . فهو يطالب الراوي « بالحقيقة » ولا شيء غيرها لادراكه ان هذا الأخير يميل الى تشويه الأحداث والمبالغة فيها .

وتتضح محافظة من اخلاقياته متمثلا باخلاقيات القرن الثامن عشر نجده يدين سلوك مدام لابومريه لما دبرته من انتقام قاس ، ويلتمس العذر للمركيز ديزارسيس في خداعه لها ولكن يلوم عليه زواجه من بائعة هوى .

ويحظى القاريء بحرية زائفة وتتوطد صداقة بينه وبين الراوي ، فهذا الأخير يقيم معه حوارا ذا نبرة هادئة مطمئنة مألوفة . فهو يحترم رغباته ويسعى لارضائه ويطرح عليه اسئلة يستنبط منها رأيه : -

« اترغبون في الذهاب اليهم أم البقاء معي ؟ » (٦٩)

وأحيانا يمتثل لرغباته الملحة فيما يطالبه بسرد قصة فهو يقص عليه على سبيل المثال قصة الشاعر بوند يشيري(Pondichery) ويذهب الى حد الاعتذار عن فجوة في النص توقعا منه للايضاح الذي يحق للقاريء طلبه . كما يشير من بعيد أو قريب الى بعض الأحداث لانها لم تطرأ على باله .

والى جانب هذا كله يطالب الراوي بحقه بطريقة غير ملفتة في بادىء الأمر فهو يجعل القاريء مطمئن الجانب ومن ناحية أخرى يسلبه هذا الاطمئنان .

« أنت ترى أيها القاريء كم أنا مفضال ولا رجعة الى خيري في . . . » (٧٠)

ومن هنا تنتفي صفة الامتنان بالجزء الثاني من العبارة . فسطوة الكاتب تمارس تحت قناع الكلمات . فالرواية لا وجود لها بدونه فهو يوصلها الى الغاية التي تحلو له وهو يوفر للقاريء عدة امكانيات فيما يختص بسير الأحداث ويحرمه منها في الوقت ذاته . :

« من أي نقطة بداية تختارونها لمسارهم ما كانوا ليسيروا عشرين خطوة » (٧١)

وهنا ينزع الراوي قناعه ويواجه قارئه صراحة بأنه كثير التساؤلات ويرفض إرضاءه . فحين يرغب القاريء في معرفة نهاية مطاف قافلة القائد جاك يعقب عليه في حدة « برب السماء أيها القاريء أيهلم

---

(٦٩) — Oeuvres Romanesques, p. 555.
(٧٠) — Oeuvres Romanesques, p. 551.
(٧١) — Ibid., p. 515.

أحد وجهيه (٧٢) ، ولا يقف عند هذا الحد فقد ينصاع لرغبة القارىء ويجيبه على أسئلة يكون قد رفض الخوض فيها من قبل . ولم يتم ذلك بغير تهكم منه وهو يمضي في النص بأكثر الطرق مناقضة لآداب السلوك . فحين يضغط القارىء عليه ليعرف وجهة جاك وسيده يجيبه قائلا :

« أين ؟ يالك من قارىء فضولي وفيم يهمك هذا الأمر ؟ ان كانت وجهتها بونتواز أو سان جرمان هل يفيدكما هذا في شيء ؟ فاذا ما أصررتم سأقول لكم كانا يقضيان الى . . . نعم ولم لا ؟ الى قصر رحيب »(٧٣) ويثير القارىء حتى الراوي الذي يقف حجر عثرة أمام اعتراضاته فحين يعترض القارىء على اختيار اسم « عجيب » يغضب الراوي ويوبخه بحدة :

« بربك هل هناك ذوق في اختيار اسم شخص ؟ فالشوارع تعج بكلاب الحراسة التي تدعى « بومبيه » دعوا عنكم اذن هذه الرقة المصطنعة »(٧٤)

ويذهب الى أبعد من ذلك فهو يستطلب إثارة دهشة القارىء البورجوازي المحافظ فهو يقص عليه ما لا يتوقعه ويسمعه من الألفاظ ما يأبى سماعه .

والقارىء ليس مخطئا فحسب وانما أيضا محل نقد وحكم وهو يجد نفسه شيئا فشيئا سجينا لتناقضاته الشخصية وسجينا لطبيعته نفسها :

« أبينا وليتم وجوهكم فأنتم مخطئون »(٧٥)

وتعود جدلية السيد والعبد للظهور هذه المرة على مستوى الانتاج والخلق والابداع الروائي . فالراوي يرفض اتباع القارىء ويجعل منه ضحيته ولا يستحي من تضليله مهما بدا ذلك متناقضا .

كل ما يهم أن تبقى للراوي اليد العليا وتستمر علاقة السيادة والنفوذ على القارىء لصالحه .

وفي ختام القصة يترك الراوي للناشر الحلبة ليختفي الى غير رجعة ولكن أليس الناشر هو الراوي والمؤلف الذي يسخر مرة أخرى من قارئه ما دام يسترسل في السرد ابتداء من القصر ذلك المكان الرمزي .

---

(٧٢) — Ibid., p. 537.

(٧٣) — Oeuvres Romanesques, p. 513.

(٧٤) تقع المفارقة هنا في تسمية الكلاب باسم القائد الروماني الكبير بومبيوس. — Ibid., p. 702.

(٧٥) — Oeuvres Romanesques, p. 714.

وتتوالى الضحكات ليعود الكرنفال كأجمل ما يكون وتستمر السخرية الى ما لا نهاية وكما يلاحظ « كيمبف » :

« لا يستولي القارىء على العمل الأدبي ويتمكن منه وانما يحدث العكس . فالقارىء لا يلعب دورا في القصة وانما هو مقيد يلعب به وهو لا يشترك بل يقتسم مع الشخصيات مآسيها مستعبدا مضطهدا . »[٧٦]

يوفر الكرنفال في النهاية حلا مناسبا للهيكل الروائي في « جاك القدري » Jacque le Fata-liste) والكرنفال كمسرح للأحداث يقدم مكانا مميزا لتطورات « المجنون » الذي يزعج الناس بوجوده ويريك نظام العالم في الوقت الذي يضفي عليه شيئا من العمق .

وزمرة الشخصيات المتعددة تتطور على هذا المسرح وتجد وحدتها في غرابتها . وينطلق تأثيرها للابتكار الفنان .

هذه الشخصيات المتمتعة بحرية قصوى في التصرف والحركة تتصرف على نحو يناقض المنطق المعتاد فالذي يحكم العالم الذي خلقه المؤلف منطق الكرنفال ، ويسيطر عدم التناسب على العلاقات بين الشخصيات الكرنفالية وهو ينعكس بدوره تنوع خبراتهم ويدور حول محاور ثلاثة متكاملة أولها يثبت حقيقة وجود جدلية السيد والتابع التي تحكم العلاقات بين جاك وسيده .

ويتصرف جاك القدري كرجل حر بينما يتصرف سيده الذي يؤمن بالقدرة غير المحدودة كرجل آلي . أما ثاني هذه المحاور الذي يعد سندا للقناع فهو يكشف ازدواجية الدور الاجتماعي المليء بالكذب واللبس وتتأرجح ذاتية الشخصية ، فالقناع رمز للازدواجية الانسانية التي يتخوف منها . أما المحور الثالث فمن خلاله تصلنا رسالة الرواية الساخرة وهو يخدم الوصول الى حقيقة الشخصية وتواكب الموضوعات الفلسفية الموضوعات العادية .

وتسود الكرنفال الحرية ، فقواعد لغة غير معمول بها وتخلص سذلك الشخصيات الكرنفالية من التعقيدات اللغوية .

والخداع تستخدم كحجر زاوية للرواية وتعج بها كافة المواقف الكوميدية والخطط . ويختلط النقد بالتهريج خاصة على مستوى كتابة الرواية الأمر الذي يضع البناء الروائي ذاته موضع التساؤل .

---

(٧٦) — Roger Kempf, Diderot et le roman, Seuil, 1964, p. 34.

ويعد هذا العمل مشاركة في « الضحك الجماعي المتجدد ودعوة للتفاؤل وتنتصر « المعرفة البهيجة » داخل حرية غير محدودة تسود العالم . وتتبدد الرؤية المهزوزة التي تبدو سائدة للوهلة الأولى .

وهكذا يحكم موضوع الارتحال ، وهو موضوع اساسي في أدب القصة كما يقول ميشيل بوتور (Michel Butor)(٧٧) ، هيكل الرواية محل الدراسة ، فهذه الفوضى الظاهرية وهذه الدوامة من الأحداث التي يخلقها تستعيد توازنها بواسطة السفر ويسير تتابع الأمكنة غير محددة من قبل والتي تمر بها الشخصيات وفق خطة زاخرة بالمعاني .

***

(٧٧) —Repertoire II. Les Editions de Minuit, Collection Critique, 1964, p. 44.

BIBLIOGRAPHIE

I. ETUDES

ALYN Marc, **Le Diderot de Bores,** Uzes, Editions du salin, 1975.

BAKHTINE Mikhail, **La Poetique de Dostoievski,** traduit du russe par Isabelle Kolitcheff, Presentation de Julia Kristeva, Seuil, 1970.

L'oeuvre de Francois Rabelais et la culture populaire au Moyen Age et sous la Renaissance, traduit du russe par Andree Robel, Gallimard, 1970.

BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " De l'amour ou des amours dans **Jacques le Fataliste** ", dans **Melanges Wade,** Geneve, Droz, 1977.

BRISSENDEN R. F., **Virtue and distress : studies in the Novel of sentiment from Richardson to Sade, New York,** Barnes & Nobe, 1974.

BUTOR Michel, **Repertoire II,** Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1964.

Repertoire III, Editions de Minuit, Collection " Critique ", 1968.

CATRYSSE J., **Diderot et la mystification,** Nizet, 1970.

CHOUILLET Jacques, Diderot, Societe d'edition d'enseignement superieur, 1977.

" Sens, contre—sens et non—sens : l'allegorie du chateau dans **Jacques le Fataliste** " dans **Melanges Wade,** Geneve, Droz, 1977.

La Formation des idees esthetiques de Diderot, 1754—1763, A. Colin, 1973.

DERRIDA Jacques, **De La Grammatologie,** Editions de Minuit, 1967.

DIECKMANN Herbert, **Cinq lecons sur Diderot,** Geneve, Droz, et Paris, Minard, 1959.

FABRE Jean, " Sagesse et MORALE DANS **Jacques le Fataliste** " dans **Melanges Besterman,** St. Andrews, Oliver & Boyd, 1967.

FONCK Gonthier, " Schiller et **Jacques Le Fataliste** de Diderot " dans **Hommage a Maurice Marache,** les Belles—Lettres, 1972.

FOUCAULT Michel, **Histoire de la folie a l'age classique,** Gallimard, Bibliotheque des Histoires, 1972.

Gandon Yves, **Du Style classique,** A. Michel, 1972.

HEGEL, **Philosophie de l'esprit,** traduction Vera, Germer Bailiere, 1867.

Huet Marie—Helene, **Le heros et son double. Essai sur le roman d'ascencion sociale au XVIIIe siecle,** Librairie Jose Corti, 1975.

KEMPF Roger, **Diderot et le roman ou le demon de la presence,** Seuil, 1972.

LEFEBVER Henri, **Diderot,** Editeurs francais reunis, 1949.

LEWINTER Roger, **Diderot ou les mots de l'absence,** Editions du Champ Libre, 1976.

LOY Roger, **Diderot's determined fatalist. A critical appreciation o Jacques le Fataliste,** New York, King's Crown Press, Columbia University, 1950.

MAY Georges, **Quatre visages de Diderot,** Boivin, 1951.

PARIS Jean, **Rabelais au futur,** Seuil, 1970.

POULET Georges, **Etudes sur le temps humain,** Plon, 1953.

PROUST Jacques, **Lectures de Diderot,** A. Colin, 1965.

PRUNER FRANCIS, **L'unite secrete de Jacques le Fataliste,** Minard, 1970.

SMIETANSKI J., **Le realisme dans Jacques le Fataliste,** Nizet, 1965.

TODOROV Tzvetan, **Theorie de la litterature,** Seuil, 1965.

WALTER Eric, **Jacques le Fataliste de Diderot,** Hachette, Collection " Poche Critique ", 1975.

WEISZ Pierre, **Incarnation du roman. La realite et les formes,** St—Aquilin de Pacy, Mallier, 1973.

II. ARTICLES

ARASSE Daniel, " L'image et son discours : deux descriptions de Diderot ", in **Scholies,** 1973—1974, pp. 131—160.

BATLAY Jenny et FELLOWS Otis, " Diderot et Sade : affinites et divergences ", in **L'Esprit Createur,** Winter 1975, pp. 449—459.

OROGYANYI Gabriel, " The Funiioararration in Diderot's **Jacques le Fataliste** ", in **Modern Language Notes,** May 1974, pp. 550—559.

BUFFAT Marc, " La Coincidence ", in **Communications** 19, 1972, pp. 6—18.

الخط العربي بين الفن والتاريخ

محمود حلمي

بين الفن والتاريخ يأخذ التراث الاسلامي مكانته كحقيقة منبثقة من دوافع القيم الروحية والموضوعية التي تؤكد وجود الانسان المسلم في الزمان والمكان . واذا كان هذا التراث قد اندفع الى الوجود عن طريق العقل والوجدان فقد سبقتهما في ذلك « اليد » التي أبدع الله تكوينها وصاغ شكلها ، وأودع أطراف أصابعها سر الوجود وحقيقة الحياة ومستقبل الانسان . وهذه « اليد » كالقلب والعقل ذكرها الله في محكم كتابه في مائة وواحد وعشرين آية ، جاءت متفرقة في العديد من السور القرآنية [(١)]

وتأخذ حقيقة « اليد » كما خلقها الله فيما تأخذ لتكون صانعة لاستمرار الانسان ودوامه ، ومكونة لحضارته وممهدة لوجوده ومثبتة لحياته على هذه الارض كأرقى المخلوقات ، وهي وحدها لا العقل والوجدان التي عبرت عن حقيقته الاولى ، حيث استطاع بها في دورة من دورات وجوده ، أي منذ عرف باسم الانسان المنحني PITHECACTHROPUS SINANTHROPUS الذي عاش على هذه الارض منذ آلاف السنين ، أي منذ العصر الجيولوجي الثالث ، المعروف باسم البلايستوسين المتأخر حيث عملت هذه اليد في اشعال النار واستعمال الادوات ـ المستمدة من الاحجار والعظام وفروع الاشجار ـ وهي التي

(١) محمد فؤاد عبدالباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن . ص ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ القاهرة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م .

أخلت به ليرتقي الى عصره الرابع حيث عاش مايعرف باسم « انسان نياندرتال » NEAN-DERTAL وهو ذلك الانسان الذي صنعت يده الادوات واشعلت النار وانتهت به الى عصره الخامس حيث عرف لأول مرة باسم الانسان العاقل في العصر الثلجي HOMO SAPIENS DILUVIALIS الذي أطلق على عصره الجيولوجي « البلايستين الرابع » ، حيث عملت يده في أعمال فنية كصناعة الفخار ، والرسم على جدران الكهوف ، وكان هذا العصر هو المهد لعصر « الهولوسين » عصر الانسان العاقل الحديث HOMO SAPIENS RECENS وهو العصر الذي شهدت « اليد » بمهارة أعمالا يدوية لها مفهوم الحضارة في معناها التمهيدي .

ولنضيف الى هذه الخطوات التاريخية التي خطاها الانسان في اعماق الزمان ، حقيقة علمية « تأتت لنا من علم » الحفريات التشريحية » الذي ذهب في ان اليد البشرية أقدم من الانسان نفسه فشكلها وبنيتها ترجع الى سنوات لا يمكن التكهن بها ، وهي أي هذه « اليد » تعتبر من حيث بنيتها بدائية غير متطورة ، كما أنها لا تصلح للتسلق ، وفضلا عن ذلك نجد أن يد الانسان أقدم من حالته المخي ، وكل ما هناك أن تطور مخ الانسان خلال النصف مليون سنة الاخيرة هو الذي بدل تلك اليد البدائية وأضفى عليها خصائص انسانية ، دون تغيير بالغ في شكلها أو بنيتها . . . الا أن « اليد » لم تصبح ذات فاعلية كبيرة الشأن الا بعد أن تطور اللحاء الدماغي البشري ، وبذلك صارت « اليد » تعبر عن اللمسات المميزة للانسان والمتعلقة بالحس والادراك والارادة والعقل » [٢] .

هذه هي البداية الحقة لمفهوم الانسان ، لتنطلق يده لتعمل وتشيد ولتقيم له ما يريد هو أن يقيمه ، فبنت له الاهرام ، وأقامت له المعابد ، ونسجت له الثياب وصنعت له الاثاث ، ومهدت له الطريق وزرعت وجنت ومضت قدما لا تكل ولا تستريح لتقيم للانسان حضارته وترفع من شأنه ليكون سيد الوجود كما أراد الله له أن يكون .

يتداعى بنا هذا المدخل العلمي البحث الى مصادر الفن الاولى حيث نجد في كهف يرجع الى ما قبل التاريخ ، وعلى فراغ جدران مغارة بوادي « سورة » بحلف الكبير بليبيا ، رسما لفنان بدائي يمثل يد انسان كبيرة الحجم يمر من تحتها ثلاثة أشخاص فما هي الدلالة الطقوسية التي حاول فنان هذا الكهف أن يعبر عنها بهذا الرمز ، يذهب تفسيري احتمالا أن هذا الزميل المصور أراد أن يعبر عن أن هذه « اليد » وهي هنا في معناها المطلق هي سبيل الانسان الى الحياة

(٢) الكسار فرة كوكلتون : يد الانسان ليرء من الميراث . مجلة الفكر ولي العدد ٣ ص ١٦ المانيا الغربية ١٩٦٣

ذاتها دون معتقدات ودون لغة وكتابة ، أي الحياة لذاتها وبذاتها . وتلك حقيقة تشدنا الى دراسة تاريخية وتحليلية الى ما يمكن أن نطلق عليها « الأنا اليد » التي أخذت مفاهيمها لتكون دلالة على مصدر ذاتية الانسان المعقدة ، كما تدل على وجوده البحث لانه بما أمكنه أن يقول « أنا يد فأنا موجود » ، بهذا يتبلور المعنى الرمزي في صورة كهف « وادي سورة » بحلف الكبير بليبيا . لتعني أن يد الانسان تدفع به قدما وتعطيه الامل لمستقبل كل الأجيال القادمة .

هذه قصة « اليد » والخط لسان اليد فهي التي كتبت وابدعت ، وشكلت فنونه . أما قصة الكتابة فهي قصة الحضارة بنفسها ، نراها في كل مكان ونجدها أينما ابنعث المدنية وازدهر الرقي ، والكتابة وجدت لحاجة الانسان اليها ، تطورت معه ، وارتقت بارتقائه وأخذت سبيلها الى قمتها مع تقدمه العقلي والذوقي ، ولا توجد حضارة أولت فن الخط ذلك الاهتمام القيم مثل حضارة الشرق الاسلامي .

وقبل أن نتناول بعضا من الآراء التي بحثت مصادر الكتابة العربية أريد أن أقف عند تقل موضوعي قد يكون له أهمية ذات شأن في تقارب اللغات وتشابه ابجديتها التي كانت سائدة في المنطقة كلها ، وان هذا التقارب نراه في طبيعة تجانس العرق العربي وتفاهمه بلغة واحدة ذات لهجات متباينة يتيسر فهمها رغم اختلاف المواطن وتباعد البيئات . ونأخذ فيما نأخذ على سبيل المثال كلمة اللات وهي آلهة العرب قبل الاسلام أينما كانت مواطنهم ، والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النجم ١٩ - ٢٠ .

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » ومناة هذه كانت من آلهة النبطيين وكانوا يطلقون عليها اسم « منوتو » وكان أهل تدمر يطلقون عليها اسم « منوت » كما نجدها « عيد منت » عند أهل ثمود .

وعلى هذه الصورة تتميز مجموعة شعوب الجنس العربي الذي يسمى خطأ الجنس السامي[٣] الذي له صفات تشريحية ولغوية معينة مشتركة « فبين اللغات السامية من التشابه الكبير في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه ان ينسب تقاربها الى حدوث اقتباسات فيما بينها في العصور التاريخية وانما لا سبيل الى تفسير هذا التقارب الا بافتراض أصل مشترك لها »[٤] .

وحروف العربية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها القدماء أنها جاءت بهذا القدر

---

(٣) ليس هناك ما يسمى بالجنس السامي أو الشعوب السامية انما هي اصطلاح حديث خرج علينا به الاستاذ شلوزر وقصد بها الشعوب التي تسكن الجزيرة العربية ومنطقة الرافدين والشام الكبرى وسيناء .

(٤) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة ، سيد يعقوب بكر من دار القاهرة بدون تاريخ .

مثل منازل القمر المقسمة الى ثمانية وعشرين قسما ، ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الارض أربعة عشر منزلة ويغيب تحت الارض أربعة عشر كانت هذه الحروف مايظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة ، وهي الألف والباء ، والحاء المهملة والخاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم منها أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة وهي التاء المثناة من فوق والثاء المثلثة ، والدال المهملة والذال المعجمة والزاء والذاي والسين المهملة والشين المعجمة ، والصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة والنون والجيم المعجمة » (*) .

وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة يس الآية ٣٩

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

واذا تناولنا هذا التصور مع مفهوم الشهور القمرية التي أخذوا بها ورجعنا الى أن الاكاديين وهم سلالة عربية كانوا يعبدون الشمس ابنا لآلهة القمر « سين » ، وأن البدو الآراميين والعرب من أهل الجنوب كانوا يعبدون هذا الاله الذي مازالت أطلال معابده قائمة حتى الان في « الحريضة بحضرموت » . واذا أخذنا كل هذا وربطناه بطبيعة الصحراء التي تشكل المحافظة المطلقة على الجنس واللغة والعادات والمعتقدات ، فالأمر يذهب بنا الى مضمون اللغة وحروفها انما كانت لها دوافعها الطبيعية في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطها بالخط المسماري السومري الأكادي ، ولا بحروف المسند الذي يحدثنا عنه ابن خلدون فيقول « وقد كان الخط العربي بالغا مبالغة في الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين » (٦) .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الجنوب والشمال اي بين « اليمن » (الجنوب) ، والشام (الشمال) ولكن اذا كانت حروف « المسند » وهو الخط الحميري مختلفة في صورتها عن رسم الحروف الآرامية « العربية الشمالية » ، فاللغة كانت واحدة مثل الأصول

(*) القلقشندي : صبح الاعشى ، الجزء ٣ ص ١٦ ـ ١٧ القاهرة ١٩١٣ والحروف العربية ومنازل القمر ، قد يكون أول من قالها سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة ، انظر ابن النديم ، الفهرست ص ١٠ طبعة بيروت المصورة ١٩٦٤ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة صفحة ٣٢٦ القاهرة بدون تاريخ كتاب الشعب .

العرقية فأهل الجنوب كانوا من العرب العاربة ، وأن نسبهم كما تتحدث عنه المصادر العربية « متصل باسماعيل بن ابراهيم الخليل كما يحكي هشام بن الكلبي » (٧) فاللغة كانت لغة الشمال وذلك لأن هذا الشمال « الآرامي » كان له تاريخ قديم ضارب في اعماق « المكان » ترجع به على وجه التقريب الى « القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وفي نقش مسماري للملك الاكدي « نرام ـ سين » NARAM - SIN يذكر أرض « ايرم » وكانت تقع في الجزء الجنوبي من الرافدين » (٨) و « ارم » ذكرها الله في القرآن الكريم في سورة « الفجر » الآية رقم ٧ ، ٨

« ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد »

وكانت اللغة الآرامية وحروفها قد اصبحت منذ قيام الدولة الفارسية « الكيانية » ACHAEMENIA الذي يسميهم المسعودي « ملوك الفرس الاولى » لغة الهلال الخصيب » بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردي ، اذ كانت الرقم الفخارية في طريقها الى الزوال شيئا فشيئا (٩) .

لقد أصبحت الحروف الآرامية منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد حروفا للغة عالمية ، فاننا نجد فيما نجد كتابة آرامية عثر عليها في صقارة عن رسالة بالارامية من أحد ملوك فنيقية ، ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تيماء شمال الحجاز . . . وقد عثر على بردي آرامي في جزيرة الفنتين بأسوان وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية (١٠) .

ومن الخط الآرامي خرج الخط النبطي الذي كتبت به مملكة « سلع » ـ البتراء ـ PETRA النبطية (١٦٦ق .م ـ ١٠٦ب م) ورغم الاختلاف البين في رسم الحروف النبطية والعربية « فقد أثبت البحث العلمي الدقيق أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر صورة من خطوط النبط . . . ولم يتحرر الخط العربي من هيئته النبطية بحيث اصبح خطا قائما بذاته الا بعد أن استعاره العرب الحجازيون لأنفسهم بقرنين من الزمان وما تزال في الكتابة العربية حتى يومنا هذا في بعض الأقطار وفي كتابة المصاحف بوجه خاص آثار نبطية لم يستطع أن يتخلص منها الخط العربي على طول الزمن » (١١) .

---

(٧) المسعودي : مروج الذهب الجزء الثاني الطبعة الرابعة ص ٧٠ القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .
(٨) سبتينو موسكاتي : نفس المصدر ص ١٧٦ .
(٩) جيمس هنري بريستد : انتصار الحضارة ترجمة الدكتور احمد فخري ص ٢٦٦ القاهرة ١٩٦٩ .
(١٠) عبدالحميد زايد : نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق الادنى القديم
(٢) مجلة عالم الفكر ص ١٧٣ الكويت ـ وزارة الاعلام .
(١١) ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ص ١٧ سلسلة اقرأ ٥٣ .

ولا شك في أن الخط النبطي العربي وهو من خطوط الشمال ، يكاد أن تكون صورته أقرب شكلا الى الخط العربي في شكله المتطور ، الأمر الذي جعل الدارسين لهذه المادة وأصلها ، يذهبون الى أنه الخط الام أو هو الخط العربي في تصوير مغاير .

والانباط سكان البتراء وهي هذه المملكة التي قامت على مفهوم سياسي لعرب المنطقة الشمالية الذين أقاموا في هذه النواحي وظل سلطانهم السياسي قائما أكثر من خمسة قرون جاعلين عاصمتهم مركزا عظيما للقوافل التجارية بين أقصى الجنوب في بلاد اليمن وبين موانىء البحر المتوسط والطرق البرية عبر الاناضول ، حتى ازال الرومان مملكتهم ودمروا عاصمتهم « تدمر » وحملوا ملكتهم العربية اسيرة الى روما .

وأيا ما كان التاريخ فقد ظهرت الكتابة العربية لتحل طبيعيا اينما تواجد العرب في المكان ، ولقد ذهب بعض الدارسين لمادة الكتابة العربية ان جعل مصدرها مدينة « حران » ومنها انتقلت شمالا الى « بصرى » و « أم الجمال » ثم الى « زبد » لتصعد شمالا الى ناحية الشرق حيث مدينة « تدمر » لتسير نحو الجنوب الشرقي حيث مدينة « أنير » ثم « الحيرا » ثم الى الغرب في مدينة « دومات الجندل » ومنها جنوبا الى مدينة « مدين صالح » ثم الى « يثرب » لتستقر بعد ذلك في مكة موطن قريش .

وهذه المسيرة لا تستند على أي شواهد أو براهين ، غير ما ذهبت به « نبية عبود » لتقول : « أنه يبدو من الغرابة لأول وهلة أن الخط العربي الشمالي لم يكن له شأن في الجنوب »[١٢] ولا شك في أنها قد استندت في هذا الرأي على جميع النصوص العربية اينما وجدت خارج الجزيرة العربية الأمر الذي جعلها تذهب في أن هجرة الحروف العربية انما وجدت خارج الجزيرة العربية ، لأنه حتى الآن لم يعثر على أي نقوش أو خربشة تعطينا أي دليل على أن هناك غير المنطقة الشمالية هي وحدها التي تواجد بها كتابات نبطية عربية . وفي ذلك الكتاب الذي أصدرته وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م تحت اسم AN INTRODUCTION TO SAUDI ARABIAN ANTIQUITIES وبه إلمامه مصورة مقتضبة النص تدل أن مدن « عسير » و « نجران » و « مدين صالح » و « العلا » و « تيماء » وغيرها من المدن ، وحيث عثر على خطوط « ثمودية » و « لحيانية » و « الصفوية » وهي مشتقة من الخط « النبطي » في صورته « الآرامية » وليس في صورته العربية التي تجد

(١٢) N. ABBOT, THE RISE OF THE NORTH ARABIC SCRIPT, P. CHICAGO, 1938.

نماذجه الاولى على وجه الاحتمال في نقش « النماره » الذي عثر عليه الاستاذ « رينيه ديسو » R. DUSSAUD شرق « حوران » ونقش « زيد » في جنوب شرق « حلب » ومؤرخ سنة ٥١٢م ونقش « حوران » في « اللجا » مؤرخ سنة ٥٦٨م ، بيد أن أهمها على الاطلاق هو نقش « النماره » الذي وجد على قبر « امرىء القيس بن عمر » وعليه تاريخ بالتقويم البصروي الذي يبدأ سنة ١٠٥م ويحتوي على خمسة أسطر :

١ - تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اصر التاج ،

٢ - وملك الاسدين ونزار وملوكهم وهرب محجو عكدي وجاء

٣ - يزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبين بنيه

٤ - الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بابكسول بلسعد ذو ولده

وأقرب معنى لنقش النمارة قد يكون على هذا النحو :

١ - هذا جسد امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حل التاج .

٢ - وملك الأسد ونذار وملوكهم وهرب محج لليوم وجاء .

٣ - بالظفر الى اسوار نجران مدينة شمر وملك ابنائه .

٤ - على القبائل وجعلهم فرسان الروم ولم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - الى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ يكسول (بالاله) سعد الذي ولده .

ويذهب الدكتور « حسن ظاظا » أن الخط المستعمل في هذا النقش هو الخط النبطي ، واللغة العربية المستعملة تعرضت هي ايضا لتحريفات نبطية وأن « ديسو » و « ماكلير » لا يعتبران هذا النص عربيا ويضمانه في كتابهما في الباب الخاص بالنصوص النبطية [١٣] .

وقد تكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا ، اذا كانت الحروف العربية قد جاءت بصورها من الشمال فهي ولا شك قد تبلورت وتشكلت بين « مكة » حيث البيت العتيق والمدينة ، وأن سكان قلب الجزيرة قد تعالوا على غيرهم من الشعوب المحيطة بهم بلغتهم العربية السليمة التي جاء القرآن الكريم ليكون معجزة دين ومعجزة بلاغة ولغة ومعجزة حروف مكتوبة ، لأن الكلمة كانت لديهم صورة رمزية لحروف ينطقونها في سليقة فطرية لا نجد لها نظيرا مطلقا عند أي شعب من شعوب المنطقة بل ولا حتى الكثير من البطون العربية المختلفة ، وذكر لنا « الفارابي » المتوفي سنة ٣٣٩هـ - ٩٥٠م في مقدمة كتابه « الالفاظ والحروف » « لقد كان

(١٣) الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ وحاشي ص ١٦٧ الاسكندرية ١٩٧١ .

لقريش أجود العرب انتقاء الافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس ، وعنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي بين القبائل »⁽١٤⁾ . ويذهب الفارابي في رأيه هذا بأن اللسان الكامل « لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون (بالسريانية) ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم أهل اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم »⁽١٥⁾ .

ولم يبق غير « قريش » من بين كل العرب في استواء لغتهم ومنهم أخذت العربية التي وجدنا فيها أن الصلة بين الدلالات اللغوية والادراك العقلي هي القاعدة التي يتناولها علم اللغة لتجذيد القيم السوية عند الشعوب وذلك لان الحروف رمز للفظ واللفظ رمز للفكر ، وتغيير الحروف يشكل تغيير الرموز الامر الذي يؤدي الى خروج الرمز من التجريد الى الواقع وهنا يتشكل الاساس اللغوي عند الشعوب .

ويستقيم منطق الاعجاز لدى اصحاب اللغة العربية ابان جاهليتهم في معلقاتهم ، التي لم يتبق منها غير سبعة أو عشرة على رأي آخر والتي نجد فيها أن التصور العربي الذي أحاط بالكلمة الموزونة يشكل في ذاته قمة اللغة وقمة التصور حتى أنهم كتبوها على « القباطي » بماء الذهب وعلقوها على استار الكعبة ، وأطلقوا عليها « المذهبات » ومنها معلقة امرىء القيس والنابغة الذبياني ، وزهير بن ابي سلمى ، ولبيد ، وطرفه ، وعلقمة ، والاعشى ، ومن هذه الحقيقة نأخذ الدليل على استعمال الكتابة ومعرفتهم بها كما يؤكد لنا قول امرىء القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزبور في عسيب يماني

وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما
كخطك في رق كتابا منمنما

وأصحاب هذه الاصالة الشعرية والكلمة العربية الموزونة امتد بهم الفهم والمعرفة الواعية القلة ليسير بهم الزمن قدما الى هذا الحقل الذي

---

(١٤) ا . ليتر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الاول ص ١٢ القاهرة ١٩٧٧ .
(١٥) نفس المصدر : ص ١٢ ، ١٣ .

تناوله « الخليل بن احمد الفراهيدي » عبقري العرب الذي كتب كتاب العين الذي اصبح من بعده بداية للمعجمات الضخمة والقواميس الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند اي امة من الامم ، قديما أو حديثا ، وبعد الخليل بن احمد تناول هذه المادة تلميذه « سيبويه » ومن ثم اصبحت المعاجم اساسا للفكر الاسلامي اللغوي حيث تدفقت « الجمهرة » لابن دريد ، و « التهذيب » للازهري و « المحيط » لابن عباد ، و « المجمل » لابن فارس و « الصحاح » للجوهري و « اساس البلاغة » للزمخشري و « القاموس المحيط » للفيروزابادي .

وكان من الطبيعي ان تظهر مثل هذه المعاجم الموسوعية وذلك « لأننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي ، تامة في الفاظها وصيغها وصرفها ونحوها وأوزانها وفي قوة التعبير بها . تلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين الى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجته يتكلمها اهله ، فان اهالي الاصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة اذا تحدثوا ويفهمونها اذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين » (١٦) .

وحين جاءت حركة الفكر الاسلامي لتأخذ سبيلها الى صميم الخط العربي لتكون دافعا من الدوافع الرئيسية للتذوق الفني الذي وقع في نفوس المسلمين ايا كانت مواطنهم « تشكيلا رفيعا ظهر واقعه ليصل التركيب الحرفي للفظ مكتوب الى المستوى الرفيع الذي كان عليه التركيب اللفظي المنطوق » (١٧) .

وكان لهذا المذاق دوافعه المبكرة عندما تحول العرب الى الدين الاسلامي وعند أول آياته التي نزلت على رسول الله عليه الصلاة والسلام في سورة العلق ١ ـ ٥ حيث قال الله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم »

ومن هنا التزم المسلمون بكتابة الوحي وحفظ القرآن في الفؤاد ، وبواسطة الخط الذي وقع في نفوسهم موقع الالتزام وموقع الحق الامر الذي نجده في القوالم « الخط الحسن يزيد الحق وضوحا » (١٨) .

والموازنة بين التجويد والمثالية في الكلمة المكتوبة كما هي في الكلمة المنطوقة تأخذ لها آصرة محكمة تربط بين الاثنين وذلك لأن « البيان في اللسان والخط في البيان » ، كما كان يقول عبدالحميد الكاتب ، وعلى هذا النحو

---

(١٦) مجلة الأدب والفن : دكتور عمر فروخ ، الثقافة العربية الجزء الرابع ص ٢٠ ، ٢١ السنة الاولى لندن ١٩٤٤ .
(١٧) محمود حلمي : نقاط في مدخل الفن الاسلامي ، دراسات أثرية وتاريخية ص ٤٣ مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٧١ .
(١٨) عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس وانس المجالس ص ٣٥٧ القاهرة ١٩٦٢ .

يحدثنا « القلقشندي » في قوله : « اما الموازنة بين الخط واللفظ ، فالاصل في ذلك ان الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث أن الخط دال على اللفظ والالفاظ دالة على الافكار . ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الميزة وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما وذلك لانهما يعبران عن المعاني . الا أن اللفظ معنى متحرك ، والخط معنى ساكن ، وهو وان كان ساكنا فانه يفعل فعل المتحرك بايصاله كل ما تضمنه الى الافهام وهو مستقر في حيزه قائم في مكانه ، كما أن اللفظ فيه العذب الرقيق السائغ في الاسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الاشكال والصور »(١٩) .

وحقيقة الحركة هذه التي حدثنا عنها « القلقشندي » في الحيز الساكن اي في الحرف المكتوب المجود ، كانت من الحقائق التي استوعبها الفن الاسلامي وأقام أصوله عليها والتي بها وعند مفهومها الباطني بنى الفنان المسلم واقعية الشكل الخارجي والتزم التحرر في تناوله الفني للاشكال . واعاد رؤيتها من جديد في صورة تركيبية مختلفة عما هو قائم في الطبيعة الموضوعية ، والتي بها أصبح مفهوم العمل الفني قائما على التجريد التصوري الذي لا سكون فيه بل هو حركة مستمرة متدفقة(٢٠) .

وهكذا ومن أعماق هذا المفهوم الباطني ارتفع الخط العربي الى مستوى الكلمة المنطوقة « لأن الكلمات نفسها موزونة في لغتنا العربية ومشتقاتها تجري كلها على صيغ محدودة الأوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب وافعال اللغة منسوبة الى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والامر ، وفي الاسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الاوزان ، ولا نظير لهذا التركيب الموسيقي في لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا في كثير من اللغات السامية »(٢١) .

« واذا كان امتياز الحروف بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا مجال فيها للمحال فالأذن العربية تميز بين الصاد والضاد وبين الدال والذال ، وبين الحاء والخاء والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم والعين والغين ، وبين القاف والكاف والخاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الاخرى بين هذه الحروف »(٢٢) .

---

(١٩) القلقشندي : نفس المصدر ص٥ .
(٢٠) محمود حلمي : نفس المصدر
(٢١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية ص١٠٥ ، السلسلة المكتبة الثقافية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
(٢٢) المصدر ذاته ص١٠٨

ثم هناك هذه الحقيقة التي تناولها علماء التجويد الذين أتوا برسوم « صوروا فيها الحلق واللسان لبيان مخارج الحروف . والقالب الا يتجاوز ذلك فيها وقد يصورون في حفظها الوجه جيمه ولكن على قلة ، وعندنا شرح للشافعية الحاجبية في الصرف للحسن بن ابراهيم النيسابوري المعروف بنظام ، في اواخره صورة الحلق واللسان والشفتين لبيان مخارج الحروف » (٢٣) .

وجاء الخط العربي المجود ، جاء ليرتفع الى هذا المستوى الذي تقوم عليه لغتنا العربية ، ولذلك نجد أن الشكل في الخط العربي هو بالضرورة رابطة بين الشعور الانساني والموضوع الخارجي ، أي بين الذات والحروف ، وهذا يعني ان ثمة تكامل قائم فيما بين الحيز والصيرورة ، واتحاد وثيق بين الباطن كجوهر والشكل كمعنى ، على نحو لا نجده في أي فن آخر حتى في الموسيقى والشعر وهما من الفنون السمعية وهو من فنون الرؤية والمكان ، واذا كان « الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى كما يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فان الخط المجود وسيلته اليد الشاعرة التي تسمع وترى . وذلك لأن كثافة الحروف قد تلاشت داخل الحيز وان قيما جمالية قد اسقطت على هذه الحروف المكتوبة ، ومن هنا أصبحت الجمالية الموضوعية للحروف العربية تأتي بطبيعتها عند الخطاط المجود ، ان تبدأ أولا بتقويمها مبسوطة لتصبح صورة كل حرف منها على حيالها ، ثم تأخذ في تقويمها مجموعات مركبة ومتفاوتة القياس والشكل » .

واذا كانت المعلقات جميعها وغيرها من الشعر الجاهلي قد كتبت بالذهب على قماش « القباطي » ، وعلقت على الكعبة فهي ولا شك لم تكتب بالخط العربي النبطي انما كتبت بالخط العربي « المكي » أو « اليثربي » ، الذي ذهب فيه « البلاذري » : « اجتمع ثلاثة نفر من طيء وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الانبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الانبار ، وكان بشر بن عبدالملك أخو اكيدر بن عبدالملك بن عبدالجن الكندي ثم « السكوني » صاحب دولة الجندل يأتي الحيرة فيقيم فيها الى الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن امية بن عبد شمس وابو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا » (٢٤) .

---

(٢٣) احمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ص ٢٥ ـ القاهرة ١٩٤٢ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ـ ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ـ القاهرة ١٩٥٩ .

انظر ايضا ابن النديم ، الفهرست ص ٥ ، ٦ طبعة بيروت المصورة ١٩٦٤ .

ورواية « البلاذري » لا تستند الى أي برهان علمي يمكننا الاستناد عليه ومن هنا لا يسعنا الا أن نأخذ من هذه الرواية . الا أن هناك نفرا من العرب كانوا على بينة من الخط والكتابة العربية قبل الاسلام الذي جاء « وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب » [٢٥] وكانوا يطلقون على خطهم « الخط المكي » اقتلت بعض المصادر صورة منه نسبوها الى « ابن النديم » وهي هذه البسملة التي اوردها « بوب » في الكتاب الذي أشرف عليه وسماه « موسوعة الفن الفارسي » [٢٦] وهذه البسملة اذا وضعت في موضع للمقارنة مع أي نموذج من أوراق البردي المصرية التي عثر عليها في « كوم اشقوه » وهي مدينة « افروديتوبولس » وتقع على بعد ثلاثة أميال في الجنوب الغربي من مدينة مشطة بمركز ابوتيج [٢٧] من مجموعة دار الكتب المصرية أو مجموعة الارشيدوق رينر التي منها « بردية اهنسيا » (٢٢هـ ـ ٦٤٣م) أو على الشاهد الحجري الخاص « عبدالرحمن بن خير » (متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم ١٥٠٨/٢٠) فاننا نجد ان لا صلة تربطها مع خطوط هذه الشواهد الاثرية التاريخية المؤكدة التي يستدل منها على وجه اليقين أن الخط العربي المستعمل آنذاك كان خطا لينا ولكنه لا يتماثل مع خط هذه البسملة ، وانه لم يكن يتشابه مع خط آخر كان هو ايضا شائعا وله شأن كتبت به مدينة يثرب ، وهو ذلك الخط الذي شاع استعماله بعد ذلك في مدينة الكوفة ، وهو الخط الذي شاع وانتشر لأن مصاحف عثمان كتبت به .

ولا شك أن أول تجويد الخط العربي ظهر بفضل كتابة « المصحف الامام » الذي امر الخليفة الثالث عثمان بن عفان بجمعه على أكمل صيغة عربية وهي لهجة « قريش » وارسلت هذه المصاحف ، وكانت ستة ، الى الامصار ، وترتب على ذلك ان شاع منذ ذلك الحين خط هذه المصحف وكتبت به كافة بلاد الخلافة الاسلامية .

ومن هنا نجد أن العناية بتجويد الخط العربي انما يرجع أولا الى كتابة القرآن الكريم ، ومن ثم وقع الثقل على الكتابة العربية عندما عربت الدولة الاموية الديوان الاسلامي .

ولسنا ندري أين ذهبت نسخ « المصحف الامام » الستة ، وأغلب الظن أنه لم يعد باقيا شيئا منها الآن ، وان هذه المصاحف الموجودة في متحف « طوب قابو » باستانبول في الحجرة التي يطلقون عليها (سونت أوده سي) والمكتوب على رق ، ليس هو بمصحف عثمان الذي

(٢٥) نفس المصدر ـ ص ٤٧٧ .

(٢٦) A.U.POPE, SURVEY OF PERSIAN ART, OXFORD 1937.

(٢٧) ادولف جروهمان : اوراق البردي العربية ، السفر الاول ـ ص ١١ القاهرة ١٩٣٤ .

استشهد عليه ، ولا يمكن بحال ما أن تكون هذه هي حقيقة هذا المصحف وذلك لسببين بينين ، أولهما أن الحروف عليها رقش متكامل ، الامر الذي لم يكن شائعا في عصر الخلفاء ، وثانيا أن الحروف على درجة ملحوظة من الاتقان .

وهناك مصحف آخر نسب الى « عثمان بن عفان » يوجد بدار الكتب المصرية (رقم ١٣٩) والمصدر في ذلك أتوا به من كتاب « الخطط التوفيقية » الذي نقل مؤلفها « علي باشا مبارك » عن المقريزي انه كان في الجامع العتيق ، وهو ايضا مكتوب على رق غزال والكتابة الكوفية في هذا المصحف موجودة ، ويمكن بالمقارنة مع رسم الحروف أن يرد مصدرها الى الكتابة الكوفية التي استعملت في القرن الخامس الهجري ، والدليل على ذلك أن هذه المصاحف الاخرى المعروضة في دار الكتب المصرية والمكتوبة على رق ، والتي ترجع الى القرن الرابع الهجري هي أقل جودة من مصحف عثمان هذا المزعوم . ويحدثنا المقريزي أنه « حضر الى مصر رجل من أهل العراق واحضر معه مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وانه الذي كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه اثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر ، ودفع المصحف الى عبدالله بن شعيب المعروف بابن بنت ولد القاضي ، فأخذه أبوبكر الخازن وجعله في جامع (عمرو) وشهره وجعل عليه غشبا منقوشا ، وكان الامام يقرأ فيه يوما وفي مصحف اسماء يوما ولم يزل على ذلك الى أن رفع هذا المصحف واقتصر على القراءة في مصحف اسماء وذلك ايام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة » [٢٨] .

وليس لاحد أن يزعم ان في حوزته أحد من مصاحف الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ما لم يخضع هذا المصحف للفحص العلمي الشامل الدقيق ، ومن دراسته وتحليل الرق الذي كتب عليه ومن فحص كيماوي للحبر الذي كتب به ، تقول الرواية أن « زيد بن ثابت » هو الذي كتب المصاحف العثمانية أو على الاقل كتب بعضا منها ، ولابد أن الحروف التي كتب بها هي دون شك حروف الخط المدني في أبسط صوره ، وليس من الصعب علينا أن نحصر رسم الحروف التي كانت مستعملة آنذاك ، ومقارنة كل حرف منها بالحروف التي نجدها في مصاحف عثمان الاربعة الموجودة الآن .

« والتي يسود الوهم أن عثمان كتبها وهي ١ - مصحف طشقند ٢ - مصحف المشهد الحسيني بالقاهرة ٣ - مصحف الآثار الاسلامية باستانبول (متحف الآثار الاسلامية التركية TURK VE ISLAM ESER-LERI MUZESI) ٤ - مصحف متحف

---

(٢٨) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، الجزء الثاني ص ٢٥٥ ، النسخة المصورة ببغداد .

طوب قابو باستانبول . وخلاصة القول ـ كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد ـ أن هذه المصاحف الاربعة رغم نسبتها الى عثمان ليست بخط واحد ، ولا قياس واحد ، ولا عصر واحد ، ونرجح أنها نقلت عن أصل عثماني قديم ، أي عن أحد المصاحف التي أرسلها عثمان الى الامصار لذلك اطلق عليها مصاحف عثمانية ، ثم توسعوا فجعلوا بعضها بخط عثمان » (٢٩) .

واذا لم يكن لدينا دليل قاطع على أن هذه المصاحف هي مصاحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان فليس لنا أن نأخذ بمثل هذه الروايات التي لا سند عليها ، وتبقى الحقيقة لدينا في نسخ من القرآن كتبت بالخط الكوفي سجل عليها وقفية مؤرخة سنة ١٦٨ هجرية (٧٨٤ ـ ٧٨٥م) وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكذلك « هناك قطع من القرآن مكتوبة بالخط الكوفي على رق غليظ وهي ذات قيمة أثرية عظيمة ، وأغلب الظن أنها ترجع الى ما بين آخر القرن الثاني الهجري وآخر القرن الرابع ، واقدم هذه القطع تشمل قسما كبيرا من الجزء الخامس والعشرين وفواصل آياتها وورود صغيرة ملحبة » (٣٠) . وفي الواقع أن رسم المصاحف قد قارب الكمال في الاتقان الكلي بما يتعلق بكتابته « حتى اذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث بلغ الرسم ذروته من الجودة والحسن ، وأصبح الناس يتنافسون على اختيار الخطوط الجميلة ، وابتكار العلامات المميزة حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس ، ولألف الوصل فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ماقبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة كما يقول الزرقاني » (٣١) .

ويعد المحاولة الاولى في تحسين الخط العربي أثناء كتابة المصحف الامام ابان خلافة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) ، تأتي المحاولة الثانية في الاسلام التي كان للعصر الاموي الفضل فيها بجانب فضله في نقل صناعة الورق من اطراف بلاد الصين الى الشام حيث تمكن المسلمون بعد ذلك من تطوير صناعته . وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي ، الذي حددت به أنواع الكتابة العربية الاولى ، وذلك لان الورق كان يصنع بمقاسات معينة لا سبيل الى تغييرها ، واشتملت احجامه على مقاس « الطومار » وهو نصف الدرج الذي كان يصنع من نبات البردي الذي أهمل استعماله بعد ذلك وكان مقاس « الطومار » وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة ،

---

(٢٩) الدكتور صلاح الدين المنجد : دراسات في تاريخ الخط العربي ـ ص ٥٠ ، ٥٥ بيروت ١٩٧٢ .
(٣٠) ادوارد روبرتسون : أوراق البردي والمخطوطات العربية بمكتبة « جون ريلاندز » بمانشستر . مجلة الآداب بالقاهرة ـ ص ٧٩ ، ٨٠ ـ الجزء الرابع ـ العدد ١٩٤٤ .
(٣١) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ـ ص ٩٤ ، ٩٥ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٦٤ .
المصدر : محمد عبدالعظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٤٠١ القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م

ويعده تأتي المقاسات المختلفة التي لكل منها نوع من الخطوط استخدموه ليلائم قطع الورق .

وقبل أن نتكلم عن سبيل الخط العربي الى الاصلاح والتقويم والتحسين والتجويد والجمال ، علينا أن نذكر الكتابة العربية في إعجامها وفي رقشها لأهمية هذا وذاك . لقد كان الاعجام سليقة فطرية عند العرب ، أما الرقش لقد كان له وجود قائم قبل يحيى بن يعمر وأبي الاسود الدؤلي « ولدينا حديث عن هذا الشأن جاء به ابن الاثير قال « أن النبي عليه السلام قال اذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوهما بالياء وبهذا كانت النقاط توضع في المصاحف ، انما وضعت على الياء والتاء وهذا ما ذكر في كتاب (المحكم في نقاط المصاحف لابي عمر الداني) ومن ثمة تأتي رواية « معاوية » التي يرويها عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال « كتبت بين يدي معاوية كتابا فقال لي : ياعبيد ارقش كتابك فاني كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يامعاوية ارقش كتابك » قال عبيد وما رقشه ياأمير المؤمنين ، قال : أعط كل حرف ما ينوبه من النقاط »[٣٢] .

وأول من ظهر في العصر الاموي (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) كما يحدثنا ابن النديم ، « كان قطبة هو الذي استخرج الاقلام الاربعة ، واشتق بعضها من بعض ، وكان اكتب الناس على الارض العربية[٣٣] . وقامت شهرته على ابداعه أقلاما جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المدينة ولا أهل كة ولا الكوفة والبصرة . وهذا يعني أن هذا الخطاط الاموي قد خرج عن الخط « المبسوط » اليابس والتزم الخط « المقور » الذي يسمى بالخط « اللين » ، والذي كان شائع الاستعمال في مكة وفي المدينة » وخط التقوير أو المقور أو المستدير استعمل في كتابة رسائل النبي عليه الصلاة والسلام وبه ايضا كتبت مصاحف عثمان[٣٤] ويذكر لنا « القلقشندي » نقلا عن الشاطبي صاحب « الابحاث الجميلة في شرح « العقيلة » والخط العربي المعروف الآن بالكوفي في عدة اقلام مرجعهما الى اصلين وهما التقوير والبسيط . فالتقوير هو المعبر عنه الآن باللين وهو الذي تكون عرقاته وما في معناها منخسفة منحطة الى الأسفل كالثلث والرقاع ونحوهما . والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس ، وهو ما لا انخساف وانحطاط فيه كالمحقق وعلى ترتيب هذين الاصلين الاقلام الموجودة الآن . ثم قد ذكر صاحب اغاثة المنشيء ان أول من نقل الخط العربي الكوفي الى ابتداء هذه الاقلام المستعملة

(٣٢) د . محمد حنفاظ : صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة ـ مجلة فن وفكر ص ٣٦ العدد ٣ السنة الثانية ـ المانيا الغربية ١٩٦٤ .
المرجع الثمين رواية السيوطي ، وابن عساكر .
(٣٣) ابن النديم : نفس المصدر ص ٧ .
(٣٤) ابراهيم جمعه : قصة الكتابة العربية ـ ص ٢٧ ، ٢٨ مجموعة اقرأ .

الان في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس » [٣٥] .

ولدينا نماذج متباينة من الخط « المقور » وجدناها في أوراق البردي ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري . ومما نقله ايضا المؤرخ المصري « القلقشندي » قال أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب . . أن جودة الخط انتهت الى رجلين من أهل الشام يقال لهما : الضحاك ، واسحاق بن حماد وكانا يخطان الجليل ، وكأنه يريد الطومار أو قريبا منه » [٣٦] ولدينا نصوص تدل على أن الخلفاء الامويين كانوا يكتبون رسائلهم بقلم الطومار . . ويذهب الجهشياري أن الوليد بن عبدالملك كان أول من كتب من الخلفاء في الطومار » [٣٧] .

واذا كان للعصر الاموي الفضل الأول في تجويد الخط العربي فله كل الفضل بجانب فضله هذا نقله لصناعة الورق ، وأول ما عرف من الورق عرف باسم القرطاس الشامي - الذي حدثت به أنواع الكتابة العربية الاولى وذلك لان الورق كان يصنع من البردي الذي أهملت صناعته واستعماله بعد ذلك ، وكان مقياس الطومار وهو أكبر مقاس في ورق الكتابة وبعده تأتي المقاسات التي لكل نوع منها نوع من الخطوط استخدموه ليلائم قطع الورق هذا ، والطومار كمقاس للورق له عدة أنواع :

١ - الطومار البغدادي وعرضه ذراع مصري واحد . ٢ - الطومار الحموي وعرضة دون قطع البغدادي بقليل . ٣ - الطومار الشامي وهو دون قطع الحموي بقليل . ٤ - الطومار المصري وهو دون قطع الشامي بقليل . ٥ - الطومار المغربي وهو دون قطع المصري بقليل .

وحسبي أقول حقا اذا قلت أن القلم الجليل الذي عاصر تاريخ الخط العربي ومازال قائما حتى الآن قد ابدعه الخطاط الدمشقي عند رغبة الخليفة الاموي السادس « الوليد بن عبدالملك » (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) لانه أمر أن تعظم كتبه ويجلل الخط الذي يكاتب به أو على حد قوله كما يذكر « الجهشياري » « تكون كتبي وكتب الناس الى خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض » [٣٨] .

وقد صار هذا القلم الاموي فيما بعد يسمى بالقلم الطومار وهو أكبر الاقلام « وقدر الكتاب مساحة عرضه بأربعة وعشرين شعرة من شعر البرذون وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في

(٣٥) القلقشندي : المصدر السابق ص ١١ .
(٣٦) القلقشندي : المصدر نفسه ص ١٢ .
(٣٧) الدكتور صلاح الدين المنجد : نفس المصدر ص ٨١ .
(٣٨) نفس المصدر ص ٨١ .

الـزمـن المتقـدم في ايـام بني امـيـة فـمـن بعدهم »[٣٩] .

ثم أتى بنو العباس بخلافتهم العباسية (١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م) ليظهر أول ما يظهر خطاطان أصلهما من دمشق الاموية ، وهما « الضحاك » و « اسحاق بن حماد » وقد عاش الاول في عهد « ابي العباس عبدالله السفاح » والثاني في عهد خلافة « ابي جعفر المنصور » و « ابي عبدالله محمد المهدي » وكانا يخطان (بالقلم) الجليل على حد قول « ابي جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب » وكأنه يريد خط الطومار أو قريبا منه »[٤٠] .

ومن بعدهما ظهر « ابراهيم السجزي » الذي تتلمذ على « اسحاق بن حماد » وأخذ عنه قلمه الذي عرف باسم القلم الجليل واستنبط منه خطين جديدين متجانسين هما خط الثلث وخط الثلثين ومات « السجزي سنة ٢١٠ هجرية ، والسجزي كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن الصايغ في تحفة اولي الالباب نسبة الى اقليم سجستان »[٤١] .

كما أبدع أخوه يوسف السجزي خطا جديدا أطلق عليه « خط التوقيع » « لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهر القصص . وان ذا الرياستين الفضل بن هارون أعجب به وأمر ان تحرر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسي »[٤٢] وقد أعطانا أبوالعباس احمد بن علي القلقشندي (٨٢١هـ - ١٤١٨م) نماذج من حروفه في كتابه « صبح الاعشى » .

ومن ابراهيم السجزي اخذ الخطاط الاحول المحرر أو احد الاحول كما اطلق عليه الاستاذ بهجت الاثري وهو من صنائع البرامكة كما يقول عنه محمد طاهر الكردي الذي حدد ثقله « بأن خطه مع روعته وبهجته لم يكن مهندسا »[٤٣] وعن صفات الرأي الذي وصفه به من قبل أبوجعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب وقال عنه « كان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير احكام ولا اتقان وكان عجيب البري للقلم »[٤٤] ومهما كان من أمر فقد أبدع « الاحول المحرر » عدة اقلام استمد اصولها من القلم الجليل ، منها ذلك القلم الذي سماه خط

---

(٣٩) القلقشندي : المصدر السابق ص ٤٩ .
(٤٠) القلقشندي : المصدر ذاته ص ١٢ .
(٤١) المصدر السابق ، حاشية على حاشي ، ص ١٢ .
(٤٢) المصدر ذاته ص ١٠٠ .
(٤٣) محمد طاهر الكردي : تاريخ الخط العربي وآدابه ، ص ٣٠٩ ، القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .
(٤٤) القلقشندي : المصدر ذاته ، ص ١٢ .

النصف ، وآخر سماه خفيف الثلث ، وثالث سماه المسلسل الذي يكتب متصل الحروف : « وكان الخليفة المأمون معجبا بخط « الاحول المحرر » كما كان استاذا للخليفة المقتدر وأولاده » [٤٥] .

بيد أن دور العراق العباسي في تجويد الخط العربي قد تمثل في ثلاثة من كبار الخطاطين وافذاذهم وابعدهم شهرة وصيت وعلم وفن . الاول هو الوزير « ابن مقلة » والثاني « ابن البواب » والثالث « ياقوت المستعصمي » .

الاول : « أبو علي محمد بن مقلة » (٢٧٢ ـ ٣٢٦هـ / ٨٨٥ ـ ٩٠٨م) قال عنه « مستقيم زاده سليمان سعد الدين افندي » في كتابه تحفة خطاطين « أنه مقلة حدقة الزمان » وهو ذلك الاكاديمي الذي منهج لنا الخطوط العربية وضبط نسب حروفها وحدد شكلها واحكم العلاقات الهندسية التي بينها حتى اصبحت علما له مناهج مدرسية محكمة ، وهو الذي اعتمد عليه القلقشندي في كتابة مادته عن الخط العربي في موسوعته العلمية التاريخية المؤلف في مصر سنة (٨٢١ ـ ١٤١٨م) وقال عن ابن مقلة « هو الذي هندس الحروف واجاد تحريرها ، وعنه انتشر الخط في مشارق الارض ومغاربها » [٤٦] .

ولابن مقله « بخط يده رسالة في علم الخط والقلم موجودة او حبيسة دار الكتب المصرية وتحتوي على القوانين والقواعد في رسم الحروف العربية الموجودة ، معتمداً على منهج قطر الدائرة التي تبنى عليها جميع أقواس الحروف الابجدية المفردة واعتبر الألف (القطر) هو الأساس الهندسي لضبط الحروف » [٤٧] .

استوزره الخليفة العباسي أبوالفضل جعفر المقتدر بالله (٢٧٩هـ) ثم استوزره الخليفة ابومنصور محمد القاهر بالله (٣٢٠هـ) وقطع يده الخليفة ابو العباس احمد الراضي بالله (٣٢٢هـ) فقال « يد خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع ايدي اللصوص » [٤٨] .

واذا كان ابن مقلة هو أول من كتب الخط البديع الذي تطور بعد ذلك الى خط النسخ فله أيضا ستة أقلام هي الجليل ، وخط الثلث ، والثلث الخفيف ، وقلم التوقيعات ، وقلم

---

(٤٥) زكي صالح حمود الجبوري : الخط العربي الاسلامي ص١٤٣ بغداد ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

(٤٦) القلقشندي : نفس المصدر ص١٣ .

(٤٧) زكي صالح حمود الجبوري : المصدر السابق ص١٥٥ .

(٤٨) محمد طاهر الكردي : نفس المصدر ص٣٥٦ .

الرقاع ، وقلم الغبار ، وكانت مكانة ابن مقلة بين معاصريه كأستاذ ومتقن فنون الخطوط العربية وموضع تقدير ومن ذلك « قال ابوحيان التوحيدي في رسالته علم الكتابة ماروه عن الزنجي « اصلح الخطوط واجمعها لاكثر الشروط فاعلية اصحابنا في العراق ، فقيل له ما تقول في خط ابن مقلة قال : ذلك نبي فيه ، افرغ الخط في يده كما أوحى الى النحل في تسديس بيوته » [٤٩] .

وابوحيان التوحيدي هو ذلك المعلم المحقق الناقد الوراق الناسخ وفي رسالته هذه « يثير ابوحيان مشكلات كمشكلات هذا العصر في الفن وفي قواعده ، وأهمها وحدة الفنون ، فهو اذا تحدث عن حسن الخط وعن دور القلم ، فانما يتحدث عن الفن بصورة عامة وذلك انه كخطاط ووراق ، وكأديب مبدع وباحث ، لا يستجلب امثلة ولا تدور افكاره الا من معين مهنته وفنه » [٥٠] .

وبين الخطاط المجود والوزير الكبير تأرجحت حياة ابن مقلة ، تأرجحت بين عبقرية الفنان ومأساة الوزير . الذي انتهى به الأمر الى قطع يده ثم قطع لسانه ، وذلك لان الوزير كان له رغبة في الدنيا « استوزره الخليفة المقتدر ، وخلع عليه خلع الوزراء في سنة ستة عشر ، واستقل بأعباء الوزارة أمرا ونهيا ، وبذل فيها ما مبلغه خمسمائة ألف .. ثم استوزره .. الراضي ثم جرت خطوب أوجبت أن الراضي حبسه بداره ثم ضيق عليه وسعى به اعداؤه الى الراضي فقطع يده اليمنى » [٥١] ومات في حبسه مقتولا ، ومن شعره يشير الى قطع يده .

ما سئمت الحياة لكن توثقـ
ت بأيمانهم فبانت يميني
لم احسنت ما استطعت بجهدي
حفظ ارواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش
يا حياتي بانت يميني فبيني

وفي ثرى بغداد توسد جسد ابن مقلة الوزير ليختلط التراب بالتراب ، وفي تاريخ بغداد ظل الخطاط المجود حيا يعيش أبدا مع الزمان .

واخذ الخط عن ابن مقلة محمد بن السمسماني المتوفي سنة ٤١٥هـ ، ومحمد بن اسد البزاز البغدادي المتوفي سنة ٤١٦هـ ، ومن بعدهما ظهر مجود عظيم عرف باسم « ابن البواب » .

وابن البواب هو « أبوالحسن علاء الدين

---

(٤٩) ناجي زين الدين المصرف : بدائع الخط العربي ص٥٣٩ بغداد ١٩٧٢ .

(٥٠) الدكتور عفيف بهنسي : دراسات نظرية في الفن العربي ، القاهرة ١٩٧٤ .

(٥١) محمد بن علي بن طباطبا : الفخري ، ص٢٠١ القاهرة بدون تاريخ .

علي بن هلال ، قال عنه القلقشندي هو الاستاذ ابوالحسن ، الذي أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الاقلام التي اسسها ابن مقلة ، [٣٢] أي أن ابن البواب ، هذب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة ، [٣٣] .

ولابن البواب رائية تناولت منهجه في تجويد الخط العربي مطلعها :

يامن يروم اجادة التحرير
ويريد حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقا
فارغب الى مولاك في التيسير
أعدد من الاقلام كل مثقف
صلب يصوغ صناعة التحبير

والاقلام التي كتب بها ابن البواب متعددة منها قلم النرجس وقلم الريحاني والقلم المنثور والقلم المرصع والقلم اللؤلؤي والقلم الواشي والقلم المدمج والقلم المسلسل والقلم الحوائجي . وذهبت شهرة ومكانة الحسن بن علي بن هلال لتصل الى قريحة الشاعر المعري وهو الكفيف ليقول :

ولاح هلال مثل نون أجادها
بماء النضار الكاتب ابن هلال

وكان « ابن البواب » زاهدا متواضع الثياب كث اللحية ، وكان على خلق ، هادىء النفس نقي السريرة حافظا للقرآن والحديث استن لنفسه سنة ان يختم كتاباته على نحو لم يكن عند غيره مثل « كتبه علي بن هلال . . حامدا لله على نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله وعترته » ويظهر فضل ابن البواب وفضل علمه واستاذيته في كتابة الخط العربي المجود أنه لما مات رثاه أحد الشعراء فقال :

واستشعر الكتاب فقدك سالفا
فجرت بصحة ذلك الايام
فلذلك سودت الدوي وجوهها
أسفا عليك وشقت الاقلام

ولدينا الآن نماذج مختلفة من خطوط ابن البواب المختلفة نجد بعضها في متحف الاثار الاسلامي التركي وله ايضا بمتحف « الطوب قابو » نماذج من خطه .

وتوفي ابن البواب سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م أو سنة ٤٢٤هـ (١٠٣٢م) ودفن بجوار قبر الامام ابن حنبل ببغداد .

وعن ابن البواب اخذ الخط « محمد بن عبدالملك ، وعنه أخذت الشيخة المحدثة الكاتبة زينب الملقبة بشهدة ابنة الأبري ، وعنها أخذ امين الدين ياقوت » [٣٤] وهو ثالث الثلاثة الكبار في العصر العباسي ويعرف باسم ياقوت

---

(٣٢) القلقشندي : نفس المصدر ص١٣ .
(٣٣) عبد عاطر الكردي : نفس المصدر ص ٢٢٨ .
(٣٤) القلقشندي : نفس المصدر ص١٤ .

المستعصمي (ياقوت بن عبدالله الموصلي) الذي عرف ايضا باسم ياقوت الرومي مات سنة ٦٩٩هـ - ١٢٩٩م) وأصله من مدينة أماسيا من الاناضول السلجوقي ، (٣٥) وتاريخ وفاة ياقوت وترادف اسمه بلقب الملكي نسبة الى السلطان جلال الدين ابوالفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) قد التبس على الكثير ممن تناول سيرته ، فقد ذكر الخطاط محمد طاهر الكردي ان المستعصمي توفي سنة ٦١٨هـ (٣٦) . وجاء في مصور الخط العربي الاستاذ ناجي زين الدين المصرف أن الذي مات سنة ٦١٨هـ هو ياقوت عبدالله الحموي وهو غير المستعصمي بيد أن الخطاط الكردي لم يكن على يقين من هذا التاريخ لأعطانا تاريخا آخر لوفاة المستعصمي هو ٦٩٩هـ ذكر في تحفة الخطاطين . ولابد أن هذا التاريخ هو التاريخ الاقرب الى الصواب بدليل اننا نجد في متحف الآثار الاسلامية التركي باستانبول مصحفا مذهبا بخط النسخ مؤرخ ٦٨٥ هجرية (١٢٨٦م) (رقم ٥٠٧) جاء في آخره ، وكتب ياقوت المستعصمي في سنة خمس وثمانين وستمائة بمدينة السلم بغداد حامد الله تعالى على نعمه ومصليا على نبيه محمد وآله الطاهرين ومسلما ، ومن ذنوبه مستغفرا ، (آخر الصفحة رقم ٢٥٧) . وبذلك يكون عام ٦٩٩هـ هو التاريخ المحتمل الذي مات فيه ياقوت المستعصمي (٣٧) .

واذا أخذنا بهذا التاريخ على وجه اليقين فلا يمكن بحال ما الا أن نقول أن ياقوت المستعصمي ينتسب الى الخليفة العباسي أبواحمد عبدالله المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) وبهذا تسقط الرواية التي تنسب ياقوت الى السلطان السلجوقي ، ملكشاه ، الذي توفي سنة ٤٨٥هـ . ان بين سنة ٤٨٥هـ وسنة ٦٩٩هـ التي توفي فيها ياقوت حوالي ٢٣٤ عاما وتكفي هذه السنوات العديدة لكي نتأكد من أن الرواية التي قالت بأن ياقوت كان من مماليك السلطان ملكشاه هي رواية لا تستقيم مع الواقع والحقيقة التاريخية .

لقد اطلق على ياقوت المستعصمي لقب قبلة الكتاب ، لأنه قد تمكن عن جدارة بالكتابة بالاقلام السبعة وهي الثلث والنسخ والمحقق والريحاني والتوقيع والرقاع . وفي متحف الآثار الاسلامية التركية العديد من المصاحف المذهبة التي كتبها ، وكذلك بمتحف قابو العديد من نماذجه المختلفة الخطوط .

وفي عصر الخليفة العباسي ، أبواحمد عبدالله

(٣٥) الارقاد في الفن الاسلامي : اوقور دوراك : مقالة الارقاد في الخط الاسلامي ص ٢٠ استانبول ١٩٧٦ .

(٣٦) محمد طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٢٦٩ .

(٣٧) الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق : الفن الاسلامي ، ص ١٧٤ ، بغداد ١٩٦٥ .

المعتصم بالله ، حلت الكارثة الفادحة بأرض المسلمين في شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ يناير ١٢٥٨م هب اعصار همجي مدمر واندفعت جحافل المغول بقيادة السفاح هولاكو ، فخربت بغداد الخراب العظيم واحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ماكانت في الدنيا مثلها ، [٥٨] .

وكان لابد أن ينتقل الثقل الحضاري من الشرق الى الغرب . انتقل الى مصر بعد موقعة عين جالوت التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بقيادة « قطز » على جيوش المغول يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٧هـ ـ ١٢٥٨م وكان من الطبيعي أن ينتقل بعد هذه الاحداث الجسام الثقل الحضاري من بغداد الى القاهرة وان يتحول مسيرة تجويد فنون الخط والكتابة الى مصر المملوكية ويذكر القلقشندي ليصل بين العراق ومصر ، وعن ياقوت أخذ الولي العجمي ، وهو ولي الدين علي بن زكي وعنه اخذ عفيف الدين محمد الحلبي وعنه اخذ ولده الشيخ عماد الدين ويقال انه كان كابن البواب في زمانه ، وعن الشيخ عماد الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقبة محتسب الفسطاط ، واخذ عنه الشيخ شمس الدين محمد بن علي الزفتاوي الذي صنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صناعة الكتابة . وعنه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري محتسب مصر الذي نظم في صنعة الخط ألفية سماها « العناية الربانية في الطريقة الشعبانية » [٥٩] ، وعن الزفتاوي اخذ ايضا نور الدين الوسيمي وعنه اخذ ابن الصايغ شيخ كتاب مصر في عصره ٨٤٥ هـ وله رسالة في تعليم الخط » [٦٠] .

لقد كان لمصر ابان الخلافة العباسية دورها في تجويد الخط العربي حتى أن بغداد عاصمة العالم الاسلامي في ذلك الوقت كان اصحاب الفكر فيها يحسدون أهل مصر على الخطاط « طيطب » و « ابن عبد كان » كاتب الانشاء في سلطنة احمد بن طولون ٢٥٤هـ ٨٦٨م وذهب قولهم « بمصر كاتب وغزر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثلها » [٦١] .

بيد أن مفهوم الخط العربي وتجويده في مصر ابان العهد الطولوني ومن بعده العهد الاخشيدي لا يخرج عن كونه عباسي المظهر والسيمات ، ولدينا فيما لدينا لوحة تأسيس المسجد الطولوني بالخط الكوفي وهي على درجة متواضعة من الاتقان .

---

(٥٨) ابو المحاسن تغري بردي : النجوم الزاهرة ـ الجزء ٧ ص ٥٠ القاهرة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م .
(٥٩) ناجي زين الدين المصرف : نفس المصدر ص ٣٧ بغداد ١٩٧٢ .
(٦٠) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٤ .
(٦١) القلقشندي : نفس المصدر ص ١٣ .

واذا كانت مدرسة مصر لها التبعية الفنية لكل ماكان قائما في بغداد فانها قد شكلت بعد ذلك مدرستها حين انتقلت الخلافة اليها بعد الكارثة المغولية ، وعلى الاخص حين جاء ذلك المجود الكبير « الحسن بن علي الجويني » المتوفي سنة ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م وهو ذلك الخطاط الذي قالوا عنه « لم يكتب بعد ابن البواب اجود منه » .

وفي العصـــر الفـــاطمي (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ / ٩١٠ ـ ١١٧١م) ظهرت كتابة عربية بالخط الكوفي محفورة بالجامع الازهر ٣٦١هـ ـ ٩٧١م واخرى محفورة على الخشب في جامع الحاكم بأمر الله الذي تم سنة ٤٠٣هـ ـ ١٠١٢م ثم هذه الكتابة الحجرية التي نجدها على وجهة الجامع الاقمر الذي انجز في عهد الآمر باحكام الله الفاطمي ٥١٩هـ ـ ١١٢٥م الذي يتميز عصره بظهور الخط اللين المستدير بجانب الخط الكوفي الذي تحول في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر السلجوقي الايوبي ٥٦٩هـ ـ ١١٧٤م الى تصور مختلف تعددت فيه نماذجه وتنوعت أشكاله ، وأجلها على الاطلاق المحراب الذي اقامه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م في المسـجد الطولوني .

وكان للعصر السلجوقي قبل العصر المغولي قوة إبداعية تدفقت على العالم الاسلامي في فارس والعراق والشام والاناضـول ومصر ، ومن ثمة باتسـاع ارض المسلمين كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وذلك على هدى من الفكر السني الذي انطلق من هذه المدارس التي أسسها الوزير العالم نظام الملك « أبو علي حسن الطوسي » وعند ابعاد مفكريها وعلماء العصر من الذين انسابت آراؤهم الى عقول المسلمين لتغير وتزيل الصدأ العباسي وتعسف القواطم واستبداد آل بويه . في ذلك العصر ظهر المجودون الذين عملوا على تطور اشكال الخط الكوفي وطوروا من أنماطه التقليدية وادخلوا عليه العديد من الاشكال المتباينة حتى اصبح يسمى الخط الكوفي الهندسي والكوفي المزهر والكوفي المضفر . وأول ابداع سلجوقي من هذا الخط الكوفي نراه في جامع دمغان بايران ٤١٧هـ ـ ١٠٢٦م . أما أجل الامثلة منه فنجده في الجزء الاعلى من المحراب الخزفي في جامع علاء الدين بمدينة قونية وهو الجامع الذي بناه السلطان السلجوقي كليج ارسلان ٦١٧هـ ـ ١٢٠٠م وفي هذا المحراب نجد ابتكار خطاطي عصر السلاجقة من خط الكوفي المزوي الذي اصبح بعد ذلك وسيلة تعبيرية جمالية رائعة للتذوق الذهني حتى اصبحت الكتابة الكوفية لاول مرة في تاريخ الفنون وفي تجويد الخط العربي تشكيل تعبيري منبثق عن العلاقة التي بين ما هو قائم في الحيز وبين الارتباطات الذوقية عند الخطاط المسلم ، حتى اصبحت الكتابة العربية الكوفية تبدو في صميم شكلها

انها ضرب من التلاقي الروحي بين خطوط افقية واخرى رأسية تماسكت عند زوايا انخفضت حدتها وصلابتها . ومن هنا جاءت الكتابة الكوفية لها اوزان متباينة الابعاد ، التداخل الذاتي فيها له حركات مكانية ذات تفاصيل متغيرة الترديد الايقاعي وهذا ماجعل منها كتابة ذات قيمة فنية واثرية لا نظير لها .

ومن ناحية اخرى نجد أن مميزات الخط الكوفي انه مصدر تلاقي روحي بين الافقية والرأسية التي قام عليها النمط المعماري للمسجد . أما الزمن المتخلل بين أبعاد الحروف الكوفية فقد وضع الغموض في هذه الكتابة ، الامر الذي أدى الى صعوبة فهمها وحكم على قارئها أن يكون صاحب ذهن متفتح وحس لماح وذوق متجاوب أما هذا الجلال الذي يبدو عليها ويحيط بها فيرجع الى ان تشكيلها الفني قد طرح فيها صورة تجريدية مطلقة اخذت سبيلها الى التراث الفني الاسلامي كصلة بين الافقية والرأسية في معمار المسجد .

يقول الاستاذ يوسف احمد « وبظهور خط النسخ انسحب الخط الكوفي الزاهر من ميدان الكتابة الاجتماعية ، ورضي أن يكون زاهدا ناسكا قانعا يسكن المساجد والمحاريب وزخرفة المصاحف ، فكان يكتب في المساجد والمصاحف تبركا وحلية ، وفي القصور والاسوار وغيرها للحلية والتاريخ لأنه طوع كاتبه يتمشى معه في كل زخرف وهندسة وتشكيل ، مع بقاء حروفه على قاعدتها »[٦٢] .

وتصل قمة الخط الكوفي الى ذروتها في المصاحف السلجوقية التي ترجع الى القرن الحادي عشر والثاني عشر ، وبالمتحف البريطاني نسخة من القرآن الكريم تحتوي على صفحات جميلة محلاة بوحدات زخرفية من ضفائر وتفريعات نباتية تحمل مميزات العصر السلجوقي المبتكر وخصائصه التي انفرد بها . وقد كتب هذه النسخة الخطاط المجود أبوالقاسم بن ابراهيم وتاريخها جمادي الاول سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦م وتستقيم هذه الذروة الجمالية في التشكيل الكوفي المنحوت على الخشب في لوحة توجد في متحف جلال الدين الرومي بمدينة قونية وعليها « ياحضرة مولانا » في تكوين مبتكر من الافقية والرأسية والعلاقة الروحية التي تجمع بينها بأبعادها الذوقية .

وفي عهد السلاجقة تحول خط المصاحف من الكوفي الى خط النسخ الذي اصبحت له مكانته الفنية الرفيعة ولدينا أمثلة عديدة منه في متحف الآثار الاسلامية التركية ، « وأقدم مصحف مكتوب بالخط النسخي الفني موجود بمكتبة شيستربيتي بمدينة دبلن »[٦٣] .

---

(٦٢) يوسف احمد : الخط الكوفي ص ١٣ القاهرة بدون تاريخ .

(٦٣) الدكتور عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف ص ٢١ بغداد ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م
والمكتبة هي : CHESTER BEATTY, DUBLIN

وقد تفاعلت الرؤية الفنية لحروف خط النسخ السلجوقي مع الاستاذ « د . بارت » فكتب عنها يقول « والحقيقة اننا نستطيع ان نقول ان نظرة الى صفحة من القرآن في العصر السلجوقي تعطي من السرور النفسي ما تعطيه تلك النظرة الى صفحة من موسيقى باخ »[٦٤] .

واذا كانت مدرسة الخطوط المجودة المصرية لها مكانتها المميزة ابان الدولة الفاطمية ٢٩٧ - ٥٦٧هـ / ٩١٠ - ١١٧١م والدولة الايوبية ٥٦٩ - ٦٥٠هـ / ١١٧٤ - ١٢٥٢م فهي قد لامست السمت في عصر المماليك البحرية والبرجية، ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م والذي يعد عصرهم بحق من ازهى عصور الفن الاسلامي . لقد أخذت المدرسة المصرية المملوكية مكانتها في الابداع الفني المتعدد الذي نراه بيننا الآن في القاهرة المملوكية من عمارة وخزف ونسيج وزجاج وحفر وتكفيت وفنون الكتاب من خطوط مجودة وتجليد وتذهيب . واذا كان هذا الثقل الفني قد ظهر في أواخر العصر الفاطمي واثناء العصر الايوبي فلذلك انما اتى بدوافع تكونت من البنية الاسلامية السنية التي أخذت تتسرب في أواخر العصر الفاطمي الجائر لتعلن عن نفسها ، وكان لابد أن يتغير التكيف الشكلي للحروف العربية ونوع الكتابة ، واذا ماانسبت هذه الاعمال الى المدرسة السلجوقية فهذا لا يعني الا أن العكس كان هو الصحيح وان المدرسة السلجوقية كانت حلقة اتصال بين عصر ذهب وعصر جديد اخذت فيه مظاهر الحضارة الاسلامية تشكل في ذاتها اتجاهات فنية اسلامية جديدة اشعل جذوتها المفهوم السني لنفوس المسلمين ومدرسة الاتابكة في الجهاد التي منها مدرسة نور الدين محمود الحربية التي وقفت لترد الصليبيين والقرامطة وفرق غلاة الشيعة والرافضة وعلى رأسهم أمثال ابن العلقمي الذي يقول عنه ابن تغري بردي « انه كان رافضيا خبيثا حريصا على زوال الدولة العباسية »[٦٥] . وكذلك نجد الحشاشين وبني بويه والقواطم والمغول ، ورغم المحن والمصائب وضياع الكثير من تراث المسلمين من جراء سقوط بغداد وتكالب هذه الفرق على اخماد الحضارة الاسلامية ، ففي هذا العصر نجد أن الفنون الاسلامية في مصر لها مميزات حضارية قيمة مختلفة عن هذا الذي كان قائما من قبل ابان العصر العباسي الذي ارتكزت اتجاهاته الفنية على التطور التاريخي للفنون الذي يسير على الوتيرة الواحدة .

وفي هذا العصر الذي يمكن أن نسميه « عصر ما بعد المدارس النظامية » نجد الكتابة الكوفية وخط النسخ جنبا الى جنب ، الامر الذي كان متبعا في كتابة المصاحف السلجوقية

(٦٤) د . بارت : الفن الاسلامي ببلاد فارس - ص ١٢٩ - كتاب تراث فارس القاهرة ١٩٥٩ .
(٦٥) ابن تغري بردي : نفس المصدر ص ٤٧ .

وهو كتابة اسماء السور بالخط الكوفي والصورة بخط النسخ ، وهذا ما كان متبعا ايضا في كافة الاعمال الفنية الاخرى ، ونأخذ على سبيل المثال المحراب الفاطمي في جامع ابن طولون وتابوت الامام الشافعي المحفوظ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة (رقم الاثر ٤٠٩) ومحراب مشهد السيدة رقية (رقم الاثر ٤٤٦) . وهكذا تبلورت مفاهيم الفن الاسلامي وبدأ خط الثلث يأخذ لنفسه مميزات مختلفة اذ اصبحت حروفه كبيرة ومستديرة ولهذا اطلقت عليه اسم خط الثلث المملوكي أو الجلي المصري الذي نجد منه نماذج كثيرة لدينا في دار الكتب المصرية التي بها المصاحف الضخمة الكبيرة مثل مصحف السلطان قلاوون ٦٩٢هـ - ١٢٩٣م ومصحف السلطان حسن ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م ومصحف السلطان شعبان ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م ومصحف الامير سرغطمش (٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) ومصحف السلطان برقوق ٨٠٠هـ - ١٣٩٨م ومصحف السلطان المؤيد ٨١٥هـ - ١٤١٢م وهناك مصحف عظيم القيمة هو المخطوطة الضخمة التي تحمل اسم خاتم الاشرف قانصوه الغوري السلطان المملوكي ٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م قبل الاخير لمصر ، وهو كان يبذل المال بسخاء ، وأغلب الظن أن المصحف كتب بناء على طلبه بعيد سنة ست وتسعمائة هجرية . وهذه المخطوطة مكتوبة على اربعمائة وسبعين ورقة عظيمة الحجم والسمك ويقال ان هذا المصحف اعظم مصاحف العالم حجما ، والصفحات الثلاث الاولى مكتوبة بتمامها بحروف ذهبية ، والعنوان شديد التنميق والزخرفة (٦٦) وهو من مقتنيات مكتبة جون ريلاندز بمانشستر .

ذهب البعض ان الخطوط المصرية لا ترتفع الى مستوى المدرسة السلجوقية ، وبنوا رأيهم هذا على أن مصر تعلقت بخط الطومار التقليدي والسلاجقة جودوا خط النسخ وجاء هذا الرأي مع مقارنة بين المصاحف السلجوقية المكتوبة بخط النسخ والتي قالوا أنها أرفع مستوى من خط المصاحف المملوكية التي كتبت بخط النسخ المستطيل الجلي ، وفي تصوري أن هذه المقارنة لا تقوم الا عن القياس الشكلي للانماط في تصورها الخارجي ، والانماط هنا لا يمكن أخذها بدلالات لها ميزان خارج عن الموازين التي يجب ان يقاس الخط العربي بها وهذه المقاييس ذوقية قبل كل شيء وترجع الى حساسية الكلمة ووقعها الخطي عند المجود ومن ليس لديه صلة بهذه الحساسية فليس في وضع ان يحكم على مثل هذه الامور ، التي تتعلق بمفهوم الفن الاسلامي الذي لا يقوم الا على خصائصه البحتة بمقوماتها الذاتية وعند دوافعه الروحية المنبثقة من واقع العقيدة الاسلامية في مفهومها الالهي .

(٦٦) انجلترا ببريطانيا : الفن المصري ص ٨٨ .

ان هذه الفروق التي بين خطي النسخ السلجوقي وجلي الثلث المملوكي انما جاءت متأثرة بالمكان والظروف الاجتماعية عند كل من السلاجقة والمماليك . وموضوعية هذه الظروف هي التي دفعت بالسلاجقة ان تكون مصاحفهم صغيرة الحجم وذلك لتصبح سهلة النقل معهم وهم كما نعرف لم ينعموا بالاستقرار في مكان لانهم كانوا في غزوات متلاحقة ، أما المصاحف المملوكية فقد كتبت ليوقفها اصحابها على مساجدهم التي شيدت على نفس القياس ، فالمسجد السلجوقي صغير جدا اذا قيس بالمسجد المملوكي الكبير الذي نرى العديد منه في القاهرة المملوكية مثل مدرسة الجاشنكير وجامع قلاوون ومدرسة السلطان حسن التي نأخذها على انها قمة معمارية ومعجزة بناء لا نظير لها في ايران أو في الاناضول السلجوقي ولا حتى في استانبول العثمانية التي بها العديد من المساجد الكبيرة مثل السليمانية والسلطان احمد وشهزاده . ويحدثنا المؤرخ تقي الدين المقريزي عن مدرسة السلطان حسن فقال « بدأ السلطان عمارته سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله أكبر قالب وأحسن هندام واضخم شكل فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع »(٦٦) .

وبمسجد السلطان حسن نماذج مختلفة من الكتابة العربية فعلى الطنف الموجود بالايوان الشرقي كتابة كوفية من الجص مكتوبة بخط الثلث واخرى من الخشب كبيرة الحجم الذي يتوازى مع ما أخذت به مصر المملوكية من سيمات الخط العربي الطومار الذي سمي باسم الخط الثلث المملوكي . وفي الواقع ان خط الطومار اخذ لنفسه مسارات مختلفة لها فروق في الوزن وهو أم الخطوط ولا يتخير الخطاط عظيها الا اذا اتقنه وأحسن كتابته ، واذا كنا نجد الشيوع الشامل لخط الطومار في كافة العالم الاسلامي الى حجم الورق ومقاساته المختلفة كما قلنا من قبل .

لم يتناول أحد من الشعوب الاسلامية الخطوط العربية المجودة مثل ما تناولها الفرس اولا ثم الاتراك من بعدهم ، لقد اصبح الحرف والقلم ويد الانسان تحي خفقات في الايقاع الجميل داخل النفس المبدعة ، ايقاع له رنين وجدان وله وميض الهام ، طرح باطني لعبقرية يد انسان شرقي خلقها الله ولها حساسية غيبية امسكت بالقلم لتجعل من الحروف العربية صدى مسموعا للجمال والجلال من خلال اعمال كبار الخطاطين الفرس والاتراك . لقد ظهرت مدرسة جديدة باللغة الاعجمية غيرت مفاهيم التجويد والتحسين وجعلت للحروف مذاقا فنيا له صورة بصرية موضوعية ، وله صورة سمعية تتردد خفقاتها داخل الحروف وفي

(٦٦) المقريزي : نفس المصدر ص٣١٦ .

ذات المجود المبدع ومن ثمة داخل نفس المتذوق .

كانت البداية حين طرح المجود الفارسي انماط الشكل التقليدي الذي كان له التزام جوهري يتبع اسلوب ابن مقلة وابن البواب واخذ نفسه بتصور للحروف مختلف ، وبمعادلة جديدة مصدرها احساس الخطاط بنفسه وبقيمته وما يمكن ان يبدعه وما يكتشفه ويتعرف عليه من علاقات بين الشكل الخارجي للحروف والذات الانسانية ، حينئذ انبثق مذاق رفيع جعل من الحروف العربية وقواعدها الخطية ليس مجرد نقل للشكل يقتضي مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف ووزنها الشكلي بل اصبحت الغاية القصوى لديه مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف مع ماتسره من مضمون روحي ، اي ان الخطاط المجود العبقري اخذ يلتمس أنماطا جديدة غير معروفة طرح من حروفها الموزونة تعبيرا روحيا جعل من الخطاط صوفيا متمرسا من ارباب الاحوال والمقامات يفيض قلبه ولسانه ويده بحب الله فأكثر من كتابة لفظ الجلالة في خط مميز جميل ليتقرب به رتبة من الله . فلقد « كان الخطاطون اعظم الفنانين مكانة في العالم الاسلامي عامة وفي ايران خاصة لانشغالهم بكتابة المصاحف »[٦٨] . التي هي « كلمة الله ويد انسان »[٦٩]

وبداية المدرسة الفارسية كما يذكرها لنا « حاجي ميرزا عبدالمحمد خان ايراني » في كتابه « پيدايش خط وخطاطان » (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م) ان خطاطي القرن الثامن الهجري (١٤م) قد ترسموا طريقة ياقوت المستعصمي بعد خراب بغداد ، قال وهم ستة : عبدالله الصيرفي الذي اشتهر بقلم النسخ ، وعبدالله ارغون ٧٤٢هـ (١٤م) بخط المحقق ، يحيى الصوفي وهو من تلاميذ الصيرفي سنة ٧٣٩هـ (١٤م) بخط الثلث ، ومبارك شاه قطب ٧١٠هـ (١٤م) بقلم الرقاع ويؤكد أن يحيى الصوفي وحده اخذ الخط عن ياقوت مباشرة[٧٠] وهؤلاء غير الذين ذكرهم القلقشندي . ومن المعروف لم يصلنا سوى القليل من فنون الكتاب وصناعته في فارس حتى القرن الثاني عشر[٧١] .

وفي القرن السابع الهجري (١٣م) ظهر في افق العالم الاسلامي من خلال عبقرية الانسان المسلم خط التعليق الذي يعرف باسم الخط الفارسي ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين الى

(٦٨) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ، ص ٦١ القاهرة ١٩٤٦ .

(٦٩) PHILIP BAMBOROUGH, TREASURES OF ISLAM, P.21, G.BRITAIN

(٧٠) ناجي زين الدين المصرف : نفس المصدر ص ٣٨ .

(٧١) . يارند : نفس المصدر ص ١٧٧ .

اليسار في اتجاهاتها من أعلى الى أسفل ويشكل حرف النون مفتاح قواعد خط التعليق ، فاذا اتت اتقنته اتقنت باقي الحروف ، لان القاعدة فيه أن تأخذ اولها بسن القلم ليتحول الى صدره ثم لينتهي به مرة اخرى .

وبين خط النسخ وخط التعليق ابدع الاستاذ العظيم مير علي تبريزي الذي ذهبوا فيه عن حق انه اعظم من كتب واجاد ، واجل من تناول القلم وجود ، واليه يرجع الفضل في ابتكار خط النستعليق وهو كما يبدو من اسمه جمع بين خطي النسخ والتعليق ، كان منهج التبريزي ليجعل منه أكثر رشاقة من الخطوط اللينة الاخرى ، هذا انه يحتفظ بصفات خط النسخ الرزين وخط التعليق الرشيق ، ومن أقدم أعمال علي تبريزي وأجلها نسخة من قصة هماي وهمايون التي كتبها خوجة كرماني ، وهي من مقتنيات المتحف البريطاني بلندن (رقم ١٨١١٣) ويرجع تاريخها الى سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٦م وتنسب الى بغداد ، (٧٢) وكان مير علي تبريزي في خدمة الامير تيمور ، وخلفه ابنه عبدالله فأتم بعض التفاصيل في هذا الخط الجديد وكان له تلميذان مشهوران اولهما مولانا جعفر التبريزي الذي كانت له رياسة اربعين خطاطا كانوا يشتغلون دائما للامير بايسنقر ، والثاني هو الاستاذ مولانا أظهر التبريزي (٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) .

ومن المشاهير الذين جاءوا من بعد هؤلاء واحتفظ التراث بأسمائهم في حقل تجويد الخطوط العربية يأتي اسم عبدالرحمن الخوارزمي وابنه عبدالكريم الخوارزمي اللذين عملا معا في تحسين الخط النستعليق . وعبدالكريم هو الذي كتب درة المخطوطات الفارسية وهو ديوان جلستان للشاعر عبدالرحمن جامي ، وفي ذلك العصر ظهر « ابراهيم سلطان » الذي كان من أبرع اللاعبين بالحروف وعرفت عنه مقدرته على الكتابة بستة أساليب خطية مختلفة وفي ضريح الامام رضا بمشهد مصحف بديع بخط ابراهيم سلطان تاريخه في سنة ٨٢٧هـ ـ ١٤٢٤م (٧٣) .

وكان بكل مدينة من مدن فارس الاسلامية كبار خطاطيها ، وكان التنافس بين المدن المختلفة يشكل في ذاته مدارس لتجويد الخطوط العربية قائمة ، ولكل منها مميزاتها التي تجعلها في موضع الشهرة عن غيرها من المدن الاخرى .

وكانت لمدينة هرات مكانة لامعة عندما أسس بها شاه رخ مدرسته التي ضمت الخطاط والمصور والمذهب وصانع الورق ، وقمة اعمال هذه المدرسة يظهر في نسخة الشاهنامة التي تعرف باسم شاهنامة طهران وقد كتبها المجود جعفر بيسنقر التبريزي سنة (٨٣٢هـ ـ ١٤٢٩م) للشاه بيسنقر ميرزا الذي سار على

(٧٢) BASIL GRAY, PERSIAN PAINTING, P.48, SKIRA

(٧٣) م . س . ديماند : الفنون الاسلامية ـ ترجمة احمد محمد عيسى ـ ص ٧١ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٨٨ .

درب ابيه شاه رخ ، وعمل على ان تكون مدرسة هرات اكاديمية للكاتب لها شهرتها التي ذهبت لتملأ العالم الاسلامي .

وكانت لمدينة تبريز في عهد الشاه طهماسب (٩٣١ - ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ - ١٥٧٦م) الفنية التي علت شهرتها الى مكانة لم تبلغها أي من المدن الفارسية الاخرى ، وذلك بفضل والد الشاه اسماعيل الصفوي (٩٠٨ - ٩٣٠هـ / ٥٠٢ - ١٥٢٤م) الذي كان قد شمل المصور محمد كمال الدين بهزاد والخطاط محمود النيسابوري وحين قامت الحرب بين الشاه اسماعيل والسلطان يارز سليم الاول سنة ٩٣٠هـ - ١٥٢٣م اخفاهما الشاه في كهف حرصا عليهما من أن يقعا في أيدي الاتراك .

ودرة اعمال محمود النيسابوري نسخة من ديوان المنظومات الخمسة التي كتبها الشاعر نظامي الكنجوري وتاريخها ٩٣٢هـ - ١٥٢٤م وهي الان في متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك .

وكانت لمدينة اصفهان شهرتها التي تأتت لها من نبوغ الخطاط الاستاذ ميرعماد الحسني توفي سنة ١٠٢٤هـ - ١٦١٥م الذي مازال الايرانيون يذكرون اسمه ويتكلمون عنه حتى الان كلما تحدثوا عن الخط ومشاهيره ، وعماد الحسني هو من افضل من كتب خط التعليق وله مجموعة من المرقعات كتبها سنة ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م وهي الان من مقتنيات متحف طوب قابو باستانبول .

وتذهب البراعة الفائقة في كتابة خط التعليق الى هذه الورقة التي كتبها الخطاط سلطان علي مشهدي وهي لم تكتب بمداد انما كتبها مفرغة على ورقة بيضاء وتحتها ورقة في لون برتقالي باهت وهي الاخرى من مقتنيات متحف طوب قابو .

ولا يعني تعلق الفرس بخط التعليق والنستعليق ان ليس لهم ممارسة لباقي الخطوط . لا شك أن الخطاط الفارسي له مذاق خاص كان يستهويه ، فالتصوف الفارسي دون شطحات كان ممارسة روحية ، وتذوق الفارسي للحياة جملة يحب الطبيعة التي خلقها الله وصورها أحسن تصوير ، ولهذا نجد وله الفارسي بالحديقة وبالسجادة التي تشبه الحديقة أو الجنة ، ونرى شعراء الفرس لا يفصلون بين الطبيعة والتصوف ولهذا أصبح الغزل الصوفي وحب الطبيعة في أعمال فريد الدين العطار وعند سنائي وجلال الدين الرومي ، وعلى ذات الروي وعلى نفس البحر اخذ الخط مسالكه فيما بينهم حتى اسقطوا بعضه في ابهام الصوفية واسرارها ولهذا وجد عندهم الخط الذي يعرف باسم شكسته ، وشكسته اميز ، وهما من الخطوط المبهمة والالغاز المعقدة أو هو طلسم ملغز ولا يعرف كتابته او قراءته احد الا من تعلمه ومارسه وفهم رموزه .

ان صياغة الحروف العربية ورسمها المعجز كانت عند الفارسي الانسان كمناجاة التالي لجلال الذات وقدرته ، أو هي لديه عشق وجدي فائض من وجد خطاط يجود جوهرا اوضعه قلب الكلمة فأنطقها الثناء على الله . أو هي اشارات شاعر عالم احل به الحال فتجل الشوق ذوقا في اشعاره مترنما بحب الله ، وان هذه الحروف قد اصبحت مكاشفات صوفي متعبد ترنح بمجاهدات قلبه همسات ابتغى بها القرب من الله ، أو أن الخطوط العربية قد اصبحت كتابات وابتهالات لبستاني همس بنجواه من فوق رياض الاشراق لله .

ان مكتون هذه الوشائج المترابطة قد طرحت نفسها على شعب آخر من المسلمين نزل بحروف الخط العربي في انفسهم كما لم ينزل على أحد من غيرهم من قبل . يقول الاستاذ اوقطور درمان « ان في العالم الاسلامي مثلا سائدا يقول : نزل القرآن في الحجاز وقرىء في مصر وكتب في استانبول » والواقع أن معجزة القرآن كتحفة فنية لم تنعكس على الورق الا في استانبول وكذلك اللآلىء من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكتب مثل حبات اللؤلؤ الا في هذا البلد أيضا (٧٩) .

وفي اعتقادي انه ليس في هذا الكلام اي مغالاة لان من بين الشعوب الكاتبة بالعربية ابدع الاتراك مدرستهم التي كان لها الدور الكبير في تحسين الخطوط وتجويدها وابتكار الحسن والجديد منها ، ان الادراك الحقيقي للكلمة المجودة المكتوبة عند الخطاط التركي كانت لديه إحساسا ذوقيا وحدسيا لان حروف العربية قد اصبحت لديه تحمل في شكلها معنى والتعرف على هذا المعنى انما يتأتى وميضا يصل مباشرة الى رؤية جمالية ، فالتصور الذي نشده المجود التركي في البسملة بالخط الجلي او النسخ او التعليق او الديواني واراد أن يبرزه قدر المستطاع وان ينقله أمامنا في اداء محكم حسب قواعد التجويد المثالي لحروف البسملة التي اصبحت من خلال كتابتها بخطه المحكم لا تمثل شكلا خاليا ولا رمزا مبهما انما تمثل حروفاً عربية ثالثة في الحبر وفيا وضع جمالي متحرك ينعكس بطبيعته داخل نفوسنا ليصبح ترديداً للمعنى الصوفي للعلاقة التي تربط بين الانسان وبين بسم الله الرحمن الرحيم .

والاتراك اخذوا الخط من سلاجقة الروم كما اعطتهم ايران بالقدر الذي اخذوه من مصر المملوكية ، ومن هذا كله تكونت المدرسة التركية العثمانية التي اصبحت بفضل المذاق العثماني خلاصة للرحيق العاطر الشذي الذي تدفع ليضيف لتراث الاسلام الفني الاعجاز العبقري الذي صنعه قلم من القاب لتناوله يد الانسان المبدعة لتعطيه لنا تقاسيماً انغامها شرقية

(٧٩) أوقطور درمان : نفس المصدر ص ٢٩ .

خالصة ، وصار القدح المعلى في هذا الشأن للعثمانيين ، فقد اشتهر منهم الشيخ حمدالله الاماسي الذي نهل الخط من منهله العربي الاصيل كما ذكر في ترجمته ، ونشأ من تلاميذه جيل ممتاز من المجودين وقد تنوعت سلسلتهم ، فذكر رئيس الخطاطين احمد كامل في لوحة كتبها نقلا عن شيخه حمدالله نصا باللغة التركية ذاكرا نسبه الخطي ، قال ما ترجمته بالعربية « ان الشيخ حمدالله كان شيخ الخطاطين ، ارخ رحيله بالحروف سنة ٩٢٦هـ وبعده جاء شكرالله لسلسلة مشيخة الخط ، ثم محمد حسن ، ثم خالد درويش علي ، وبعده مصطفى ، ثم جاء لحفظ طور الشيخ الحافظ عثمان ، أرخ وفاته بالحروف ايضا في سنة ١١١٠هـ ثم جاء بعدهم السيد عبدالله افندي أرخه الناظم لسنة ١١٤٤هـ ثم ذكر الاستاذ راسم وأرخه بالحروف في سنة ١١٦٩هـ وختم ابياته بالسنة التي نظمها فيها وهي ١٣٤٢هـ[٣٣] .

والتراث التركي من الخطوط العربية المجودة محفوظ في متاحف الدولة ، في متحف طوب قابو ، ومتحف الآثار الاسلامية التركية ، ومتحف الخطوط التركية (مدرسة السلطان سليم) الذي يحتوي نماذج عديدة كتبها سلاطين آل عثمان ، كما توجد مجموعة متنوعة في متحف مدينة بورسة واخرى يقتنيها متحف مولانا جلال الدين الرومي .

واذا كان الخطاط الحاج احمد كامل قد ذكر أن أول السلسلة الذهبية من الخطاطين الاتراك هو الشيخ حمدالله الاماسي ٨٣٣ ـ ٩٢٧هـ / ١٤٢٩ ـ ١٥٢٠م فاننا قد وجدنا في متحف الآثار الاسلامية التركية بمدينة استانبول مصحفاً كتبه ارجون الكاملي (رقم القيد ٤٥٢) مؤرخاً سنة ٧١٧هـ ـ ١٣١١م ومصحفاً آخر كتبه يحيى الصوفي مذهب ومزهر (رقم القيد ٤٣٠) مؤرخا سنة ٧٤٣هـ ـ ١٣٤٢م وهما أقدم ما نعرف من الخطاطين الاتراك ، ويمكن اعتبارهما مع غيرهما من الممهدين للمدرسة التركية وبذلك يبقى الشيخ حمدالله أول الفيض التركي .

والشيخ عبدالرحمن حمدالله الاماسي المعروف باسم الشيخ كان أول من خرج من الخطاطين الاتراك عن الاسلوب الاتباعي ، وأخذ نفسه بأقلام جديدة غير مسبقة شجعه عليها تلميذه السلطان بايزيد الثاني وفي متحف طوب قابو مصحف كبير مؤرخ ٩٢٦هـ ـ ١٥٠٩م عدد اوراقه ٤٧٣ وله مرقعه كتبها بالاقلام مجلسة مكتوبة بالعربية والفارسية مذهبة وملونة والبعض منها بخط التعليق .

(٣٣) ناجي زين الدين المصرف : نفس المصدر ص ٣٧ ، ٣٨ .

وفي عصر السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) كان في تركيا مجود كبير هو احمد قره حصاري ولد سنة ٨٧٤ ومات سنة ٩٦٤ هجرية ١٤٦٩ - ١٥٥٦م ، وقد تميز هذا الخطاط بخط الجلي وأخذ قلمه به وبرع في كتابته وفي متحف الآثار الاسلامية التركية مخطوط له مكتوب فيه سورة الانعام على الصفحات الاولى مذهبة بخط الثلث الثقيل وبعدها سورة بخط النسخ ومن ثمه سطور بخط الثلث الثقيل ثم سطران بخط الثلث الخفيف . وفي متحف طوب قابو مصحف آخر له كتبه بخط المحقق والريحاني . ومن ابتكارات الخطاط قرة حصاري هذه الصفحة التي تحتوي على كلمة الحمد لله وسورة الاخلاص بالخط الكوفي البسيط ثم البسملة بخط جلي مبتكر وان كانت على القاعدة التي كتبت بها البسملة في ديوان الانشاء للقلقشندي [٧٦] .

وخط الجلي الثلث هو خط الطومار ، ولقد جعل العثمانيون الاتراك الخط الجلي على منشآتهم الدينية وفي ألواح المساجد والجوامع وفعل ذلك من قبلهم اهل التركستان في ماوراء النهر ، فجعلوا عرض القلم في عرض كتابات الجدران والمحاريب ١٠ - ٢٥ سم حققوا كلمة الجلي التي تطلق على ما يكتب الحرف العريض الكبير في أغلب الكتابات الكبيرة مثل الكوفي المحقق والثلث الجلي أو ثقيل الثلث ، وقد سميت هذه الاقلام بالجلي وشملت التسمية خط التعليق الفارسي ايضا « جلي التعليق » على أنه يتبادر للذهن أن كلمة الجلي اختصت بالثلث فقط فهي تعني الواضح ، سمي لذلك لما في حروفه من سمة على ما تقتضيه الموازين ، ووضع الكتابة في مواضعها من واجهات المساجد والقباب ، والمنابر والألواح » [٧٧] .

واذا أردنا أن نضع في تصورنا هذا الجلي العثماني فاننا نجد منه ما يمكن أن نسميه « جلي الجلي » في ذلك الخط الكبير الذي كتبه الخطاط التركي « مصالحي زاده مصطفى شلبي » في جامع ايا صوفيا ، كتب هذا الخطاط آيات من القرآن الكريم بحروف كبيرة من الذهب بلغ طول الألف فيها مبلغا كبيرا ارتفع الى عشرة اذرع على أن هذه الآيات الجميلة التصوير التي تشابك في كثير من الاحيان قد حدث من كبرها اسماء الخلفاء الاربعة الراشدين التي كتبت في وضوح وجزالة وكتبها الخطاط تكنجي زاده ابراهيم ، ابان عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣ - ١٠٥٠هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠م) [٧٨] .

ومن ابرز من كتب الخط واجاد رئيس

(٧٦) القلقشندي : نفس المصدر ص١٣٨ .
(٧٧) قاضي زين الدين الشرف : نفس المصدر ص٤١٣ .
(٧٨) دائرة المعارف الاسلامية : رقم ٩ ص١٢٢ ـ القاهرة .

الخطاطين ، حافظ عثمان افندي ، (١٠٥٢ ـ ١١١٠هـ/١٦٤٢ ـ ١٦٩٨م) وهو عثمان علي الذي تقول الاتراك عنه « شمس خط جديد أخذت تشرق في سماء الفن باستانبول » [79] ، تتلمذ الحافظ عثمان على الخطاط درويش علي « الذي تعلم على يده أكثر من ألف طالب » [80] ، وأكمل تعلمه للخط واجادته على يد الخطاط « سيوبجي زاده مصطفى الايوبي » ، وفي سن الثامنة عشرة كان الحافظ عثمان مؤهلا لنيل اجازة الخط ، ولم تمنعه هذه الاجازة من ان يتتلمذ على الخطاط نفيس زادة سيد اسماعيل ، ومن ثمة وجد انه في الامكان ان يعطي الغير ثمار اجازته للخط وعاش ليمضي سنوات حياته القصيرة يكتب ويعلم حتى أصبح مدرسا للخط للسلطان مصطفى الثالث وفي سن الاربعين مات ودفن في مدافن كوجا مصطفى باشا باستانبول » [81] .

كان الحافظ عثمان افندي مركز ثقل في فنه وكان حلقة وصل بين الجيل القديم والجيل اللاحق له الذي ازدهر بالعديد الذي لا يحصى من المجودين الاتراك من بينهم اسماعيل زهدي ١٢٢١هـ/١٨٠٦ وأخوه مصطفى راقم (١١٧١ ـ ١٢٤٢هـ/١٧٥٧ ـ ١٨٢٦م) الذي أبدع مقاييس جديدة أخذت بها الحروف الابجدية تتمثل قيما جمالية اضفت عليها أبعاداً ذوقية لها طنين موسيقي ، « لقد ارتقى مصطفى راقم الى ذروة اساليب الخط من الثلث والنسخ والجلي » [82] ولا سيما في حرف ـ لا ـ الذي نراه لديه ولدى غيره ممن جاء من بعده له أبعاد جمالية جديدة ، ولمصطفى راقم مرقعة كتب عليها لا حول ولا قوة الا بالله جمع فيها الـ (لا) في تكوين مثالي معجز وهي من مقتنيات متحف الآثار الاسلامية التركي .

ويأتي من بعد هؤلاء الكبار ذلك الخطاط الذي لمع كصاحب مدرسة وهو السيد مصطفى عزت قاضي عسكر (١٢١٦ ـ ١٢٩٣هـ/١٨٠١ ـ ١٨٧٦م) له العديد من الاعمال المثيرة منها ما كتبه داخل القبة الرئيسية في جامع اياصوفيا حيث نشاهد بها البسملة مع آية الكرسي مكتوبة بخط جلي الجلي في مساحة دائرية منحرفة الى أعلى يبلغ طول الكتابة فيها سبعة ونصف من الامتار ، كما له كتابات اخرى على حوائط هذا الجامع ، وعمل عزت افندي مدرساً للخط في المكتب السلطاني (المدرسة) وتحلت اساتذيه في كتابة الجلي والثلث والنسخ والرقعة والفارسي والديواني . وكان له اخ برع

(٧٩) أوقور مردان : نفس المصدر ص ٢١ .
(٨٠) طاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٣٩ .
(٨١) KEMAL CIG, HATTAT HAFIZ OSMAN EFENDI, PP. ISTANBUL 1949.
(٨٢) أوقور مردان : نفس المصدر ص ٢١ .

هو ايضا في تجويد الخط واسمه الحافظ تحسين افندي وكان مدرسا للخط في مدرسة « دار الشفقة الاسلامية بالآستانة » . ومن تلاميذ الخطاط عزت يسرع شفيق بك (١٢٣٥ - ١٢٩٨هـ / ١٨١٩ - ١٨٨٠م) وفي ذلك الحين افتتن بعض الخطاطين الاتراك بخط التعليق الفارسي فاستمد البعض نص ر عماد الحسني ومن هؤلاء الخطاط فخر الدين البروسوي (١٠٢٨هـ - ١٦١٨م) وله عدة مرقعات بخط التعليق من بعضها ما كتبه بالحروف المفرغة . وبعد ذلك ظهر الخطاط محمد أسعد يساري المتوفي سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٩م وله مرقعة بخط التعليق في متحف طوب قابو . ومن بعده ظهر ابنه يساري زادي مصطفى عزت الذي كتب بخط جلي التعليق . ومن بعده جاء نجم الدين اوقيــاي (١٣٠١ - ١٣٩٦هـ / ١٨٨٣ - ١٩٧٦م) ، والخطاط عبدالله بك زهدي أخذ عن حافظ راشد افندي ونال اجازته عن مصطفى افندي عزت قاضي عسكر وعين معلما للخطوط بجامع نور عثمانية بالآستانة ثم ندبه السلطان عبدالحميد لكتابة الحرم المدني الشريف ومن أفضاله انه أقام مدرسة للخطوط العربية بالقاهرة ومات بها سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م ومن أشهر الخطاطين في العصر الأخير نجد الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي توفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م والخطاط احمد كامل ومن ثمّة حامد الأمدي الخطاط المعاصر الوحيد الصامد خطه العربي الى الآن امام لاتينية تركيا الحديثة الجاحدة بتراث تركيا الاسلامية ، ويمتاز حامد الأمدي بجلاء رؤية في ضبط حروف العربية وهو يكتب عدة اقلام ويحسنها منها الجلي والتعليق . ولم يكن حامد الأمدي هو وحده الذي استمر بمركة الخط العربي في تركيا فقد كان معه على سبيل المثال الحاج كامل المتوفي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٤٠م ، والحاج نوري كرمان المتوفي سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م . والمعاصر امين باريم .

لقد كتب الخطاط التركي عدة أقلام قديمة ومبتكرة ، كتب الجلي وجلي الجلي وكتب بالخط السنبلي والرياسي والرقعة أو قيرمة رقعة سي الذي كتب به أولا من كتب ابوبكر مختار بك مصطفى افندي في عهد السلطان عبدالمجيد خان ١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م وخط الديواني الذروة التركية المعروفة باسم الخط الهمايوني وهو الخط الذي استعمل في الديوان العالي العثماني وكتبت به أوامر السلطان والانعامات والفرامانات ، وهنا رأي يقول ان أول من كتب به هو ابراهيم منيف ولكن الاستاذ ناجي زين الدين المصرف يذهب ان أول من كتبه هو شهله باشا .

واذا كان العراق العباسي قد اخرج اللبنات الاولى للخطاط المسلم ممثلة في أوابد بن مقله وابن البواب وياقوت فالعراق ابان حكم المماليك المعروفة باسم الكولات ١١٦٣ - ١٢٤٧هـ / ١٧٤٩ - ١٨٣١م .. برز خطاطون

اعاظم كانوا زينة العراق ومظهر ذوقه واتقانه ... فكان من آخر هؤلاء اساتذ الخطاطين وتابعتهم سفيان الوهبي ذاع صيته في العراق وزادت شهرته وعاش استاذ الخط من سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠٠م وله مصحف كتبه بخطه لا يزال موجودا في جامع الاحمدية في بغداد ، أخذ عنه نعمان الذكائي ودرويش محمد الفيض ومحمود القلمة لي المعروف بالثنائي وبكر افندي الخازنده وهؤلاء أهل فن »(٨٣) .

أما العراق الحديث فهو زاخر بالعديد من الخطاطين منهم الخطاط هاشم محمد البغدادي الذي حصل على اجازته من مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة عام ١٩٤٤ « وحصل على شهادة دبلوم بتقدير امتياز رغم انه لم يمكث بها سوى اسبوع واحد للامتحان »(٨٤) واجازة سيد ابراهيم المصري ، واجازة مرتين الاستاذ حامد الامدي التركي ، وتوفي سنة ١٩٧٣م وكان الخطاط عبدالغني عبدالعزيز هو وحده الذي منحه الاستاذ هاشم محمد البغدادي اجازة الخط دون غيره ، ومن تلاميذ هاشم ايضا صادق الدوري وعبدالله الجبوري .

وبدأت نهضة فنون الخطوط العربية المجودة في مصر المعاصرة ابان الخديوي اسماعيل بن محمد علي باشا الذي عين الاستاذ التركي عبدالله بك زهدي مدرسا للخط بمدرسة الخديوية « وفي اثناء ذلك كلفته الحكومة المصرية كتابة الآيات القرآنية وغيرها على كسوة الكعبة الشريفة - عندما كانت هذه الكسوة تعمل في مصر - كما كتب سبيل ام عباس ، وتوفي في مصر سنة ١٢٩٦هـ - ١٨٥٢م ودفن في مقابر جامع الرفاعي وتخرج عليه كثيرون »(٨٥) .

ومن ثمة جاء الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعي امام الخطاطين وأحد المجودين العظام في عصره استقدمه الملك احمد فؤاد الاول ملك مصر سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢١م ليكتب له مصحفا « فكتبه في ستة اشهر وأتم تذهيبه ونقشه في ثمانية أشهر »(٨٦) .

وكان آخر من جاء الى مصر من الاتراك الاستاذ احمد كامل الذي ذكرنا لوحته التي وضع على رأسها حمدالله الاماسي ، وقد تخرج على احمد كامل العديد من الخطاطين المصريين حين كان يدرس الخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط بالقاهرة .

وقد يكون الاستاذ محمد مؤنس افندي زادة

(٨٣) عباس العزاوي : صفحة من تاريخ الخط في العراق ، ص ٤ مجلة الاديب والفن ، الجزء الثالث ، السنة الثالثة ، العدد ١٩٤٥ .
(٨٤) تركي عطيه عبود الجبوري : نفس المصدر ص ١٧٥ .
(٨٥) ظاهر الكردي : نفس المصدر ص ٣٧١ .
(٨٦) المصدر ذاته : ص ٣٨٦ .

هو شيخ الخطاطين المصريين ، في عهده أخذ الخط عن والده ابراهيم افندي مؤنس [٨٧] وله مخطوط كتبه سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م وهو من مقتنيات دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ومن تلاميذ الاستاذ مؤنس الاستاذ محمد افندي ابراهيم الملقب بالافندي الذي عمل مدرسا في مدرسة ام عباس ثم في مدرسة تحسين الخطوط العربية . ولمع في مصر الشيخ علي البدوي الذي كتب الآية الشريفة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » على شكل دائرة على السبيل المصري في « منى » الذي انشأه الملك فؤاد الاول [٨٨] وظهر ايضا مصطفى بك غزلان وكان له امشاق كتبها بالخط الديواني وطبعتها مصلحة المساحة وكانت تعطى لنا في المدارس الابتدائية ، وهو الذي كتب الآيات القرآنية بخط الثلث داخل قاعة العرش في قصر عابدين بالقاهرة وقصر رأس التين بالاسكندرية ، وفي عام ١٣٥٦هـ - ١٣٧٠م انجز غزلان بك درة اعماله الفنية حين كتب كساء الكعبة لمصلحة الكسوة التي كانتخرسل من القاهرة الى مكة المكرمة كل سنة منذ أيام المماليك وحتى ابطلها الرئيس السابق لمصر .

ومن المدرسة الحديثة نذكر أيضا الاستاذ يوسف احمد مفتش الآثار الاسلامية الذي قام بترميم الكتابة الكوفية في مسجد احمد بن طولون في القاهرة . ومن الذين تفرغوا لتدريس الخط بمدرسة الخطوط بالقاهرة محمد افندي زاده وكان بجانب حسن خطه يدرس التذهيب والزخرفة ومات سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م . وفي القاهرة لمع الاستاذ نجيب هواويني الذي كانت له أمشاق خط من الثلث والنسخ كانت تسمى السلاسل الذهبية وكانت تدرس لنا في المدارس الابتدائية ، وفي القاهرة نجد الاستاذ السيد ابراهيم الذي عمل مدرسا في مدرسة تحسين الخطوط العربية بالقاهرة والاستاذ محمد حسني واصلة من سورية .

واذا اخذنا من كان موجودا من كبار الخطاطين بالاسكندرية فاننا نجد فيها نجد الاستاذ محمد كاظم الاصفهاني والاستاذ عبدالسلام اللخفاخ توفي سنة ١٩٣٨ وكان يسكن ويعمل في حي الموازيني بالاسكندرية ، ولم يكن يخلو منزل بحي رأس التين من آية كتبها أو اسم الجلالة ، ولمع ايضا في هذا البلد الاستاذ محمد عبده والاستاذ شفيق المصري . وكذلك الاستاذ محمد ابراهيم الذي أعطى للمنهج التعليمي لتجويد الخط العربي الصفة المدرسية واقام مدرسة تحسين الخطوط في الاسكندرية وكان لها الفضل في تخريج العديد من التلاميذ ، توفي سنة ١٩٧٠ .

(٨٧) المصدر ذاته ، ص ٣٧٦ .
(٨٨) المصدر ذاته ، ص ٣٧٨ .

هذه لمحات عاجلة ومقتضبة من تراث الخطوط العربية الذي اذا نظرنا اليه وتأملنا ما هو قائم الآن لوجدنا ان الملكات قد اصبحت محدودة من هذه المادة الخالدة لان دوافع الخطاط المجود قد اصبحت دوافع واهية الصورة والتعبير لانهم لا يرون من الخطوط العربية الا المظهر الشكلي والقليل من قواعد النسب المفروضة وفقا لمقتضيات الحروف وأبعادها الشكلي وسيرا على درب هؤلاء القدامى من الخطاطين المجودين اصحاب المواهب اللذين جعلوا التعبير تشكيلا فنيا يتدفق ليعبر عن ذاته وعن حقيقة ان الذات الشرقية هي الوسيلة الى اظهار القيم الجوهرية في ذاتها ومع النفس المسلمة المبدعة لذاتها ومن ذاتها ، وبهذا كانت الحروف العربية المجودة في مظهرها وفي جوهرها تطبيقا مرئيا لتلك الطاقة المبدعة التي يختزنها انسان الشرق الاسلامي في اعماقه .

ان الكلمة الموجودة في شكلها التركيبي انما تأخذ لها هذه الأصرة الجمالية المجودة المنبثقة من المعادلات الذوقية الكامنة في كل حرف مجود وذلك لان الحروف العربية انما تستقيم في شكلها على هذه الصورة الرفيعة لانها قائمة على مقاييس رياضية بجانب لمساتها الروحية ، ولهذا نجد أن الكلمة المجودة بين التركيب والتحليل قائمة اولا على العنصر الذاتي الذي يعطي لها شخصيتها التي هي في الواقع جزء من شخصية مجودها . وثانيا ، على المقاييس الدقيقة التي تعطي الحروف ايقاعات عالية ومنخفضة اي أن الحروف العربية المجودة بين القرار والجواب ـ اذا جاز لنا أن نستعمل هذا المعنى ـ انما تقوم على حركات زمانية لها ضوابط مكانية متناسقة الشكل متساوية الوزن أي ان لها ذات الأبعاد الايقاعية التي تمتاز بها الموسيقى الشرقية القيمة وذات ضربات الشعر العربي في تفاصيله المتباينة .

وفي سبيل ادراك الصلة بين الألحان السماعية والخطوط المرئية يمكننا أن نضع الخطوط المجودة في موضع المقارنة مع الايقاع الذي هو في صميمه موازين زمنية كما هو موازين فوقية ، ومن هنا تأتي الصلة ، حيث نجد الكيف المكاني في الخطوط العربية المجودة والكم الزماني في اللحن يشكلان نسبا متباعدة بعضها عن البعض ومتقارب البعض الآخر . والخلاف في الموازين والعدد مبعثه طبيعة كل منها اذ أنه ليس جمع الحرف الى الحرف يعني جمع البعد الى البعد لان الأمر في كل منها انما يأخذ له حتمية المشاركة التي دائما ما تقوم بين التشكيل اي كان وبين التذوق ، وذلك لأن الابعاد في كل منها له مقاييس افقية ورأسية متوالية الحركات والمنظور في هذه الابعاد زماني أكثر منه مكاني ، وذلك لان عنصر الزمن متداخل بين الحرف والحرف وبين الطنين والطنين والبعد الزماني المخلل ضرورة ، بدونه لا يمكن ان يستقيم التجويد في الخط ولا التناسق في اللحن ، ولهذا

يفسر الايقاع كما يذهب فيه الحسين بن زيلة « انه تقدير ما لزمان النقرات . فان كانت النقرة منغمة كان الايقاع شعريا لحنيا ، وان كانت محدثة للحروف ـ المنتظم منها كلام ـ كان الايقاع شعريا »(٨٩) ونضيف الى ذلك ، وان كانت محدثة للحروف المكتوبة كان الايقاع تجويدا . وبهذا يمكننا أن نضيف هذا الايقاع الخطي لانه في حقيقته له نفس الابعاد الزمنية التي يتخلل حركاتها نغمات لها اوزان محسوبة بدقة امتدادها الزماني .

بهذا تكون وحدة الحركة قائمة في كل منها كما يذهب الى ذلك ابوحيان التوحيدي في قوله « الحركة صورة واحدة ولكنها توجد في مواد كثيرة ومجال مختلف وبحسب ذلك تولى أسماء مختلفة »(٩٠) .

هذا هو بعض من تراثنا في الكتابة العربية وخطوطها المجودة وهو جزء من تراث كبير متكامل كلما تأملته واقتربت منه ثم رأيت الناس تعرض عنه وتتصرف الى غيره يخطرنا ابيات الشاعر الباكستاني يودي الذي يقول فيها :

قال المنصور ، أنا الحق
وقال دارون انا قرد

واخذت اوربا بهذا القرد وصارت في اوج مدنيتها المادية والحربية ، اما نحن فلم نستشف ما عني به الحلاج بقوله انا الحق وتركنا قوله لنسير خلف القرد نحتذي ماديته ونتتبع خطواته الى حضارته المزيفة القاتلة .

لقد كان ومازال الخط العربي أحد المظاهر الحقيقية للحضارة الاسلامية ، وهو وحده الذي مازال قائما ومميزا حتى الآن رغم كل المعوقات التي تعترضه ، والدعوات الخبيثة التي تنادي بتركه والانصراف عنه الى الحروف اللاتينية .

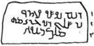
ان لم الخط لم تعد له هذه القداسة التي كانت تميزه في الماضي ولولا هذه المجهودات الفردية التي تبذل هنا وهناك لاصبحت الخطوط العربية خطوط متاحف (يتفرج عليها السياح) .

لقد قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده « ان الاسلام محجوب بأهله » واستسمح الاستاذ الامام في اعادة كلمته وأقول « ان الاسلام بالفضيلة الامام محجوب بأهله الاحياء » .

***

(٨٩) الحسين بن زيلة : الكافي في الموسيقى ، تحقيق زكريا يوسف ، ص ٤٤ القاهرة ١٩٦٤ .

(٩٠) ابوحيان التوحيدي : المقابسات ، ص ٢٢٨ ، القاهرة ١٩٢٩

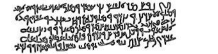


شكل رقم (١)

نقش نبطي على قبر فهر - تاريخه ٢٥٠ م - عثر عليه في أم الجمال ونصه كالآتي :

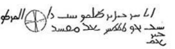
١ - دنه نفشو فهرو	هذا قبر فهر
٢ - بن شلي ربو جذيمت	ابن شلي مربي جذيمة
٣ - ملك تنوخ	ملك تنوخ

نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



شكل رقم (٢)

نقش النمارة : شاهد قبر امرىء القيس
كتابة نبطية عربية - تاريخها سَنَة ٣٢٨ م
نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



نص حرّان

شكل رقم (٣)

نقش حران : شاهد قبر شرحبيل ـ كتابة عربية تاريخها ٥٦٨ م
ونصها كالآتي :

انا سرحيل بر ظلمو ذا المرطول
سنت ٤٦٣ بعد مفسد
خيبر
بعد

نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



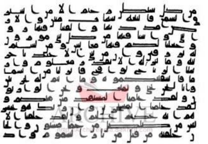
شكل رقم (٤)

صورة الرسالة التي ارسلها حضرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى
نقلا عن : دراسات في الخط العربي (المنجد)



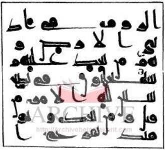
شكل رقم (٥) :

نموذج من الخط المدني - حروف منقولة عن المصحف المنسوب لعثمان بن عفان الموجود بمتحف طوب قابو - نقل محمود حلمي .



شكل رقم (٦)

ورقة من مصحف منسوب الى الامام علي – مكتوبة بالخط المدني
سورة الحجر من الآية ١٧ حتى الآية ٢٨
محفوظة في خزانة الامام الرضا .
نقلا عن : دراسات في تاريخ الخط العربي (المنجد) .



شكل رقم (٧) :

ورقة من مصحف مكتوب بالخط الكوفي ـ أواخر القرن الثاني الهجري .

نقلا عن : مجلة الفيصل ـ العدد ٢٦ .



شكل رقم (٨)

الورقة الاخيرة من مخطوط كتبه ابن البواب بقلم الثلث — من مقتنيات متحف الاثار الاسلامية التركية باستانبول .

نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصور) .

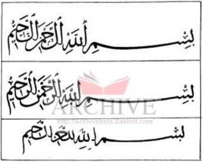


شكل رقم (٩) :

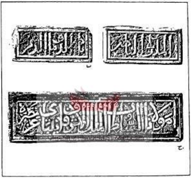
ورقة من القرآن الكريم : بداية سورة مريم

بقلم الثلثين ـ جليل الثلث ـ القاهرة القرن الثامن الهجري

نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصحف) .



شكل رقم (١٠) :
البسملة : ثلاثة نماذج من خط الثلث المملوكي المصري
نقلا عن : القلقشندي .



شكل رقم (١١)

لوحة من الخط الثلث المملوكي – كتابة بارزة من النحاس

أ ، ب : باسم السلطان الناصر محمد ٧٢٠ هـ – ١٣٤٠م

ج : باسم السلطان قايتباي ٩٠١ هـ – ١٤٩٦م

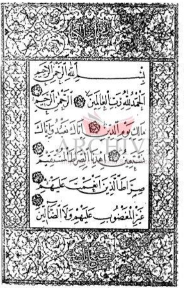
دار الآثار الاسلامية القاهرة (رقم الاثر ٤٢٢ ، ٢٣٣٤)

نقلا عن : K.O.WIET, ALBUM DU MUSEE ARABE DU CAIRE, P. 39, LE CAIRE,1930.



شكل رقم (١٢) :

لوحة من خط التعليق كتبها "مير عماد الحسنى " ١٠١٧ هـ ـــ ١٦٠٨ م "
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرف) .



شكل رقم (١٣) :
سورة فاتحة الكتاب بخط النسخ كتبها الشيخ "حمد الله الاماسي"
٩٣٢ هـ — ١٥٢٠ م
نقلا عن الاتراك وفن الخط الاسلامي (دريسمان)



شكل رقم (١٤)

لوحة كبيرة أحمد قره حصاري تشمل ثلاثة وحدات

ـ الحمد لله بخط كوفي بسيط وحلية هندسية في مركز المربع

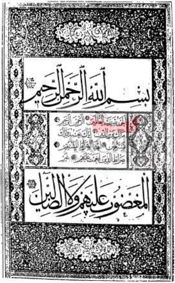
ـ البسملة بخط الثلث

ـ سورة فاتحة الكتاب بخط كوفي بسيط

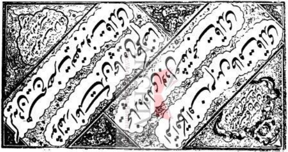
٩٦٤ هـ ـ ١٥٥٦م

نقلا عن :

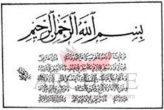
SULE AKSOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT,
SAYI V, OCAK 1977 - ANKARA.



شكل رقم (١٥) :
سورة فاتحة الكتاب بقلم المحقق الريحاني
كبيرا • احمد قرة حصاري • ٩٦٤ هـ – ١٥٥٦ م
نقلا عن : الاتراك وفن الخط الاسلامي (دربان)



شكل رقم (١٦) :
لوحة بخط التعليق كتبها "يساري اسعد افندى" المتوفى سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٦م
نقلا عن : مكانة الاتراك في الخط الاسلامي (دريسان) .



شكل رقم (١٧)
بسملة بالقلم المحقق ، وحديث شريف بقلم النسخ
كتبها "محمد شوقي" ١٢٥٢هـ – ١٨٣٦ م
نقلا عن : MAHMUD BEDREDDIN YAZIR, YAZI VE KALAM GUZELI , 1.



شكل رقم (١٨) :

بسملة بقلم الثلث الجلي كتبها السلطان محمود الثاني

١٢٥٥ هـ ــ ١٨٣٦ م

نقلا عن : SULE AKSOY, HAT SANATI, KULTUR VE SANAT, SAYI V, OCAK 1977 - ANKARA.



شكل رقم (١٩) :

سورة الحديد الآية ٢٣ ، ٢٤ بخط الثلث — كتبها زهدي
١٢٧٣ هـ — ١٨٥٦ م

نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرف) .



شكل رقم (٢٠)
لوحة بقلم الثلث الجلي في شكل متناظر – كتبها عزيز بك ١٢٩٠هـ ١٨٧٣م
نقلا عن : الاصول وفن الخط الاسلامي (دريسان) .

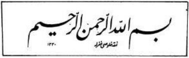


شكل رقم (٢٥) :

سورة فاتحة الكتاب بقلم الثلث ـ كتبها السيد مصطفى عزت ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م
نقلا عن : مكانة الأتراك في الفن الإسلامي (تورسان) .



شكل رقم (٢٢) :
نموذج الابجدية العربية بخط السنبلي كتبها عارف حكمت
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرف) .



شكل رقم (٢٣) :
بسملة بالخط التعليق، كتبها خلوص أفندي ١٣٣٠هـ - ١٩١١م
نقلا عن : M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.



شكل رقم (٢٢) :
بسملة بخط ثلث الجلي في شكل مثنى متناظر
كتبها احمد امين ١٣٣٥ هـ - ١٩١٦م
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرف)



شكل رقم (٢٥) :
بسملة بقلم التعليق كتبها محمد رفعت – ١٣٤٠هـ – ١٩٢٢م
نقلاً عن : M.B.YAZIR, KALAM GUZELI, II.



شكل رقم (٢٦) :
بسملة بقلم الثلث الجلي كتبها عبد العزيز الرفاعي ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصرف) .



شكل رقم (٢٧)

سورة الانشراح بقلم الثلث كتبها عبد العزيز الرفاعي
١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصنف) .



شكل رقم (٢٨):
بسملة بالقلم الجلي كتبها "حليم" ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م
نقلا عن: بدائع الخط العربي (المصرف)



شكل رقم (٢٩) :
بسملة بالقلم المحقق كتبها "نوري كرمان"
١٣٧١ هـ ـ ١٩٥١ م
نقلا عن : M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.



شكل رقم (٣٠) :

بسملة بالقلم المحقق كتبها "بدر الدين" ١٣٦٥ هـ - ١٩٣٥ م
نقلا عن :
K.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.



شكل رقم (٣١) :
بسملة بالقلم المحقق كتبها " الحاج كامل الفدين " ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م
نقلا عن : M.B.YAZIR, KALEM GUZELI, II.

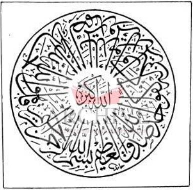


شكل رقم (٣١)
آية الكرسي بخط الثلث كتبها الحاج أحمد كامل – ١٣١٠هـ – ١٩٤١م
نقلا من « مكانة الاتراك في فن الخط الاسلامي » (دريان) .



شكل رقم (٣٢) :

لوحة متراكبة بقلم الثلث الجلي كتبها " حامد الآمدي "
ونصها " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم "
نقلا عن (بدائع الخط العربي) (المصرف) .



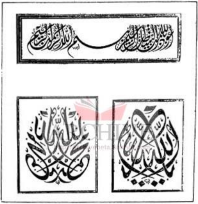
شكل رقم (٣٤)

سورة الاخلاص بقلم الثلث كتبها "حامد الآمدي"
نقلا عن : بدائع الخط العربي (المصحف)



شكل رقم (٣٥) :

لوحة بقلم التعليق كتبها "نجم الدين أوقتاى
١٣٧٥هـ - ١٩٧٦م
نقلا عن : مكانة الاتراك فى فن الخط الاسلامى (درمان)



شكل رقم (٣٦)

ثلاثة نماذج بالقلم الديواني بخط أمين باليم
نقلا عن : كتالوج معرض في الأكاديمية الفنون الجميلة استانبول ١٩٧٠.



شكل رقم (٣٧)

حديث شريف بقلم جلي الثلث كتبه محمد ابراهيم
(الاسكندرية)



شكل رقم (٣٨)
نموذج بقلم الثلث والنسخ كتبه هاشم محمد
نقلا عن : كراسة قواعد الخط العربي بخط هاشم محمد
١٣٨١هـ ١٩٦١م (بغداد)

الشخصية من المنظور الفينومينولوجي

حليم السعيد بشاى

قسم علم النفس - جامعة الكويت

المتغيرات الظاهرية (الفينومينولوجية) في بناء الشخصية :

يعتبر المنظور الظاهرى (الفينومينولوجي) في دراسة الشخصية من أبرز المعالم المميزة لما حققته الدراسات النفسية الحديثة والمعاصرة من اسهامات في الكشف عن حقيقة الشخصية الانسانية . ورغم تعدد مسميات النظريات الظاهرية مثل نظريات الذات Self-theories ونظريات التراكيب Construct theories والنظريات المعرفية Cognitive theories والنظريات الوجودية existen-tial theories الا أن معظمها يجتمع على مفاهيم معينة يؤكدها في تفسيره للشخصية بينما يتفق على رفض مفاهيم أخرى لاتدخل في اطار التصورات الظاهرية .

فالنظريات الظاهرية Bhenomenolo-gical theories تنطلق من تصور مؤداه اننا لانستطيع فهم السلوك الانساني والتنبؤ به بدون معرفتنا لادراكات الشخص لبيئته ولنفسه كما يراها في علاقته بالبيئة ، ولذلك تسمى هذه بالنظريات الظاهرية بسبب هذا الدور الرئيسي الذي تعطيه للادراكات والمعارف والمشاعر في فهم كنه الشخصية . ومن ناحية اخرى ، تميل هذه النظريات الى رفض معظم المفاهيم الدينامية والدافعية من نظريات التحليل النفسي والتعلم (ميلر - ودولاد) وكذلك معظم الافتراضات التي تقوم عليها نظريات السمات .

هذا الرفض للتفسيرات الدافعية ، او على الاقل اهمالها يصاحب التركيز على الخبرات المباشرة للشخص ، لذلك ينظر الى الشخص على انه « كائن يعيش الخبّرة » بدلا من اعتباره « شخصية ذات تركيب معين » أو نظام من الديناميات النفسية « التي تقوم على استعداداته وتاريخ تطوره ، ويعني ذلك ان هذه النظريات تهتم اساسا بالخبرة الذاتية للفرد ، وبنظراته الشخصية للعالم ولنفسه وبمفاهيمه الخاصة .

ان معظم هذه النظريات يهتم اساسا بالمعرفة Cognition ـ أي بكيفية معرفة الانسان وفهمه لعالمه ولنفسه ـ هذه المعرفة تتضمن الانتباه الذي يوجهه الشخص الى العمليات الداخلية او العقلية التي من خلالها يسعى الى تنظيم وتصنيف المعلومات .

ولقد تأثرت هذه النظريات المعرفية بالعالم السويسري « جان بياجيه » من حيث اهتمامها بـ « التركيبات العقلية » للانسان ، وبالطريقة الفعالة التي بها يستخلص المعاني والخبرات ، يقول « نيسير » :(١)

« ان عالم الخبرة ، سواء كان جميلا أو قبيحا ، يجري خلقه بواسطة الانسان الذي يخبر هذا العالم » . هذه العبارة ، بالطبع لاتعني عدم وجود عالم « حقيقي » من الاشياء ، وتزعم ان البيئة مجرد وهم لايؤثر في خبراتنا الخاصة . ومع ذلك ، فان الموقف المعرفي يؤكد على انه ليس عندنا وسيلة مباشرة وفورية توصلنا الى هذا العالم ولا الى اي من خصائصه . . . فما نعرفه عن الواقع يتم بالتوسط Mediated وليس فقط بواسطة اعضاء الحس ، ولكن ايضا بواسطة انظمة معقدة تقوم بتفسير واعادة تفسير المعلومات الحسية (٢) .

وفي ذلك قد اجريت دراسات كثيرة عن العمليات المتضمنة في المعرفة ، وعن « المثير كما يخضع للتنظيم » stimulus as coded(٣) وهي دراسات تتعلق فقط بالشخصية على نحو غير مباشر ، مثل بحوث الذاكرة والادراك (٤) ، ومع ذلك فان الاتجاه المعرفي يحمل بصفة عامة أهمية لدراسة الاشخاص .

ولقد حاول بعض علماء نفس الشخصية المهتمون بالاتجاه المعرفي ان يكتشفوا كيف يدرك الفرد ويعقله ويفسره ويخبره ، وبالتالي اهتموا بالمثيرات كما يتم تفسيرها وبالاحداث كما تتمثل معرفيا داخل من يلاحظها ، وبالأشخاص والأحداث كما يراها الشخص المدرك .

وباختصار تدور النظريات الظاهرية حول محور محدد هو خبرة الشخص كما يدركها وينظمها أي بفينومينولوجيته .

---

(1) U. Neisser. Cognitive Psychology. New York: Apleton — Century — Crafts, 1967,p.3.
(2) Ibid,p.3
(3) D.H Lawrence. The Nature of Stimulus: Some relationships between learning and perception. In S. Koch (Ed) Psychology: A study of Science. New York: Mc Graw Hill,1959,pp. 179—212.
(4) G.H.Bower Mental imagery and associate learning. In L. Gregg (Ed) Cognition in learning and memory. New York: Wiley,1969

مصادر الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية

يستمد الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية أصوله من مصادر عديدة . فمن بين اصحاب النظريات الكثيرة الاول على سبيل المثال ، اولئك الذين اهتموا بالبحث في الذات ، مثل وليم جيمس وجورج هربرت ميد وجون ديوي . وفي مطلع القرن العشرين اهتم كارل يونج بسعي الشخص الى تحقيق الذات والى التكامل ، وبوجود عمليات خلاقة تتجاوز الغرائز الرئيسية في علم النفس الفرويدي . كذلك كان لعلم النفس الجشكلتي وللفلسفة الوجودية اهمية كبيرة في بلورة الاتجاه الظاهري في دراسة الشخصية الانسانية .

اسهامات « جوردون البورت »

يعتبر « البورت » في مقدمة علماء النفس الذين درسوا الشخصية كتنظيم للسمات traits ، وكان لتصوراته للشخصية على هذا النحو تأثير هام على دراسة الشخصية لأكثر من ٣٠ عاما ، واذا كان البورت يعترف بوجود سمات عامة قد يشترك فيها كل الناس بدرجات مختلفة الا أن الكثير من آراء « البورت » يتعلق بالاتجاه الظاهر في دراسة الشخصية . فنظرية « آلبورت » تركز على الفردية individuality وتفرد uniqueness الشخص وعلى النماذج المتكاملة التي تميز كل شخص .

ان السلوك ، وفقا « لالبورت » يكون مدفوعا في الأصل بواسطة ، الغرائز ، ولكن فيما بعد يأخذ في التحرر من التدعيم البيولوجي ، ويرى ان معظم الدوافع السوية لدى الكبار لم تعد ترتبط بعلاقة وظيفية بجذورها التاريخية « فطبيعة الدوافع تتغير بشكل جذري من الطفولة الى النضج بحيث يمكننا ان نعتبر أن دوافع الكبار تحل محل دوافع الطفولة »(٥)

يطلق « البورت » على هذه الظاهرة مصطلح الاستقلال الوظيفي Functional autonomy ويعتبر انه بقدر ماتكون دوافع الفرد مستقلة ، أي غير مرتبطة بدوافع الطفولة فان هذا يعد دليلا على نضجه .

ويفسر ذلك ايضا موقف « آلبورت » الذي يؤكد على مبدأ المعاصرة Contemporaneity اتضاء لليقين - المميز للدوافع (٦) . وبالتالي فان الماضي ليس هاما الا اذا تضمن قيمة وفعالية بالنسبة للحاضر . لذلك يعتقد ان الحقائق التاريخية عن ماضي الشخص ، وان كانت تساعدنا في الكشف عن النسق الكلي لحياة الشخص الا أنها لاتفسر بطريقة ملائمة سلوك هذا الشخص في الوقت الحاضر ، أي أن « الدوافع السابقة Past motives لاتفسر شيئا الا اذا كانت ايضا دوافع حاضرة Present motives ». (٧)

وبالاضافة للبحث في « الذات » كمفتاح رئيسي لدراسة الشخصية يركز على الخبرات المدركة لدى الفرد في الوقت الحاضر ، وعلى ذاته الظاهرية وعلى نمطه الفريد في المواءمة . ويأخذ « البرت » بوجهه النظر الكلية holistic في دراسة الانسان ككائن حي بيولوجي اجتماعي متكامل ، بدلا من اعتباره مجموعة من السمات والدوافع . وفي ذلك تتشابه وجهات نظر « البورت » مع نظرية « كيرت جولد شتين » الذي يؤكد على ان الكائن الحي كل متكامل يسعى الى تحقيق ذاته على كل مستويات وجوده . (٨)

---

(5) G.W.Allport. Motivation in personality: Reply to MR.Betrocci. Psychological Review, 1940, 47 533 — 554 & (p.54s).
(6) G.W. Allport. Pattern and growth in Personality, N.Y Holt Rinehart, Winston, 1961.
(7) Ibid, p.220.
(8) K. Goldstein. The Organism. New York: American Book Co, 1939.

نظرية المجال عند « ليفين »

لعبت النظريات المجالية field theories دورا كبيرا في تطوير المنظور الظاهري للشخصية ، لأنها فسرت السلوك على انه محتوم بالمجال الحيوي السيكولوجي للشخص ، أي ـ بالأحداث التي توجد في موقفه السيكولوجي الكلي في اللحظة الراهنة ، وليس بالاحداث الماضية ، يتضح ذلك خاصة في نظرية المجال عند « كيرت ليفين » .

أفاد « ليفين » في نظريته في الشخصية من مفهوم المجال في علم الفيزياء وهو المفهوم الذي تتوج بنظرية النسبية عند « اينشتين » . لقد لقي مفهوم « اينشتين » عن « مجالات القوة » تعبيرا في الحركة الجشطلتية في علم النفس التي تؤكد على أن أي جزء من الكل انما يعتمد على كل جزء آخر . وطبق الجشطلتيون فكرة المجال . كما يتضمن مكونات مترابطة فيما بينها داخل هذا المجال ، أساسا على دراسة الادراك ، وذهبوا الى ان الطريقة التي يتم بها ادراك موضوع ما انما تتوقف على النسق الكلي total context لما يحيط به او على تشكله configuration فما يدرك يتوقف على العلاقات بين مكونات المجال الادراكي ، وليس على الخصائص الثابتة للمكونات المنفردة .

يدعو « ليفين » الى تطبيق نظرية المجال على كل فروع علم النفس ، فنظرية المجال كما طورها ، هي عبارة عن مجموعة من المفاهيم التي تيسر ترجمة الخبرة الظاهرية ، بل ويعتبر « ليفين » أن الأخذ بهذه المفاهيم هو المهمة الأولى للسيكولوجية كعلم .

طبق « ليفين » ايضا المفاهيم المكانية او الطوبولوجية على نظرية الشخصية . فالمفاهيم المحددة مكانيا يمكن معالجتها رياضيا بطريقة لاتستطيع معها التعريفات اللفظية ان تعالجها .

لهذه التمثيلات الرياضية mathematical representations بالاضافة الى انها تسمح بصياغة اكثر دقة ، فان لها ميزة رئيسية تتضح من أنها تزودنا بمعلومات غير متوقعة حينما تخضع لعمليات رياضية مختلفة . واذا كانت الصياغات اللفظية الغامضة ـ كما يذهب « ليفين » ـ تؤول فحسب الى كلمات اكثر فان الرياضيات ، وهي لغة العلم ، تسمح بصياغة علاقات وظيفية محكمة . وان رياضيات « ليفين » هي رياضيات لوصف العلاقات المكانية الطوبولوجية : العلاقات المتبادلة والروابط المتبادلة بين المناطق الطوبوغرافية .

يعرف « ليفين » المجال الحيوي Life spacs على انه المجموع الكلي للحقائق التي تحدد سلوك (س) الفرد في لحظة معينة . ويشتمل المجال الحيوي على الشخص (خ) والبيئة النفسية (ب) ويعني ذلك ان السلوك دالة الشخص وبيئته ، س = د (خ ، ب) . يناقش « ليفين » أيضا مشكلة العلاقة الزمنية بين حدث ما والشروط التي تخلقه . وفكرة « ليفين » في ذلك انه لا الماضي ولا المستقبل يوجدان في اللحظة الراهنة ، وبالتالي ليس لها تأثير على الحاضر . واذا كان للاحداث السابقة موضع في السلسلة السببية التاريخية التي بتشابكها تخلق الموقف الراهن ، ولكن ماينبغي ان يوضع في الاعتبار هو فحسب تلك الاحداث التي تعمل

في الموقف الراهن . وبعبارة أخرى الحقائق الراهنة فحسب هي التي تسبب السلوك الحاضر .

هكذا يضع « ليفين » في الاعتبار عند طرحه لفكرة المجال الحيوي كل ماهو معاصر للأحداث وهو مايسميه بمبدأ المعاصرة Contemporaneity . (٩)

ان الحدود بين الشخص والبيئة النفسية ، وبين المجال الحيوي والعالم الفيزيائي قابلة للتوصيل والنفاذ بين بعضها البعض permeability أي أنها تمكن من تهيئة التأثير المتبادل فيما بينها .

ويرفض « ليفين » فكرة الخصائص الثابتة للشخصية مثل فكرة السمات غير المتغيرة . فالواقع النفسي كنتيجة للقوى الدينامية متغير دائما (١٠) . فبيئة الفرد لاتعمل على مجرد تيسير الميول الراسخة بشكل دائم في طبيعة الشخص . (١١)

والعادات بذلك ليست ارتباطات مجمدة ولكنها بالأحرى نتيجة للقوى الموجودة في الكائن الحي وفي مجاله الحيوي .

وفي ضوء ذلك لايقر « ليفين » بالمفاهيم المستخدمة المتعلقة بالحاجات الانسانية . فالحاجات التي لها تأثيرات على الموقف الراهن هي فقط تلك الحاجات التي ينبغي ان توضع في الاعتبار في تفسير ديناميات الشخصية . واهتم « ليفين » ايضا بمبادىء الثواب والعقاب ، ولكنه خلافا لمبادىء اللذة hedonism التي اخذت بها نظريات التعلم المبكرة يعتبر الاثابات على انها طرق لضبط السلوك في المواقف الراهنة ، وذلك عن طريق احداث تغييرات في البيئة النفسية وفي نظم التوتر في الشخص .

ووفقا ل « ليفين » ، يعتبر السلوك والنمو وظائف لنفس العوامل التركيبية والدينامية . فكلاهما وظيفة للشخص والبيئة النفسية . ومع ازدياد النضج ، يحدث بصفة عامة تمايز اكبر للشخص وللبيئة النفسية .

لقد كان لنظرية المجال عند « ليفين » فضل عظيم على علم النفس الاجتماعي التجريبي . وسعى تلاميذه الى توسيع افكاره واخضعوها لتجارب صممت لتغيير المجال الحيوي عند الشخص وذلك بواسطة تغيير ادراكه لنفسه - وللاشخاص والآخرين - وللأحداث .

ويعني كل ذلك اسهامات عظيمة بالنسبة لدراسة الشخصية بصفة عامة ، ومن المنظور الظاهري بصفة خاصة .

بل ان النظريات الاخرى من الشخصية والتي اهتمت بشكل خاص بدراسة السمات والدوافع ، وتقر بالأهمية البالغة لنظرية المجال في دراسة الشخصية . (١٢)

(9) K. Lewin Principles of topolgical psychology. New York, Mc Graw — hill, 1935.
(10) K. lewin. A dynamic Theories of Personality. New York: Mc Graw — Hill, 1935.
(11) K. Lewin, OP. Cit, 1935.
(12) W. Mischel. Personality and assessment.New York Wiley 1968.

الفينومينولوجيا والوجودية :

أكدت كتابات « سنيج وكومبز »[13] أيضا على المعالم الظاهرية للمجال ، وكان لهما فضل كبير من التأثير على علماء النفس المهتمين بوعي الشخص وبخبراته الخاصة . كذلك طور « كارل روجرز » و « جورج كيلي » موقفا علميا يؤكد على الخبرات الخاصة والادراكات والذات كمحاور رئيسية لدراسة الشخصية فينومينولوجيا .

تتفق الكثير من الآراء المتضمنة من معظم هذه النظريات الظاهرية مع الموقف الفلسفي الوجودي الذي طوره المفكرون والكتاب الأوربيون مثل كير كيجارد وسارتر كاموس . وقد انعكس هذا الموقف خاصة في اسهامات « رولوماي » عالم النفس الوجودي .

يخبر « رولوماي » بصدد تناوله بالعلاج النفسي لاحدى مريضاته أنه كان بين يديه كل انواع المعلومات عن هذه الحالة ، مثل الفروض المشتقة من استجاباتها لاختبار الرورشاخ والتشخيص المأخوذ عن الفحوص الفينورولوجية ، ولكنه يعقب على ذلك[14] :

« ولكن اذا كنت افكر اساسا كيا اجلس هنا ، في هذه الاسباب (whys) والكيفيات (hows) المتعلقة بالطريقة التي بدأت بها المشكلة ، فاني سوف أدرك كل شيء عدا الشيء الاكثر اهمية وهو الشخص الموجود ex-isting person في الحقيقة ، سوف ادرك كل شيء عدا المصدر الحقيقي الوحيد للبيانات التي عندي ، وهو هذا الكائن الحي الذي يعيش خبرة وجوده - وهو ذلك الشخص الذي يخبر الآن وعلى الفور وفي هذه الحجرة معي ، نموه وصيرورته « وبناءه للعالم » وذلك وفقا لمفاهيم علماء النفس الوجوديين » .

تعكس ملاحظات « ماي » اهتمام العلماء الوجوديين بالخبرة الظاهرية phenomeno-logical experience وبخبرة هنا والآن here and now وليس بمصدر العلة Etiology او بالاسباب التاريخية الموغلة في الطفولة المبكرة للشخص .

وبالاضافة الى ذلك ، يفضل علماء النفس الوجوديون النظر الى الانسان على انه قادر على الاختيار والمسئولية بدلا من اعتباره ضحية للقوى اللاشعورية او للعادات .

يعلق « نبو انجبر » وهو طبيب نفسي سويسري وجودي على النظرية الفرويدية بأنها قد صورت الانسان ليس على أنه انسان بالمعنى الكامل ، ولكن فقط على انه مخلوق يقاوم الحياة

(13) D. Snygg & Combs. Individual Behavior. New York: Harper. 1949.
(14) R. May (Ed) Existential Psychology, New York, 1961,p.26.

ويصارعها ، ويذهب « تيو ابجر » الى أن الحقيقة بأن الحياة الانسانية محتومة بقوى وظروف انما تمثل جانبا واحدا فقط من الحقيقة ، أما الجانب الآخر فهو أننا أنفسنا « نحتم هذه القوى كقدرنا » (١٥) وعلى ذلك فان تحقيق الانسان لذاته ، من المنظور الظاهري والوجودي يتطلب اكثر من مجرد تحقيق الحاجات البيولوجية والغرائز الجنسية والعدوانية .

فينو مينولوجيا الشخصية

نظرية الذات عند كارل روجرز

الخبرة الفريدة : تؤكد النظرية الظاهرية لروجرز في الشخصية على واقع الشخص الذي يخبره بطريقة فريدة ، ويعتبر السلوك نتيجة للأحداث الادراكية المباشرة كما يخبرها الشخص بالفعل ، واذا كان اي شخص آخر لا يستطيع ان يتوصل بدقة الى « الاطار المرجعي الداخلي » للشخص فان الشخص ذاته هو الذي في مقدوره ان يكون على وعي بحقيقة نفسه ، فكل انسان في الحقيقة أعظم خبير في العالم بالنسبة لنفسه ، ولديه افضل المعلومات عن نفسه .

يقول روجرز « ان السلوك هو أساسا تلك المحاولة الموجهة نحو الهدف لدى الكائن الحي لاشباع حاجاته كما يخبرها ، وفي المجال كما يخبره . (١٦) فاهتمام روجرز اذن متمركز على ادراكات الشخص من حيث أنها المحددات لأفعاله : فالكيفية التي بها يرى الشخص الاحداث ويفسرها ، انما تحدد بالتالي الكيفية التي بها يستجيب لهذه الاحداث .

تحقيق الذات : يؤيد روجرز ، مثل معظم الفينو مينولوجيين الموقف الذي يرفض الاخذ بمكونات دافعية معينة ، ويرى الكائن الحي على انه ينشط وظيفيا ككل منظم ثمة مصدر رئيسي واحد للطاقة في الكائن الحي الانساني ، هذا المصدر وظيفة للكائن الحي الكلي وليس لجانب منه وربما (يمكن) تصوره على نحو افضل على انه ميل نحو تحقيق الذات ، ونحو المحافظة على الكائن الحي وتقدمه . (١٧) اذن فالميل الاصيل لدى الكائن الحي هو ان يحقق ذاته وتصير « الدافعية » على هذا النحو ليس كتكوين خاص ولكن كخاصية كلية لكون الفرد حيا .

يؤكد روجرز ، اتفاقا مع نظرية الايجابية للطبيعة الانسانية على ان الانفعالات مفيدة للتوافق ، وبدلا من أن يهتم بالتأثيرات الهامة للقلق ، يعتقد روجرز ان الانفعال يصاحب

(15) Ibid, p.252.
(16) C. R. Rogers Client — Centred therapy: Its current practice, implication and theory. Boston: Houghton, 1951, p.491.
(17) C.R. Rogers. The actualizing tendency in relation to Motives and to Consciousness In M.R. Jones (Ed). Nebraska Symposium on motivation. Lincoln: University of Nebraska Press, 1963 p.6.

السلوك الموجه نحو الهدف وييسره بصفة عامة . ويرتبط تلك الانفعال بالمغزى المدرك للسلوك الهادف الى المحافظة على الكائن الحي وتقدمه »(١٨) .

والكائن الحي في سياق تحقيقه لذاته انما يدخل في عملية تقييمية فالخبرات التي يدركها على انها باعثة على تقدمه ، انما يقيمها بشكل ايجابي (وبالتالي يقدم نحوها) . اما الخبرات التي يدركها على انها معوقة لتقدمه أو لبقائه ، فيقيمها سلبيا (وبالتالي يحجم عنها) .

« فالكائن الحي يتصف بنزعة اساسية وسعي اساسي - وهو أن يحقق كيانه ويحافظ عليه ، ويرفع من شأنه وذلك في سياق معايشة الخبرة وجوده »(١٩) .

الذات : مفهوم رئيسي في نظرية روجرز في الشخصية التي يشار اليها غالبا كنظرية للذات ومفهوم الذاتself-conceptهو جشطلت تصوري ، متسق ، منظم ، يتألف من ادراكات خصائص ال « أنا » (بمعنى I او me) وادراكات علاقات ال « أنا » بالآخرين وبجوانب الحياة المختلفة وفي ارتباطها بالقيم المتعلقة بهذه الادراكات » . (٢٠)

وكنتيجة لهذا التفاعل مع البيئة ، يصير ذلك الجانب الادراكي بالتدريج متميزا داخل الذات . هذه الذات المدركة perceived-self(مفهوم الذات) تؤثر في الادراك والسلوك . وتفسير الذات هو الذي يؤثر في كيفية ادراك الشخص لبقية عالمه . وتصير خبرات الذات مغلفة بالقيم ، وهذه القيم هي نتيجة للخبرة المباشرة مع البيئة ، او يتشربها الشخص من الآخرين .

الاتساق والاعتبار الايجابي :

يبرز روجرز نظامين في بناء الشخصية وهما : الذات (مفهوم الذات) والكائن الحي ، هذان النظامان قد يدخلان أحدهما مع الآخر في تعارض أو انسجام حينما يتعارضان او لا يتطابقان ، تكون النتيجة هي سوء التوافق ، لأن الذات في هذه الحالة تصير منظمة بطريقة جامدة ، وتفقد اتصالها مع الخبرة الحقيقية للكائن الحي ، وتشحن بالتوترات . واذا كان الادراك عملية انتقائية ، فان المحك الاول في ذلك هو اتساق الخبرة مع مفهوم الذات ، وبالتالي يعمل مفهوم الذات كاطار مرجعي لتقييم وضبط وتنظيم الخبرات الحقيقية للكائن الحي . ويعتقد روجرز أن الرفض اللاشعوري للخبرة التي لاتتفق مع مفهوم الذات هو ماحاول الفرويديون تفسيره بواسطة ميكانيزم الكبت .

(18) Ibid, p.493.
(19) Ibid, p.478.
(20) G.R.Rogers . A theory of therapy, personality and interpersonal relationship, as developed in the client — centred framework In S. Kock (Ed.) Psycmology: A study of science Vol. 2 New York Mc Grow — Hill, 1959, p.200.

فالخبرات غير المتسقة مع الذات قد يدركها الشخص كتهديدات ، وبقدر مايزداد التهديد ، تصير بنية الذات اكثر جمودا ودفاعية للمحافظة على كيانها . وفي نفس الوقت ، يصير مفهوم الذات اقل اتفاقا واقل انسجاما مع واقع الكائن الحي ، ويفقد اتصاله مع خبراته الواقعية .

يذهب روجرز الى وجود حاجة عامة يسميها بالحاجة الى الاعتبار الايجابي positive regard التي تنمو كلما تطور الوعي بالذات . هذه الحاجة تدفع الشخص في الحصول على التقبيل والحب من الاشخاص المهمين في حياته . والشخص لايحتاج الى الاعتبار الايجابي من الآخرين فحسب ولكن ايضا من ذاته . وتتمو هذه الحاجة الى الاعتبار الايجابي من خبرات الذات المرتبطة باشباع هذه الحاجة أو باحباطها . ويتحقق التوافق النفسي السليم اذا كان الشخص يلقي اعتبارا ايجابيا غير مشروط Unconditional positive من الآخرين واذا كان هنالك اتساق consistency بين هذه الحاجة وتقييم الشخص لذاته يترتب على ذلك نمواعتبار الذات .

ويهدف العلاج النفسي « التمركز على العميل » Client — Centered اوما يعرف « بالعلاج الروجرى » Rogerian therapy الى تحقيق التفاعل المتسق بين الذات والكائن الحى ، والى تيسير تطابق اكثر بين التركيب التصورى للذات والمجال الظاهرى للخبرة . ـ ويؤدى الاتجاه التقبلي الدافيء غير المشروط الذي يبديه الاخصائي (المرشد او المعالج) الى تمكين العميل من ادراك واختبار خبراته التي تكون غير متسقة مع تركيب ذاته . عندئذ يستطيع العميل ان يعدل من تركيب ذاته self — structure ليسمح لها بان تمثل هذه الخبرات غير المتسقة . وفي هذه الحالة يكون في مقدور العميل وفقا لنظرية روجز ، ان يعيد بالتدريج تنظيم مفهوم ذاته لكي يتفق مع واقع خبرة الشخص « فهوسوف يكون ، بشكل اكثر تكاملا ، ما هو عليه من حيث جوهره الحقيقي » ويبدو ذلك على انه جوهر العلاج » (٢١)

. ان نظرية روجرز تعكس الكثير من الجوانب والنقاط الرئيسية المتعلقة بالاتجاه الظاهرى في دراسة الشخصية . فهي تركز على الواقع كما يدركه الشخص وعلى خبراته الذاتية ، وعلى سعيه الى تحقيق للذات . ومن ناحية اخرى فهي ترفض او لا تضع في الاعتبار حوافز بيولوجية معينة وانما تهتم بالذات كما يخبرها الشخص ex-perienced self بدلا من الاهتمام

(21) C. R. Rogers. Persons of Science? A philosophical question. American Psychologist, 1955,10 , p.269.

بالاسباب الدافعية التاريخية او بتكوينات ثابتة للسمات .

نظرية الاتساق المعرفي

تبرز نظريات اخرى جوانب مختلفة من الخبرة كما تعيش في وعي الشخص ويدركها . لقد ركزت هذه النظريات في تناولها للخبرة الذاتية على ميل الشخص الى ان يتوصل الى اتساق بين المفاهيم والمعارف العامة عنده. هذه النظريات تدرس الشخصية في ضوء السعي المعرفي cognitive-striving الى الاتساق . .

يتمثل ذلك في تصورات دراسات « ليكي » (٢٢) و « فستنجر » (٢٣) و« كوبلج » (٢٤) واكثر هذه النظريات اهمية نظرية « فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

يشير التنافر المعرفي cognitive dissonance الى العلاقات بين المعارف التي تكون جافة او مقتضبة او غير منسجمة او متناقضة . كما يتضح من المعنى القاموسي للكلمة « متنافر » inconsistent (٢٥) ويحدث التنافر المعرفي وفقا « لفستنجر » في حالة عدم اتفاق او عدم تلاؤم بعض المعلومات عند الشخص مع بعضها البعض . فاذا افترضنا مثلا ان شخصا يعرف انه ذكي ، ولكنه يعرف في نفس الوقت انه يفشل غالبا . هذان النمطان من المعرفة لا يتلائمان جيدا مع بعضهما ، وبالتالي فهما متنافران . ويفترض « فستنجر » ان التنافر حالة باعثة على التوتر ، وان هذه الحالة تدفع الاشخاص الى تجنبها او التخفيف منها .

لقد اتيحت لفستنجر الفرصة لملاحظة احدى الجماعات الدينية التي تنبأت بوقوع كارثة فيضان ، في هذه الجماعة تلقى الناس معلومات عن الفيضان عن طريق الاتصال المباشر مع الآلهة وعندما حل اليوم الموعود ، ولم تقع الكارثة ، نشأ تنافر شديد بين اعضاء الجماعة . وكشفت الملاحظة لسلوك هؤلاء الاشخاص عن بعض الطرق التي لجأوا اليها لمواجهة هذا التنافر ، فمثلا وصلتهم رسالة من الآلهة تفيدهم بانهم قد انقذوا العالم لاجل النيران القوية التي اشعلوها في كل مكان وعقدوا اجتماعات ليشرحوا فيها اسباب عدم تحقيق النبوءة وذلك بهدف تخفيف حالة التنافر ، محاولين اقناع الاخرين وانفسهم بصدق رسالتهم السماوية (٢٦) .

---

(22) P. Lecky. Self — consistency. New york: Island Press, 1945.
(23) L. Festinger. A theory of Cognitive dissonenace. Stanford: Standford University Press, 1957.
(24) L. Kohlbery . A cognitive — developmental analysis of children's. sex — role concepts and attitudes. In EE. Maccoby (ed), The development of sex differentes, stanford: stanford University Press, 1966, pp. 82 — 173.
(25) L. Festinger, Ibid.
(26) L. Festingers . the Motivating effect of Cognitive dissonance. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Holt, Rinehart, Winston, 1958.

لذلك بدأ فستنجر نظريته بالملاحظة غير الشكلية بان الناس تسعى الى التخفيف من حالات التنافر في معتقداتهم .

وذهب الى ان عدم الاتساق بين المعتقدات يخلق تنافرا معرفيا ويدفع الفرد الى ان يفعل ما هو اسهل للتخفيف من حالة التنافر وللوصول الى الاتساق المعرفي بين معتقداته .

لقد فتحت نظرية فستنجر مجالات واسعة للبحث والدراسة وتؤيد نتائج التصورات النظرية والدراسات التجريبية عن اتساق الذات self-consistency وخفض التنافر dis-sonance reduction والاتزان المعرفي Congnitive balance وجهة النظر بان الناس تميل الى البحث عن الاتساق المعرفي cognitive balance وفي الواقع ان الاتساق لفترة من الوقت يبدو مرتفعا بالنسبة لمفاهيم الذات وللاتجاهات والقيم التي يعزوها الاشخاص الى انفسهم . تبين الدراسات في هذا المجال ان الناس تحاول خفض عدم الاتساق بين المعارف المتضاربة(٢٧) .

فالميل الى تقليل المعارف المتضاربة او المتباينة او الى تجنبها ، والى اعادة تشكيل الاحداث المتناقضة لجعلها منسجمة يدخل في الكثير من الظاهرات النفسية . ولكن العلاقات بين السعي الى الاتساق المعرفي والسلوك غالبا ما تكون معقدة (٢٨) . فالسلوك اللامعرفي noncognitive behavior عند الفرد - كالاشياء التي يعملها بالفعل لا تخضع بالضرورة لضبط سعيد الى الاتساق المعرفي .

(نظرية التكوينات الشخصية لجورج كيلي)

ان تكويناتنا constructs وتجريداتنا ab-stractions للسلوك ليست مثل السلوك الذي نصنفه الى فئات . والناس ايضا هم مدركون perceivers وبناة construers للسلوك ، ويستخلصون تجريدات عن انفسهم

(27) أمثلة هذه الدراسات :
— E.L Kelly. consistency of the adult personality.
— American Psychologist, 1955,10,659 — 681.
— L. Festinger, 1957.
— C.E. Osgood, G. J. Saci, & P.H Tannebaum. the measurement of meaning Urbana, I 11.; The University of Illinois Press, 1957.
— R.P. Abelson, & M.J Rosenberg. Symbolic psycho — logic; A model of attitudinal cognition. Behavioral Science, 1958,3,1 — 13.
— F. Heider. The Psychology of Interpersonal relations. New York Wiley, 1958.
— D. C. Glass. Theories of consistency and the study of Personality. In B. F. Borgatta. Handbook of personality , chicago; Rand Mc Nally, 1968 p.788.
(28) L. Festinger . Behavioral Support of opinion change. Puplic Opinion Quarterly, 1964,28, 404 — 417.

وعن الآخرين . هذه الفروض والتركيبات قد اثرت كثيرا في علماء النفس المهتمين بدراسة الحالات الذاتية وبالفينومنيولوجيا وبخبرة الذات .

التكوينات الشخصية :

تؤكد النظريات السيكوديناميه على ان الدافع هو الوحدة الاساسية ، وان الصراعات اللاشعورية هي العمليات التي تحمل اهمية كبيرة في تحديد السلوك الظاهري ، وان الاحكام الاكلينيكية هي الاداة المفضلة .

وعلى العكس من ذلك ، تقوم نظرية « كيلي » (٢٩) عن المكونات الشخصية personal construct theory على الكشف عن الفئات الذاتية categories التي يأتي بها الشخص بدلا من الفروض التي يستنبطها عالم النفس . فالوحدات الرئيسية لهذه النظرية هي مكونات الشخص اي الطريقة التي بها يصنف خبراته الذاتية الى فئات ، وبدلا من النظر الى الانسان على انه ضحية لاندفاعاته ودفاعياته ، فان هذه النظرية متناولة كخالق نشط ومتغير دائما للفروض creator of hypotheses وكلاعب لادوار متعددة .

ويذهب « كيلي » الى انه اذا كانت سيكولوجية السمات تحاول ان تجد مكان الشخص فيما يحدده صاحب النظرية من أبعاد للشخصية فان نظرية المكونات الشخصية بدلا من ذلك تحاول أن ترى كيف يحاول الشخص ان ينظم الأحداث وفقا لأبعاده . ويأمل « كيلي » من ذلك ان يكتشف طبيعة أبعاد المكونات construct dimensions بدلا من تعيين موقعه بالنسبة لأبعاد النظرية التي يضعها عالم النفس .

الانسان العالم (man- the- scientist)

تكشف سيكولوجية المكونات الشخصية عن الخرائط الذاتية subjective maps التي يكونها الناس في مواجهة الواقع السيكولوجي لحياتهم . يؤكد كيلي ان الانسان مثل العالم الذي يدرس ، يقوم ايضا ببناء أو تجريد السلوك ، وبتصنيفه وتفسيره ، وبالحكم على نفسه وعلى عمله . ان الافراد الذين خضعوا للقياس بواسطة علماء النفس هم انفسهم اخصائيون في القياس assessors يختبرون ويقيمون ويتنبأون بسلوكهم الخاص ، انهم يقيسون علماء النفس الشخصية الذين يحاولون قياسهم . فالتكوينات والفروض المتعلقة بالسلوك تتشكل بواسطة كل الاشخاص بصرف النظر عن درجاتهم العلمية وتخصصاتهم كعلماء .

ويرى كيلي ان هذه التكوينات ، وليس مجرد الاستجابات الجسمية البسيطة هي التي ينبغي ان تخضع للدراسة وفقا لمدخل ملائم للشخصية . ويتضح تصنيف السلوك على حد سواء حينما يصف المريض الذهاني افكاره الشخصية في العلاج وحينما يناقش العالم تكويناته ونظرياته المفضلة في مقابلة مهنية . فكلا هذين الشخصين يمثلان البيئة داخليا

(29) G.A Kelly. The Psychology of Personal constructs. vols. 1&2. New York: Norton, 1955.

ويعبران عن تمثيلاتهما وتجيراتهما الذاتية في تكويناتهما السيكولوجية . فالتكوينات الشخصية وليست الاوصاف الموضوعية للسلوك وفقا لأبعاد واضحة ، هي التي تواجه عالم نفس الشخصية .

يشير « كيلي » الى ان معظم علماء النفس يرون انفسهم على انهم مدفوعون الى تحقيق الوضوح المعرفي والى فهم الظاهرات ، بما فيها حياتهم ، الا ان الاشخاص المفحوصين الذين تتضمنهم نظرياتهم خلافا لاصحاب النظريات انفسهم ، قد جرت النظرة اليهم على انهم ضحايا غير واعية بالقوى النفسية وبالسمات التي لا يستطيعون فهمها ولا ضبطها ، ويحاول كيلي ان يزيل هذا التباين بين صاحب النظريات والمفحوص وان يتناول كل الاشخاص كما لو انهم علماء .

فالمفحوص ، باعتباره كعالم ، يستخلص الفروض التي بها يحاول ان يتوقع ويتنبأ بالاحداث في حياته وان يتحكم فيها ، لذلك لكي نفهم المفحوص ، علينا ان نفهم تكويناته او نظريته الشخصية في الشخصية private personality theory ولكن ولكي ندرس التكوينات الشخصية علينا ان نجد الامثلة او « المراجع » referents السلوكية الدالة عليها . فنحن لا نستطيع ان نفهم ماذا يعتبر شخص اخر بقوله ، مثلا « انني لست شخصا صدوقا » الا اذا اعطانا امثلة سلوكية ، ونحن بحاجة الى هذه الامثلة او المراجع السلوكية سواء كانت المكونات شخصية اي من وجهة نظر المفحوص ، او نظرية ـ اي من وجة نظر عالم النفس . فهذه المكونات تصير معروفة فقط من خلال السلوك .

البدائلية البناءة :

ان الاحداث ذاتها يمكن تصنيفها وفقا لبدائل متعددة . فبينما لا يكون الانسان دائما قادرا على تغيير الاحداث فانه يستطيع باستمرار ان يشكلها بطرق مختلفة ، وذلك هو ما يعنيه كيلي بالتبادلية البناءة constructive alternativism ونوضح ذلك بالحدث التالي : اوقع ولد زهرية كانت تعتز بها امة . ماذا يعني ذلك ؟ الحدث ببساطة هو ان الزهرية قد تحطمت . الا اننا اذا سألنا المحلل النفسي فقد يشير الى العداوة اللاشعورية عند الولد ، واذا سألنا الام فسوف تقول كم هو « شقي » اما الوالد فسوف يقول انه « معتل » وبينما يرى المعلم الحدث على انه دليل على « الكسل » و « التراخي » والجدة تعتبره مجرد « حادثة » في حين يرى الطفل الحدث على انه يعكس « غباءة » وبينما الحدث يمكن الا يقع ـ انكسار الزهرية ـ الا ان تفسيره عرضة لتكوينات بديلة قد تؤدي الى نماذج مختلفة التصرفات .

لقد بدأت نظرية « كيلي » بهذه المسلمة الرئيسية « ان عمليات الشخص يجري توجيهها من الناحية النفسية بواسطة الطرق التي بها يتوقع الاحداث » (٣٠) هذه المسلمة تتفق مع النظريات الظاهرية الاخرى من حيث تأكيدها على النظرة الذاتية للشخص . ولكن مسلمة

(30) Ibid, p.46.

كيلي اكثر تحديدا من حيث تأكيدها على الكيفية التي بها يتنبأ الشخص بالاحداث او يتوقعها .

يهتم كيلي بملاءمة او اتفاق convenience المكونات بدلا من الاهتمام بالحقيقة المطلقة . وبدلا من ان يحاول قياس حقيقة مكون معين ، يهتم كيلي بملاءمته او فائدته بالنسبة للشخص .

فمثلا بدلا من ان يحاول قياس ما اذا كان المريض « سوف يصاب بالجنون حقيقة » يحاول ان يكشف المواقف والخبرات المتضمنة في حياة المريض والتي تجعله يدرك نفسه على هذا النحو ، وبالتالي يبني في نفسه مكونا شخصيا معينا واذا كان هذا التكوين غير ملائم ، تكون المهمة عندئذ ان نجد بديلا افضل . وهو ذلك البديل الذي به يمكن التنبؤ على نحو افضل ويؤدي الى نتائج افضل .

وتكون مهمة العلاج النفسي تزويد المريض وتبصيره بالشروط التي تحدد بها المكونات الشخصية واختيارها بناء على تطبيقاتها وتعديلها اذا لزم الامر . والمفحوص كالعالم يحتاج الفرصة التي تتيح له ان يختبر مكوناته وأن يتحقق من مدى صدقها . وان يعدلها في ضوء الخبرة الجديدة .

الادوار :

يطرح كيلي فكرة اخرى تستحق اهتماما بالغا ، تمثل في تأكيده على الادوار وممارسات الدور role enactments فبدلا من ان ينظر الى الانسان على انه مالك لسمات - ثابتة ومعممة بشكل واسع يتناوله كيلي على انه قادر على ممارسة ادوار مختلفة كثيرة وعلى الانخراط في تغير مستمر . والدور بالنسبة لكيلي هو محاولة لرؤية شخص اخر من خلال وجهة نظر الاخر - اي ان ينظر الى الشخص من خلال مكونات هذا الشخص ذاته - وان يشكل افعاله وتصرفاته في ضوء ذلك .

فممارسة دور ما تتطلب خضوع ذلك السلوك المميز للدور للتوجيه بواسطة ادراك وجهة نظر الشخص الاخر . هكذا استخدم كيلي طريقة اللعب بالادوار على نطاق واسع كاجراء علاجي يجري تصحيحه لمساعدة الاشخاص على التوصل الى افاق جديدة وعلى استخلاص طرق اكثر ملاءمة للحياة .

الانسان هو ما يصنعه من نفسه :

يرفض كيلي مثل النظريات الظاهرية الاخرى الفكرة القائلة بان الحياة النفسية ترتكز الى دوافع محددة وتقوم نظرته الى الطبيعة الانسانية على الكيفية التي يبني بها الانسان نفسه وعلى ما يفعله في ضوء تلك المكونات . ويعتقد كيلي مثل روجرز اننا لسنا بحاجة الى مفاهيم لفهم الاسباب الى تجعل الانسان مدفوعا ونشطا : فكل شخص مدفوع لا من اجل اي سبب اخر عدا كونه شخصا يعيش الحياة (٣١) . فمفهوم الدافعية بالنسبة لكيلي « قد يبدو فقط على انه حشو زائد » (٣٢) .

يذهب كيلي مثل الكثير من الوجوديين الى ان الانسان « هو ما يفعله » وتتحقق له - معرفته

(31) G.A Kelly. Man's construction of his alternatives. In G. Lindzey (Ed), Assessment of human motives. New York: Rinehart, 1958 P,49.
(32) Ioid,P.50.

بطبيعته من خلال رؤيته لما هو يفعله . لقد وصل كيلي من خلال خبراته الاكلينيكية مع الطلاب المضطربين الى موقف علمي يتداخل بشكل واضح مع وجهات نظر الفلاسفة الوجوديين من امثال « سارتر » فالوجود يسبق الجوهر existence preceeds essence فليست هناك طبيعة انسانية ـ « فالانسان هو ما يصنعه من نفسه » Man is what he makes of himself .

مشكلات القياس الفينو مينولوجي للشخصية

لا يقتصر المفهوم الفينو مينولوجي في دراسة الشخصية على التصورات النظرية فحسب ، وانما يمتد ليشمل كذلك متضمنات ومشكلات خاصة بقياس الشخصية في ضوء هذا المنظور ، وكما رأينا يعتبر الاتجاه الفينومينولوجي على منطلق معين مفاده ان خبرة الشخص كما يدركها هي اساس دراسة الشخصية . ولكن اذا اهملنا المجال الخاص بالشخص كما يقول كيلي « فانه يصبح علينا بالضرورة ان نفسره كموضوع خامل inert object مساق في مجال عام بواسطة قوى خارجية ، اوكيانات منعزلة واقعة على متصل » . (٣٣)

ومن ناحية اخرى اذا كان الافراد المختلفون يتشكلون داخل نفس النظام العام من القوانين فانه ينبغي ايضا اكتشاف الخصائص المشتركة والمستويات العليا من التجريد فلكي تدرس خبرات الفرد داخل الاطار المرجعي للقواعد العلمية فاننا ينبغي ان نجد الطرق التي توصلنا الى تلك الخبرات الخاصة ونضعها في المجال العام .

الشخص كما يقيس نفسه :

يسعى العلماء الفينومينولوجيون مثل روجرز وكيلي الى ان يتجاوزوا الاستبطان ، والى ان يقيموا نظرياتهم على طرق موضوعية وعلمية . فمثلا يؤكد روجرز على ان المعالج النفسي يدخل الى العالم الداخلي لادراكات المريض ليس عن طريق الاستبطان ولكن بواسطة الملاحظة والاستنتاج . (٣٤) ويتضح الاهتمام بالموضوعية في الجهود العديدة التي بذلها روجرز لاجل دراسة الاشخاص بطريقة امبيريقية وهذه الجهود هي التي جعلت اعماله تقع في مجال علم النفس وليس الفلسفة . يبدو كذلك نفس هذا الاهتمام بالقياس الموضوعي للخبرة الذاتية في الاتجاه الذي اخذ به كيلي في قياس الشخصية . ويشترك علماء النفس ذوو الاتجاه الفينومينولوجي في جهودهم الرامية الى تكوين طرق ووسائل لدراسة الخبرة بطريقة موضوعية ، ولكن هل الشخص كخبير بقياس نفسه the person as his own assessors يستطيع قياس نفسه بدقة ؟ فاذا كان كل شخص منا على دراسة وثيقة بواقعه المدرك الواعي conscious perceived reality فقد يبدو ببساطة من الخداع ادراك ورؤية العالم الذاتي للشخص الاخر . وفي الحقيقة اننا لا نستطيع بالطبع « ان ندخل بداخل جلد الشخص الاخر ونرقب العالم من خلال عينيه » . ولكننا نستطيع « ان نبدأ بواسطة عمل استنتاجات تقوم اساسا على ما نراه ، فعليه اكثر مما تقوم على ما نراه يفعله

(33) G. A. Kily, 1955, p.39.
(34) C.R.Rogers. Some Observations on the organization of personality. American Psycholol-gist, 1947,2,pp.358—368.

الناس الاخرون (٣٥) يعني ذلك اننا نستطيع ان نحاول تناوله والدخول الى عالمه ، وليس نمطياتنا وتكويناتنا النظرية .

حاولت بعض الدراسات ان تختبر ما اذا كان الناس يستطيعون بدقة قياس سلوكهم والتنبؤ به فاذا تبين انهم لا يستطيعون ذلك فان قيمة البحوث الفينومينولوجية تكون ضئيلة .

ولتحديد قيمة التقرير المباشر الذي يقدمه الشخص نفسه علينا ان نقارن التنبؤات المستوحاة من تقريره الذاتي بتلك التي يمكن عملها من المصادر الاخرى للبيانات . فمثلا ، علينا ان نقارن ـ تقارير الذات self — re-port عند الفرد بتلك المعايير المأخوذة من الاختبارات والمقاييس النفسية ومن الطرق الاكلينيكية .

ومما يدعو للدهشة ان تقارير الذات وهي طريقة بسيطة قد ثبت انها صادقة بل وفي بعض الاحيان افضل من تنبؤها من اكثر الاختبارات والمقاييس النفسية تعقيدا والتي صممت لسبر اغوار الشخصية ، يتضح ذلك من بعض الدراسات مثل دراسات « ماكس » « وستاوفر ليلي » اللذين حاولا التنبؤ بالتوافق في المستقبل عند مرضى فصاميين . وقد وجدا ان التقارير البسيطة عن الذات المأخوذة من مقاييس للاتجاهات قد تمدنا بتنبؤات افضل من اكثر المقاييس النفسية تعقيدا مثل اختصار مينسوتا المتعدد الاوجه لقياس الشخصية MMPI (٣٦) وقد وجدت دراسة اخرى ان بعض الطرق البسيطة لتقدير الذات self — rat-ing قد تكون اكثر ثباتا وفائدة مثل الاستجابات المأخوذة من التحليلات العاملية لبعض اختبارات الشخصية . (٣٧)

وتبين دراسات « ميتشيل وبتيلر » ان قدرة طلاب الجامعة على التنبؤ بتقديراتهم كانت دقيقة مثل تنبؤاتهم المأخوذة من اجاباتهم على اختبارات التحصيل والاستعداد والشخصية . (٣٨) وقد اظهرت البحوث التي اجريت على التنبؤ بالسلوك الانجازي والتوادي انه في كثير من الحالات كانت تقارير الذات دقيقة مثل الاختبارات الاسقاطية . (٣٩) بل واكثر من ذلك تبين بعض الدراسات المتعلقة بالتوجيه المهني ان الاشخاص قد عبروا بشكل مباشر عن

(35) G.A.Kelly, 1955 p.42.
(36) J.Marks , J.Stauffacher & C Lyle. Predicting outcome in schizophrenia. Journal of Abnormal and Social psychology. 1963,66,117, — 127.
(37) D.R Petrson. Scope and generality of verbally defined personality factors. Psychological Review 1965,72,48, — 59.
(38) W. Mischel, & P. Bentler. The ability of persons to predict their own behavior. stanford University, 1965.
(39) J.J. Sherwood. self — report and prokective measures of achievement and affiliation.

ميولهم في تقارير للذات بدت ذات قيمة في عمليات الارشاد المهني مثل اكثر الاختبارات اهمية في هذا المجال كاختبار سترونج للميول المهنية . (٤٠)

وفي دراسة عن بعض سمات الشخصية كالعداوة والاهتمامات الجسمية والتحصيلية والذهنية ، استخدمت فيها طرق عديدة ، تبين ان البيانات المأخوذة عن اوصاف الذات self description — كانت صادقة كالطرق الاخرى المستخدمة مثل الاختبارات الاسقاطية (تكملة الجمل الناقصة، التات ، الرورشاخ) وتقديرات الزملاء للمفحوصين وغير ذلك من الطرق (٤١) وقد اظهرت دراسة اخرى ان تقديرات الاشخاص لذواتهم كانت اصدق من تقديرات زملائهم لهم ، كما كانت افضل من التنبؤات التي قامت على اي مقياس من المقاييس العديدة بما فيها المعالجات الاحصائية الدقيقة . (٤٢)

وباختصار يمكننا الحصول على معلومات مفيدة عن الشخص من خلال تقريرات الذات self — report وتقديرات الذات — self rating ولقد تبين بصفة عامة ، ان هذه الطرق البسيطة تزودنا بتنبؤات لا تقل اهمية عن تلك التي نحصل عليها من اكثر اختبارات ومقاييس الشخصية دقة وتعقيدا ومن بطاريات الاختبارات ، ومن الاحكام الاكلينيكية ومن التحليلات الاحصائية المعقدة . (٤٣)

طرق دراسة الخبرة الذاتية :

يبدو في بعض الحالات ان الناس في ظروف معينة يستطيعون وصف سلوكهم والتنبؤ به ، على الاقل بنفس الدقة التي يستطيع بها المتخصصون ان يستخلصوا نتائج عن سلوكهم وشخصياتهم بواسطة طرق غير مباشرة ، ونتيجة لذلك من المعقول غالبا ان نسأل الشخص بطريقة مباشرة كيف سيسلك وتكون اوصاف الذات في كثير من الحالات دقيقة مثل مصادر البيانات الاخرى او افضل منها . ولكن ذلك لا يعني ان الناس تستطيع دائما ان تتنبأ بسلوكها بدقة . وبالرغم من ذلك تبين نتائج بحوث عديدة ان الطرق التي صممت للحصول على تقديرات مباشرة للذات self — estimates وعلى تنبوأت بالذات self — prediction تستحق اهتماما بالغا . وفيما يلي تتناول بعض هذه الطرق :

(40) — P.H.Du Bois, & RI. Watson. The selection of patrolmen Journal of Applied Psychology, 1950,34, 90 — 95.
— C.Mc Arthur & L.B. Stement. The Validation of expressed interests as compared with inventoied interests: A Fourteen Year follow — up Jour nal of Applied Psychology, 1955,39,184 — 189.
— S. Dolliver. Strong Vocational Intererest Blank.
Vs. expressed vocational interest: A review: Psychological Bulletin, 1969,72,95 — 107.
(41) J. wallace, & L. Sechrest. Freguency hypothesis and content analysis of projective techniques.
Journal of consling Psychology, 1967,31,56 — 64.
(42) H.D.Hace & L.R. Goldberg. comparative valitity of different strategies of constructing personality.
inventory Scales: Psychological Bulletin, 1967,67,231 — 248.
(43) W. Mischel. Personality and assessment. New York: Wiley, 1968.

طريقة تقرير الذات Q — sort technique(٤٤)

تتألف هذه الطريقة من عدد كبير من البطاقات ، وعلى كل بطاقة عبارة مطبوعة . ومن امثلة هذه العبارات : « انا شخص خانع » « انا شخص محبوب » « انا شخص مندفع » او قد تكون العبارات من قبيل : « اقلق بسهولة » « اعمل بكفاءة » .. الخ .

تستخدم هذه الطريقة في وصف الذات ، او الذات المثالية ، او لوصف علاقة ما . في حالة استخدام هذه الطريقة لوصف الذات ، توجه تعليمات للمفحوص بان يفرز البطاقات لكي يصف كما يراها في الوقت الحاضر ، واضعا البطاقات وفقا لانطباقها عليه ، بحيث تتراوح من تلك الخصائص التي تكون اقل انطباقا عليه الى اكثرها انطباقا عليه . اما في حالة استخدامها لوصف الذات المثالية ، توجه تعليمات للمفحوص بان يستخدم البطاقات لوصف الشخص الذي يود ان يكون عليه . وفي وصف العلاقة ، على المفحوص ان يفرز البطاقات من اكوام تتراوح من تلك التي تكون مميزة اكثر للعلاقة الى تلك الاقل تمييزا لها .

وقد افادت البحوث التي استندت الى نظرية روجرز من هذه الطريقة في دراسة التغييرات في الذات المدركة خلال العلاج .

من المعالم الرئيسية لهذه الطريقة ان المفحوص توجه اليه تعليمات لكي يفرز البطاقات في توزيع « قسري » forced distribution على متصل continuum تميز من البنود الاقل تمييزا الى تلك الاكثر تمييزا لما يصنعه . هذا التوزيع القسري اعتدالي على وجه التقريب ، فالمفحوص ينبغي ان يضع بنودا قليلة نسبيا في الاكوام « الاكثر تمييزا » و « الاقل تمييزا » في حين ان معظم العبارات ينبغي توزيعها في فئات قريبة من مركز التوزيع ، ولذلك فان هذا التوزيع القسري يسهل معالجة النتائج بالطرق الاحصائية الملائمة . كذلك فانه يمكن من ضبط فئات الاستجابات ، مثل النزعة الى التركيز على تقديرات « المتوسط » او الى اعطاء تقديرات طرفية .

وتأتي بنود طريقة وصف الذات من مصادر عديدة ، فقد تشتق من نظرية في الشخصية (٤٥) او من التقارير والبروتوكولات العلاجية (٤٦) او مقاييس الشخصية . (٤٧)

ويعتبر الكثير من علماء النفس الفينومنيولوجيين ، ان اوصاف او تقريرات الذات تتضمن اهمية بالغة في حد ذاتها ، وان قيمتها كمنبئات predictors او كادوات صادقة قد تفوق طرقا اخرى .

(44) J.Block. The Q — sort method in personality. assessment and psychiatric research. springfield I11: Charles C. Thomas, 1961.
(45) W. Stephenson. The study of behavior. Chicago: University of Chicago press, 1953.
(46) J.M. Butler, & G.V.High. changes in the relation between self — concepts and ideal concepts consequent upon client — centered counselling Rogers, and R.F.Dymond (Ed) Psychotherapy and personality change.
Chicago: University of Chicago Press, 1954, pp. 55 — 76.
(47) J. Block. Op. cit.

المقابلة

يعترف معظم العلماء الفينومينولوجيين ان تقارير الذات قد لا تكشف عن كل شيء هام في السلوك وقد لا تعطي صورة كاملة عن الشخصية ، فقد يكون الشخص واعيا باسباب سلوكه ولكنه غير قادر او غير راغب في تقريرها . وقد لا يكون واعيا بكل خبراته وبالتالي لا يستطيع الكشف عنها . وبالرغم من ذلك يفضل الفينومينولوجيون مثل روجرز الاطار المرجعي للشخص على انه المصدر الملائم للفهم ومهمة عالم النفس كما يرى روجرز هي ان يوفر الظروف او الشروط التي تؤدي الى النمو وتيسر الكشف عن المشاعر والذات .

ويجب الا نتوقع ان الناس تكون امينة مع نفسها حين تشعر بالخوف من ان ما تقرره سوف يؤخذ عليها او يؤدي الى قرارات سلبية تتعلق بمستقبلها ، ولكي يكشف الشخص عن مشاعره الخاصة ، فانه بحاجة الى جو غير مهدد يعمل على خفض مستوى القلق وديناميات الكف ولذلك يؤكد الفينومينولوجيون على خلق ظروف التقبل والدفء والتعاطف بما يجعل الشخص يشعر بالتلقائية في الكشف عن ذاته بصراحة ، يتضح ذلك بقوة فيما يعرف « بالعلاج المتمركز » حول العميل « او بالعلاج الروجري » في هذا العلاج يوفر المعالج السماحة والتقبل ويترك جانبا مقاييسه الموضوعية واهتمامه بالاختبارات .

فالمعالج ينبغي ان يحاول ان يتعلم من الشخص الخاضع للارشاد او للعلاج كيف يفكر ويفهم ويشعر هذا الشخص « فأفضل مدخل لفهم السلوك هو من الاطار المرجعي الداخلي للفرد نفسه » (٤٨) ورغم اهتمام الروجريون بالتعاطف مع الشخص ، الا انهم مع ذلك لا يهملون البحث الموضوعي في العلاقة بين المعالج او المرشد والشخص الذي يطلب علاجا او ارشادا نفسيين ، يفسر ذلك اهتمام مدرسة روجرز بالبحث في العمليات المتضمنة في المقابلة . اهتم روجرز في دراساته الاولى باختيار مقتطفات من مقابلات مسجلة خلال جلسات العلاج النفسي المتمركز حول العميل لتحديد كيف ان التعبيرات اللفظية للعميل تعكس صورته عن ذاته self — picture وكيف تتغير هذه الصورة خلال سير العلاج (٤٩) .

ولقد اصبح تحليل مضمون content analysis سجلات المقابلات طريقة منظمة للبحث ، ولقد استطاع الباحثون تحديد فئات لحساب درجات تعبيرات الاشخاص في المقابلة كما يقررون ذواتهم . ولقد اوضحت بعض البحوث مثلا امكانية قياس تقبل الذات في علاقتها بتقبل الاخرين وانه كلما ازداد تقبل الذات ادى ذلك الى تقبل الاخرين . (٥٠)

ومع ذلك لم تكن مدرسة روجرز وحدها هي التي حاولت تحليل مضمون السلوك اللفظي في

(48) C. R. Rogers. op. cit. 1952.p.494.
(49) راجع هذه الدراسات
— C.R. Rogers Counseling and psychotherapy. boston: Houghton 1942.
— C.R. Rogers, & R.F. Dymond. Psychotherapy and personality change. Chicago: University of chicago press 1954.
(50) E. J. Murray, F. Jr. Auld, & A.M.White A psychotherapy case showing prtogress, but no decrease in the discomfort — relief quotient. Journal of Consulting Psychology, 1954,18,349 — 353.

المقابلة وانما تلقي هذا ايضا اهتماما من دراسات تنتمي الى مدارس اخرى في العلاج النفسي .

من هذه الدراسات ذات الاتجاه السيكوديناMي محاولة تتبع التغيرات في انماط الصراع كما يجري التعبير عنها في المراحل المختلفة من العلاج . فالمفحوص يبدأ في التعبير عن صراعاته الجنسية بشكل متزايد في الجلسات الاخيرة من العلاج النفسي ، بينما كان يفصح عن صراعات عامة في المراحل الاولى من العلاقة العلاجية ، ومن الطبيعي ان تحليل المضمون يتوقف على استنتاجات الاخصائي الاكلينيكي للمعاني المتضمنة في عبارات الشخص الخاضع للعلاج او الارشاد .

وتوضح هذه الدراسات ان البيانات الفينومنيولوجية المأخوذة من المقابلة قد خضعت لطرق موضوعية في البحث وفي ضوء تصورات نظرية مختلفة . ولذلك اذا كانت المقابلة اداة مفيدة من وجهة النظر الفينومنيولوجية ، فان البيانات المأخوذة منها يمكن تحليلها بطرق مختلفة كمصدر رئيسي لقياس الشخصية .

طريقة التمايز السيمانتي :

وهي من الطرق الفينومينولوجية التي صممها « اوسجود »(٥١) لدراسة المعاني كما يقدرها المفحوص بدلالات الالفاظ . هذه الطريقة تحدد تقديرات لمعنى الاشخاص او الاحداث او المفاهيم التي يريد الباحث دراستها . وتخضع معاني الكلمات والجمل والمفاهيم لمقاييس كثيرة .

في هذه الطريقة يقدم للمفحوص كلمة مثير stimulus word مثل « ابي » او « انا » او عبارة مثل « ذاتي المثالية » ، ويطلب منه تقدير كل مثير وفقا لمقياس متدرج من سبع نقاط يتراوح بين طرفين متناقضين مثل « قوي ـ ضعيف » « سار ـ غير سار » « نشط ـ خامل » وان يكون تقديره على اساس انطباق معنى المفهوم المتميز عليه ويعتبر التمايز السيمانتي ـ semantic — differential طريقة موضوعية ومرنة ، تسمح ببحث معاني الكلمات والمفاهيم من كل الانواع ، وكذلك ببحث التغيرات في هذه المعاني كنتيجة لخبرات او اجراءات خاصة مثل العلاج النفسي .

ولقد كشفت بحوث التحليل العاملي للبيانات المتجمعة من استخدام هذه الطريقة عن ثلاث عوامل سيمانتية رئيسية : عامل التقييم evaluative factor مثل « حسن ـ رديء » وعامل القوة potency factor مثل « قوي ـ ضعيف » وعامل النشاط activity factor مثل « ايجابي ـ سلبي » .

وتشير بعض الدراسات(٥٢) الى ان هذه العوامل السيمانتية الثلاث التي اتضحت من دراسات معاني المفاهيم تشبه تلك العوامل التي ظهرت من تقديرات سمات الشخصية . ويعني ذلك ان عوامل السمات trait factors

(51) C.E. Osgood, G.J. Suci, & P.H. Tannenbaum. The Measurement of meaning. Urbana, I11: The University of Illinois press 1957.

(52) من امثلة هذه الدراسات
— S.A. Mulaik. Are personality factors, raters, conceptional factors?
Journal of Consulting psychology. 1964,28, (6) ,506—511.
— P.E. Vernon. personality Assessment: A critical Survey. New York: Wiley, 1964.

اقرب غالبا الى عوامل المعاني meaning factors التي تتضح من دراسات التمايز السيمانتي للكلمات والمفاهيم .

نقد الاتجاه الفينومنيولوجي في دراسة الشخصية

يبدي الكثير من علماء النفس وخاصة في مجال دراسة الشخصية اهتماما كبيرا بالمعارف والتفسيرات الشخصية للخبرة - وهو ما قامت عليه النظريات الفينومنيولوجية . وفي الواقع ان الاهتمام بالكيفية التي يدرك بها الشخص للاحداث ويرى نفسه وعالمه ، كان له اثر كبير في دفع وتطوير وتعميق البحث في الشخصية الانسانية .

ومع ذلك فان الاتجاه الفينومنيولوجي في دراسة الشخصية قد تعرض لبعض النقد الشديد . ان الاعتقاد الوجودي بان « الانسان هو ما يصنعه من نفسه » وما يدركه في نفسه قد لقي اهتماما شديدا من الباحثين في السلوك والشخصية . فعلماء النفس المهتمون بوجهة نظر الحتمية في العلم يتساءلون عن الاسباب التي تحكم ما يصنعه الانسان من نفسه وما يدركها عليه ، كيف يتمكن الاشخاص من ان يصنعوا انفسهم ويدركوا انفسهم بطرق معينة ؟ فبينما يعزو الفلاسفة ذلك الى الارادة كما فعل « سارتر » الا ان علماء النفس يبحثون في المتغيرات التي تكمن وراء ظاهرات الوجود والارادة ذاتها . واذا كان عالم النفس يتقبل الى حد ما الفكرة بان الانسان هو ما يصنعه من نفسه ، فان عالم النفس كعالم عليه ان يذهب الى ما هو ابعد من ذلك ليبحث في الشروط والظروف التي تصنع هذا الانسان ذاته بما فيها الشروط والظروف التي تؤثر في ادراكه لذاته .

وقد كان للفكرة الوجودية بان الانسان « مالك لنفسه » وليس مملوكا بطبيعته الانسانية ، وبانه هو ما يصنعه من نفسه - متضمنات عميقة بالنسبة لدراسة الشخصية . فبدلا من البحث في موقع الفرد بالنسبة للابعاد التي يحددها اخصائي القياس في اختبارات ومقاييس الشخصية وفي ضوء تصور نظري معين تصبح مهمة عالم النفس هي الكشف عما يصنعه الفرد من نفسه . ومع ذلك فان النظريات الفينومينولوجية ورغم اسهاماتها العظيمة في سبر غور الشخصية الانسانية الا انه قد اثيرت بشانها بعض التساؤلات الناقدة التي يمكن ان نجملها فيما يلي : -

<u>هل المعارف اسباب للسلوك ؟</u> : فرغم اهمية المعارف والادراكات والتكوينات الشخصية في دراسة الشخصية الا انه من الصعب الزعم بانها اسباب رئيسية لسلوك الشخص . فالتكوينات اللفظية والمعارف لا تسبب دائما السلوك غير اللفظي او حتى تؤثر فيه ، فالعلاقات بين المفاهيم الشخصية والانماط السلوكية الاخرى غالبا ما تكون غير مباشرة . ولم توضح الدراسات ان التغيرات في التكوينات الشخصية - او في الآراء او المعتقدات او القيم - تحقق بالضرورة تغيرات سلوكية هامة ، بل ان التغيرات المعرفية والقيمية غالبا ما تكون دالة لادادات سلوكية معينة ، اكثر من ان تكون اسبابا لهذه الاداءات والتكوينات ، والمعارف قد تخضع لاعادة تنظيم لكي تتسق مع السلوك ، كما قد تستخدم لتفسير ذلك السلوك .

تفسيرات غير كاملة :

لعل اكبر نقد يوجه للتفسيرات المعرفية والظاهرية هو انها تفسيرات غير كاملة ولا تقدم تحليلا شاملا وتفصيليا بدرجة كافية للاسباب التي تحكم السلوك . ففي نظرية « كيلي » مثلا

ينظر للتكوينات الشخصية على انها المحددات الرئيسية للسلوك، ولكن ما الذي يحدد التكوينات التي لدى الشخص؟ فاعتبار تكوينات الشخصية على انها اسباب للسلوك والملاحظ قد تكون مقالا لتفسيرات علمية غير كاملة، وانما نجد تلك التحليلات غير الكاملة حينما تقدم الحالات العقلية او الادراكات او المعارف او ـ المشاعر او غيرها من التكوينات كتفسيرات للسلوك، بينما تلقى محددات الحالات العقلية ذاتها اهمالا او عدم اهتمام. يقول «سكنر»: (٥٣)

«ان الاضطراب في السلوك لا يتحقق تفسيره بواسطة ربطه بالقلق، الا اذا استطعنا بالتالي تفسير القلق. كذلك لا يتحقق تفسير فعل ما بأن نعزوه الى توقعات معينة، الا اذا استطعنا بالتالي تفسير هذه التوقعات».

ويرى «سكنر» ان التحليل الشمولي ينبغي ان يتضمن الشروط او المتغيرات التي تحكم السلوك، وليس مجرد الخطوات العقلية الوسيطة الفرضية.

ولقد وجه النقد للفينومينولوجيين لاستبعادهم الانسان (الشخص المدرك او الشخص العارف) من السلسلة العلمية causal chain وبالتالي استبعادهم الانسان ذاته من الدراسة العلمية، ولكن بعض المنظرين الفينومنيولوجيين، من ناحية اخرى قد وجهوا الاتهام ـ للناقدين السلوكيين لتناولهم الانسان «ككائن حي فارغ» او كآلة خالية من الفكر والمشاعر، او كمجرد مخلوق انعكاسي.

هل الذات «فاعل»؟

لقد تعرضت الفينومينولوجية لنقد شديد لانها نظريات وصفية اكثر من ان تكون نظريات تفسيرية (٥٤). يؤكد «سميث» على اهمية التمييز بين نوعين مختلفين للذات: المعنى الاول وهو الذات كفاعل للسلوك doer of behavior وهذا المعنى يشير الى العمليات العديدة التي تؤلف شخصية الفرد ـ فالذات كفاعل هي مصطلح اجمالي لهذه العمليات. اما المعنى الثاني فهو الذات كموضوع self as object ـ هذا المعنى يشير الى مفاهيم الشخص واتجاهاته نحو نفسه. اي الى مفهومه عن ذاته. ويرى سميث ان هذين المعنيين للذات قد لقيا خلطا في النظريات الظاهرية. ومن الخطأ ـ كما يقرر سميث ـ ان تعزى النظريات الظاهرية للذات كموضوع (وهو مفهوم الفرد عن نفسه) كل انواع القوى العلية ـ مثل القدرة على تقييمها ووقايتها ككل وتغييرها لنفسها(٥٥).

•

عندئذ يمكننا ان نطرح سؤالا هاما:

«هل من الممكن ان يكون هناك تكامل بين النظريات الفينومنيولوجية والنظريات السلوكية؟ هذا التكامل ممكن، ولكنه يتطلب من علماء النفس النظر الى الانسان على انه الفاعل النشط الذي يدرك بيئته ونفسه ويفسرها ويؤثر فيها، وكذلك على انه مخلوق من الطبيعة خاضع لقوانينها.

(53) B.F.Skinner. Behaviorism at fifty. In. T.W Wann (Ed), Behaviorism and phenomenolofy. Chicago: Univesity of Chicago press, 1964, pp.79 — 108.
(54) M.B.Smith. The phenomenological approach in personality theory. some crtical remarks. Journal of A bnormal and social Psychology, 1950 45, 516 — 522.
(55) Ibid.

عبد الحميد بن هدوقة والرواية الجزائرية

السيد عطيه أبو النجا

هزت العالم في الخمسينات أحداث ضخمة انطلقت من العالم العربي وامتد أثرها بعد ذلك الى الـدول الافريقية وغيرها من بلدان العالم الثالث . فقد شهدت مصر مولد ثورة يوليو / تموز ١٩٥٢ ولم يمض على ذلك عـامـان حتى اندلعت الثورة الجزائرية ، وبدأت الامبراطورية الفرنسية تتداعى في افريقيا وجنوب شرقي آسيا ، كما أخذ الاستعمار الأجنبي يتقلص في افريقيا ، بينما نشأت حركة عدم الانحياز .

وفي الخمسينات ظهرت في الجزائر نخبة من كبار الروائيين الجزائريين الـذين نشروا بـاللغة الفرنسية روايات ومسرحيات أصيلة كان لها أثرها الكبير في ايقاظ الوعي الوطني والدفاع عن الشخصية الجزائرية وشجب الاستعمار . وعند ما بدأت حرب التحرير في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٥٤ ، أصبحت الرواية والمسرحية والشعر أسلحة فعالة تناضل من أجل الحرية وتمجد الماضي والاسلام الذى حاول الاستعمار مسخه والذى كان معظم الجزائريين يرون فيه أساسا قويا للوحدة الوطنية وعنصرا من أهم عناصر الشخصية الجزائرية .

صحيح ان الجزائر شهدت ، بعد الحرب العالمية الأولى نشأة « مدرسة » جزائرية كانت تكتب روايات موجهة للقارىء الفرنسي وتقلد الروائيين الفرنسيين الذين ألفوا قصصا وروايات تدور أحداثها في العالم العربي وخاصة في شمال افريقيا ، وتعنى بوصف العادات الشعبية

والفولكلور وغير ذلك من الأمور التي تجذب السياح ، وتتفق مع الأفكار الخاطئة أو السطحية التي كونها الغرب عن الشرق ، مثل حياة المرأة العربية في الحريم وسلبيتها وصراعها مع ضراتها .. الخ . وكانت المدرسة المذكورة تتجاسر أحيانا فتشير الى تفسخ المجتمع الاسلامي منذ أن بدأ يتأثر بالحضارة الغربية ، ولكنها كانت تحرص في الوقت نفسه على تمجيد فرنسا التي « نشرت العلم وأنقذت المجتمع الشرقي من الجهل والتخلف والاقطاع »[1].

وقد وصف جان بومبير Jean Pommier نتاج هذه المدرسة بانه محاولات فاشلة مخيبة للامل فقال :

« يجب ان نقر بادىء ذي بدء ، بشيء مخيب للامل لايوجد ولم يوجد قط أدب جزائرى ، ونعنى بذلك انه لايوجد ، أو لم يوجد بعد ، أدب مختص بالجزائر وحدها ، ادب يتأكد طابعه بوجود لغة وجنس وامة جزائرية بمعنى الكلمة » . (٢)

الا ان الحرب العالمية الثانية كان لها اثرها في ايقاظ الشعور القومى ، فقد جاهد الجزائريون في هذه الحرب وأبلوا بلاء حسنا في صف فرنسا وكانوا يتوقعون ان تفى فرنسا بما قدمته لهم من وعود بعد ان بذلوا كل غال للدفاع ، ولكنها غدرت بهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، وقمعت الانتفاضات الوطنية بوحشية رهيبة .

وقد برزت في الخمسينات مجموعة من الكتاب والروائيين الذين وصفوا آثار تلك الحرب على المجتمع الجزائرى ، وحللوا علاقة الجزائريين بالغرب وبفرنسا بشكل خاص ، وقد عرف هؤلاء الادباء باسم مدرسة ١٩٥٢ ونذكر من بين الروائيين مولود معمرى الذى نشر في فرنسا في ١٩٥٢ رواية « التل المنسى la colline oubliee » وفى ١٩٥٥ رواية « نوم العادل (اى النوم الهادىء) Le sommeil du juste » كما نشر مولود فرعون « ايام القبائل » في ١٩٥٤ . بينما نشر الروائى محمد ديب في فرنسا « الدار الكبيرة » في ١٩٥٢ و« الحريق » في ١٩٥٤ .

وعندما شبت الثورة الجزائرية اخذ هؤلاء الادباء يمجدون ماضى الجزائر وتقاليدها الاسلامية ، وكانوا يقومون بذلك باسلوب

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، بعض روايات من نتاج تلك المدرسة ، والتيجرافية ، او الفولكلورية .

Abdel Kader Hady — Hamou : Zohra , La femme du mineur ,1925

Slimane Ben Ibrahim , Khadra , Danseuse des Oulad Nail , 1926

Les Freres zanati : Bou el — Nouar , La jeune Aljerien m1545

(٢) انظر J . Pommier : les ecrivains Algeriens visages

de Algeri Paris horizons de France ,1953

p .pp

رمزي حتى يجد وا في فرنسا ناشرا يقبل طبع رواياتهم . فقد نشر كاتب ياسين مسرحية « الجثة المطوقة » في ديسمبر كانون الاول ١٩٥٤ ومرحية « نجمة » في ١٩٥٦ . وفي ١٩٥٧ نشر محمد ديب رواية « المنوال » كما صدر لمالك حداد ديوان شعر عنوانه « الشقاء في خطر » . وفي ١٩٦٢ نشر محمد ديب رواية « من يتذكر البحر » وكان يرمز لبلد « الجزائر بالبحر الام .

ولن نتعرض لتلك الروايات بالتفصيل فقد خصصت لها دراسات كثيرة (٣) ولكننا سنكتفي بابداء الملاحظات التالية :

١) جذب هذا الادب الاصيل الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في الجزائر مثل البير كامو وجابرييل اود يزيو وجون روا وايمانويل روبلس وساعدوا زملاءهم الجزائريين على نشر نتاجهم كما رأى النقاد الفرنسيون في هذا الادب دليلا على نجاح ادماج الجزائر في فرنسا ، فاغدقوا المديح على الكتاب الجزائريين الناطقين بالفرنسية .

٢) رأى بعض الناشرين الفرنسيين في هذا الادب الجديد موردا هاما للارباح ، فقد صور الناشر « جوليار » الروائية الجزائرية آسيا جبار على انها « فرانسواز ساجان » الجزائر ، لانها الفت وهي في سن العشرين رواية جريئة على غرار الرواية الفرنسية الشهيرة .

اما العالم العربي فقد كان متعاطفا مع الثورة الجزائرية وفخورا بهذا الادب الجزائري الذي يغدق عليه الفرنسيون المديح ، ومن ثم فقد ترجمت مؤلفات اولئك الادباء الجزائريين الى اللغة العربية ، بما في ذلك الغث والسمين ومايوجه الغرابة في ذلك وقد دأبنا على الاعتزاز بتراثنا ونتاجنا بمجرد ان نرى الغرب يشيد به ، فادركنا قيمة الف ليلة وليلة واستلهمنا منها الروايات والمسرحيات عندما لمسنا مدى اعجاب الغرب بها .

الا ان الجزائريين انفسهم كانت لهم نظرة مخالفة لهذا الادب ، فقد فهم النقاد الحصيفون من أمثال مصطفى الاشرف والمرحوم عبد الله مازوني ان في هذا النتاج روائع خالدة ، ولكنهم كانوا يعرفون ايضا ان هناك اعمالا كثيرة ضحلة ومن ناحية اخرى فقد أعربت الدولة الجزائرية بعد استقلالها ، عن تقديرها لبعض الادباء ، فعينت مولود معمري استاذا للانتوغرافيا ، وآسيا جبار مدرسا بجامعة الجزائر ، كما شجعت كاتب ياسين على الاستقرار في الجزائر فعاد اليها بعد السبعينات ، الا ان كثيرا من الجزائريين يأخذون على هذا الادب انه يستخدم اللغة الفرنسية ويخاطب الفرنسيين ولا يختلف في نظرهم عن روايات « البير كامو » و « روبلس » وغيرهما من الكتاب الفرنسيين الذين كانوا

---

(٣) انظر : Jean Dejeux : Dixa Ture Maghrebine De Langue Fran caise, Ottawa , 1963 .

يعيشون فى الجزائر قبل الاستقلال ، كما ان الجيل الجديد من الادباء الذين يكتبون بالفرنسية من امثال رشيد بوجدرة « و « حامو بلحلفاوى » يأخذون على مدرسة ١٩٥٢ انها كانت تغلف نقد الاستعمار بالرموز ، وانها لم تكن جريئة فى انتقاداتها ، وبالرغم من ان مولود معمرى نشر فى ١٩٦٥ رواية الرائعة « الافيون والعصا » التى يمجد فيها حرب الجزائر ، ومع ان آسيا جبار عالجت الموضوع نفسه فى « أولاد العالم الجديد » (١٩٦٢) الا ان الجزائر لم تعد تقنع بهذا الادب بل ظلت تحس بحاجة شديدة الى ادب جزائرى ناطق بالضاد . ولعل هذه الرغبة العميقة هى التى دفعت كاتب الى صياغة مسرحياته باللغة الجزائرية الدارجة ، وشجعت بعض الروائيين الشبان على نشر قصص قصيرة وروايات باللغة العربية تمجد بطولة المجاهدين وتصف وحشية الاستعمار . وكان هؤلاء الادباء ينشرون قصصهم فى الصحف ثم يجمعونها فى كتب ،ونذكر من بينهم احمد بن عاشور وابو العيد دودو والجليل خلاص .

ويجدر التنويه بمؤلفات روائى شاب ، هو بقطاش مرزاق مؤلف « طيور الظهيرة » و « جراد البحر » فقد تميزت قصصه القصيرة بقوة اسلوبها وبراعتها فى تصوير الحياة فى مدينة الجزائر وابراز العلاقة بين الانسان وبيئته . وقد حاول بعض الادباء كتابة روايات طويلة فنشر محمد منيع « صوت الغرام » (١٩٦٧) كما نشر عرعر محمد العلى « ما لاتذروه الرياح (١٩٧٢) و « الطموح » . وفى ١٩٧٥ نشر عبد الملك مرتاد رواية نار ونور » بدار الهلال فى القاهرة .

لقد كانت تلك القصص والروايات محاولات شجاعة ، الا انها كانت فى معظم الاحوال ضعيفة من الناحية الفنية ، وكانت تخلط بين الدعاية والفن وتستغل على حد قول مصطفى الاشرف « شعورا قوميا معنى عهده » فى جلب القراء . وسرعان ماسبح الجزائريون وخاصة الجيل الجديد منهم هذا الادب الذى يصور الماضى على نحو لايخلو من المبالغة والتهويل ولا يعبر عن مشاكلهم الراهنة .

ولكن تطلعهم الى ادب اصيل تحقق على يد كاتبين فذين هما طاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة . فقد نشر طاهر وطار رواية اللاز بالجزائر فى ١٩٧٤ كما صدرت له فى بيروت فى العام نفسه رواية الزلزال :

صور طاهر وطار باسلوب واقعى يشتد احيانا فى جرأته وواقعيته بداية حرب الجزائر فى قصة « اللاز ، كما أبرز التناقضات التى كان المجتمع والافراد يتخبطون فيها فى ذلك الحين ، لقد نشأ اللاز لقيطا وعاش على هامش المجتمع وعانى من الفقر المدقع ومن الذل والمهانة فاختلت قواه العقلية . وكانت تربطه علاقة غير شريفة بضابط فرنسى مما جعل الاهالى يرون فيه جاسوسا يعمل لحساب المستعمر ولكن اللاز ينتزع نفسه من الوحل ويقبل فى خدمة الثورة ويعثر على ابيه الذى كان يقود فرقة من

المجاهدين . ولعل « اللاز » يرمز للجزائر التى استطاعت ان تطوى صفحة من الماضى الاليم وان تغسل عار التبعية لفرنسا باستبسالها فى النضال وان تسترد شخصيتها السلبية وجذورها الأصيلة .

أما قصة « الزلزال » فهى تصور الجزائر فى فترة اهتزت فيها اركان الماضى وبدأت تتضح فيها معالم المجتمع الجديد . لقد برع طاهر وطار فى تصوير انهيار مجتمع ونشأة مجتمع جديد وما يحدثه ذلك من تناقضات واهتزازات ، ويبرز التعارض بين القديم والجديد فى حياة الشارع وحياة الاسرة وتطور الاحداث . فالزلزال هو الثورة الزراعية التى قوضت الاقطاع . ان بطل الرواية الاقطاعى يحاول الاستعانة ببعض النصوص الدينية لمناهضة الثورة الزراعية فينادى بان الارض ملك لمن حباه الله بها ، ولكن الجيل الجديد يسخر منه وينتصر عليه ، فيتزلزل عالم بطل الرواية ويفقد عقله ويهيم على وجهه فى شوارع المدينة بينما يطارده الاطفال ، رمز الجيل الصاعد .

ويعالج عبد الحميد بن هدوقة الموضوعات نفسها فى رواياته ، ويعتنق مثل طاهر وطار ، المذهب الواقعى ، وينادى بضرورة الالتزام فى الادب ، ولكن اسلوبه الواقعى تتخلله شاعرية فريدة وتخلقه رمزية تعطى لرواياته ابعادا عميقة كما تفيض كتاباته بالحب والحنان للريف الجزائرى وللفلاحين ، وتتعاطف مع الشباب وبشكل خاص مع المرأة الجزائرية . لقد اصبح عبد الحميد بن هدوقة رمزا للادب الجزائرى المعاصر فهو يمثل بلاده فى كافة مؤتمرات الكتاب . ولاعطاء فكرة عن اهمية هذا الكاتب العملاق تكفى الاشارة الى ان رواية « ريح الجنوب » (الجزائر ١٩٧١) نشرت اربع مرات وبلغ عدد نسخها ٤٠٠٠٠ نسخة وترجمت الى الفرنسية وطبعت ثلاث مرات وبلغ عدد نسخها ٢٠٠٠٠ نسخة . وقد صدرت مؤخرا الطبعة الثانية من ترجمتها الهولاندية « كما ترجمت ريح الجنوب الى اللغات الاسبانية والبولندية والالمانية .

هذا وقد نشر عبد الحميد بن هدوقة فى ١٩٧٥ رواية « نهاية الأمس » وقد صدرت الطبعة الثانية منها وترجمت الى الفرنسية وظهرت الطبعة الثالثة منها ايضا ويجرى الآن طبع ترجمة هولاندية لها . وقد ظهرت منذ شهور رواية « بان الصبح »(١٩٨٠) .

كما نشر بن هدوقة قصصا قصيرة كثيرة ترجم معظمها الى الفرنسية المرحوم عبد الله مازونى ونشر بعضها فى ثلاث مجموعات وهى :

١) ظلال جزائرية دار الحياة بيروت ١٩٦٠ .

٢) الاشعة السبعة ، ١٩٦٢ تونس .

٣) الكاتب وقصص اخرى الجزائر ١٩٧٤ .

كما نشر مجموعة من الشعر الحر بعنوان الارواح الشاغرة (١٩٦٧ ، الجزائر) وكتب حوالى ٢٠٠ تمثيلية اذاعية وتلفزيونية .

ونظرا لغزارة انتاج عبد الحميد بن هدوقة فسوف نركز دراستنا على رواياته . ولما كانت تلك الروايات قد تأثرت بحياة الكاتب وتجاربه ، فسنعطى نبذة قصيرة عن نشأته وتطور فكره وفنه .

ولد عبد الحميد بن هدوقة فى سنة ١٩٢٥ بالمنصورة بولاية سطيف ، وقضى طفولته فى قرية صغيرة من قرى الجبل حيث عرف حياة الريف عن كثب وصوره فى « ريح الجنوب » و « نهاية الامس » . ودرس اللغة العربية على يد والده وتابع دراسة اللغة العربية وآدابها فى قسنطينة بالجزائر ثم فى تونس حيث حصل على شهادة معادلة لليسانس الآداب ، كما تخرج من معهد التمثيل العربى فى تونس ، هذا وقد تعلم بن هدوقة الفرنسية فى مدرسة المنصورة الفرنسية ثم فى مارسيليا ، حيث تلقى تدريبا تقنيا فى صناعات البلاستيك ، ودرس الاخراج الاذاعى فى الوقت نفسه ، وعاد بن هدوقة الى الجزائر فى ١٩٥٤ حيث درس اللغة العربية وعندما قامت الثورة الجزائرية انضم اليها . ولما بدأ البوليس الفرنسى يطارده هرب الى فرنسا فى نوفمبر تشرين الثانى ١٩٥٥ وتوجه منها الى تونس فى ، ١٩٥٨ حيث انقطع للدفاع عن الثورة الجزائرية ونشر مقالات كثيرة وكتابا عنوانه « الجزائر بين الامس واليوم » ولعل هذا العنوان يلخص فى حد ذاته عالم بن هدوقة القصصى . وبعد الاستقلال عاد بن هدوقة الى الجزائر حيث يشغل حاليا منصب مدير الاذاعة والتلفزيون . هذا وقد تزوج بن هدوقة بفرنسية انجب منها بنتا تعيش الان فى فرنسا ، ولكنه لم يكن موفقا فى حياته الزوجية فطلق زوجته الاولى واقترن باخرى جزائرية .

وقد صور عبد الحميد بن هدوقة الكثير من تجاربه فى رواياته ولكنه لم يفرض شخصيته على شخصيات رواياته . فمما لاشك فيه أن مالك بطل ريح الجنوب والبشير بطل نهاية الامس ورضا بطل بان الصبح يشبهونه الى حد كبير ، لكن كل شخصية لها طابعها المستقل وحياتها الخاصة . هذا ويتميز انتاج بن هدوقة باصالته فهو ادب عربي اصيل نشأ وترعرع تحت شمس الجزائر ، ولكنه متفتح على الادب العربي والادب الغربي وفى رسالة شخصية وجهها الينا بن هدوقة حدد فنه وعالم رواياته قائلا :

« ان ما كتبته لن يعدو ان يكون اسهاما متواضعا في بعث ادب عربي جزائرى ؛ وسط محيط تتنازعه التيارات والعقائد والأمزجة الحادة . . .

اننا نعيش هنا بالجزائر ، وفي كافة أنحاء الوطن العربي على ما اظن ، وجودا حضاريا وتاريخيا متأزما وممزقا في نفس الوقت . كما ان انتماءاتنا الجغرافية والحضارية والروحية والثقافية

لم تعد تكفينا لتحقيق ذاتنا ، فرحنا نبحث عن أنفسنا ، اما في الازمنة الضائعة ، او في البدائل المستوردة ، لتعوض لا شعوريا ما اخذ منا طوال قرون النوم والزهد . . .

لذا حاولت فيما كتبته ، على تواضعه ، ان اعالج نقاط التأزم الرئيسية في الواقع الجزائري بصفة تدخل اكبر قدر من المستقبل في الحاضر ، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والاشكال التابعة من مراكز خارجية ، اعتقادا مني بان الانطلاق من معطيات سوسيو- تاريخية محلية لكل قطر عربي ، لو روعيت في اعمالنا الادبية لارجعت لنا شيئا من كرامة ، وجنبتنا كثيرا من مزالق الاستلاب . فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادي والسياسي .

ان هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل اعمالي الادبية اعمد الى معالجة الواقع المتأزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية ، مبتعدا بقدر الامكان عن الاغتباط بما حققناه من ايجابيات .

هل وفقت ؟ طبعا لا املك الجواب وليس لي ان اجيب فالقارىء وحده له الحق في ان يجيب عن مثل هذا السؤال . »

اننا سنحاول في الصفحات التالية ان نقدم بعض عناصر الاجابة على تساؤلات عبد الحميد بن هدوقة موضحين ان رواياته تصور ثلاث مراحل هامة من تطور الجزائر ، فهي مراحل تتصارع فيها الاتجاهات والقوى الاجتماعية المختلفة .

١ - ريح الجنوب

تبدأ احداث « ريح الجنوب » بعد الاستقلال مباشرة ، وتدور تلك الاحداث في بقعة نائية بمنطقة جبلية ، ومضى الحياة في القرية رتيبة كئيبة لايخفف من وطأتها سوى اجتماع الفلاحين بالمقهى في المساء في المناسبات . ولا توجد في القرية مدرسة تعد ابناءها للحياة ، وقد وهب أحد القرويين قطعة من الارض لبلدته حتى تبنى فيها مدرسة ، ولكن حياة السكان القروية وظروف معاشهم التي تستلزم تربية المواشي حالت بينهم وبين الاتفاق على بناء المدرسة ، فالكل يود ان تكون في مكان يقرب من سكناه ، وهكذا قرروا في النهاية ان يجعلوا من المكان الموهوب مثوى اخيرا لشهداء القرية » . (٤)

وهكذا فضل الفلاحون التضحية بالمستقبل على مذبح الماضي ، وقرروا تكريم الموتى بدلا من اعداد الجيل الجديد ، ومن الطبيعي ان تسيطر العادات والتقاليد العتيقة على أهل القرية وتمل عليهم سلوكهم ، ومن الطبيعي ان تغلب عليهم السذاجة وان تحركهم الغرائز فيسعوا لتحقيق النفع السريع والمصلحة العابرة بدلا من

(٤) ريح الجنوب ، ص ١١

اعداد العدة للمستقبل ، وهم على ما عليه من فقر وجهل متفرقون بحيث يهم الاقطاع كما يشاء .

وعندما تهب ريح الشمال تحلو الحياة بالقرية ويسودها الهدوء . وعندما تهب ريح الجنوب او ريح القبلي تعصف بكل زرع ، وتكسو القرية بطبقة من الغبار الاسود وتحمل في طياتها الزوابع ولكن ريح الجنوب التي تحمل الرواية اسمها لها قيمة رمزية . فكلما هبت اطلقت غرائز القرويين من عقالها وفجرت مشاعرهم العنيفة ، ولعل ريح الجنوب تشبه في وظيفتها الروائية « الشمس » في رواية الغريب لالبير كامو ، فهي تثير الغيظ والغضب على نحو يدفع الى القتل .

في مسرحيات كاتب ياسين أيضا تطلق الشمس النحل من خلاياه ، وكثيرا ما تقترن ريح الجنوب بالرعد الذي يوحي « بمشاعر العنف والقوة والجبروت والثورة على كل شيء وهي ثورة تؤدي في النهاية الى الخراب » (٥) كما تقترن تلك الريح بالحر الذي يولد شعورا بالاختناق . وهكذا نجد ان الريح لها ، كالشمس في روايات كاتب ياسين وجهان احدهما يبعث على الهدوء والطمأنينة ويدعو الى الحب والعودة الى الارض الحنون ، اما الوجه الاخر فهو وجه العنف والحر والغضب والثورة التي تكتسح كل مايعترض طريقها .

وتدور احداث الرواية حول عدة شخصيات هي المجاهد مالك والاقطاعي عابد بن القاضي وابنته نفيسة والراعي رابح وصانعة الفخار رحمة .

ان رابح يرعى غنم عابد بن القاضي كل يوم مقابل وجبة يومية وشاة كل عام ، وهو لايعرف للراحة طعما ، ولكنه يعيش في انسجام تام مع الطبيعة . وفي المساء يعود الى كوخه في الجبل حيث تنتظر امه اليكماء ولا يجد الراعي وسيلة للتعبير عن افكاره والخروج من وحدته سوى العزف على الناي . وفي المساء تصل أنغام الناي الى القرية من أعلى الجبل متقطعة يفرغ فيها صاحبها « كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق » وكانت تلك الأنغام تسحر نفيسة وتثير خيالها ، كما كان يجذبها رابح بجماله وقوته ، الا انها كانت ترى فيه خادما من خدم ابيها ، اما رابح المسكين فقد صورت له سذاجته ان نفيسة تحبه .

اما العجوز رحمة فهي الفنانة الشعبية الاصيلة . لقد كانت تصنع أواني الفخار وتطليها بنفسها بالرغم من انها أصبحت طاعنة في السن وكانت تنشد الكمال في التعبير الفني وتتحسر لانها لم تصل اليه . لقد كانت اوانيها تزين كل دار وقد سجلت تلك الفنانة على الاواني الاحداث الهامة في حياتها وفي حياة القرية وخاصة اثناء حرب التحرير . والواقع ان تلك الأواني اصبحت ذاكرة حية للقرية .

---

(٥) ريح الجنوب ص ١٠١

ان العجوز رحمة هي التي انقذت مالك المجاهد من موت محقق اثناء حرب التحرير وخبأته في دارها ستة اشهر حتى شفي من جراحه ومنذ ذلك الحين ومالك يعاملها كأمه .

اما عابدين القاضي الثرى الذى يملك الاراضي الواسعة الخصبة والماشية الكثيرة ، فهو رجل عمل الا انه يحب المال حبا جما ويضحى بكل غال من اجل الاحتفاظ بالارض واقتناء المزيد منها . تحالف مع الاستعمار اثناء حرب الجزائر ولكنه تظاهر في الوقت نفسه بتأييد جيش التحرير . وعندما خشى ان يفتضح امره سعى الى تزويج ابنته زليخة للمجاهد مالك . كانت زليخة تدرس بجامعة الجزائر وكانت تؤمن بمبادىء الثورة . خطبها مالك واحبها وبادلته الحب . وفي يوم ماعادت من الجزائر العاصمة الى قريتها بالقطار وكان من المقرر نسف قطار حربي يعبر القرية في اليوم نفسه . وضع مالك اللغم بيده بالسكة الحديدية ولكن القدر شاء ان يتعطل القطار الحربي وان يأتي بدله القطار الذى استقلته زليخة فنسفه اللغم . وهكذا قتل مالك وهو لايدرى اعز انسان لديه ، جن جنون عابد ابن القاضي فوشى بمالك ورفاقه وفاجأهم الجيش الفرنسي فمات معظمهم بنار الفرنسيين وجرح مالك جرحا بليغا . ومنذ ذلك الحين ومالك يعتقد ان عابد ابن القاضي هو الذى وشى به وبرفاقه ولكنه لايملك الدليل على ذلك ، وعندما وضعت الحرب أوزارها عاد مالك الى القرية حيث عينته الحكومة رئيسا للمجلس الشعبي البلدى . ان ابن القاضي يخشى مالك لانه يحس انه قد عرف سره ، ويخشاه كذلك لانه ينادى بالاصلاح الزراعي الذى كثر الحديث عنه على نحو يقض مضجع ذلك الاقطاعي .

ماذا يفعل ابن القاضي لينقذ الارض التي وهبها حياته ؟ لقد قرر ان « يصهر الى » الحكومة أي ان يزوج ابنته الشابة « نفيسة » لمالك ، فنفيسة تشبه تماما زليخة ولورآها مالك لتحرك حبه القديم ، ولهذا فقد طلب ابن القاضي من العجوز رحمة ان تقنع مالك بالزواج بنفيسة ، كما اشاع في القرية ان هذا الزواج قد تقرر بالفعل وذلك حتى يضع مالكا امام الامر الواقع .

اما مالك فهو رجل نزيه مثال استبسل في الحرب ثم عاد اليوم الى القرية لتحريرها من التخلف والفقر بعد ان تحررت من الاستعباد . انه يجتر ماضيه الاليم ويعيش على ذكرى زليخة وعندما يرى نفيسة يتحرك حبه القديم ، ولكنه لايتحمس لفكرة الزواج ، لان الماضي لا يمكن ان يبعث ، ولان نفيسة من جيل غير جيله . وهو يعرف كذلك أن ابن القاضي يداهنه ويريد ان يجعل منه شريكا وحليفا للاقطاع .

اما نفيسة فهي في الثامنة عشرة من عمرها لا تحلم الا بمدينة الجزائر وبجامعة الجزائر التي تدرس فيها ، وعندما ترى مالكا لاتحس نحوه باى عاطفة ، فهو يكبرها سنا وينتمي الى عالم يختلف عن عالمها . وهي تحس باختناق منذ

عادت من الجزائر العاصمة الى قريتها لتقضى بها العطلة الصيفية . إنها تقضى سحابة يومها فى سريرها الصغير بحجرتها الضيقة وعيناها تجولان فى السقف تعد ألواحه . ان ام نفيسة حزينة لان ابنتها لاتصلى وهى تعتقد ان « الفرنسية التى تعلمتها ابنتها ستحيد بها لا محالة عن الطريق السوى » (٦) اما نفيسة فهى مراهقة تتطلع الى الحب وهى تكتشف جسدها وتحس بلذة وهى تتحسه . وعندما تسمع أنغام الناى التى يعزفها رابح الراعى تحلم بانه أمير ساحر سيأتى ليأخذها بين ذراعيه وينقذها من السجن الذى تعيش فيه .

ولنفيسة اخ صغير تتحدث معه من حين لآخر اما ابوها فهو لايوجه اليها الكلام ، ولكنه كلف زوجته باخبار نفيسة بانها لن تعود الى الجزائر العاصمة لمواصلة دراستها اذ انه ينوى تزويجها لمالك .

تصورت نفيسة ان مالك قد قبل بالفعل فكرة الزواج بها فجن جنونها وثارت على امها . انها تحنق على امها لانها سلبية تقبل سيطرة الرجل على المرأة . ان امها تمثل فى نظرها الماضى الذى تلفظه فهى لا تقبل ان يتحكم الرجال فى مصيرها وان يزوجوها رغم أنفها بشخص لاتحبه . انها لاتريد ان تعيش فى قرية تحبس حريتها وتفرض عليها ارتداء ثياب تخفى انوثتها وكأنها عورة وتجعلها تعيش سجينة الدار والثياب والتقاليد « هل تثور ولكن اية ثورة وفى اى اتجاه ؟ انها لاتعرف احدا فى القرية . وهب انها عرفت ماذا يجدى ذلك ؟ فلافرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما ، لكنها مع ذلك لابد ان تثور ، وان تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت . ثورتها وحدها هى التى تستطيع تحديد الاتجاه والطريق » (٧) .

قررت نفيسة ان تستغيث بخالتها التى تقيم فى الجزائر العاصمة حتى تقف بجانبها فى محنتها . اعطت فى السر خطابا الى الراعى رابح ليرسله اليها من مكتب بريد القرية المركزية . اما رابح المسكين فقد تصور ان نفيسة اخترعت هذه الحيلة لتبوح له بحبها ، وفى ليلة سكنت فيها الريح وافرغ فيها القمر على الارض كل مافيه من نور فاذاهى سكرى بالنور ، اخذت نفيسة تدور فى غرفتها كالحيوان الحبيس ثم اتجهت الى النافذة ففتحتها واخذت تتأمل الطبيعة ثم عادت الى فراشها فخلعت بغضب قميص النوم ورمت به فوق المقعد الخشبى وارتمت فى الفراش عارية .

وفى الوقت ذاته ملأ هدوء الليل وسكون الريح وضوء القمر قلب رابح بالآمال العذبة وتحركت غريزته فدفعته الى ان يقتحم سور دار نفيسة ويتسلل الى غرفتها واهتز كيانه العصبى وهو يرى جسم امرأة فى حياته ، ايقظ نفيسة

(٦) ريح الجنوب ، ص ١٢
(٧) ص ٨٧ ، ٨٨ .

فطردته شرطردة وهى تقول « اخرج ايها الراعى القذر » خرج رابح حزينا ذليلا كاسف البال .
تصور ان نفيسة لم تتبله الالانه يزاول مهنة قذرة فاقسم الايرعى الغنم بعد ذلك ، وقرر ان يحمل حطابا ، وبينها كان يجمع الحطب رأى العجوز رحة فى الجبل وهى بين الحياة والموت ، كانت رحة قد ذهبت الى الجبل لتاخذ منه ماتحتاج اليه من تراب لصنع الاوانى . وكان النهار مايزال فى اوله ، ولكن الحر كان خانقا . كانت العجوز تجر خطاها وهى تحمل قفة تراب مشدودة على ظهرها بحبل وثيق وخانتها قواها فقد حرجت والتتوى الحبل على عنقها وكادت تختنق ، حملها رابح الى كوخها ومكث بجانبها حتى افاقت .

تدهورت حالة العجوز الصحية وماتت وحيدة وهى تهذى وتحلم انهاقد اصبحت آنية من الفخار . قررت القرية باكملها ان تودع رحة وتكرم مثواهاوا جتمع أهلها بدار رحة وفى المساء تحدث امام القرية عن الدنيا والآخرة وتطرق الحديث الى الملبوسات الحلال والملبوسات الحرام فقال احد الشيوخ انه لا يجوز للرجال لبس الذهب « الا المصحف والسيف والانف وربط سنين مطلقا » . . وجاز للمراة الملبوس مطلقا ولو نعلا لا كسرير . وقال سائل آخر « واذا صلى انسان وهو يحمل ساعة ذهب هل صلاته صحيحة فقال الشيخ مستشهدا بخليل بن اسحق « عصا وصحت » .

تبارى الشيوخ فى وصف زبانية النار وطبقات النار وما فى كل منها من ألوان العذاب . ولكن فلاحا طرح سؤالا لا يتعلق بالفقه ولا بالتوحيد فقال « ماهى الاشتراكية » فرد عليه شيخ على الفور قائلا « الاشتراكية مصدر ، اشترك يشترك اشتراكية » أبدى الجميع اعجابهم بهذا العلم الاان أحد الفلاحين طلب من الشيخ ان يشرح له « الا شتراكية الاخرى » التى تتكلم عنها الحكومة فاجابه الشيخ « سواء كانت الاشتراكية التى تتحدث عنها الحكومة او واحدة أخرى فهى مصدر والسلام »

احس مالك بالغثيان وهو يستمع الى مايجرى من حديث واخذ يقول لنفسه « ان الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الاوهام ، يجب القيام بثورة اخرى ولكن من يقوم بها ؟ المدرسة وحدها لا تكفى . . .

قرر الخروج من الحجرة والاختلاء بنفسه فى مكان بعيد عن دار العجوز ، ولكن ابن القاضى لحق به ليفاتحه فى مشروع الزواج وليشكو اليه من المضايقات التى يواجهها بسبب كثرة الضرائب الجديدة ومن الحكومة التي تقول ان الارض لمن يخدمها وتفكر فى تطبيق الاصلاح الزراعى .

وفى تلك الاثناء كانت نفيسة مع بقية نسوة القرية فى دار رحة . كان الليل فى ثلثه الاخير وكان الحريزداد ويثقل ، بينما كانت ريح الجنوب تتململ وراء الجبال قبل ان تصل بزئيرها وجحيمها ، وكانت نفيسة تحس باختناق وهى تستمع الى نساء القرية وقد اخذن يصفن اهوال

ليلة الدخلة . تظاهرت بالنوم فاخذت النسوة يتحدثن عن زواجها الوشيك بمالك ويغبطنها على ذلك . جن جنون نفيسة وقررت احباط ذلك المشروع بالفرار الى مدينة الجزائر .

« تحركت ريح الجنوب بكل عنف وانطلق دويها بكل قوة يهز الدنيا هزا واخذت اصواتها فى فحيح وفير تتجاوب من كل جهة وجانب ، باعثة فى النفوس الهلع وفى القلوب الرعب والفزع » . (٨)

هربت نفيسة متنكرة فى زى رجل ، شقت طريقها نحو السكة الحديد ولكنها تاهت وسارت فى طريق ادى بها الى الادغال حيث لدغها ثعبان راى رابح الحطاب رجلا يرقد سريعا ، وسرعان ما اكتشف ان هذا الرجل هو نفيسة . لم يفكر فى الانتقام منها بل شق مكان اللدغ وامتص الدم المسموم ووضع على الجرح عشبا يعرفه وكان يستعمله فى مداواة الغنم التى تلدغها الثعابين . استيقظت الفتاة من غيبوبتها فوجدت رابح بجانبها وشعرت باطمئنان شديد ، عرض عليها ان يعود بها الى دارها ولكنها توسلت اليه ان يأخذها الى داره حتى تشفى وتفر الى الجزائر العاصمة . خفت أم رابح لمساعدة نفيسة وتذوقت نفيسة بجانبها متعة الحياة البسيطة الهادئة .

ووقع اختفاء نفيسة على ابيها وقع الصاعقة فانهال على زوجته ضربا لانها لم تحسن رقابة ابنتها ، وانتشر خبر الفضيحة ، فاحس الرجل بكل آماله وقد تداعت ، فقد ثلم شرفه فلن يتزوج مالك بنفيسة وسوف تضيع الارض من عابد ابن القاضى بعد ان جلبت عليه ابنته العار والشنار ، وعندما يكتشف ان نفيسة تقيم بدار رابح يضرب رابح بموساه . لم يقاومه رابح بالرغم من انه كان اقوى منه بكثير بل استسلم له وتركه يطعنه ، ولكن ام رابح جن جنونها فهوت على ابن القاضى بفاسها اسرعت الام الى ابنها لانقاذه واسرعت الفتاة الى ابيها لتحاول تضميد جراحه وتقاطر اهل القرية الى كوخ رابح ثم عادت نفيسة الى دارها بينما « تحركت ريح الجنوب « والحد دويها يتصارخ بين جبال القرية ووهادها فاذا الارض المقمرة تلتحف بلحاف من غبار . . . غبار الليل » . (٩)

وهكذا تنتهى ريح الجنوب التى تتركز على موضوعين رئيسيين تحرر المرأة وتحرر الارض .

ان نفيسة تتطلع الى الحرية ، وكذلك يحلم مالك المجاهد بمستقبل آمن زاهر للفلاحين ولكن القوى الرجعية تلعب دورا كبيرا فى « ريح الجنوب » وتتمثل تلك القوى فى ابن القاضى الذى يريد التهرب من الاصلاح الزراعى ، كما تتمثل فى سيطرة الرجل على المرأة القروية وفى خضوعها له وفى الشعوذة وفى تمسك بعض

---

(٨) ص ٢٢٨
(٩) ص ٢٦٩

شيوخ القرية بعلم عتيق لايتفق مع مقتضيات العصر ، اما الفلاحون فهم متفرقون غير متضامنين ، كما يفتقرون الى الوعي السياسي وهم لايفهمون مايقوله لهم علماء القرية ولا يدركون ماذا تعنيه أجهزة الدعاية الحكومية عندما تحدثهم عن الاشتراكية والتسيير الذاتي وتأسيس اللجان والميثاق . . ولكننا نحس ان مالك وهو متعلم حصيف قد عاد الى القرية لتوعيتهم ، كما نحس ان القوى الرجعية قد بدأت تتصدع وتفقد نفوذها ، فقد رفض رابح الراعي العمل بخدمة ابن القاضي ووقف الى جانب نفيسة ضد ابيها . كما لم يقبل مالك مشروع مصاهرة ابن القاضي واخيرا فقد وجهت نفيسة الى ابيها الضربة القاضية فقتلت سمعته وهيبته قبل ان يخر صريعا تحت ضربات ام الراعي رابح .

اننا نحس ونحن نقرأ « ريح الجنوب » ان الجزائر في فوران وغليان ، وانها على وشك مشاهدة احداث سوف تهزها وتزلزل اركان عالمها التقليدي ، ولكن ابن هدوقة يصور احتضار الماضي ومولد المستقبل من خلال قرية نائية فقيرة يصف حياتها اليومية في اسلوب واقعي اصيل ، فهو لايصور الفلاحين على نحو رومانسي كما فعل محمد حسين هيكل في رواية زينب ، ولا يعطي لنضالهم بعدا ايدولوجيا كما فعل عبد الرحمن الشرقاوي في رواية الأرض ، حيث يتكتل الفلاحون ضد الاقطاع وينتصرون عليه ، ولكن ابن هدوقة يفسح المجال لهم ليعبروا عن آرائهم وخواطرهم بينما يراقبهم مالك عن كثب ويقيم اعمالهم ويعجب بشهامتهم ويتألم لفقرهم وجهلهم وتفرقهم .

ومع ان ابن هدوقة يصور الحياة كما هي لا كما يجب ان تكون الاان واقعيته تخللها مسحة من الرومانتيكية ، ففي ريح الجنوب شخصيات فذة هربت من الواقع الى عالم الطبيعة والفن مثل رابح الراعي الذي يعيش في انسجام تام مع الطبيعة والموسيقى ، ومثل رحمة الفنانة العاملة التي تعيش في عزلة بين احضان الطبيعة وتنشد الكمال الفني في صنع الاواني ، واذا كانت اواني ، رحمة العجوز سجلا فنيا لحياتها الشخصية ولأحداث القرية ، واذا كانت انغام ناي رابح الراعي تعبر عن حياة القرية بما يتخللها من شعور بالوحدة واليأس ، ومن ثورة كامنة على اوضاع اجتماعية جائرة فان ريح الجنوب تعتبر شخصية رئيسية في الرواية فهي ، بمثابة مارد يضيق بقمقمه ويريد تحطيم اغلاله لينشر حوله العنف ويكتسح كل مايقف في طريقه .

٢ ـ نهاية الأمس

نحن الآن في ١٩٦٧ ، وقد مضى على استقلال الجزائر خمس سنوات . ان ذكرى حرب التحرير مازالت ماثلة في الأذهان ، ولكن بعض رجال الدين من أمثال الشيوخ الذين سخر منهم ابن هدوقة في ريح الجنوب قد تحالفوا اليوم مع الاقطاعيين لمواجهة الاشتراكية التي يرون فيها صنوا للشيوعية وللاصلاح

الزراعي . وبينما (يحقق التسيير الذاتي كافة النتائج المنشودة تسلل بعض الانتهازيين الى المناصب الحكومية .

ان هذا الجو المتوتر تجد صداه في نهاية الأمس التي يدور فيها نضال بلا هوادة بين المجاهد النزيه « البشير » الذى يشبه الى حد كبير « مالك » بطل ريح الجنوب وبين الاقطاعي ابن الصخرى وحليفه امام المسجد . غير ان البشير يختلف عن مالك في انه لا ينتمي الى القرية التي تدور الاحداث فيها . ومن ثم فان أهل القرية يرون فيه « أجنبيا » يراقبونه بحذر مما جعل صراع البشير مع الاقطاعيين وحلفائهم صراعا مريرا تحفه المصاعب والأخطار .

ان البشير مثل مالك يجر وراءه ماضيا ثقيلا أليما . استشهد أبوه وأمه في حرب التحرير ، وفقد هو زوجته وابنته . وجرح في ساحة الوغي ونقل منها الى ألمانيا الشرقية حيث تلقى العلاج اللازم ، ثم رحل الى تونس . حاول شغل وقته بالدراسة في الجامعة التونسية . كان يعتقد ان زوجته وابنته قد ماتتا بدورهما . وتعرف في تونس على فتاة تونسية أحبته وأحبها وتزوجها عندما عاد الى الجزائر بعد الاستقلال . وشغل البشير منصبا هاما وكانت زوجته تحب الحفلات والسهرات الراقصة التي ترى فيها وسيلة لتكوين علاقات اجتماعية تكفل لزوجها الترقي السريع . ولم يرتح البشير الى مسلك زوجته فانفصل عنها وأصيب بعد الطلاق بانهيار عصبي . وما أن شفي منه حتى قرر الفرار من الجزائر العاصمة الى قرية نائية . انه يريد اليوم أن يواصل جهده حتى يحرر البلاد من القاعدة ويقتلع الجهل من جذوره . لقد طلب من زملائه السابقين في الجهاد والذين يشغلون اليوم مناصب هامة بوزارة التربية ان يعمل مدرسا متنقلا بالقرى بحيث لا يمكث بقرية الا ما يكفي من الوقت لتوعية الجيل الجديد ولتنظيم قوى الفلاحين وإعدادهم لمواجهة من يستغلونهم .

والواقع ان عودة البشير الى القرية هي عودة الى الأصول وفرار من الحاضر الأليم . ان البشير يريد أن يهرب من الماضي الأليم ومن الحاضر الذى لا يرتضيه . انه يعتقد انه سيجد في القرية الهدوء والعزلة والبساطة التي ينشدها بعد حياة عاصفة .

وهاهو يصل اليوم الى القرية عبر طريق غير معبد مترب . « العرى هو الكساء الوحيد الذى تلبسه الارض كأن ريحا ذرية نسفتها فاذا كل شيء كئيب واذا الشمس تفقد اشعتها فتضيء بلاحنان ولا جمال ، واذا الارض تعطى للنظر صورة من هرمها الفظيع » .

التف أهل القرية حول الزائر المجهول ولما علموا انه « المعلم » نظروا اليه باشفاق كانوا يتوقعون انه سيرحل بسرعة عن القرية كما رحل من قبله المعلمون الآخرون . فالمدرسة خالية من كل شيء ماء فيها ولا كهرباء وابناء القرية يذهبون الى الحقول لا الى المدرسة وامام الجامع

يعلم بعضهم مبادئ القراءة والكتابة وما تيسر من القرآن الكريم وتأثر البشير بحفاوة أهل القرية واحس بانه قد عاد الى اصوله و هاهى ذى تلك الاصوات القديمة التى الفتها نفسه فى الطفولة والشبابواحبتها اخذت تعود الى سمعه ونفسه فتملؤها حنانا وحبانا وتصل بينها وبين الطبيعة فى اجمل ملتمثله من زقزقة عصافير وثغاء خراف واصوات اخرى كثيرة يعرفها الريفى وحده ويحس بها اكثر من غيره . فهو اذن بكل هذا سعيد وهو اذن فى هذه القرية يستانف طفولته بفكر جديد وعن تجربة طويلة يستأنف طفولته ببراءة نفس وطهارة ضمير وعمل متواصل وحب هؤلاء الناس جميعا مهما كانت الظروف لانهم فى حاجة الى الحب وفى حاجة الى من اتسعت خبرته وتعاقبت تجاربه ؛

ولكن البشير لم يكن يعرف ان امام الجامع يرى فيه منافسا وغريما خطرا لاحظ الامام ان البشير لا يصلى فاخذ يشهر به ويصفه بانه شيوعى اراد البشير تزويد القرية والمدرسة بالماء والكهرباء فاثار ذلك حنق لاقطاعى ابن الصخرى لانه كان يخشى ان تحرم مزارعة من بعض ماالماء اذا نجح البشير فى تزويد المدرسة والقرية بالماء فقرر التخلص منه .

وتعرف البشير على مجاهد مثله إسمه بوغرارة كان جاهلا ولكنه يتمتع بالشجاعة والذكاء وصفاء النفس والشهامة ونشأت بين الرجلين صداقة خالصة ووجد البشير فى زميله فى الجهاد خير معين .

وأراد البشير ان يستعين بسيدة عجوز تطهى له الطعام وتنظف المدرسة وتعنى بها فأشار عليه القهوجى وبوغرارة باستخدام « ام الحركى » خاصة وان القرية نبذتها فكانت تصنع اوانى الفخار تصنع الفخار وتبيعها فى الأسواق حتى لاتموت جوعا هى وزوجة ابنها وابنها وابنته اما حفيدها ابن الحركى فهو يرعى غنم ابن الصخرى .

ولكى يفهم القارىء مأساة تلك المرأة وأسرتها تستيح لأنفسنا ان نوضح له ماهو الحركى . ان « الحركة » هى فرق من الجزائريين الذين استعانت بهم فرنسا فى محاربة جيش التحرير . اما حركى « نهاية الامس » فقد كان يعيش فى فرنسا عندما علم ان المجاهدين قتلوا أباه لانه استضاف بعض انصار مصالى الحاج التى كانت جبهة التحرير تعاديه . ولم يكن ابو الحركى يفهم ماهو الفرق بين حزب مصالى الحاج وجبهة التحرير ، ولكنه كان يعرف ان من واجبه ايواء المناضلين واكرامهم . وقد قرر ابنه الانتقام له بالانضمام الى الحركة ، وذات يوم وجد فى الجبل امرأة وابنتها وهما بين الحياة والموت فآواهما بداره وتزوج بالمرأة وتبنى ابنتها ثم رزق منها بولد ، وعندما استقلت الجزائر رجم ابناء القرية الحركى وقرروا نبذ أسرته ، وكان اقساهم عليه هم من تلقوا منه اكبر قدر من المساعدات قبل الاستقلال .

عاد البشير الى المدرسة وأشعل شمعة واعد

القهوة وشرب جزءا منها وا ستلقى فى سريره واستعصى عليه النوم ، وتحركت ذكريات الماضى فى نفسه وكان يعيش فى « مونولوج » دائم مع نفسه .

كان يدرس بمدينة الجزائر عندما خطب له ابوه أجمل بنات القرية واسمها رقية . وبعد اربع سنوات من الخطوبة زف اليها وقضى معها شهر العسل بالقرية ، ثم ثارت الجزائر فى نوفمبر تشرين الثانى ١٩٥٤ فكان البشير من اوائل من انضموا الى جيش التحرير .

وكان يعود الى زوجته خلسة بين الحين والآخر ، وفى آخر مرة رآها بكت كثيرا واخبرته وهو يتاهب للرحيل بأنها حامل ، وانها تحس أنها لن تراه بعد اليوم ، ولكنه هو كان يحس انه بطل ملحمة كبرى يتصارع فيها الحب والتضحية والموت والحياة والامس والغد .

وتتعاقب الشهور وتلد رقية بنتا تسميها فريدة ، وتنتظر على أحر من الجمر عودة زوجها الرقيق الحنون ، ولكن البشير يشتبك يوما مع بعض جنود الجيش الفرنسى فى معركة طاحنة وينقله رفاقه وهو جريح الى مكان آمن قبل ان يذهب الى المانيا الشرقية للعلاج ، ويقرر الفرنسيون التنكيل باهل القرية فيأخذون ابا البشير الى قسم الشرطة مع غيره من رجال القرية للتحقيق معهم ، بينما تقتحم فرقة من الجنود الفرنسيين دار البشير ويعتدى بعض الجنود على عرض رقية .

كان ابو البشير يتحمل الفرنسيين منذ عشرات السنين ولكن اعتداء الجنود الفرنسيين على شرف ابنه هو الذى رفع الغشاوة نهائيا عن بصره ، فمن خلال الشرف ، بالمعنى القروى ، أدرك معنى الكرامة والسيادة والحرية ويحصل الشيخ على رشاشة من جيش التحرير ويختبىء فى زاوية الصلاة ، وعندما تقترب فرقة فرنسية من الزاوية يباغتها باطلاق النار عليها . يقتل قائد الفرقة وستة جنود قبل أن يلقى مصرعه ، وينتقم الفرنسيون من أهل القرية شرا انتقام ، ويحظرون دفن جثة الشيخ ويهددون بقتل كل من يقترب منها . تعلم زوجة الشيخ بالخبر فتجمع حليها وتخبئها بالدار فى مكان لا يعرفه أحد سوى ابنها ، وتأخذ فأسا وتتوجه الى الزاوية لتدفن زوجها ، كما دفنت انتيجون أخاها فى الاساطير الاغريقية ، ولكن الفرنسيين يطلقون عليها نيرانهم فتخر صريعة بجانب رجلها .

كان البشير يعتقد ان زوجته وابنته قد قتلا بدورهما وكانت رقية تعتقد ان البشير قد استشهد ، وعندما هدم الفرنسيون دارها هربت بابنتها الى الجبل حيث التقت بالحركي وتزوجته بعد أن أنقذها من موت محقق .

وفى اليوم التالى توجه البشير مع صاحبه بوغرارة الى دار أم الحركى لشراء بعض الأوانى الفخارية منها ، ونادى بوغرارة على أم الحركي فخرجت من الدار فتاة ضامرة شاحبة هزيلة ترتدى الأسمال ، وقفت أمامهما لاهثة ساعلة

تكاد تختنق ، وكان اسم هذه الفتاة مثل اسم ابنته ، فريدة ، ولو كانت ابنته حية لكانت الآن في نفس سنها وما أن رآها البشير تسعل على نحو غير طبيعي حتى شعر بضيق غريب وباحساس يشبه الحزن والعطف . انه يشعر وكأنه يعرفها ويكاد يجد شبها بينها وبين زوجته رقية التى تلاحقه ذكراها . قرر البشير أن يستعين بأم الحركى في تنظيف المدرسة واعداد الطعام . خشيت العجوز أن يقتلها أهل القرية لو علموا انها تجاسرت فخرجت من منفاها لتعمل بالمدرسة ، ولكن البشير وعدها بحمايتها هو وصاحبه بوفرارة .

وثار أهل القرية عندما علموا بالخبر ، وانتهز امام الجامع هذه الفرصة لتأليبهم على البشير ، ذلك « الأجنبى الذى تحدى مشاعر القرية وقرر الاستعانة بأم الخائن . حاول البشير اقناعهم بالحسنى وذكرهم بالآية الكريمة « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ونبههم الى أن ابن الحركي يرعى غنم ابن الصخرى ، فردوا عليه بأنه طفل برىء ، ولما حان وقت الصلاة توجه أهل القرية ، وهم يستشيطون غضبا الى الجامع الذى يقرأ ابن الصخرى فيه القرآن كل مساء مع الامام ، وقرروا عرض الأمر عليه .

كان اهل القرية يكنون كل احترام لابن الصخرى ، فقد كان يملك المال الوفير وكانت بساتينه تشغل نصف مساحة اراضى القرية ، وكان يبدو عليه الورع ، وقد شارك فى حرب التحرير واستشهد له ولد ، كما ان له ابنا ثانيا يعمل كاتبا فى بلدية القرية الرئيسية ، اى انه اصبح جزءا من الجهاز الحكومى ، فكاتب البلدية يبقى فى منصبه لا يتبدل ، بينما كان رئيس البلدية يتغير بعد حين ، وكان هذا الكاتب يستغل منصبه لخدمة مصالح ابيه . وكان ابن الصخرى يقرض المال لابناء القرية مقابل رهنهم لاراضيهم ، ثم يشترى منهم المحصول بثمن بخس لا يمكنهم من سداد ديونهم ، وعندئذ يتركون له الارض صاغرين ، ومع ذلك ، كانوا لا يدركون ان هذا الاقطاعى الثرى يستغلهم ويجردهم شيئا فشيئا من ممتلكاتهم ، ويحتكر وحده مياه القنوات لري بساتينه ويحرم منها ابناء القرية . وكيف يرون عيوبه وهو الرجل التقى المتواضع الذى يقرأ القرآن كل عشية مع امام الجامع ؟

سافر البشير فى اليوم التالى الى المدينة وقابل كبار المسؤولين وحصل منهم على امر بتوصيل المياه من القنوات التى تروى بساتين ابن الصخرى الى المدرسة والقرية . وكان احد المهندسين قد اعد من قبل مشروعا فى هذا الصدد الا ان تنفيذه كان يتأجل باستمرار لسبب خفى ، وتلقى كاتب البلدية الامر بتنفيذ المشروع فهرول الى القرية ليحيط أباه علما بذلك . ودهش ابن الصخرى عندما علم ان البشير على صلة بكبار المسؤولين ، وقرر مداهنته ريثما يعد خطة محكمة للتخلص منه .

اما البشير فقد احضر بعض الادوية لعلاج فريدة من السعال ولما توجه الى دار ام الحركى علم ان فريدة قضت نحبها واستولى عليه حزن شديد وقرر ان يتكفل بجنازة هذه الطفلة المسكينة ، فزاد ذلك من حنق اهل القرية ولم يشترك فى الجنازة سوى صديقه بوغرارة . وعندما توجه البشير الى القهوة مع صاحبه كال له القرويون السباب ، واتهموه بانه من اعوان الحكومة والاستعمار وكادوا يعتدون عليه لولا تدخل بوغرارة .

وبينما كان البشير يشيع جنازة فريدة شاهدته رقيه فاغمى عليها من وقع المفاجأة . نعم انه هو البشير بعينه زوجها الاول الذى قيل لها انه استشهد . انه يوارى جثمان فريدة التراب وهو لا يدرى انها ابنته . لقد كانت فريدة تمثل الجانب المضىء فى حياتها ، فقد كانت هى الرابطة الوحيدة التى تربطها بزوجها المجاهد ولكنها ماتت ومات معها الماضى المشرق ، لم يبق لرقية سوى حاضرها الاليم ، فهى الآن زوجة الحركى الخائن تعيش منبوذة ذليلة . احست رقية باختناق وغضب شديد لماذا تركها البشير للذل والهوان . هل سوف يصدق انها لم تكن تعرف ان زوجها الثانى حركى ؟ هل سيصدق انها بكت زوجها الاول أثناء الليل واطراف النهار ؟ هل سوف يصدق انها فى شقائها وعذابها الطويلين لم تنقطع عن التفكير فيه لحظة واحدة ؟

استيقظت القرية فى صباح اليوم التالى على صوت انفجار عنيف ، لقد نسف الجامع ، اتهم الامام البشير بانه هو الذى دبر هذه الجريمة فهو اشتراكى لايصلى ، كما كان قد اصيب بالجنون .

وأسرع أبناء القرية الى دار البشير ونادوا عليه ووجهوا اليه اقزع الشتائم . خرج اليهم البشير ليسألهم عن سبب غضبهم فانهالوا عليه ضربا ورموه بالحجارة ، فجرح جرحا غائرا بجانب عينه وكاد القرويون يقتلونه لولا ان بوغرارة خف الى نجدته .

واثبت التحقيق ان البشير برىء وحامت الشبهات حول ابن الصخرى ولكن الشرطة لم تجد دليلا قاطعا يدينه . ولكى ينفى ابن الصخرى عن نفسه كل شبهة تطوع ببناء مسجد جديد . ونجح البشير فى تزويد القرية بالماء والمدرسة والكهرباء ، كما حصل على قرار بتزويد التلاميذ بوجبة غذائية ، وعلى قرار آخر بتوظيف ام الحركى فى المدرسة .

وأحس اهل القرية باحترام عميق نحو هذا الشاب الذى انتصر على ابن الصخرى ، وعندما اعلن البشير بدء تسجيل التلاميذ تقاطر الاهالى الى المدرسة لقيد ابنائهم ، وأرادت ام الحركى تعليم حفيدها ، وعندما قرأ البشير اسم اب الطفل واسم امه صعقته المفاجأة . هل يصدق احد ان زوجته مازالت حية ؟ هل يصدق احد ان الطفلة التى ماتت هى ابنته ؟ واستدعى البشير رقية الى المدرسة . هاهى زوجته نداء

الامس البعيد . وقابلها ببرود شديد لماذا هذه القسوة ؟ ماذنبها هي ، لقد دنسها الاستعمار ولم يكن لها من خيار ، انها الماضي الذي يعيش على ذكراه ، انها الامس المشرق والحنان والحب ، ولكنها أيضا الألم والعار والماضي الرهيب .

ماذا يفعل البشير ؟ هل يترك القرية بعد ان أيقظ وعي أبنائها وانتصر على الجهل والرجعية والاقطاع ؟ ام هل يرد اليه زوجته ؟ .

إن البشير كان في حيرة من امره وان توخينا الدقة قلنا ان مؤلف الرواية عبد الحميد بن هدوقة هو الذي وقع في هذه الحيرة . فقد اخبرنا انه ظل فترة لا يعرف كيف يختم روايته . والواقع انه ادرك ان رقية ليست مجرد شخصية من الشخصيات بل هي رمز للجزائر ، الوطن الحبيب الذي دنسه الاستعمار ، فهل ينبذ الجزائريون هذا الماضي كما نبذ اهل القرية كلا من رقية وام الحركي ؟ ام يقبلونه بمافيه من ذل وهوان عسى ان تصبح نهاية الامس بداية للغد ؟ في هذا يقول ابن هدوقة :

« رقية هي رمز للجزائر التي احتلها على التوالي الرومان والبيزنطيون والواندال والاتراك ، فهل تبني الجزائر من العدم وتنبذ الماضي ام تأخذ من الماضي افضل مافيه ونقبل الحياة في سياق انساني ، اي اشتراكي » ؟ .

الواقع ان كل جزائري يحمل في قلبه هذا الماضي الذي لم تندمل جروحه بعد ، ولعل ذلك هو الذي دفع ابن هدوقة الى اقتراح خاتمتين تشهد اولاهما فرار البشير من الماضي بينما تجمع الخاتمة الاخرى بين زوجين مزقهما الماضي .

والواقع ان « نهاية الامس » تدور احداثها في ١٩٦٩ ، بعد ان نجحت البلاد في التغلب على الفتن التي ثارت في منطقة القبائل وبعد ان طبقت الحكومة سياسة التسيير الذاتي واخذت تستعد لتطبيق الاصلاح الزراعي ، وكانت اتجاهاتها الاشتراكية تثير حنق الرأسماليين والاقطاعيين وبعض رجال الدين ، ومن جهة اخرى كان بعض المسؤولين يضيقون ذرعا ببعض العناصر الدينية التي لاتتحمس لسياستهم وفي هذا يقول البشير :

« انه بقدر ماكان هذا النمط من الناس أثناء الاحتلال عاملا من عوامل الحفاظ على الشخصية وعدم الذوبان في المستعمر بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلة في وجه كل اصلاح وحاجزا امام كل تقدم » (١٠)

وهكذا تصبح قرية نائية مثل القرية التي قضى فيها ابن هدوقة طفولته رمزا للجزائر بأسرها ، فهذه القرية قد شهدت ملحمة حرب التحرير ولكنها شهدت كذلك مأساة الحركيين . كما اصبحت ميدانا لصراع مرير بين القوى التقدمية والقوى الرجعية ، ويقترن ذلك الصراع الاجتماعي بصراع سيكولوجي يدور في نفس كل شخصية من شخصيات الرواية ،

(١٠) نهاية الامس ص ٧١

ويحدد موقفها من الماضي الذي لم تندمل جراحه بعد .

والواقع أن « نهاية الأمس » تصور هذا الصراع في واقعية لاتخلو من قسوة ساخرة على سلبية القرويين وانقيادهم لابن الصخرى الذى يسخرهم لاغراضه ويجردهم من ممتلكاته بقسوة يغلفها ستار من النفاق وكان قلبه كما يوحي بذلك اسمه ، قد قد من صخر . أما البشير ، فهو الذى يبشر بغد جديد وهو يضطلع بدور رمزى ، دور المعلم يعيش فى الوقت نفسه أسيرا للماضى ، فهو فى تأمل ذاتى لا ينقطع ، وفى حوار مستمر مع نفسه ، وفى حلم داخلى لاينتهى وكثيرا ما ينسى نفسه وهو يتحدث مع أصحابه الى أن ينبهه رفاقه الى انه قد غاب عنهم بفكره . وعندما ينام البشر يستيقظ لديه اللاشعور الذى يحاول كبح جماحه فى أثناء اليقظة وتمر رقية بنفس الحالة النفسية ، وتحلم بأمور تعبر عن رغباتها الدفينة وذكرياتها التى تحاول كبتها . والواقع أن معاناة رقية والبشير ، وصراع فريدة مع المرض واستشهاد الشيخ حمودة ، أبى البشير ومصرع زوجته وهى تحاول أن توارى جثمانه التراب ؛ بكل ذلك يعطى « لنهاية الأمس » شاعرية مأساوية لاتخلو من رمزية .

٣ - بان الصبح

نحن الآن في عام ١٩٧٦ وقد مضى على استقلال الجزائر أربعة عشر عاما ، وواجهت البلاد شكلة لم تعرف لها مثيلا من قبل وهي الطفرة السكانية ، فقد بلغ عدد الجزائريين أربعة عشر مليونا ، أى ضعف عدد السكان قبل الاستقلال وبدأت الأرض تقصر عن تلبية احتياجات أبنائها ، فبادرت الحكومة بتنفيذ الثورة الخضراء وتطوع شباب الجامعة للاسهام في تحقيق هذا الهدف .

وكان للطفرة السكانية أثرها في تزايد الصراع بين الماضى والحاضر ، فقد نشأجيل جديد يزيد عدده عن نصف السكان ، جيل لم يشهد حرب التحريرأو لم يتأثر بها الا قليلا ، ولهذا فهو أقل اهتماما بقصص المجاهدين وبطولات الحرب ، وهو يولي اهتمامه لمشكلات لم يخبرها آباؤه ، وهي مشكلات يصطدم بها شباب العالم الثالث خاصة في البلدان العربية وفى العالم الاسلامي .

وقد كانت مناقشة مشروع « الميثاق » عام ١٩٧٦ فرصة سانحة لتقييم انجازات الثورة من جهة ، ولدراسة المشكلات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى تواجهها الجزائر وتتلمس حلها . من جهة اخرى ، وانتهز الجيل الجديد هذه الفرصة لمحاولة فرض شخصيته والتخلص من سلطة الأباء ، وطالب بعضهم بنبذ الماضى وبالتحرر من اغلال التقليد وهذا ما نجد صداه فى رواية « بان الصبح » .

ففى الخمسينات تزوجت رقية بطلة « نهاية الأمس » بالبشير بناء على قرار اتخذه والداهما ورحب العروسان بهذه الفكرة ونشأت بينهما

بداية حب عصفت به الحرب ودنسته ، وفى الستينات حاول عابد بن القاضى تزويج مالك بنفيسة ولكن نفيسة رفضت الخضوع لتقاليد الماضى ، لقد كانت نفيسة ، تبحث عن ذاتها وتحاول تكوين شخصية تختلف عن الآخرين ، فهى تقرأ فى قريتها المجلات الفرنسية بينما لا يتحدث القرويون الا بالعربية ، وهى تنبذ الزى القروى الذى يخفى معالم بدنها وتحاول اكتشاف ذلك البدن الذى ترى فيه القرية « عورة » وعندما تتضاعف ضراوة الاجداد على حد تعبير كاتب ياسين تفر نفيسة فتحدث فضيحة تعصف بتقاليد الماضى .

وفى « بان الصبح » نساء يشبهن رقية ويتزوجن مثلها بالطريقة التقليدية ، فى الرواية نفسها مراهقة هى « حالة » التى تحلم مثل نفيسة برجل يختطفها من سجن التقاليد وفتاة قروية تحضر الى الجزائر العاصمة مثل نفيسة لتدرس بالجامعة ، الا انها سرعان ماتعود لقريتها بعد ان تحطمت أحلامها على صخرة التقاليد .

الا ان « بان الصبح » تحتوى على شخصية جديدة وهى « دليلة » الفتاة المتمردة التى ضربت بالتقاليد عرض الحائط وتنكرت للدين وذهبت الى ابعد مما ذهبت اليه نفسه فجعلت من اشباع رغبات الجسد وسيلة لتقويض الماضى . ان دليلة بنت الشيخ علاوة رجل الدين المجاهد تعاقر الخمر وتجمعها علاقة غير شريفة بزميل لها فى الدراسة ، وهوفى الوقت نفسه ابن رجل ثرى يتقرب اليه الشيخ علاوة ، كما كان امام الجامع يتقرب لابن الصخرى فى نهاية الامس « وعندما تحمل دليلة سفاحا تقرر الاحتفاظ بالجنين حتى لاتتهرب من مسؤوليتها وحتى « تفجر » بيت أبيها .

والواقع ان هذا البيت قد أصبح رمزا للجزائر نفسها ، وليس هذا بغريب ، فقد رمز محمد ديب الى الجزائر بمنزل فى رواية المنزل الكبير ، كما صور نجيب محفوظ تطور المجتمع المصرى من خلال تطور اسرة واحدة فى ثلاثيته الشهيرة ولكن عبد الحميد بن هدوقة جعل الصراع يحتد فى هذا المنزل بين افراد اسرة واحدة ، وهو صراع ادى عندما « بان الصبح » الى قتل الاب بالمعنى الذى يعطيه التحليل النفسى لهذا التعبير . ان ابنة الشيخ علاوة تسمى أباها بالجنرال لانه يحكم بيته وكأنه « ثكنة » وهو يجد فى ابنه « عمر » مدير المؤسسة عونا له ، وعمر هذا منافق فاسد يصلى مع ابيه جهارا ويرتكب كافة الموبقات خلسة ، وللشيخ ابن آخر هو مراد الطبيب الذى درس فى فرنسا وهو يضيق ذرعا بابيه ويحلم بالفرار من دار ابيه وباللحاق بصديقته التى تعيش فى فرنسا وللشيخ ولد ثالث هو رضا الذى لا يكتفى مثل دليلة بمقاومة التقاليد على نحو انانى مراهق بل يؤمن بالنضال الاجتماعى والسياسى ، وهو يحاول ايقاظ وعى نعيمة ابنة عمه التى تقيم بدار ابيه حتى تنهى دراستها بالجامعة . ان نعيمة قروية بريئة تنظر الى المدينة بعينين جديدتين ، وعندما تتوق

صلتها برضا ابن عمها اليساري يزداد وعيها السياسي فتحضر اجتماعات الميثاق وتتطوع لخدمة الثورة .

ولدليلة صديقة هي نصيرة التي بلغت مثل رضا نضجا سياسيا كبيرا ، وقد ساعدها على ذلك ابوها العامل الفقير الذي رباها في جو من الديمقراطية والحرية . ان نصيرة تحاول على غرار رضا أن توقظ الوعي السياسي لدى دليلة ، كما تنظم بالتعاون مع رضا جهود العمال الذين يعانون من ظلم وفساد عمر ابن الشيخ حمودة ، وهو نضال يؤدي الى طرد عمر من المؤسسة التي يديرها والى تحقيق مطالب العمال ، وبذلك بان الصبح على الصعيد الاجتماعي بعد ان بدت تباشيره في ريح الجنوب « ونهاية الامس » .

ان الصراع الذي يدور في المؤسسة يناظره صراع آخر بين الشيخ حمودة وزوجته وابنه عمر من جهة ، وبين دليلة ورضا ومراد من جهة اخرى ، وسنرى فيما بعد ان هذا الصراع يؤدي الى فضيحة تقوض بيت « الجنرال » والواقع ان هذا الصراع له قيمته الرمزية ، فالجزائر المستقلة قد اصبحت اليوم فتاة في الثامنة عشرة من عمرها وهذه الفتاة الشابة تتلمس طريقها ، فالقوى المحافظة تجذبها في اتجاه ، والقوى التقدمية تدفعها في اتجاه آخر ، ولكن هذه الفتاة الشابة قد كسرت مثل دليلة قيدها ، لقد بان الصبح ولكن النهار لم يطلع بعد ، فهل قتلت الجزائر اباها حقا ام ان الأجداد سوف يضاعفون ضراوتهم ؟

ان عبد الحميد بن هدوقة يفسوق سخريته من الشيخ علاوة ويرسم له صورة لاتنسى . لقد تعاون الشيخ علاوة مع جبهة التحرير وهو الان يعمل مستشار واستاذا محاضرا بمدينة الجزائر . وعلى غرار امام الجامع في « نهاية الامس » يتقرب الشيخ علاوة الى ذوي المال واصحاب السلطة ، ويكن للاشتراكية كرها شديدا ، ويرى أن من ينادون بها كفرة من اعوان الشيطان ، والشيخ علاوة لايقبل الحوار ، فقد تعود أن يستمع الناس اليه وهو يلقى درسه ومأساة الشيخ علاوة ان الجيل الجديد لايريد الاستماع اليه . لقد وبخ احد الشبان وقال له ألا تعرفني ، فرد عليه الشاب قائلا « ان لم اكن اعرفك فالآن عرفتك ، انت الماضي الذي لا نريده هذا انت (١١) وحاول الشيخ الاشتراك في اجتماع للميثاق مخصص لمشكلة ملكية الاراضي واراد الاستشهاد بعلماء الدين فرد عليه شاب قائلا « دع ذلك للمسجد نحن نتحدث عن الملكية المستغلة وغير المستغلة وانت تتحدث عن الزهد في الدنيا ، الارض لله يرثها من يشاء من عباده . . . هذه الارض التي تتحدث عنها يملكها اشخاص استولوا عليها باوجه غير مشروعة وهم يستغلون الشعب . . فهمت ؟ »

مع من يتحدث الشيخ اذن مادام الفقه وكل

(١١) بان الصبح ، ص ٢٥

ماقرأه لادخل له فى النقاش ، هل يريد الجيل الجديد ان يحكم عليه بالصمت ؟ ان الشيخ علاوة ساخط على مدينة الجزائر الصاخبة وساخط على الجيل الجديد ، ولكنه حافظ بشكل خاص على نفسه لانه يشعر بانه غريب فى مدينته وهو يتحول فى « بان الصبح » إلى ريح جنوب تعصف بأسرة باكملها وشمس مرعبة قوية تحرق كل من يقترب منها ، انه يرمز ال القوة العمياء والتقاليد التى تطمس شخصية الفرد ، انه هو صوت الاجداد ونداء الماضى ، ولكن الجيل الجديد لم تعد تسحره امجاد الماضى بل هو يرى نواحى نقصه اكثر ممايرى مزاياه . وفى هذا يقول رضا عن ابيه وهو يتحدث الى ابنة عمه نعيمة « اتريدين ان تعرفى عمك هذا الذى منه تخافين والذى كنت به من قبل تعتزين ، انه مجموعة من قطع الغيار لا تشابه الواحدة الاخرى ولا هى من مصدرواحد . انه يحيا فى عدد من العصور وفى عدد من البلدان فى نفس اللحظة .

دليلة : صحيح هو يحب الماضى لكن لاافهم لماذا يتشبث بعض الناس بالماضى ؟ رضا : لانهم يخافون المستقبل ، فالرجوع الى الماضى نوع من الطفولة ، لأن المستقبل ، مغامرة وابداع . الرجل العاجز لا يمكنه ان يلتفت الى المستقبل ثم ان أبى لايفكر بعقله وانما بمحفوظاته . . . من الصعب تحليل شخصيته بكلمات .

دليلة : انه رجل يجرى باستمرار للحاق بالقطار ، لكنه فى كل مرة يصل الى القطار يجد القطار قد اقلع .

لقد اعتقد الشيخ علاوة خطأ ان نعيمة حامل ، فقد فتح الشيخ خلسة خطابا أرسله عشيق دليلة اليها ولكنه وجهه الى نعيمة ، حتى لايوقظ شكوك الشيخ وحاول عمر ابن الشيخ ، الا عتداء على نعيمة فلما صرخت مستغيثة بابناء عمها لطمها واتهمها بانها حاولت اغواءه . لقد صدق الشيخ ابنه وارسل الى اخيه خطابا يشكو اليه فيه من مسلك نعيمة « الشائن » ويؤكد له انها حاولت الايقاع بعمر حتى يتزوجها فلا يعلم احد بعارها . ويقرر « صالح » ابو نعيمة قتل ابنته اذا تاكد انها دنست شرفه ويصحبها الى طبيب وهى لاتدرى لذلك سببا ، وعندما يتضح انها عذراء يقبل ابنته على جبينها وقد ترغرغت عيناه بالدمع ، ويخرج الاب رشاشته التى احتفظ بها منذ كان يحارب الفرنسيين ويستنتج من شهادة الطبيب عشر نسخ ويسرع الى دار أخيه .

وكانت اسرة الشيخ علاوة قد اجتمعت فى الصالون وكان عمر يتقد غضبا بعد ان نجح اضراب العمال واصدر الوزير امرا باقالته من منصبه . وعندما دخل صالح الدار ومعه رشاشته ارتعدت فرائص الشيخ وتوقع ان اخاه قد قتل نعيمة وأتى ليجهز عليهم جميعا وقال له متوسلا « صالح ، انا اخوك » .

ووزع صالح نسخة من شهادة الطبيب على كل شخص واقترب من أخيه وقال له :

« لماذا كذبت ، انت وزوجتك على بنت يتيمة كادت تذهب ضحية كذبكم لو لم اعرضها على الطبيب ؟ »

واحضر الشيخ علاوة الرسالة وسلمها لصالح فرماها قائلا « ماذا اقرأ ورقتك ؟ لو كنت رجلا لعملت معها مثل . رأت دليلة الرسالة وفكرت في ان تصارح اهلها بالحقيقة ولكنها عدلت عن الاعتراف بان الرسالة موجهة لها ولم تجد لذلك فائدة خاصة وان نعيمة لن تعود الى مدينة الجزائر ولن تدرس بالجامعة . اما عمر فقد عرف ان كذبته قد انفضحت وتوقع ان يقتله عمه فارتعدت فرائصه . خرج العم وهو ينظر الى اخيه باحتقار وتسلل كل من في الصالون خارجين ولم يبق فيه الا الشيخ وزوجته وابنه عمر . وجهت الزوجة الحديث الى الشيخ علاوة قائلة « فضحتنا انت . . . في آخر عمرك تقرأ رسائل غيرك ؟ من يفعل هذا ؟

وهكذا تنتهي القصة وقد فقد الشيخ هيبته وتداعت أركان داره ، فقد قرر مراد الرحيل واستعدت دليلة لمغادرة الدار للاحتفاظ بجنينها وهاهو عمر يفقد منصبه ويبدو ان الليل الطويل الذى كان يجثم على الدار قد انجلى فبان الصبح بنجاة من موت محقق وبانتصار رضا وتصميرة على عمر .

خاتمة

صور ابن هدوقة الجزائر في ثلاث مراحل من حياتها أولاها بعد الاستقلال مباشرة حينما كانت كافة العناصر تتلمس طريقها بعد ان بدأت البلاد صفحة جديدة من حياتها وحاولت التكيف مع الاوضاع الجديدة ، وكانت الحكومة تتاهب لتطبيق الاصلاحات الاجتماعية وكان التحالف بين العلمانيين ورجال الدين قويا ، فقد لعب الاسلام دورا مجيدا في الحفاظ على الشخصية الجزائرية وفي تشجيع الشعب على مقاومة عدو جبار ، كما اضفى على حرب التحرير طابعا مقدسا ، فقد كان المناضلون « مجاهدين » وكان كل من يخر منهم صريعا يعتبر « شهيدا » .

وبمرور الوقت ، أخذ التقدميون وبعض المسؤولين يضيقون ذرعا ببعض العناصر الدينية ، التي كانت تريد ، في نظرهم ، أن تحيا الجزائر كما كانت تعيش في العصور الغابرة ، وقد اتضح ذلك بشكل خاص في أثناء المناقشات التي دارت حول الميثاق وحول سياسة التعريب وموقف الجزائريين ، الذين تعلموا باللغة الفرنسية أو ينطقون باللغة البربرية ، من تلك السياسة ، وما زالت هذه المشكلة تشغل بال الجزائريين وتدل الاحداث التي شهدتها جامعة الجزائر على ان هذه المشكلة ما زالت قائمة .

وتعتبر روايات ابن هدوقة مرآة صادقة لتطور الجزائر المعاصرة ، ففي « ريح الجنوب » يتعامل مالك بحذر شديد مع الاقطاعي عابد بن القاضي ، ويراقب رجال الدين ولكنه يبدي لهم كل احترام بالرغم من أن آراء بعضهم تثير حنقه .

وفي « نهاية الأمس » يشتد الصراع بين البشير ، المجاهد التقدمي ، وبين الاقطاعيين وحلفائهم من العناصر الرجعية ، وتقف الحكومة بجانب البشير ، بينما يحاربه الأهالي في أول الأمر بتحريض من امام الجامع والاقطاعي ابن الصخري ، وعندما تفشل خطة ابن الصخري يعجب الأهالي بان البشير ويؤيدونه من أعماقهم ، ولكن ابن الصخري يظل محتفظا بنفوذه وهيبته ، خاصة بعد أن تطوع ببناء مسجد جديد . وفي « بان الصبح » يتضاءل دور المجاهد ويضطلع بالنضال شباب الجامعة ويشنون حربهم على آبائهم ويريدون تجريدهم

من نفوذهم ، ويطالبون بنبذ التقاليد وبالاستعاضة عنها بأيديولوجيات معاصرة . وتفرد رواية « بان الصبح » مكانة كبرى لذلك الصراع ، وتصور مناقشات الميثاق بدقة كبيرة وكأنها تحرر محضرا للاجتماعات . ويبرز الكاتب كافة الاتجاهات ، ومع ذلك نحن نشعر بتعاطفه مع الجيل الجديد ومع الطبقات الكادحة . وبالرغم من ان الجزائريين يجدون في روايات ابن هدوقة صدى لمشاغلهم ومشاكلهم ، فإن ابن هدوقة ليس مؤرخا : فالتاريخ يتوخى الدقة الموضوعية ، ويركز اهتمامه على المجتمع لا على الأفراد ، ويعطي الأولوية لدراسة الطبقات والمؤسسات والجماهير ، ويحلل عوامل قوتها ، ويصف تزايد نفوذها أو تلاشيه ، ويستند الى الاحصاءات والوثائق والسجلات ومستندات الملكية الخ .

أما روايات ابن هدوقة فهي ليست سجلا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وإنما هي صورة سوسيولوجية لتطور المجتمع عبر فترة زمنية محددة . وتعتمد تلك الروايات على وسائل أدبية تتركز على الايحاء واستخدام الرموز ، كما يمتزج فيها الخيال بالحقيقة .

ففي رواياته يحدث سوء فهم بين مختلف الشخصيات ، مما يوحي بانعدام الحوار . ان ابا نفيسة ، في ريح الجنوب ، يوقن بان ابنته لا ترفض الزواج بمالك ، فهو لا يتحدث اليها مباشرة ، بل يصدر اليها اوامره عن طريق زوجته . كما تعتقد نفيسة انها ستزف الى مالك قريبا . فهي لا تستطيع مخاطبة ابيها ، او الاتصال بمالك لمعرفة نواياه ازاء مشروع الزواج . وفي « نهاية الامس » يثور القرويون على البشير لانهم لا يصغون اليه . وفي « بان الشيخ » يلتبس الامر على الشيخ علاوة فيعتقد ان نعيمة ، ابنة اخيه ، حامل ، لانعدام الحوار بينه وبين كل من نعيمة ودليلة ، كما يسيء ابو نعيمة معاملتها ويصحبها الى قريته ويسجنها وهي لا تعرف لكل ذلك سببا . تحاول نعيمة التحدث مع ابيها فينهرها ولا يصغي اليها الا بعد ان تتضح براءتها وعندئذ يعدل الأب عن فكرة قتلها ولكنه يحرمها في الوقت نفسه من الدراسة بالجامعة .

كما تنتهي روايات ابن هدوقة بفضيحة ترمز الى تعفن الماضي ، وقد اشرنا الى ذلك عند الحديث عن فرار نفيسة ، بطلة « ريح الجنوب » ، والى افتضاح امر الشيخ علاوة في نهاية « بان الصبح » . كما يرمز انعدام الحب او عدم اكتماله الى سيطرة التقاليد الخانقة والى تفسخ المجتمع وتزعزعه . فنفيسة لا تعرف الحب لانها تعيش سجينة في دارها . ورقية ، بطلة « نهاية الامس » ، تعصف الحرب بحبها . ونعيمة ، في « بان الصبح » ، تحس بميل شديد نحو ابن عمها رضا ، ولكنها تعود الى قريتها قبل ان يتطور ذلك الميل الى حب ، اما دليلة ، فهي لا تعرف الحب لانها تختطف اللذات خطفا ، وفي هذا تقول لصديقتها نصيرة « اشرب الخمر ، واذا شربت احاول بكل الوسائل أن اسكر لاني اعرف انني لا يمكن ان أكون سكري في كل مكان ومتى شئت . . . . . . حياتي كلها اذن مضغوطة في لحظات » .

وبالرغم من ان ابن هدوقة لا يفرض آراءه على الشخصيات التي تحيلها ، بل يتيح لكل شخصية الفرصة لتعبر عن مشاعرها وافكارها ، الا ان القاريء يحس ان ابن هدوقة يتعاطف مع بعض الشخصيات . فقد جعل من العجوز رحمة ، في « ريح الجنوب » ، رمزا رائعا للمرأة العاملة والفنانة الشعبية ، كما ان تعاطفه مع رقية ، بطلة « نهاية الامس » ، اعطى لتلك الشخصية أهمية كبرى ، اذ اصبحت رمزا للجزائر ، فرقية هي الام / الارض ، والماضي بجوانبه المشرقة والمظلمة . ولعل مالكا ، والبشير ورضا يشتركون مع ابن هدوقة في بعض صفاته وتجاربه ومشاعره ، ولعل كل شخصية تمثل مرحلة من مراحل حياة الكاتب .

والواقع ان الشخصيات في روايات ابن هدوقة تنبض بالحياة على نحو يشعر القاريء : شخصيات ولدت في الجزائر وترعرعت تحت شمسها . فنحن نرى في هذه الروايات « جوا » و « مناخا » لا نجدهما في كتب التاريخ . نحن نعيش معها في صراعها مع القوى المعارضة لها ، ونتابع عبرها تطور المجتمع الجزائري بما فيه من الجماعات متباينة ، ونشاهد الجزائر وهي في مفترق الطرق بين الامس والغد ، والماضي والمستقبل .

ولكن روايات ابن هدوقة لا تصور الجزائر فحسب ، بل يجد القاريء فيها صورة تنطبق الى حد كبير على العالم العربي والاسلامي . فكثير من المشكلات التي يواجهها الريف الجزائري يعاني منها القرويون في البلدان العربية . ومن عاش في القاهرة وجد انها تعاني ، مثل الجزائر العاصمة ، من اكتظاظ السكان . وما زالت المرأة العربية تناضل لفرض شخصيتها على غرار نفيسة ونعيمة ودليلة . وما زال العالم العربي والعالم الاسلامي يتلمسان طريقهما بين الاصالة والتكيف مع مقتضيات العصر . وكثيرا ما اصطدمت الحكومات ببعض العناصر الدينية عندما حاولت ادخال بعض الاصلاحات الاجتماعية او تغيير النظام الاقتصادي . ولهذا فان روايات ابن هدوقة ليست جزائرية صرفة ، فهي تجمع بين الخصوصية والعالمية ، مما يفسر نجاح ترجماتها الفرنسية والانجليزية والاسبانية ، ولعل البلاد العربية في الشرق الاوسط : تكتشف بدورها هذا الكاتب العملاق .

•••

صدر حديثا

السلوك والتطور

تأليف: جان بياجيه

عرض وتقديم: سليمان الخضري

أستاذ مساعد بجامعة قطر

يعد جان بياجيه من أبرز وأشهر علماء النفس في القرن العشرين . فهو أحد علماء النفس القلائل ، الذين كرسوا جهودهم لدراسة النمو العقلي لدى الاطفال ، ما يربو على نصف قرن من الزمان . لقد أجرى العديد من البحوث وألف الكثير من الكتب ونشر العديدمن المقالات عن نمو الذكاء عند الأطفال (مايزيد على ٣٠ كتابا ومئات المقالات) . وفي السنوات الأخيرة ، كان لدراساته ونظرياته عن النمو العقلي تأثيرها المباشر في الممارسات التربوية المختلفة ، بدرجة لم تبلغها نظرية أخرى في علم نفس النمو من قبل . وقد كتب عن بياجيه ودراساته العديد من المؤلفات ، التي اختصت بتحليل نظرياته وآرائه وتوضيح تطبيقاتها التربوية .

ولد جان بياجيه في سويسرا عام ١٨٩٦ ، وبدأ حياته العلمية في ميدان العلوم البيولوجية ، ثم تحول اهتمامه الى دراسة الظاهرات النفسية ، وبخاصة النمو العقلي . وقد اشتهر بياجيه كعالم نفسي يهتم بدراسة نمو الاطفال أساسا ، ولكنه كان الى جانب ذلك عالم رياضيات وفيلسوفا وعالما بيولوجيا أيضا . وقد كان لهذه الخلفية العلمية العريضة انعكاساتها وآثارها على نظرياته النفسية . فقد نقل معه الى ميدان علم النفس كثيرا من المفاهيم البيولوجية ، كما كان لنظرية المعرفة والمنطق الحديث دور هام في تشكيل نظرياته عن النشاط النفسي للانسان . وقد توفي بياجيه عام ١٩٨٠ ، تاركا ذخيرة لاتنضب من البحوث والنظريات والمؤلفات ، وبصمات واضحة على مسار الفكر السيكلوجي لسنوات طويلة قادمة .

ولقد تمكن بياجيه ـ بحكم تكوينه العلمي

والفلسفي من أن يعالج كثيرا من القضايا النظرية العويصة في علم النفس ، وكان له رأيه وموقفه الواضح فيها . والكتاب الذي نعرض له اليوم « السلوك والتطور » يعد من أحدث كتب بياجيه ، ويعالج قضية من هذا النوع الفلسفي . وقد ظهرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٧٦ ، ونشرت ترجمتها الانجليزية عام ١٩٧٨ ، وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها في هذا العرض .

يقع الكتاب في ١٥٩ صفحة ، بخلاف المقدمة ، ويضم تسعة فصول . ويعالج بياجيه في هذا المؤلف مشكلة من أصعب المشكلات النفسية والفلسفية معا . فمن المعروف ، كما أشار بياجيه في مقدمة الكتاب ، أن معظم الباحثين يتفقون على وجود علاقة ما بين السلوك وبين تطور الكائنات الحية بصفة عامة . أما ما طبيعة هذه العلاقة ؟ فتلك نقطة الاختلاف والمشكلة الرئيسية التي تتفاوت فيها الآراء وتتناقض النظريات ، فبعض الباحثين يرى أن السلوك سبب من أسباب تطور الحياة ، بينما يرى البعض الآخر أن العكس هو الصحيح ، بمعنى أن تطور الكائنات الحية هو الذي يؤدي الى ظهور الاشكال السلوكية المختلفة .

والواقع أن كل التفسيرات التي وضعت لتحديد دور السلوك في ميكانيزمات التطور تميل لأن تتخذ أحد اتجاهين متطرفين . وتمثل أفكار لامارك **Lamarck** ومن تبعه أحد هذين الاتجاهين . فهم يعتبرون أن التغيرات التي تحدثها البيئة في سلوك الكائنات الحية هي المصدر الاساسي لما يحدث لتلك الكائنات من تطور في أشكال أعضائها . وفي الطرف المقابل يوجد الداروينيون التقليديون . فهؤلاء لا يطرحون مشكلة دور السلوك في التطور على بساط البحث بشكل صريح ، وانما يجيبون عليها بصورة ضمنية . انهم يعتقدون أن أي سمة وراثية (بما فيها أي تغير في السلوك الوراثي) ، انما هي نتائج للتغيرات التي ترجع للصدفة ، ولا تظهر قدرتها على تحقيق التكيف للكائن الحي ، الا بعد أن تحدث عملية الانتخاب الطبيعي ، أما العادات السلوكية المكتسبة فليس لها أي دور على الاطلاق في عملية التطور .

وقد وضع بياجيه أمامه هدفا أساسيا لكتابه هذا ، الا وهو مناقشة وتحليل التصورات المختلفة التي وضعها الباحثون عن العلاقة بين السلوك ومحاولة تقديم تصوره الخاص عن الدور الذي يلعبه السلوك في عملية تطور الكائنات الحية .

●●●

يبدأ بياجيه بعرض نظرية لامارك عن العلاقة بين السلوك والتطور ، موضحا نواحي القوة وجوانب القصور فيها . فلامارك - من وجهة نظر بياجيه - صاحب أفكار مهمة عن دور السلوك في تطور الكائنات الحية . وترجع أهمية هذه الافكار الى سببين رئيسين : أولهما أن لامارك هو بلا شك المؤلف الذي أقر صراحة ودون أي غموض بأهمية السلوك ودوره الرئيسي في تكوين أعضاء معينة لدى الكائنات الحية . وثانيهما ، أنه افترض وجود تنظيم كل داخل في الكائنات الحية ، تعمل في اطاره جميع الأساليب السلوكية .

يعطي لامارك للسلوك أصلا بيئيا ، بمعنى أن السلوك يتحدد بالدرجة الاولى بالظروف البيئية الخاصة التي يعيش فيها الكائن الحي والفكرة الرئيسية التي يطرحها : هي ليست أعضاء الحيوان - أي طبيعة أجزاء جسمه وشكلها - هي

التى أدت الى نشأة عاداته وتحديد إمكاناته السلوكية وقدراته الخاصة ، وانما العكس هو الصحيح بمعنى ، أن عادات الكائن الحى وطريقة حياته ، والظروف التى عاش فيها أسلافه ، هى التى أدت مع مرور الوقت الى تحديد شكل جسمه ، وعدد أعضائه وخصائصها ، ومن ثم الامكانات السلوكية والقدرات التى وهبها .

كذلك يفترض لامارك أن العادات المكتسبة ، على الرغم من أنها تؤدى الى حدوث تغيرات فى بنية الكائن الحى ، فانها مع ذلك تعمل فى اطار تنظيم كلى لا هو نتيجة للسلوك ولا هو من انتاج البيئة : هذا التنظيم الداخلى ، هو البنية الداخلية للكائن الحى . وعلى ذلك ، يقدم لامارك نوعين متمايزين من أسباب التطور : التنظيم الداخلى ، الفطرى أو الطبيعى ، للكائن الحى ، والعوامل البيئية الخارجية التى يتعرض لتأثيرها .

يشير بياجيه الى أن هذه الثنائية الواضحة فى تصور لامارك عن العوامل المحددة للتطور أو الموجهة لمساره ، تحتاج الى حل توليفى يجمع دونها دونما تناقض . ويرى أن لامارك قد عجز عن تحقيق هذا الحل .

يرفض بياجيه فكرة لامارك الرئيسية ، والتى يفترض فيها أن السلوك وحده هو المسئول عن تكوين أعضاء الكائنات الحية بمعزل عن تأثير التنظيم الداخلى لها . ان لامارك - يشير بياجيه - قد تجاهل غرضية السلوك الحيوى . فالسلوك الحيوى سلوك موجه نحو هدف ، أى نحو اشباع حاجة (أو حاجات) داخلية تنبع من الكائن الحى . والعادات الجديدة التى يكتسبها الكائن الحى ، والتى تمثل عملية ملاءمة Accomodation للمواقف الخارجية ، لاتنشأ من فراغ وانما هى تبنى على سلوك موجود أصلا . وعملية الملاءمة التى تحدث ، سواء كان ذلك على مستوى الحيوانات الدنيا أو على مستوى الأطفال الراشدين ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية أخرى ، تعرف بعملية التمثيل Assimilation . ويقصد بياجيه بعملية التمثيل هذه ، تناول عناصر معينة من البيئة الخارجية ، وتكاملها داخل بنية سلوكية موجودة من قبل . ويعنى هذا بعبارة أخرى ، أن هناك عوامل داخلية (أو عمليات فطرية) تدخل فى تشكيل جميع مظاهر السلوك .

كذلك يرفض بياجيه فكرة لامارك عن أن العادات التى يكتسبها الحيوان تفرض بواسطة التغيرات البيئية ، وليس للحيوان دور ليس فيها . فهناك حيوانات كثيرة تغلبت على بيئتها الجديدة عن طريق نشاطها الايجابى . صحيح أن هذا النشاط لعب دورا رئيسيا فى عمليات الملاءمة لتلك الظروف الجديدة ، ولكن هذه الملاءمة مشروطة أيضا بقدرات الحيوانات وامكاناتها السلوكية ، التى يتيحها لها تنظيمها الداخلى أو بنيتها الوراثية . ان أى نظام للفعل (للنشاط) أو المعرفة ، يفترض وجود تنظيم داخلى لانماط سلوكية تؤدى وظيفتها من خلال التفاعل مع البيئة الخارجية .

ان الصعوبة الواضحة فى تفسير لامارك للتطور تنبع من أنه يجعل البيئة المحدد الوحيد للسلوك ، ولا يعطى أى دور للعوامل الفطرية التى يحددها التكوين الداخلى للكائن الحى . وبدلا من ذلك لو عالجنا السلوك باعتباره امتدادا للتنظيم الداخلى وان كان متخصصا فى مجال التفاعلات الوظيفية بين الكائن الحى والبيئة ، لأصبح ممكنا التوفيق بين هاتين المجموعتين من

العوامل . العوامل الداخلية ، وعوامل البيئة الخارجية . كذلك لم يثر لامارك مشكلة على كبير من الاهمية ، وهى مشكلة التميز فى السلوك بين النشاطات المكتسبة وبين الاشكال الغريزية الموروثة . والعلاقة بين هذين النوعين من السلوك تثير أصعب مشكلة علينا أن نتصدى لها عندما نعالج دور السلوك فى عملية التطور ذاتها .

●●●

لقد كان هناك اسهامان رئيسيان لعبا دورا فى النظرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر : الاول هو تفسير دارون Darwin للتطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، والثانى رفض ويزمان Wei ssmann لافتراض انتقال الصفات المكتسبة بواسطة الوراثة . والواقع أن دارون لم ينكر أهمية العوامل البيئية فى السلوك وانما الفرق الرئيسى بين دارون ولا مارك ، أن دارون لايعطى أى دور لاشكال السلوك الفردية فى عملية التطور وهذا هو ما وجد عالم النفس بولدوين J . M . Baldwin نقطة ضعف فى نظرية دارون ، وأدى به الى نشر مقالة مشهورة عام ١٨٩٦ ، يحاول فيها تطوير نظرية دارون بادخال مفهوم « الانتخاب الوظيفى Function al selection » أو بعبارة أدق مفهوم الانتخاب العضوى Organic .

يبدأ بولدوين من فكرة الانتخاب الطبيعى بالمعنى الداروني . فعمليات التكيف الاولى تتم على أساس الخصائص الفطرية للنوع . ولكن بولدوين يضيف الى ذلك ، أن الكائن الحى يكتسب خصائص جديدة عن طريق مايسميه بالانتخاب الوظيفى الذى يتطلب نشاطا ايجابيا من جانب الكائن الحى ذاته . وفضلا عن ذلك ، يستطيع الكائن الحى أن يحدث تغيرات فى سماته أو خصائصه الولادية عن طريق « ملاءمتها » للشروط البيئة الخارجية . وقد حاول بولدوين أن يوضح امكانية التثبيت والانتقال الوراثى لهذه التغيرات . ومع ذلك لم يحاول أن يتعرض بشكل مباشر لمشكلة البيئة التى تميزت بها أفكار لامارك ، ولهذا طرح فكرة الانتخاب العضوى ، التى لازالت تعرف باسم « أثر بولدوين Baldwin Effect » لم ينظر بولدوين للانتخاب العضوى على أنه استبدال الخصائص المكتسبة بخصائص النوع الفطرية ، وانما نظر اليه على أنه تثبيت تدريجى للخصائص المكتسبة .

وينتقد بياجيه فكرة الانتخاب العضوى ، موضحا أنه لايمكن أن يؤدى الى النتائج التى أشار اليها بولدوين ، الا اذا نظرنا اليه أولا باعتباره مرتبطا بالبيئة الداخلية (بنية الكائن الحى) ، والا اذا افترضنا أن هذه البيئة الداخلية تتغير بواسطة الانتخاب العضوى قبل أن يحدث الانتخاب فعلا . والواقع أن الاشكال السلوكية الجديدة التى تنشأ نتيجة للتغيرات البيئية - يشير بياجيه - سوف تؤدى الى تغير البيئة الداخلية بدرجات متفاوته . ففى بعض الحالات تكون التغيرات سطحية بحيث لايستتبعها انتقال وراثى . وفى حالات أخرى ، أن يؤدى التكيف لبيئة جديدة الى عدم اتزان كبير قادر على تغيير البيئة الداخلية للكائن الحى وفى مثل هذه الحالات ، ليست العملية مجرد تثبيت لانماط سلوكية جديدة ، وانما هى استبدال أنماط جديدة بأخرى قديمة .

وعلى الرغم من ذلك ، يشير بياجيه الى أن الانتخاب العضوى له دور رئيسى فى التطور

بصرف النظر عن الدور الذى يلعبه فى ميكانيزمات التطور ، وبصرف النظر عن استنتاجات بولدوين المتسرعة نسبيا .

●●●

ثم ينتقل بيلجيه الى مناقشة وجهة نظر العلماء ، الذين تخصصوا فى دراسة عادات الشعوب Ethologists عن العلاقة بين السلوك والتطور ويشير الى أن كثيرا من هؤلاء العلماء يعطون للسلوك دورا تطوريا على مستوى الانتخاب فقط وليس على مستوى التكوين الفعلى للتغيرات الوراثية على الرغم مما تعرفه من صلة وثيقة بين الاعضاء المتخصصة وأدائها السلوكى الوظيفى . ويتمثل موقف هؤلاء العلماء فى مقالة « لبتندارى ' C . S . Pittendrigh ' يذكر فيها بوضوح أن عملية التكيف ليست عملية عشوائية ، وانما ترجع لقدرة الكائن الحى على أن يجمع ويحتفظ بالمعلومات المنتقلة اليه بالوراثة ، وكذلك بتلك التى يكتسبها ، كذلك يتصف التنظيم الذى يشكله الكائن الحى « باللاعشوائية » كنقيض لعدم النظام أو الصدفة . والمشكلة الرئيسية فى نظر بتندراى تتمثل فى مصدر المعلومات التى تكون هذا التنظيم ويسود القارىء انطباع بأن بتندراى يبنى أفكاره على تصور مماثل « للتدرج الهرمى » لويس ' Weiss ' بخاصيته الرئيسيتين : أن الكل ذو ثبات أكبر من الاجزاء ، وأن التغيرات الجزئية محكومة بنظم كلية أكبر . ثم يتقدم بتندراى خطوة أخرى ليقرر ، أن الطبيعة « اللاعشوائية » للتنظيم وللتكيف ، يمكن أن ترجع الى خاصية وراثية ، تعمل على تجميع التغيرات الصغيرة التى تحدث بواسطة الانتخاب والتى ترجع فى وجودها الى الصدفة . ويرى

بياجيه أن تناقض هذا التفسير واضح تماما : فالكل المنظم الذى يشكله الكائن الحى والذى يتصف باللاعشوائية ، هو مع ذلك نتاج لتغيرات جزئية مختارة ، يرجع أصلها الى الصدفة والعشوائية كلية .

يشير بياجيه فى نقده لهذا الاتجاه الى أننا يجب أن نفرق بين نوعين متمايزين من التغيرات : التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية أو النوعية . فالتغيرات الكمية تتمثل فى صورة بسيطة فى تقوية أو اضعاف خاصية معينة مثل التغيرات التى تحدث فى سرعة التعلم بين أجيال من الفئران . مثل هذه التغيرات أسهل من غيرها فى تفسيرها على أساس الصدفة والانتخاب بعد الحدوث . ولكن المشكلة تصبح صعبة ومعقدة حينما ننتقل الى التغيرات الكيفية . فدور الانتخاب فى هذه الحالة غير واضح ويصعب علينا تبينه .

ان المحاولات المستمرة لتنقيح التفسير بالانتخاب الداروينى أدت مع ذلك الى تمييز مفيد أكده (ماير ' Mayr ') مرارا بين انتخاب السلوك المثالى وهو عنصر توحيد والانتخاب الذى يساعد على التنوع وهو عنصر مرونة . وهذا يعيدنا مرة أخرى الى المشكلة الرئيسية عن أصل الاشكال الجديدة من السلوك . لقد وضع ماير هذه المشكلة فى أوضح عبارات ممكنة عندما أشار الى أن هناك احتمالين لاثالث لهما : الاول أن السلوك الجديد له أساسه الوراثى من البداية ، والثانى أن السلوك الجديد ينتج من تعديل غير وراثى لسلوك موجود من قبل (بواسطة التعلم والارتباط الشرطى . . . الخ) ثم يحل هذا السلوك الجديد محل سلوك وراثى .

●●●

أما عن الاتجاه السيرناطيقي Cybernetic في تفسير العلاقة بين السلوك والتطور فيمثله وادنجتون Waddington يشير بياجيه الى أن دور السلوك في التطور قد أعيد تفسيره بطريقة أكثر شمولا حينما أدركنا أن العملية البيولوجية ليست ذرية أو خطية في شكلها على الاطلاق ، وانما تتضمن باستمرار عمل نظم للتغذية المرتدة Feed back كما حددها أصحاب الاتجاه السيرناطيقي .

لقد طرح واد نجتون قضيتين رئيسيتين ، الاولى أن الكائنات الحية ، تختار بيئتها ، وأن عملية الاختيار تتضمن تفاعلا بين الكائنات والبيئة .فمن ناحية يوجه نشاط الكائن الحي نحو تذكر ظروف خارجية معينة مناسبة له ، لانها تغذي أنماط سلوكه المختلفة (التغذية بالمعنى الفسيولوجي أولا ، ثم بمعاني أخرى) كذلك يستبعد الكائن الحي أو يرفض الظروف البيئة المناسبة له . ومن ناحية أخرى تباشر البيئة تأثيرا مساعدا على احداث تغيرات في الكائن الحي تتلاءم مع الظروف البيئية المختارة ، وتأثيرا غير مشجع للتغيرات التي لاتستطيع أن تتلاءم مع تلك الظروف . باختصار ، تتضمن عملية التفاعل مع البيئة دورة من التحولات والتغيرات ، فيها تعدل الكائنات الحية من بيئتها ، وتحدث البيئة بدورها تغيرات في الكائنات الحية . ومعنى ذلك أن وادنجتون يؤكد أهمية السلوك باعتباره أحد العوامل التي تحدد مقدار ونمط التطور الذي يخضع له الحيوان ، وهو في نفس الوقت نتاج تطوري ، طلما أن سلوك الحيوان هو الذي يحدد طبيعة البيئة التي سيخضع لها نفسه الى حد كبير . . . » .

أما القضية الثانية ، فهي أن عملية الانتاج لاتنطبق مباشرة على الجينات ، ولكنها تعمل أولا على مستوى السمات المكتسبة ، ثم يحدث ما يسمى بالتمثيل الوراثي Geneticassimilation وهو العملية التي عن طريقها يمكن الاحتفاظ بصفة مكتسبة نشأت استجابة لمثير بيئي معين ، حتى في غيبة تلك الشروط الخارجية التي تعتبر شروطا مسبقة لتكوينها . وهذه الفكرة شبيهة بوجهة نظر بولدوين التي تعرضنا لها في الفقرات السابقة .

ويشير بياجيه الى أن هذا المنحى جذاب ، والى أنه قد تبناه لفترة من الوقت . ومع ذلك فهو يثير بعض المشكلات . منها غموض فكرة التمثيل الوراثي ، وكيف يحدث تثبيت الصفات المكتسبة في بنية الجينات لدى الكائن الحي . ومع ذلك يتفق بياجيه مع وادنجتون في فكرة تكوين تراكيب جديدة من الجينات ناتجة عن آثار التغيرات البيئية . كذلك يتفق معه في ارجاع عملية الانتخاب الى البيئة الداخلية ، كما تعدل بالتغييرات السلوكية التي تفرضها ظروف البيئة الخارجية .

ويستطرد بياجيه في مناقشة أفكار باحثين آخرين مثل بول ويس Paul A . Weiss موضحا نواحي القوة والضعف فيها . ثم ينتقل بعد ذلك لمناقشة عدد من القضايا التي تعبر عن وجهة نظره في العلاقة بين السلوك والتطور وسوف تفرد القسم الباقي من هذه المقالة لعرض وجهة نظره والشواهد التي يقدمها لتدعيمها .

●●●

يحدد بياجيه بأنه يشمل جميع الافعال الموجهة من الكائن الحي الى نحو البيئة الخارجية لكي يغير بواسطة تلك الافعال الظروف الموجودة حوله ، أو يغير موقفه هو في علاقته بالبيئة

المحيطة . والسلوك في أدنى مستوياته لايزيد عن مجرد كونه أفعالا حسية حركية (ترابطات من المدركات والحركات) ، وفي أعلى مستوياته يتضمن العمليات العقلية العليا ، كما يحدث في النشاط العقلي للانسان . فالسلوك بهذا المعنى ، هو فعل هادف يسعى الى الاستفادة من البيئة أو تغييرها ، ، والى المحافظة على قدرة الكائن الحي على التأثير في تلك البيئة ، والزيادة المستمرة لهذه القدرة .

ومعنى هذا أن الحركات أو الاستجابات الداخلية للكائن الحي ، مثل انقباض العضلات أو حركة الدم ، لاتدخل في مفهوم السلوك ، على الرغم من أنها شروط ضرورية لحدوث السلوك . كذلك التنفس لايعتبر سلوكا ، لأنه غير موجه لكي يؤثر في البيئة . أما الافعال المنعكسة للحيوانات فيمكن أن توصف بأنها سلوك ، لأنها تهدف الى تغيير العلاقة بين الكائن الحي والبيئة .

ويستبعد بياجيه من مفهوم السلوك كذلك ما يحدث في النبات ، مثل استجابة الزهرة للضوء ، على الرغم من أنها موجهة نحو تغيير وضع النبات بالنسبة للبيئة . ويقدم لذلك أسبابا ثلاثة : أولها أن النباتات لاتستطيع الحركة ، بمعنى الانتقال في المكان . وعلى الرغم من وجود الحركة في بعض الحالات ، الا أنها حركة سلبية وليست تحركا ايجابيا . فهي مجرد حركة جزئية أو موضعية لأجزاء معينة من النبات ، وليست انتقالا كليا للجسم يؤدي الى تغيير وضعه في المكان . وثانيها ، عدم وجود جهاز عصبي لدى النبات ، ومن العسير القول بأنه السبب في انعدام الحركة أو أنه نتيجة لها . ومن المعروف أن الجهاز العصبي هو التحقيق الملموس للروابط المطلوبة للسلوك . وثالث الاسباب . أن النباتات لاتباشر تأثيرها على البيئة بنقل الاشياء وغير ذلك وانما هي بالاحرى تؤثر في ذاتها محاولة تقوية الروابط الحيوية بينها وبين البيئة .

ومن هذا المفهوم لمعنى السلوك ، يوضح بياجيه أن هدف السلوك ليس مجرد المحافظة على البقاء ، وانما هو بالاحرى يعمل على زيادة قدرة الفرد أو النوع ، بتوفير وسائل وأساليب أعظم ، تساعد على توسيع البيئة التي يمكن التمرد عليها ، وتلك التي يمكن معرفتها .

يوضح بياجيه أن هناك أمثلة كثيرة لأساليب سلوكية ، توحي بساطتها بأنها من ابتكار الحيوان الفرد أثناء تفاعله مع البيئة الخارجية ، ولكنها يتم تثبيتها وانتقالها وراثيا . كما أن هناك حالات أخرى تصبح فيها الاساليب السلوكية المكتسبة ثابتة ومستمرة ، ولكنها لاتصبح وراثية ، وانما لابد أن تتعلم من جديد في كل جيل ، مثل اللغة البشرية . ولما كان السلوك المعقد يتكون من أفعال موجهة نحو البيئة ، فان التعديلات التي تحدث فيه تنتج من الآثار المتجمعة للبيئة ونشاط الكائن الحي معا . ولكن هذه التعديلات تختلف في مستواها من حالة لأخرى . فقد تقف عند مستوى وظائف الاعضاء ، دون أن تحدث صراعا مع البروجرام الوراثي للنوع . وفي هذه الحالة لايحدث تغير في البيئة الوراثية الداخلية للكائن الحي ، ويظل السلوك الجديد يتعلم مع كل جيل . وقد تعمل التغيرات على مستوى أعمق مما يؤدي الى حدوث عدم اتزان بين التغيرات وبين البرمجة الوراثية . وفي هذه الحالات يحدث تغيير في البيئة الوراثية .

ويفسر بياجيه ذلك الذي يحدث في البنية الوراثية ، بأن حالة عدم الاتزان تحس على مستوى المورثات . ولكن الرسالة المنقولة في هذه الحالة ليست مجرد إخطار بما يحدث ، أو

حتى بما يجب أن يحدث ، وانما الرسالة الوحيدة هنا هي « أن شيئا ما لايؤدي وظيفته بطريقة سوية » . وتستجيب البنية الداخلية بتجريب تنويعات مختلفة ، تصف عشوائية في الغالب ، نتيجة لقلة المعلومات عندها ، وهنا يأتي دور الانتخاب بواسطة البيئة الداخلية ، التي تم تعديلها نسبيا بواسطة شكل جديد من أشكال السلوك ، وهو الذي بدأ العملية كلها ، وبالتالي يتأثر بالضرورة بالبيئة الخارجية التي وجد فيها . فما يحدث اذن ، ليس تأثيرا مباشرا من النوع الذي افترضه لامارك ، وانما عملية ابدال تتضمن اعادة تكوين داخلي .

ينتقل بياجيه ليناقش مشكلات الغرائز في علاقتها بمشكلات التطور ، ويشير بياجيه منذ البداية الى أنه من العسير أن نحدد دور العوامل الفطرية ودور التغيرات المكتسبة في السلوك الغريزي ، ولذلك فهو يصف بالغريزي كل نشاط خاص ومميز للنوع ، دون افتراضات مسبقة عن علاقة هذا النشاط بما هو فطري وما هو مكتسب .

يشير بياجيه الى أن مشكلة أصل الغرائز لازالت دون حل حاسم منذ قرون عديدة . فعلى الرغم من أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالتنظيم الفسيولوجي للكائنات الحية ، فان محاولة تفسيرها في لغة علم البيولوجي الحديث تؤدي الى صياغات عديدة ومتناقضة .

يميز بياجيه سبع عمليات رئيسية ، تعد بمثابة الميكانيزمات لكل سلوك ، بما فيه السلوك الغريزي . أولى هذه العمليات وأبسطها هي انتقال السلوك من التتابع المنتظم أ - ب - ج ، الى تتبؤ موجه نحو الهدف ، حيث يعني الوصول الى ج ، العمل على تنفيذ أ ، ب . ويضرب بياجيه مثالا لذلك بالنوم ، حيث يكون له وظيفة التنشيط أو الانتعاش من حالة الخمول التي تؤدي اليه في البداية ، ثم يصبح بعد ذلك احتياطا تنبؤيا ضد التعب الزائد . والعملية الثانية تنشأ من الأولى ، ويسميها بياجيه بالتعميم ، وفيها يستخدم شكلا معينا من السلوك لتحقيق أغراض جديدة في مواقف جديدة . والنوم أيضا يصلح كمثال هنا ، حيث يصبح جزءا من غريزة البيات الشتوي ، ويحمي الحيوان من قلة التغذية وهو هدف جديد . وحينما يستدعي نمط ما من السلوك تآزرا وتنسيقا بين عدة عناصر تحدث العملية الثالثة ، التي تجمع وتربط بين هذه العناصر بالطرق المختلفة الممكنة . ويعتقد بياجيه ان هذه العملية هي التي تفسر لنا الظاهرة المعروفة ، وهي ظاهرة الاختلافات السلوكية المعقدة الموجودة بين انواع من الكائنات الحياة القريبة جدا من بعضها ومع ذلك لا يمكن تفسيرها لا على اساس الانتخاب الطبيعي ولا على اساس متطالب البيئة ، هذه العملية « المجمعة » الخارجية ، تسمح لتثير عملية رابعة داخلية اكثر تعقيدا وتتضمن حدوث تمايزات وتكاملات بين نظم جزئية . ومن الواضح في هذه العمليات الاربع ان لتعزيز السلوك أو تصحيحه دور فيها . اما العملية الخامسة ، فهي عملية تعويضية ، فهي تلغي او تعوض اضطرابا او عدم اتزان داخلي في البيئة الوراثية . اما العمليتان السادسة والسابعة ، فيقر بياجيه بانهما لازالتا على درجة عالية من الغموض على الرغم من الثقة التامة في وجودهما الفعلي ، ويستخدم بياجيه مصطلح التعزيز المكمل للدلالة على العملية السادسة وهي التي تؤدي الى تكوينات متطورة ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك مثل الارجل . اما العملية السابعة فيشير اليها بمصطلح « التناسقات البنائية » (Constructive co-ordinations) وهي تؤدي الى تطورات تتطلب

معلومات مفصلة عن البيئة ، كما في حالة انتاج اعضاء للوخز واعضاء ذات مادة سامة على سبيل المثال . ومما يؤكد وجود هذه العمليات ودورها في اعادة تكوين البنية الوراثية - من وجهة نظر بياجيه - طبيعة الجهاز العصبي ذاته . فمن المعروف ان الارتباطات العصبية تشبه الشبكة ، اي تشكل نظاما مترابطا له ميكانيزماته التعويضية الداخلية . واذا كان اهم جهاز وراثي منظما بهذه الطريقة ، فليس هناك ما يدعو الى رفض فكرة ان الجينات المسئولة عن اعادة التكوين الوراثي للسلوك ترتبط فيما بينها وفقا للامكانيات المتاحة ، ومن ثم فهي تنتج شيئا مختلفا تماما عن طفرات الصدفة . فالمنتج الجديد تأليف منظم وليس عشوائيا .

وفي نهاية تأملات السيكلوجية عن الغرائز ، يؤكد بياجيه ان العمليات السبع السابقة يجب ان تعالج على اساس انها تعتمد على الديناميات العامة للتنظيم ، بمعنى انها تحدث داخل نظام معين هو الجهاز العصبي الذي يكامل بينها .

يختتم بياجيه مؤلفه موضحا ان الكائن الحي نظام مفتوح ، والسلوك شرط ضروري لكي يؤدي هذا النظام وظائفه . ويحاول السلوك ان يرتقي بنفسه دائما ، ومن ثم فهو يمد التطور بمحركه الاساسي .

ويفسر بياجيه هذا الدور الهام للسلوك على اساس العمليتين الرئيسيتين اللتين تمثلان محور تفسيره للنمو والعمليات النفسية بصفة عامة ، الا وهما عمليتا التمثيل **Assimilation** والملائمة **Accomodation** فالتمثيل يشير الى استيعاب الاشياء او الموضوعات وتكاملها في مخطط الافعال التي يقوم بها الكائن الحي (استيعاب جميع ما يتوسط بين الافعال والتمثيل الفسيولوجي ، على سبيل المثال ، بين البحث عن الطعام وهضمه) . وعلى ذلك فهناك انماط متعددة من التمثيل ، بقدر ما يوجد من انماط السلوك (بما فيها ادراك الاخطار شأنها شأن ادراك الاشياء المفيدة) . واذا كان التمثيل الفسيولوجي يستمر في الحدوث بالتكرار البسيط فان التمثيل السلوكي ينتج ذاكرة تزيد عدد العلاقات بين الكائن الحي والبيئة ، ومن ثم تسهم في توسيع ذاتها .

اما الملائمة فيقصد بها بياجيه التغيرات التي تحدث في الكائن الحي لكي يتوافق مع بيئته ويتأثر التنظيم الفسيولوجي بعملية الملائمة تأثرا سلبيا فقط حيث ان ما يحدث هو مجرد استبدال لجوانب معينة من دورة التمثيل ، ودائما في الحدود الدنيا . وعلى العكس من ذلك فان الملاءمة في مخطط الفعل السلوكي مصدر لتغيرات لا تلغى الاشكال السلوكية الموجودة ولكنها تحدث فيها تمايزا عن طريق ايجاد نظم جزئية **Sub- systems** .

ومعنى هذا ان الميكانيزمات الوظيفية الرئيسية المشتركة بين الفسيولوجيا والسلوك تميل الى المحافظة على الوضع الراهن في مجال الفسيولوجيا ولكنها تعمل على التوسع في مجال السلوك ، فعمليتا التمثيل والملاءمة تعملان معا على ما يبدو انه يمثل هدفا مزدوجا للسلوك في جميع مستوياته وهو ان يوسع بيئة الكائن الحي من ناحية وان يزيد من قدرات الكائن من ناحية اخرى .

يشير بياجيه الى ان البحوث والدراسات التي اجريت على الجهاز العصبي ومرونته تكشف عن وجود تفاعل وثيق بين تطور الجهاز العصبي وتطور السلوك حتى ولو لم يكن تطور الجهاز العصبي نتاجا مباشرا لتطور السلوك . ويعتقد بياجيه ان المبادرة تأتي من السلوك على الرغم من ان الجهاز العصبي هو الذي يمد السلوك بادواته . وعلى الرغم من ان الجهاز العصبي قد

ظهر متأخرا في تطور الكائنات الحية ، فانه يتقدم بخطوات سريعة تفوق التطورات التي تحدث في الوظائف الاخرى . وبالاضافة الى هذا فان النشاط العصبي له وجهتان : في المقام الاول هو موجه للخارج يوسع من امكاناته الذاتية التي ترتبط بامكانات السلوك في بيئة لا تكف عن الاتساع . ثانيا ، النشاط العصبي موجه ايضا للداخل لكي يحقق تناسقا وتآزرا بين الاعضاء . هذا الشكلان من النشاط مرتبطان ببعضهما وبنفس التطورات التي تحدث فيهما ، بحيث ان كلا منهما ضروري للآخر ومن هذا يجد بياجيه من المشروع ان يستنتج انه بقدر ما يلعب السلوك دورا في تشكيل الجهاز العصبي فانه يساعد في خلق التنظيم الكلي للحيوان الذي هو في ذات الوقت تعبير له .

ان التطورات السلوكية تتميز بزيادة في عدد الحركات الممكنة للحيوان ، وزيادة حركته في البيئة . وهذه التطورات تقود الى مجموعة من التهذيبات العصبية والمورفولوجية . وليس هناك من تفسير لتلك التطورات ، من وجهة نظر بياجيه ـ سوى أحد تفسيرين . الأول أن الاعضاء تنشأ مستقلة عن السلوك ، وأن كلا منهما نتاج لطفرات الصدفة ، بحيث يوجد لدينا مجموعتان مستقلتان من أحداث الصدفة ، تتركان للانتخاب الطبيعي وحده مهمة التوفيق بينهما ، وفي نفس الوقت تحقيق التكيف مع البيئة الخارجية . والتفسير الثاني ، أنه يوجد تنسيق منذ البداية بين تغييرات الاعضاء وتغيرات السلوك . وفي هذه الحالة فان السلوك لابد أن يلعب الدور الرئيسي في هذه العملية لسببين : أولا لأنه الشرط المسبق للتفاعل الضروري بين الكائن الحي والبيئة ، وثانيا لأن السلوك وحده هو الذي يستطيع تحسين عمليات التكيف أو استبدالها . ويصرح بياجيه بأنه يأخذ بالتفسير الثاني . ومن هذه الزاوية فهو يعتبر السلوك القوة المحركة للتطور .

ان هذا الدور الجوهري للسلوك باعتباره المحرك الرئيسي للتطور ، يرجع الى جوانب ثلاثة يتميز بها السلوك . أولها أن السلوك غرضي ، وهذه الغرضية ضرورية لاشباع حاجات الكائن الحي عن طريق التأثير المباشر في البيئة . ومن ثم فان ما يحدث في السلوك من تطور لايمكن أن يقارن بالطفرات العشوائية ، التي تنشأ بشكل مستقل عن البيئة . وللسلوك أيضا طبيعة داخلية ذاتية ، فهو يرتبط بالدور الانتقالي للبيئة الداخلية ، اذ هو الوسيط الذي يربط بين البيئة الداخلية والبيئة الخارجية . والجانب الثالث يرجع الى أن السلوك يهدف دائما الى الارتقاء بذاته ، بمعنى تحسين قدرته على التعامل مع البيئة . ومعنى هذا أن التغيرات التي تحدث في السلوك ترتبط بتغيرات في البيئة الداخلية ، ثم تقوم البيئة الداخلية بعد ما يحدث فيها من تعديل بدور هام في عملية التطور ، وهو انتقاء تغيرات جينية ، تؤدي الى حدوث عملية اعادة بناء للبيئة الوراثية .

وهذا يعطي بياجيه دورا للسلوك باعتباره يمثل الميكانيزم الرئيسي لتطور الكائنات الحية ، بفضل توسطه بين الكائن والبيئة . ويعتقد بياجيه أنه بهذا استطاع أن يتجنب التأثير المباشر للسلوك ، الذي افترضه لامارك .

فهل نجح بياجيه في تقديم تفسير ، متميز عما سبقه ، للعلاقة بين السلوك والتطور ؟

الواقع أن ما قدمه بياجيه من استنتاجات باعتباره المحرك الاساسي لتطور الكائنات الحية ، تظل مجرد احتمالات وافتراضات ، يمكن المجادلة فيها وتقديم حجج مضادة لها . ومهما يكن ، فسوف تظل مشكلات العلاقة بين السلوك والتطور مشكلة نظرية تحتمل تفسيرات مختلفة ومتعارضة ، حتى تتوافر لدينا معلومات تجريبية جديدة من بحوث علم الوراثة وغيره من العلوم البيولوجية .